

الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبي من معركة المنصورة
حتى وفاته (٦٤٨-٦٦٩هـ/١٢٥٠-١٢٧٠ م)

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد

الطالب خالد حسين الدكفي

إشراف

الأستاذة الدكتورة وفاء تامرجوني

دمشق ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

" رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ
وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني
برحمتك في عبادك الصالحين " .

صدق الله العظيم

(سورة النمل : الآية ١٩)

الإهداء

إلى

والديَّ الكريمين.....
إخوتي وأخواتي الأعزاء
عمي أبو أحمد تغمده الله بواسع رحمته وعائلته الكريمة .
زوجتي وابنيَّ (علي وحسين).....
أصدقائي الأحباء.....
أبناء العروبة والإسلام أمل هذه الأمة.....

خالد

بطاقة شكر وتقدير

عميق الشكر والامتنان والتقدير والعرفان إلى الأستاذة الدكتورة وفاء جوني التي علمتني معنى الطموح , وكانت صلة الوصل بيني وبين النجاح , ولم تبخل عليّ بوقتها الثمين , وتوجيهاتها السديدة وآرائها الحكيمة , فخطت لي السبيل المستقيم في ميادين العلم والمعرفة .

خالد

الاختصارات (رموز الأطروحة)

ج = جزء

د . م = دون مكان طباعة

د . ت = دون تاريخ

ه = هجري

ط = طبعة

م = ميلادي

مج = مجلد

ص = صفحة

ق = قسم

تح = تحقيق

تر = ترجمة

" " = علامتي تنصيص

فهرس المحتويات

٣	- الإهداء
٤	- بطاقة شكر
٥	- الاختصارات
٦	- فهرس المحتويات
١٠	- المقدمة
١٨	- دراسة لأهم مصادر ومراجع البحث
٣٤	- تمهيد
	- الفصل الأول : هزيمة الصليبيين في المنصورة ودور لويس
٥٥	التاسع في تقوية الوجود الصليبي
٥٦	١- معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م
٦٣	٢- وقوع لويس التاسع والجيش الصليبي في الأسر
٧٠	٣- استلام لويس التاسع حكم مملكة عكا
٧٦	٤- الاهتمام في شؤون إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس
٨٢	٥- إصلاح العلاقات بين أنطاكية وأرمينية الصغرى
٨٧	٦- دور لويس التاسع في قبرص
٩٢	٧- استنجد الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بالملك لويس التاسع
٩٧	٨- علاقة لويس التاسع مع شيخ الجبل
١٠١	٩- مراسلة لويس التاسع للمغول

- الفصل الثاني : أعمال لويس التاسع الإدارية وإصلاحاته

الداخلية في مملكة عكا

١٠٦

١- لويس التاسع والمنظمات الدينية العسكرية (الاستتارية - الداوية -

١٠٧

التيوتون - اللعازر)

١١٨

٢- علاقة لويس التاسع مع ممثلي الجمهوريات الايطالية في مملكة عكا .

١٢٣

٣- التسليح الصليبي في عهد لويس التاسع

١٣١

٤- التحصينات والدفاعات

١٣٨

٥- مشاكل لويس التاسع البشرية

١٤٢

٦- مشاكل لويس التاسع المالية

١٤٨

٧- العملة الصليبية في عهد لويس التاسع

١٥٢

- الفصل الثالث : علاقة لويس التاسع مع المماليك

١٥٣

١- نهاية الحكم الأيوبي في مصر

١٥٩

٢- موقف الصليبيين والمماليك من اتفاقية سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م

١٦٤

٣- إطلاق سراح الدفعة الأولى من الأسرى الصليبيين

١٧٠

٤- معركة العباسة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥١م

١٧٥

٥- اتفاقية سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م بين لويس التاسع والمعز أيك

١٨٠

٦- المحاولة الصليبية - المملوكية لشن هجوم على الأيوبيين

١٨٥

٧- اجتماع أرسوف الصليبي سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م

١٩١

- الفصل الرابع : علاقة لويس التاسع مع الأيوبيين

١٩٢

١- موقف الأيوبيين من مقتل توران شاه

١٩٦

٢- مراسلة الناصر يوسف الثاني للويس التاسع

٢٠٠

٣- موقف أوروبا من إنقاذ لويس التاسع

٢٠٥

٤- الصلح الأيوبي - المملوكي وانقلاب الموازين

- ٢١٠ ٥- الهجوم الأيوبي على المعقل الصليبية
- ٢١٤ ٦- الهجوم الصليبي على بانياس
- ٢١٨ ٧- هزيمة الصليبيين في الصبية
- ٢٢٣ ٨- عودة لويس التاسع إلى فرنسا

– الفصل الخامس : أوضاع بلاد الشام ومصر إثر رحيل لويس التاسع

سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م ٢٢٨

- ٢٢٩ ١- حرب القديس سابا سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م
- ٢٣٥ ٢- النزاع الأيوبي – المملوكي
- ٢٤٢ ٣- أوضاع لويس التاسع في فرنسا

– الفصل السادس : حملة لويس التاسع على تونس

سنة ٦٦٨-٦٦٩هـ / ١٢٧٠م ٢٤٩

- ٢٥٠ ١- إعداد الحملة الصليبية
- ٢٥٥ ٢- أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الصليبية
- ٢٦١ ٣- مسار الحملة الصليبية وموقف المستنصر الحفصي منها
- ٢٦٦ ٤- سقوط قرطاجنة في قبضة الصليبيين
- ٢٧٢ ٥- تفشي الأمراض في صفوف المعسكر الصليبي
- ٢٧٦ ٦- وفاة لويس التاسع سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م
- ٢٨٠ ٧- معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين
- ٢٨٥ ٨- نهاية الحملة الصليبية الثامنة

٢٩٠ – الخاتمة

٢٩٦ – الملاحق

٢٩٧	١ - مراسلات وأشعار
٣٠٠	٢ - الخرائط .
٣١٠	٣ - الصور
	٤ - قائمة المصادر
٣١٨	- المصادر الخطية
٣١٩	- المصادر المطبوعة
	٥ - قائمة المراجع
٣٣٠	- المراجع العربية والمعربة
	- المراجع باللغة الأجنبية
٣٣٧	- المراجع الإنكليزية .
٣٣٩	- المراجع الفرنسية .
٣٤١	- قائمة المواقع الالكترونية
1 - 5	- ملخص الرسالة باللغة الفرنسية .

إن الحروب الصليبية التي شنها الغرب الأوربي على المشرق العربي الإسلامي , لم تكن سوى حروب استعمارية , تسربت برداء الدين زوراً وبهتاناً , فما إن هُزمت الإمبراطورية البيزنطية أمام السلاجقة في معركة مناذ كرد (ملاذ كرد) سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م حتى أطلقت صرخات الاستغاثة , فسارع البابا أوربان الثاني في إرسال الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م , وقد استطاعت تأسيس الكيان الصليبي على الساحل الشامي بحد السيف , فهب أبناء العروبة والإسلام لمواجهة التحديات , وأنزل بهم عماد الدين زنكي ضربة قاصمة عندما استعاد منهم إمارة الرها , فهز ذلك الحدث كيان أوربا , وهذا ماجعلها تسارع في إرسال الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٧م , ولكنها أخفقت أمام أسوار دمشق , وتطلبت المسألة مزيداً من الحزم , فبدأ نور الدين زنكي بتوحيد بلاد الشام ومصر تمهيداً لخوض المعركة الحاسمة , لكن لم يمهل القدر , وهنا حمل صلاح الدين راية الجهاد , وأنزل بالصليبيين هزيمة نكراء في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م , واستعاد بيت المقدس من أيديهم .

خشيت أوربا من سقوط الكيان الصليبي , فأرسلت الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م التي أخفقت أمام وحدة المسلمين , ثم قدمت الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م , ودمرت الإمبراطورية البيزنطية , وتلاها الحملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م , التي قصدت مصر مركز الثقل الإسلامي , لكن القوات المصرية - الشامية أغرقتها في نهر النيل , ثم قاد الإمبراطور الألماني فردريك الثاني الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م , وحقق نصراً مؤزرًا عندما استولى على بيت المقدس دون ضربة سيفٍ واحدة , وذلك بسبب تواطؤ السلطان الأيوبي الكامل محمد معه , ثم مالبت الصليبيون أن دخلوا دوامة الحروب الأهلية التي عُرِفَتْ بالحروب الإبلينية , مما أدى لتدمير قوتهم في الوقت الذي تعاون فيه السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب مع الخوارزمية , بينما تحالف ملك دمشق الصالح إسماعيل مع الصليبيين , والتقى الطرفان في معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م , ففرَّ الصالح إسماعيل وجيشه , بينما هُزم الجيش الصليبي هزيمةً نكراء , فتعالت الأصوات الصليبية مطالبةً بالنجدة الأوربية في الوقت الذي كانت فيه الصراعات على أشدها بين البابا أنوسنت الرابع والإمبراطور الألماني فردريك الثاني الطامع بأملاك البابوية

في إيطاليا , فكان الشغل الشاغل للبابا وضع حدٍ لتمادي فردريك الثاني , ولم تكن أوربة مستعدة لارسال حملة صليبية آنذاك باستثناء فرنسا التي سادها الهدوء والاستقرار في عهد ملكها لويس التاسع , فجردت فرنسا حملةً صليبيةً , وقذفت بإعصارٍ جديد تمثل بالحملة الصليبية السابعة التي تزعمها لويس التاسع , وقد أقلعت الحملة من فرنسا سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م , على متن أسطولٍ ضخمٍ تشق عباب البحر , ووصلت

إلى قبرص , فهرع الصليبيون للانضمام إليها , ثم أجمعوا على مهاجمة مصر مركز الثقل الإسلامي , ومفتاح بيت المقدس , وقد واتاهم الحظ في البداية , فاستولوا على دمياط , وغدت مقراً جديداً للكيان الصليبي , وفي تلك اللحظات الحرجة فارق السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الحياة , فاستغل الصليبيون حالة الهلع التي أصابت مصر , وظنوا أن حكومةً تقودها امرأة من السهل الاستيلاء عليها , فاندفعوا نحو القاهرة , فانبرى المسلمون لقتالهم , ووجهوا لهم ضربات موجعة في المنصورة وفارسكور , فاختمت الحملة صفحة عدوانها بنهاية مفجعة , وتحطم ذلك الجيش الضخم حيث ابتلعت مصر ونيلها , وتبعثر جنودها ما بين أسيرٍ وقتيلٍ وجريحٍ , وقد افتدوا أنفسهم بالأموال , وأطلق سراح لويس التاسع وكبار رجال حملته , ثم قصدوا مملكة عكا يجرون ذبول الهزيمة , وبذلك نقل لويس التاسع مسرح الأحداث من مصر إلى بلاد الشام , أو بالأحرى من دمياط ومشارفها إلى عكا وما يجاورها حيث استخدم لويس التاسع الدبلوماسية حيناً والمكر أحياناً , ولم يدخر جهداً لتفتيت وحدة المسلمين أملاً بإطالة عمر الكيان الصليبي رغماً عن المسلمين .

ونظراً لأهمية هذه الحقبة تم اختيار هذا البحث (لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبي من معركة المنصورة حتى وفاته سنة (٦٤٨ - ٦٦٩هـ/١٢٥٠-١٢٧٠م)) موضوعاً لأطروحة الدكتوراه حيث تميزت هذه الحقبة الزمنية من تاريخ بلاد الشام ومصر بتطوراتٍ سريعةٍ , وأحداثٍ مثيرةٍ , وعلى الرغم من أن تلك الحقبة كانت صغيرةً بمقياسها الزمني لكنها كانت كبيرةً بإنجازاتها , فقد تصدى المسلمون للحملة الصليبية , ودمروها , مما ولّد ردة فعل لدى لويس التاسع الذي لم يستسلم للهزائم التي حلت بحملته الصليبية بل قرر تحويل الهزيمة إلى نصر , من خلال وضعه إستراتيجية جديدة للنهوض بالكيان الصليبي , فأهى الخلافات الصليبية , وأقام العلاقات الدبلوماسية , وأنجز تحصينات قوية تميزت بقدرات دفاعية هائلة , وتجاوز كل المشاكل البشرية والمالية التي اعترضت سبيله , وأراد أن يجعل من الكيان الصليبي قلعةً صامدةً بوجه المسلمين , كما حاك المؤامرات للنيل من المسلمين , فحقق خلال مدة زمنية وجيزة ما لم يستطع أسلافه تحقيقه خلال عشرات السنين .

وقد جاءت معظم الدراسات حول هذه الحقبة الزمنية قاصرةً في أبحاثها , ومحدودةً في تحليلاتها , لأن معظم المؤرخين ركزوا على الانتصارات التي حققها المسلمون على الحملة الصليبية السابعة في مصر , بينما مروا مروراً عابراً على الأحداث التي أعقبتها في بلاد الشام علماً أن المؤامرات التي حاكها لويس التاسع في مملكة عكا إثر تحطيم حملته كانت أشد خطورةً على المسلمين من الهجوم العسكري الذي شنّه على مصر , أما حملته الثانية على تونس سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م , فيمكن تسميتها بالحملة المنسية لأن المؤرخين

لم يعطوها أية أهمية , واكتفوا بالإشارة إليها إشارةً غامضةً , وهذه المرحلة المهمة من تاريخ الحروب الصليبية بحاجة ماسة لتناولها بالبحث والاستقصاء , ومما يشجع على البحث فيها توفر الكثير من المصادر التي تغطي أحداث تلك الحقبة الزمنية .

تكمن أهمية البحث في ذكاء لويس التاسع الذي لم يستسلم بعد إبادة معظم رجال حملته , وأسر البقية منهم , فسعى جاهداً بدهائه لتحويل الهزيمة إلى نصر , حيث نهض بالمملكة اللاتينية التي أوشكت على الانهيار , واستطاع بحنكته لم شمل الصليبيين , وتوحيد كلمتهم كما بحث عن عملاء لمساندته , فحالف كل ما هو عدو للمسلمين , ولم يكتف بذلك بل أشاع التفرقة بين صفوف المسلمين , و ما أشبه اليوم بالأمس , فقد كان لويس التاسع بالأمس قد تأمر مع المغول والأرمن للسيطرة على مصر وبلاد الشام , أما اليوم فهناك مؤامرات و تحديات أوربية - أمريكية - صهيونية تستهدف الاستيلاء على الوطن العربي من محيطه إلى خليجه , فالمؤامرات لا ولم تنته , فهم لم يدعوا وسيلةً , ولم يتركوا سبيلاً من أجل تفتيت وحدة الأمة العربية وزعزعة قوتها , وما برحوا يجاهدون أية عملية وحدوية بعد أن أدركوا استحالة القضاء عليها عسكرياً , فاستغلوا الخلافات الناشئة وعملوا على تقويتها لإضعاف القوى العربية والاستيلاء عليها , وهنا يتوجب على أبناء العروبة والإسلام العودة إلى التاريخ لينهلوا من دروسه وعبره بل لا بد من اللقاء والتضامن , ونبذ الخلافات جانباً للحفاظ على حقوق الأمة العربية والإسلامية , ويأخذ الوطن العربي دوره الريادي الذي أخذه في الماضي , ويبقى عزيزاً شامخاً , وحرراً أيباً.

ومما يشجع على البحث في هذا الموضوع الرغبة في إمطة اللثام عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هزيمة الصليبيين في معركة المنصورة على الرغم من العدد الهائل لجنود الحملة الصليبية السابعة , والمثير للانتباه بقاء لويس التاسع في مملكة عكا , وعدم عودته إلى فرنسة إثر إطلاق سراحه على الرغم من تدمير حملته الصليبية في مصر , ولكن في الحقيقة كانت هناك دوافع كثيرة أدت لبقائه حيث أنشأ علاقات دبلوماسية مع دول الجوار , وقام بدورٍ متميزٍ جداً من أجل النهوض بالمملكة اللاتينية , فحقق لها إنجازات عظيمة , وقام بإصلاحات واسعة فجعل منها قوة لا يستهان بها , ولم يكتف بذلك بل قام بنشاط كبير في المنطقة , وأوجد شرخاً كبيراً بين المماليك والأيوبيين , وتدخلت الخلافة العباسية آنذاك وأنهت النزاع الأيوبي - المملوكي , وهنا تلاشت أحلام لويس التاسع , وعلى الرغم من ذلك لم ييأس , فبقي النشاط الصليبي يراود خياله , فحَوّل اتجاه الحروب الصليبية نحو تونس , ولأول مرة في تاريخ الحروب الصليبية.

هذا وتناول البحث دراسة أعمال لويس التاسع من معركة المنصورة حتى وفاته (٦٤٨-٦٦٩ هـ / ١٢٥٠-١٢٧٠ م) حيث تم تسليط الضوء على نشاط لويس التاسع في مملكة عكا وعلاقته مع الأيوبيين والمماليك , ثم حملته على تونس سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م , وقد تم الاعتماد على منهج الطريقة التحليلية من خلال الشرح والتعليل والتفسير والتوضيح , وكذلك الطريقة الوصفية حيث تم استخدام لغة فصحي سهلة , وواضحة على أن لا يكون ذلك على حساب الحقائق التاريخية .

أما عن الصعوبات التي اعترضت سبيل البحث , فبعون الله تعالى لم تكن هناك صعوبات تستحق الذكر , ومن المؤكد أن الرغبة الجامحة في البحث , واستقصاء أحداث تلك المرحلة الزمنية أدت لتخطي الصعاب بالاستعانة بالله عز وجل عليها , والصبر والعمل الدؤوب , لأن هذا هو الحل الوحيد لتخطي الصعاب.

هذا وخطة العمل بدأت بمقدمة تضمنت أسباب اختيار البحث وأهميته , وتحديد زمنيًا ومكانيًا , ثم تعريف بأهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث , ومدى الإفادة منها , تلا ذلك تمهيد تضمن الأوضاع العامة للمشرق العربي الإسلامي , وكذلك الأوضاع التي سادت أوروبا آنذاك , ثم أسباب قيام الحملة الصليبية السابعة وإبحارها نحو المشرق , وقد تم تقسيم البحث إلى ستة فصول وهي على الشكل التالي :

- الفصل الأول : هزيمة الصليبيين في المنصورة ودور لويس التاسع في تقوية الوجود الصليبي .

تضمن هذا الفصل وصف أحداث معركة المنصورة والهزائم التي حلت بالصليبيين ووقوعهم

بالأسر , والمفاوضات التي جرت بينهم وبين المسلمين , وبالتالي إطلاق سراح لويس التاسع وكبار رجال حملته , ومن ثم غدره بالمسلمين , وذهابه إلى مملكة عكا بدلاً من عودته إلى فرنسا لعله يثار من المسلمين , ثم تم الانتقال للإشارة لعلاقة لويس التاسع مع مسيحيي الشرق مثل بُوهيند السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس حيث كان مرتبطاً بشكل اسمي بمملكة عكا , فاستطاع لويس التاسع إنهاء النزاع القديم بين أنطاكية وأرمينية الصغرى , كما حاول إنهاء النزاع المذهبي في قبرص بين الكاثوليك والأرثوذكس فضلاً عن محاولته التوفيق بين اللاتين والبيزنطيين في الإمبراطورية اللاتينية , ثم تناول البحث علاقة لويس التاسع مع

شيخ الجبل , ومراسلات لويس التاسع مع المغول , ومساعدته لإيجاد تحالف صليبي . مغولي من أجل الإطباق على المسلمين من جهتي الشرق والغرب , والقضاء عليهم .

- أما الفصل الثاني فحمل العنوان : أعمال لويس التاسع الإدارية وإصلاحاته الداخلية في مملكة عكا .

تناول هذا الفصل علاقة لويس التاسع مع المنظمات العسكرية الصليبية (الاسبتارية - الداوية - التوتون - اللعازر) , التي امتازت بالطاعة العمياء للويس التاسع عندما رأت رغبته الصادقة في الإصلاح , وامتاز لويس التاسع بذكاءٍ خارق لعدم اصطدامه مع الجمهوريات الإيطالية في مملكة عكا على الرغم من أطماعها الكبيرة في جمع الأموال , لعلمه أنه من الصعب الاستغناء عن خدماتها , ثم تم استعراض الإصلاحات التي قام بها لويس التاسع في مجالي التسليح والتحصين حيث أنتج نماذج من الاستحكامات العسكرية تمتعت بقدرات دفاعية هائلة , وأعقب ذلك دراسة عن مشاكل لويس التاسع البشرية , وكيفية تأمين الجنود , وكذلك تأمين الأموال لأن الإصلاحات التي قام بها تطلبت مبالغ مالية كبيرة حصل عليها من خلال تطوير الاقتصاد الصليبي من زراعة وصناعة وتجارة فضلاً عن حصوله على مساعدات خارجية أدت إلى تجاوز مشاكله المالية , وبذلك حقق لويس التاسع خلال أربع سنوات إصلاحات كبيرة للصليبيين لم يحققها غيره من الملوك الصليبيين الذين سبقوه خلال عشرات السنين .

- وأما الفصل الثالث فحمل عنوان : علاقة لويس التاسع مع المماليك .

أفرد هذا الفصل لدراسة علاقة لويس التاسع مع المماليك , وهنا لابد من الإشارة إلى نهاية الحكم الأيوبي في مصر , والتركيز على الأسباب التي كانت وراء مقتل توران شاه , ونشوء السلطنة المملوكية , فكانت شجر الدر أول سلطنة مملوكية بل وأول امرأة استلمت حكم مصر في العصر الإسلامي , ثم تمت مناقشة بنود الاتفاقية التي عُقدت بين لويس التاسع والمماليك سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م , ومدى التزام الطرفين ببنود الاتفاقية , وجرى الانتقال للحديث عن السفارات المتبادلة بين لويس التاسع والمماليك , وتهديد لويس التاسع للمماليك بمحالفة الأيوبيين إن لم يستجيبوا لمطالبه , كما أن لويس التاسع قام بدور حَفِي أدى لتأجيج نار العداء بين الأيوبيين والمماليك , مما أدى لجر الأيوبيين والمماليك لمعركة العباسة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥١م , فكانت معركة مصيرية أدت لثبيت أقدام السلطنة المملوكية , وتلا ذلك توقيع اتفاق سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م بين المعز أيبك و لويس التاسع حيث تقرر من خلال هذا الاتفاق إعداد هجوم

مشارك بين الحليفين المعز أليك و لويس التاسع ضد الأيوبيين في بلاد الشام واقتسام بلاد الشام بينهما , ولكن انشغال أليك بأوضاع مصر الداخلية , وتدخل الخلافة العباسية جعله غير قادر على الوفاء بوعده للويس التاسع , مما أغضب لويس التاسع الذي أراد مهاجمة المواقع المملوكية في بلاد الشام , ولكن المنظمات العسكرية الصليبية حذرته من مغبة الأمر والوقوع بين ناري الأيوبيين والمماليك .

- الفصل الرابع : علاقة لويس التاسع مع الأيوبيين .

حُصص هذا الفصل للعلاقة الأيوبية مع لويس التاسع من خلال البحث في موقف الأيوبيين من مقتل سلطانهم توران شاه , وإعلانهم العداء الصريح للمماليك , وبالتالي التقاء مصالح الناصر يوسف الثاني مع لويس التاسع , ومحاولته إيهام الناصر يوسف الثاني بمحالفته ضد المماليك , واستغلال لويس التاسع النزاع بين المسلمين , من أجل زيادة حدة التوتر بين الأيوبيين والمماليك لتحقيق مآربه , ثم جرى الانتقال لدراسة موقف أوروبا من إنقاذ لويس التاسع مع التركيز على موقف فرنسا حيث انتظر لويس التاسع عبثاً قدوم حملة صليبية جديدة لإنقاذه , فاعتمد على إمكانات الكيان الصليبي , فضلاً عن محاولته إذكاء نار العداء بين المسلمين , فما كان من الخلافة العباسية إلا أن سعت لإنهاء النزاع بين الأيوبيين والمماليك , وبالتالي انعكاس ذلك الصلح سلباً على لويس التاسع حيث أعقبه هجمات أيوبية على المعقل الصليبية , وهذا ما أدى لإعلان لويس التاسع الحرب على الأيوبيين , وإرساله قوة عسكرية هاجمت بانياس وقلعة الصبيبة , ثم تم استنتاج الأسباب التي أدت إلى هزيمة الصليبيين في الصبيبة , ثم جرى تناول عودة لويس التاسع وتركه مملكة عكا إثر وفاة والدته بلانشيه , وبقاء فرنسا دون قيادة واعية قادرة على إدارتها , وتلا ذلك استخلاص نتائج حملة لويس التاسع التي استمرت ما يقارب ست سنوات , وأخيراً رحل لويس التاسع إلى فرنسا وحزن الصليبيون على فراقه بينما ساد فرنسا البهجة والسرور بعودة ملكها لويس التاسع .

- الفصل الخامس : أوضاع بلاد الشام ومصر إثر رحيل لويس التاسع سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م .

أما هذا الفصل فقد حُصص للأوضاع التي سادت بلاد الشام ومصر بما في ذلك أوضاع المسلمين والصليبيين ودخول الصليبيين دوامة حرب القديس سابا إثر مغادرة لويس التاسع إلى فرنسا , وعدم ظهور شخصية قوية كشخصية لويس التاسع تستطيع سد ذلك الفراغ الذي تركه رحيل لويس التاسع , وانقسامهم إلى حلفين , واندلاع الحرب الأهلية في المملكة اللاتينية , حيث قادتهم أطماعهم إلى حروبٍ طاحنة أدت

لتخريب معظم ما بناه لويس التاسع , ثم تم تناول التنافس بين الأيوبيين والمماليك بعد زوال الخطر الذي كان قد شكله لويس التاسع , واستعداد المماليك والأيوبيين للمواجهة , وهنا الخلافة العباسية كعادتها فقد أنهت النزاع بينهما , ثم تلا ذلك الانتقال لمعرفة أوضاع لويس التاسع في فرنسا واهتمامه بإصلاح أوضاع فرنسا الداخلية , وتحسين علاقة فرنسا مع دول الجوار , وامتداد النفوذ الفرنسي إلى الصقليتين بعد استلام شارل كونت أنجو لعرش الصقليتين , ثم تطلع لويس التاسع إلى شمال افريقية .

- الفصل السادس: حملة لويس التاسع على تونس سنة ٦٦٨-٦٦٩هـ/١٢٧٠ م .

تطرق هذا الفصل للحملة الصليبية على تونس بدءاً من إعداد الحملة الصليبية الثامنة التي أرادت إنقاذ الكيان الصليبي من هجمات المسلمين , ومحاوله لويس التاسع استنهاض الهمم , فكانت غالبية أفراد الحملة من الفرنسيين باستثناء ثلة قليلة من الانكليز لحقت بالحملة , ثم جرى تناول أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الصليبية , وتلاه استعراض مسير الحملة الصليبية , وموقف المسلمين من قدومها بشكل عام وتونس بشكل خاص , وتم التركيز على سقوط قرطاجة والأسباب التي أدت إلى سيطرة الصليبيين عليها , ومداومة الوباء للمعسكر الصليبي , وإصابة لويس التاسع بالمرض , وبالتالي وفاة ابنه يُوحنا الحزين والكثير من كبار رجال حملته بالوباء , ومفارقة لويس التاسع الحياة , ثم تم الانتقال للحديث عن النجيدات الجديدة التي تزعمها شارل أنجو و ادوَار بن هنري الثالث , وميل المسلمين والصليبيين للصلح , وتمت مناقشة الأسباب التي أدت للصلح , وتلا ذلك رحيل الحملة الصليبية عن تونس , وعودتها إلى أوربة , ورفض ادوَار العودة إلى بلاده , وسيّره على رأس قوةٍ صغيرةٍ إلى مملكة عكا , وعدم تحقيقه نتائج تستحق الذكر , وتم اختتام الفصل بتعداد نتائج الحملة الصليبية الثامنة .

هذا وقد تم إنهاء البحث بخاتمة تضمنت أهم نتائج البحث , وفلسفة الرسالة والدلائل والأبعاد التي رمت إليها , ثم ألحق بالرسالة خرائط وصور متصلة اتصالاً مباشراً بصلب الموضوع من أجل زيادة توضيحه , ثم تلاها قائمة المصادر والمراجع , أعقبها ملخص للرسالة باللغة الفرنسية على أمل أن يقدم هذا العمل المتواضع الفائدة العلمية للدارسين في تاريخ العرب والإسلام .

وختاماً أقدم شكري وامتناني إلى كل من مدّ لي يد العون والمساعدة لإنجاز هذا العمل , وأخص بالذكر من زودتني بنصائحها القيمة وتوجيهاتها الحكيمة تلك الرمز الشامخ , والعلم الساطع أستاذتي

الفاضلة الدكتورة وفاء جوي متمنياً من الله عز وجل أن يبقها ذخراً لهذه الأمة , وكل الحب والتقدير إلى شيخ المؤرخين الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي كان سخيّاً في رفاي بأهم مصادر البحث , كما يطيب لي أيضاً أن أقدم بالشكر الجزيل إلى جميع أساتذة قسم التاريخ لجهودهم في تعريف العالم بتاريخ أمتنا العريق لأن من لا ماض له لا حاضر له ولا وجود .

وها هي ذي رسالتي بين أيديكم أعضاء اللجنة الموقرين..... لإبداء ملاحظاتكم المهمة , شاكراً جهودكم مع فائق احترامي وتقديري .
والله ولي التوفيق .

مدخل

تعريف بأهم مصادر البحث :

تم الاعتماد في البحث على مجموعة من المصادر , بينما تم الاستئناس بعدد قليل من المراجع المهمة , واختلفت المصادر في أهميتها , فمنها ما كان غنياً بمادته العلمية , وبعضها الآخر جاء معلوماته مُوجزة , وقد كُتبت تلك المصادر بلغات عديدة أشهرها اللغة العربية , ثم اللاتينية والفرنسية القديمة والأرمينية والسريانية , وهذا الاختلاف في لغة المصادر أدى لتكامل معلوماتها , حيث أولت المصادر العربية اهتماماً كبيراً فيما يخص العرب والمسلمين بينما اعتنت المصادر الغربية بأوضاع الصليبيين , وقد تم تقسيم المصادر

إلى مصادر عربية , ومصادر أجنبية , حيث رُتبت ترتيباً أبجدياً , وجرى البدء بعرض المصادر العربية , وهي على الشكل الآتي :

- المصادر العربية :

١- ابن واصل , محمد بن سالم جمال الدين ٦٠٤-٦٩٧هـ / ١٢٠٧-١٢٩٨م :

وُلد في حماة , برع في العلوم الشرعية , سطع نجمه في العلوم العقلية , فعمل مفتياً , ومدرساً وطبيباً , استلم القضاء (١) , وتأتي أهمية هذا المؤرخ كونه استلم مناصب أهله للاطلاع على أوضاع السلطنة الأيوبية , والأهم من ذلك فهو شاهد عيان على الأحداث التي كتب عنها في الغالب , وإن لم يكن كذلك فقد أخذها عن كبار المؤرخين كابن الأثير وابن شداد وغيرهم , ومن آثاره كتاب " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " , وقد تحدث فيه عن الأيوبيين وبداية نشوء السلطنة المملوكية بالتفصيل الدقيق , فأورد معلومات دقيقة عن الأحداث التي مرت بها الحملة الصليبية السابعة , ونوه إلى الضائقة المالية التي حلت بلويس التاسع , وبين مدى تطبيق الصليبيين والمسلمين لاتفاقية سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م , كما أشار إلى مقتل المعز أيك .

(١) الصفدي , خليل : أعيان العصر و أعوان النصر , تح : عدد من المؤرخين , دار الفكر , ط ١ , دمشق , ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م , ج ١ , ص ٢٨١-٢٨٢ .

٢- اليونيني , قطب الدين موسى ٦٤٠-٧٢٦هـ / ١٢٤٢-١٣٢٦م :

ولد بدمشق , واهتم بالحديث الشريف والتاريخ , نهل العلوم من كبار رجال العلم في عصره (١) , وقد ترك مؤلفاً هاماً في التاريخ سماه " ذيل مرآة الزمان " , أفاد الفصل السادس من البحث , وانفرد عن المصادر بذكر تزوير جنوه نقود على غرار النقود التونسية , فعاقبهم المستنصر الحفصي على ذلك , كما أشار للهجوم الذي شنّه لويس التاسع على قرطاجة , وانفرد بذكر المذبحة التي قام بها لويس التاسع وجنوده في قرطاجة , ورَكَز عل موقف المستنصر من الصليبيين , وأكد على أن الصليبيين قد راسلوا المستنصر لإنهاء حالة الحرب وعقد صلح بين الطرفين .

٣ - ابن كثير , عماد الدين إسماعيل سنة ٧٠١-٧٧٤هـ / ١٣٠١-١٣٧٢ م:

ولد ابن كثير في أعمال بصرى , تنقل بين بلاد الشام والعراق بحثاً عن كبار رجال العلم , فتتلمذ على يد كبار علماء عصره , برع في التفسير والفقه والتاريخ (٢) , بعد أن ترك الكثير من المؤلفات , منها كتاب " البداية والنهاية " الذي أخذ فيه عن أبي شامة وغيره من المؤرخين , وأمد هذا الكتاب البحث بمعلومات قيمة في الفصول الخمسة الأولى , بينما كانت الفائدة أقل في الفصل السادس فقد فصل في مقتل فخر الدين بن حمويه والسلطان المملوكي توران شاه , وبيّن دور المغول في زعزعة أمن واستقرار المشرق العربي الإسلامي , كما أشار إلى دور الخلافة العباسية في إنهاء الصراعات الأيوبية - المملوكية , بينما ذكر شذرات عن أحداث الحملة الصليبية على تونس .

٤ - المنصوري , بيارس الدوادار :

هو من ممالك السلطان المملوكي المنصور قلاوون , وقد عينه والياً على الكرك , ثم سلمه

(١) كحالة , عمر : معجم مصنفى الكتب العربية في التاريخ والتراجم الجغرافية والرحلات , دار الرسالة , بيروت , ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م , ص ٦٣٩ .

(٢) المقرئزي , أحمد : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة , تح: عدنان درويش و محمد المصري , دمشق , ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م , ج ٢ , ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

الأشرف خليل دواداراً , وقد نظر في الأحباس (الأوقاف) , سُجن لأسباب غامضة , فتشفع فيه بعض الوجهاء , أطلق سراحه , أُجيز له الإفتاء والتدريس , واهتم بكتابة التاريخ حيث ساعده رجل نصراني في كتابته عرف بابن كير , وتوفي المنصوري سنة ٧٢٥هـ / ١٣٤٥م (١) , بعد أن ترك مؤلفات تاريخية مهمة وهي : " مختار الأخبار " , وتكلم فيه عن الدولتين الأيوبية والمملوكية .

أما كتاب " التحفة المملوكية في الدولة التركية " , فاقصر فيه على أخبار السلطنة المملوكية , وكذلك فإن كتاب " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " تضمن تاريخ الممالك , وقد أمدت هذه الكتب البحث بمعلومات أفادت البحث بشكل كامل , وبخاصة فيما يتعلق بنشوء السلطنة المملوكية وصراعها مع الأيوبيين , كما صورت الأوضاع الداخلية في ظل السلطنة المملوكية , و تطرقت تلك الكتب إلى الحملة الصليبية الثامنة وبينت نهاية تلك الحملة .

٥ - المقريزي , أحمد بن علي بن عبد القادر بن عبد الصمد ٧٦٦-٨٤٥هـ / ١٣٦٤ -

١٤٤١م:

ولد المقريزي في القاهرة , ثم انتقل إلى بعلبك , عُرف بالمقريزي نسبة إلى حارة المقارزة, وهي إحدى حارات بعلبك , زار بلدان عديدة , فاكسب ثقافة واسعة , ألمَّ بعلوم جمّة في القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ , فصنف كتباً كثيرة (٢), ومن أهم كتبه في التاريخ " السلوك لمعرفة دول الملوك" , وقد أمد هذا الكتاب البحث بمعلومات قيمة عن أوضاع بلاد الشام ومصر في ظل الأيوبيين علماً أن المقريزي لم يعاصر السلطنة الأيوبية لكنه كتب عنها أكثر من المؤرخين الذين عاصروها , وأفاد البحث في فصوله كافة حيث أوضح الصراع الأيوبي- المملوكي , كما رصد

—

(١) العسقلاني , أحمد : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة , تح : محمد جاد الحق , دار الكتب , ط٢ , عابدين , ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م , ج٢ , ص٤٣ ؛ الصفدي , خليل : أعيان العصر وأعوان النصر , تح: عدد من المؤرخين , دار الفكر , ط١, دمشق, ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م , ج٢ , ص٧٩-٨٠ .

(٢) السخاوي , محمد : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع , دار الحياة , بيروت , د.ت , ج١٠ , ص ٢١-٢٥ ؛ العسقلاني , أحمد : إنباء الغمر بأنباء العمر , دار الكتب , ط٢ , بيروت, ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م , ج٨ , ص ١٧٠-١٧٢ .
الأوضاع الداخلية وحركات التمرد في مصر ضد السلطنة المملوكية , وذكر مدى تقاعس المستنصر الحفصي في مواجهة الحملة الصليبية الثامنة .

أما كتاب " المواعظ والاعتبار " فقد تضمن معلومات جغرافية وتاريخية أدت لإفادة بعض جوانب البحث .

بينما أمد البحث كتاب " درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة " في تسليط الضوء على حياة الكثير من الأعلام .

هذا وقد أفاد البحث من كتابه " شذور العقود في ذكر النقود " فيما يخص السكة المتداولة في بلاد الشام ومصر .

٦ - النويري , شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري ٦٧٧-٧٣٣هـ / ١٢٧٨ -

١٣٣٢م :

وُلد في القاهرة, واتصف بأخلاقٍ عاليةٍ وسمعةٍ حسنة وقد عمل وراقاً, فكان ينسخ صحيح البخاري ويبيعه , حيث كان يكتب في اليوم الواحد ثلاثة كراريس , عينه السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ناظراً للجيش في طرابلس , ثم استلم ناظراً للديوان في منطقة الدقهلية في مصر , (١) بعد أن ترك موسوعة علمية أدبية سماها " نهاية الأرب في فنون الأدب " تكلم فيها عن الجوانب الأدبية والعلمية والفلكية والحضارية بشكل عام , وأمدني الجزآن التاسع والعشرون والثلاثون من تلك الموسوعة بمعلومات ثمينة تعلقت بالحملة الصليبية الثامنة , وتصدي المسلمين لها , كما أشار النويري إلى حالة التفرقة بين المسلمين إثر استقرار لويس التاسع في مملكة عكا , وبَيَّن موقف الخلافة العباسية من أطماع الناصر يوسف الثاني في مصر.

(١) السيوطي , جلال الدين : بغية الوعاة , تح : علي عمر , دار الخانجي , ط١ , القاهرة , ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م , ج ١ , ص ٩٩ .

٧- سبط ابن الجوزي , شمس الدين يوسف بن قزاوغلي ٥٨٣ - ٦٥٤ هـ / ١١٨٧ - ١٢٥٦م :

ولد في بغداد , ثم انتقل إلى دمشق بعد أن أصبح عمره واحداً وعشرين سنة , وكان على علاقة حسنة مع أولاد الملك العادل الأيوبي , اتصف بالتقى والورع والسمعة الحسنة (١) , أعد مصنفاتاً كبيراً في التاريخ سماها " مرآة الزمان " , أفاد البحث في الفصول الأربعة الأولى , حيث رصد أحداث الزحف الصليبي من دمياط جنوباً إثر سماع الصليبيين بوفاة الصالح نجم الدين أيوب , ثم نوه إلى سبب مقتل توران شاه , ودور شجر الدر في التخلص منه , وهذا ما أدى لاحتدام الصراع الأيوبي - المملوكي , فكانت معركة العباسة حدثاً تاريخياً مهماً أجبرت الأيوبيين على الاعتراف بشرعية السلطنة المملوكية .

٨ - العيني , بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن حسين ٧٦٢ - ٨٥٥ هـ / ١٣٦٠ -

١٤٥١م :

ولد في حلب, وانتقل مع أسرته إلى عين تاب حيث تولى والده القضاء فيها , انكب العيني على دراسة القرآن الكريم , كما درس النحو والتاريخ , ولازم كبار علماء عصره , وناب عن والده في استلام القضاء في عين تاب , وفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م عاد إلى حلب , وشرح صحيح البخاري , دَرَسَ الفقه , نظر في الأحباس , ولازم السلاطين والملوك وقصَّ عليهم القصص التاريخية (٢) , وقد ألَّف في التاريخ كتاباً سماه " عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " حيث بدأ فيه بذكر حكام المسلمين في كل سنة , ثم ذكر الروايات التاريخية لابن كثير وبيبرس المنصوري وسبط ابن الجوزي وغيرهم , وأعقب تلك الروايات الإشارة إلى وفيات الأعيان في كل سنة , وقد أفاد البحث في الفصول الخمسة الأولى ولاسيما فيما يتعلق بمفاوضة لويس التاسع لتوران شاه حول تسليمه

-
- (١) الصفدي , خليل : الوافي بالوفيات , تح : ماهر جرار , دار الكتاب العربي , ط١, بيروت , ١٤١٨هـ/١٩٩٧م , ج ٢٩ , ص ٢٧٦-٢٧٧؛ ابن خلكان , أحمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان , تح : إحسان عباس , دار صادر , بيروت , د.ت , مج ٣, ص ١٤٢ .
- (٢) السخاوي : ج ١٠, ص ١٣١-١٣٤ .

بيت المقدس , وأشار إلى أثر الصراع الأيوبي - المملوكي على الصليبيين .

٩- ابن العميد , جرجس أبو المكارم ٦٠٢هـ/١٢٠٥م :

وُلد ابن العميد في تكريت العراقية , وهو سليل أسرة سريانية , أصبح موظفاً في ديوان الجيش بمصر ثم في دمشق , ألصقت به بعض الاتهامات التي أدت إلى سجنه لمدة خمسة عشر عاماً , وإثر إطلاق سراحه استقر في دمشق , انشغل في كتابة التاريخ , فكان من أهم المؤرخين (١) , وقد أنجز كتاباً في التاريخ سماه " تاريخ الأيوبيين " , اتبع فيه طريقة الحوليات , أمد البحث بمعلومات قيمة عن الأيوبيين , وهذا ما أفاد البحث في الفصول الأربعة الأولى حيث ركز على استلام توران شاه للسيادة إثر وفاة والده الصالح نجم الدين أيوب, ودوره في التصدي للحملة الصليبية , كما فصّل في مقتله , وانتهاء الحكم الأيوبي في مصر , ونوه إلى مقتل الملوك الأيوبيين الذين وقعوا في قبضة المعز أيك إثر انتصاره في معركة العباسة , وهذا ما أُرهب الناصر يوسف الثاني وغيره من ملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام .

١٠ - أبو الفداء , إسماعيل بن علي الملك المؤيد عماد الدين الأيوبي ٦٨٢ -
١٢٨٣/٥٧٣٢ - ١٣٣١ م:

وُلد في دمشق, تقرب من السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون , فعينه ملكاً على حماة , لقبه بالملك الصالح ثم لقبه بالملك المؤيد , اهتم أبو الفداء بأهل العلم والفضيلة (٢) , ومن آثاره التاريخية كتاب " المختصر في أخبار البشر " , وقد اعتمد فيه على الاختصار الشديد للأحداث التاريخية , كما التزم الحياد والموضوعية , وقد أفاد البحث من الجزء الثاني من هذا الكتاب حيث غطى معظم فصول البحث , وأورد معلومات مهمة حول معركة المنصورة , كما رصد الأوضاع

-
- (١) الصفدي , خليل : الوافي بالوفيات , تح : دوريتا كرافولسكي , دار الأندلس , بيروت , ج ١٧ , ص ٦٦٦-٦٦٧ .
(٢) الصفدي , خليل : الوافي بالوفيات , دار فرانز شتاينر , ط ٢ , فيسبا دن , ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م , ج ٩ , ص ١٧٣-١٧٦ .
الداخلية للمماليك , وانفرد بذكر قتلة أقطاي , وأكد على دور الخلافة العباسية في إنهاء حالة التوتر بين الأيوبيين والمماليك , وعقدها للصلح بين الطرفين المتخاصمين , وأبرز الخطر الذي شكله المغول على المسلمين .

أما كتابه " تقويم البلدان " فقد أغنى دراستي بما قدمه من معلومات جغرافية حول الكثير من المواقع الجغرافية , فحدد موقعها الجغرافي , ثم تكلم عن جغرافيتها الاقتصادية والبشرية .

١١ - ابن فضل الله العمري , أحمد بن يحيى ٧٠٠-٧٤٩ هـ / ١٣٠٠-١٣٤٨ م:

وُلد في دمشق, امتاز بذكائه وفطنته , تنقل بين دمشق والقاهرة والإسكندرية والحجاز بحثاً عن العلم والمعرفة , عمل في دار الإنشاء , ثم تولى القضاء , وقد ترك مصر ورحل إلى بيت المقدس , أصيب هناك بالصرع إثر وفاة زوجته ومات (١) , ومن أهم ما تركه الموسوعة التاريخية التي سماها "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " وقد أمد الجزء السابع والعشرون من هذه الموسوعة البحث بمعلومات تفصيلية حول الهزيمة التي حلت بحملة لويس التاسع على مصر , كما تطرق للصرع الأيوبي - المملوكي ,

وفصّل في استيلاء الناصر يوسف الثاني على دمشق , وبَيّن دور المماليك البحرية في تحريض الناصر يوسف الثاني على غزو مصر , فكانوا سبباً في الفتنة وإثارة الاضطرابات .

١٢- أبو شامة , عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان ٥٩٩ - ٦٦٥ هـ / ١٢٠٢ - ١٢٦٦ م:

ولد أبو شامة في دمشق , تعلم القرآن الكريم على يد السخاوي , وأصبح فقيهاً , وعمل مفتياً , برع في اللغة العربية وقواعدها , وكذلك في التاريخ , عمل مدرّساً للحديث الشريف (٢) , أنجز كتباً كثيرة في التاريخ , منها كتاب سماه " الذيل على الروضتين " , وكان أحد أجزاء الموسوعة

(١) الصفدي , خليل : الوافي بالوفيات , تح : أحمد سيد , دار فرانز شتاينر , ط ١ , فيسبا دن , ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م , ج ١٨ , ص ١١٣ - ١١٦ ؛ ابن شاکر , محمد : فوات الوفيات , تح : إحسان عباس , دار صادر , بيروت , ج ٢ , ص ٢٦٩ - ٢٧١ .
(٢) المقرئزي: درر العقود , ج ٢ , ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ الصفدي : أعيان العصر , ج ١ , ص ٤١٧ - ٤٢٠ .

الشامية لسهيل زكار , وقد أرخ أبو شامة وفقاً لطريقة الحوليات , وركّز بشكل كبير على الوفيات , وقد تضمن هذا الكتاب معلومات قيمة غطت الفصول الخمسة الأولى من البحث , حيث أوضح الأوضاع السيئة للحملة الصليبية السابعة إثر انطلاقها نحو القاهرة , وكذلك حالة التدهور التي وصل إليها الصليبيون , وأبرز دور المماليك العزيمية في هزيمة الأيوبيين أثناء معركة العباسة , حيث خذلت سيدها الناصر يوسف الثاني في أحلك الظروف .

١٣- ابن تغري بردي , جمال الدين يوسف أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي ٨١٣ - ٨٧٤ هـ / ١٤١١ - ١٤٧٠ م :

وُلد في دمشق , وتوفي والده وهو صغير , فعاش في حجر أخته , وتتلّمذ على يد كبار علماء عصره كالمقرئزي والعيني , درس الفقه والعروض والصرف والأدبيات , أما أوقات فراغه فقد أمضاها في لعب الكرة والرمح , اتصف بأخلاقٍ عاليةٍ , فكان حسن السيرة (١) , ومن أهم مؤلفاته " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " , وهذا لا يعني أنه اقتصر في كتابته على ملوك مصر إنما تطرق لتاريخ مصر وبلاد الشام بما في ذلك الصليبيين والمغول , ونظم كتابه على طريقة الحوليات , وأدرج ضمنه الوفيات

حيث أعطى نبذة عن حياة المتوفى , وقد أفدت من الجزأين السادس والسابع لهذا المصنف فيما يتعلق بأحداث معركة المنصورة , ودور توران شاه في التصدي للحملة الصليبية السابعة , والخلاف المملوكي حول إطلاق سراح لويس التاسع أو قتله , كما أشار إلى دور المماليك العزيرية في تعزيز الخلاف بين الناصر يوسف الثاني والمعز أيك .

و أفاد البحث من كتاب آخر لابن تغري بردي بعنوان " المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي " , وقد رتب هذا المصنف حسب تسلسل السلاطين , وأشار في هذا الكتاب إلى الحزم الذي اتصفت به شجر الدر إثر وفاة زوجها , وحنكتها في إدارة شؤون الدولة , كما تطرق إلى أحداث

(١) السخاوي : الضوء اللامع , ج ١٠ , ص ٣٠٥ - ٣٠٨ .

معركة العباسية , والصلح المملوكي الأيوبي الذي أعقب تلك المعركة , بينما أمدنا كتابه "مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة " بمعلومات مهمة تعلقت بتوران شاه و شجر الدر .

١٤- ابن خلدون , عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي المالكي ٧٣٣ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٥ م :

وُلد ابن خلدون في تونس , وتعلم قواعد اللغة العربية عن أبيه , كما تعلم القرآن الكريم والفقه على يد شيوخ عصره آنذاك , فبرع في العلوم والآداب , وتولى كتابة السر لدى ملك المغرب فارس بن يعقوب المريني , انتقل إلى الأندلس , ثم عاد إلى المغرب العربي واستلم ولاية بجاية , وإثر عزله عنها سار شرقاً نحو المماليك , فعينه قاضياً للمالكية في مصر (١), وقد ترك كتاباً شهيراً سماه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " , وبدأ مؤلفه في الحديث عن فلسفة التاريخ , ثم تحدث عن التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عصره , وقد شمل ذلك تاريخ المشرق والمغرب , فقدم معلومات مهمة غطت معظم فصول الرسالة , فأمد البحث الجزء الخامس من كتابه

بمعلومات تفصيلية عن استعدادات الصالح نجم الدين أيوب لمواجهة الحملة الصليبية السابعة , وعلاقة توران شاه مع المماليك , وأشار إلى العلاقة المملوكية مع الأيوبيين , أما الجزء السادس من كتابه , فقد أورد معلومات تفصيلية ودقيقة فيما يخص الحملة الصليبية الثامنة على تونس , فأبرز دور المسلمين في التصدي للحملة الصليبية والمؤازرة التي قدمها المشرق والمغرب الإسلامي لدعم تونس , وقد انفرد ابن خلدون عن المصادر العربية بإيراد تلك المعلومات التي أوضحت أحداث الحملة الصليبية الثامنة بدقة بالغة .

(١) حاجي خليفة , مصطفى : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون , الدار الفيصلية , مكة المكرمة , د.ت , ج ١ , ص ٢٧٨ ؛ العسقلاني , أحمد : ذيل الدرر الكامنة , تح : عدنان درويش , القاهرة , ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م , ص ١٧٢ - ١٧٣ .

- المصادر الأجنبية :

١- الأرمني , سمباط :

أمير أرمني تاريخ ولادته مجهول , كما أن تاريخ وفاته غير معروف , ومن المحتمل أنه توفي سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م , ويُرجح أن سمباط أخو الملك الأرمني هَيْثُوم الأول بل وقائد جيشه , فضلاً عن كونه سفيراً ورجل سياسة , وقد ترك سمباط كتاباً عُرف بـ " التاريخ المغزو إلى القائد سمباط الأرمني " , وهو أحد أجزاء الموسوعة الشامية , واعتمد سمباط في كتابه على متى الرهاوي , وعلى غريغوري الراهب , وعلى وثائق أنطاكية وأرمينية الرسميتين , فضلاً عن أنه امتاز بثقافة واسعة (١) , وتأتي أهمية هذا المصدر من أن سمباط أعطى وجهة نظر أرمينية الصغرى ودورها في إدخال المغول في دائرة الحروب الصليبية , وقد أمد البحث بمعلومات قيمة في الفصل الأول عن سفر ملك أرمينية هَيْثُوم الأول إلى المغول من أجل إيجاد تحالف مغولي - أرمني - صليبي ضد المسلمين , كما أشار سمباط إلى الزواج السياسي بين عرشَي أنطاكية وأرمينية حيث وضع ذلك الزواج حداً للصراع الأرمني - الأنطاكي , فحل الونام

بينهما , بينما اقتصرَت الفائدة في الفصل السادس على إعطاء معلومات قيمة عن حملة ادوَار بن هنري الثالث , ومحاولة الاغتيال التي تعرض لها في بلاد الشام والتي كانت سبباً في عودته إلى إنكلترا .

٢- باريس , متى :

هو أحد رهبان دير القديس ألبان , اشتهر بلقب الباريسي , وعُرف بهذا اللقب إما لأن باريس كانت مسقط رأسه أو لأنه تعلم فيها , امتاز متى بثقافة عالية , وبخاصة في مجالي التاريخ والدين (٢) , وقد ترك مُصنفاً في التاريخ سماه " التاريخ الكبير " , وقد شكلت

(١) زكار , سهيل : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية , دار الفكر , دمشق , ١٤١٩هـ / ١٩٩٩ م , ج٣٥ , ص٨ .
(٢) زكار :

الموسوعة , ج٤٦ , ص٥-٦ .

الأجزاء من السادس والأربعون حتى الجزء الخمسون من الموسوعة الشامية لسهيل زكار , عاصر متى باريس جوانفيل علماً أن تاريخ ولادته مجهول وكذلك تاريخ وفاته , ولكن من المؤكد أنه كان حياً قبل سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م إذ توقف في هذا العام عن كتابة مؤلفه , وقد أكمل هذا العمل راهب من دير القديس ألبان من المؤكد أن اسمه (وليم ريشنغر) , ولكنه لم يكن كسابقه متى باريس في الجانب الثقافي , وقد ترك كتاباً سماه " ذيل تاريخ متى باريس " تكلم وليم فيه عن الأحداث الممتدة من سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م حتى سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م وأمد متى باريس ووليم ريشنغر البحث بمعلومات ثمينة جداً عن الحروب الصليبية وأوضاع أوروبا , وموقفها من تلك الحروب , وقد أغنى متى باريس ووليم البحث بمادة هامة شملت فصول الرسالة بشكل كامل , وقد أفاد مما كتب متى في معرفة أسباب الحملة الصليبية السابعة وكيفية إعدادها , والنتائج التي أسفرت عنها , وانفرد متى باريس بذكر روايته حول المسلمين الذين تنكروا وتظاهروا أنهم فرنسيين , واستهدفوا الاستيلاء على دمياط من أيدي الصليبيين , لكن سرعان ما كشفهم الصليبيون في دمياط , كما وضّح الدور الذي شغله لويس التاسع في الأراضي المقدسة , وأبرز سياسة لويس التاسع مع الأيوبيين والمماليك , وفصّل في حملة الرعاة الفرنسيين بينما بيّن

وليم ريشنغر الباحثات بين لويس التاسع وإنكلترا لإنهاء النزاع على المناطق المتنازع عليها ، كما أورد معلومات مهمة تتعلق بحملة لويس التاسع على تونس ، وتطرق لحملة ادوَار بن هنري الثالث ملك إنكلترا التي استهدفت مساندة لويس التاسع لكنها لم تحقق مبتغاها .

٣- جوانفيل ، جين ٦٢٣-٧١٧هـ / ١٢٢٤-١٤١٧م :

ولد في مدينة جوانفيل الفرنسية (١)، وهو سليل أسرة فرنسية إقطاعية عريقة ، أصبح جين

(١) أبو بكر ، نضال : أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية وعلاقتها مع الصليبيين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ، ص ٢٢ .

سيداً لإقطاع منطقة جوانفيل فعرف بجين جوانفيل ، دخل جوانفيل في خدمة الملك الفرنسي لويس التاسع (١) ، و كان معجباً جداً بشخصية سيده لويس التاسع و عدّه قدوةً له ، و على الرغم من حبه للويس التاسع فقد كان معتدلاً نوعاً ما في عرض الأحداث التاريخية ، و مال أحياناً إلى المبالغة ، ويعد كتابه " حياة القديس لويس " أفضل مصدر عن لويس التاسع ، وقد تُرجم وحُقق هذا الكتاب من قبل سهيل زكار ، و تأتي أهمية هذا المصدر من أن جوانفيل قد لازم لويس التاسع في حربه وسلمه بل كان مستشاراً له ، ومعظم الأحداث التي كتب عنها جوانفيل قد شارك بها ، وهو شاهد عيان عليها ، فعرضها عرضاً تفصيلياً دقيقاً ، وتكلم عن لويس التاسع منذ ولادته حتى مسيره إلى تونس ، و لم يكتب عن حملة لويس التاسع على تونس سوى ومضات سريعة لأنه لم يشارك فيها ، ولم يرغب بذكر أحداث في كتابه غير متأكد منها ، وقد غطى هذا المصدر معظم فصول البحث فأمده بمعلومات قيمة عن حياة لويس التاسع ، وإعداد الحملة الصليبية السابعة و أحداث معركة المنصورة، كما فصّل في دور لويس التاسع في النهوض بالكيان الصليبي ، وانفرد عن المصادر الأخرى بالإشارة إلى منظمة اللعازر ، وعلاقتها مع لويس التاسع ، و أظهر دور لويس التاسع الإصلاحية والإدارية في المملكة اللاتينية ، و بيّن علاقة لويس التاسع مع المسلمين ، ومحاولته ضرب المماليك بالأيوبيين في بلاد الشام أملاً باقتسام بلادهم مع

المماليك ، و انفرد بالحديث عن الهجوم الصليبي على مدينة بانياس وقلعة الصبية ، وبذلك كانت الفائدة كبيرة جداً في الفصول الأربعة الأولى بينما اقتصرت الفائدة في الفصل الخامس على توضيح أوضاع لويس التاسع في أوربا ، أما في الفصل السادس فقد كانت الإفادة منه بشذرات حول الحملة الصليبية الثامنة .

٤- مؤلف مجهول : تاريخ هرقل :

يعد "تاريخ هرقل" أحد الذبول المهمة لتاريخ وليم الصوري ، وقد ترك وليم مصنفاً في

(١) زكار : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧-١٠ .

التاريخ سماه " تاريخ القدس " ، وتُرجم إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان "تاريخ الإمبراطور هرقل والاستيلاء على بلاد ما وراء البحر " ، تكلم وليم فيه عن الحروب الصليبية منذ انطلاقتها الأولى حتى سنة ١١٨٤/هـ ١١٨٠م ، بينما غطى " تاريخ هرقل " الحقبة الزمنية الممتدة من سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م حتى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م (١) ، وقد تم تصنيف هذا الذيل في الشرق حيث قام سهيل زكار بترجمته و تحقيقه ، فكان أحد أجزاء الموسوعة الشامية ، و امتاز هذا المصدر بمعلوماتٍ غزيرةٍ حيث تجنب مؤلفه الإطالة و الاستطراد ، و قد أغنى البحث بما قدمه من مادةٍ علميةٍ أفادت معظم فصول الرسالة عدا الفصل الأخير ، فهو قد أورد معلومات ثمينة تعلقت بملك بيت المقدس كونراد هوهنشتاوفن الألماني الذي لم يأت إلى الشرق ، فاستلم لويس التاسع الحكم في مملكة عكا بدلاً عنه ، كما أشار إشارةً سريعةً لأعمال التحصين التي قام بها لويس التاسع في المملكة اللاتينية ، إضافةً لتوضيح علاقة لويس التاسع مع الأيوبيين حيث ركّز على الهجمات الأيوبية على المعقل الصليبية ، وتدمير صيدا و مقتل الكثير من أبنائها ، كما رصد الانقسامات الصليبية ، والأطماع التي قادتهم لدوامه حرب القديس سابا التي عادت على الكيان الصليبي بنتائج مدمرة ، فأصبح ذلك الكيان ضعيفاً هزياً أمام المسلمين .

٥- مؤلف مجهول : ذيل روثلين .

يعد كتاب روثلين من الوثائق المهمة التي ذيلت لتاريخ وليم الصوري ، فقد كتب وليم عن الحروب الصليبية منذ بدايتها حتى سنة ١١٨٤/٥٨٠ م ، فأنت ذيل كثيرة على تاريخ وليم منها " ذيل روثلين " الذي أكمل الأحداث التاريخية التي امتدت من سنة ١٢٢٧/٦٢٩ م حتى سنة ١٢٦١/٦٥٩ م ، و قد اتخذ ذيل روثلين تسميته نسبةً إلى دير روثلين في بريطانيا (٢) ، حيث قام سهيل زكار بترجمة و تحقيق هذا الذيل ، و كان أحد أجزاء الموسوعة الشامية ، وقد قدّم صاحب ذيل روثلين مادةً علميةً غنيةً ، أفادت معظم فصول البحث باستثناء الفصل الأخير

(١) زكار : الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٧٧٩-١٧٨٠ .

(٢) زكار : الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٧٧٩-١٧٨٠ .

حيث أمد البحث بمعلوماتٍ مهمةٍ تعلقت بالحملة الصليبية السابعة منذ انطلاقتها من أوروبا مروراً بالأحداث والمعارك التي خاضتها في مصر ، وركّز على أوضاع الأسرى الصليبيين في السجون المصرية ، وأشار للسفارات المتبادلة بين لويس التاسع والمماليك من أجل إطلاق سراح الأسرى ، وتطرق لأوضاع إمارة أنطاكية وهجمات التركمان عليها ، و انفرد صاحب ذيل روثلين بذكر موقف لويس التاسع من اتفاقيته مع المماليك سنة ١٢٤٨/١٢٥٠ م ، وقد فصّل في المعاهدة التي عقدها جون فالنسين مع المماليك سنة ١٢٥٢/٦٥٠ م، ورصد أحداث حرب القديس سابا ، وأوضاع الصليبيين إثر عودة لويس التاسع إلى فرنسا .

٦- ابن العبري ، غريغوريوس بن هارون الملطي ٦٢٣-٦٨٥ هـ / ١٢٢٦-١٢٨٦ م:

ولد في ملطية من أعمال ديار بكر، ثم رحل مع والده إلى أنطاكية ودرس اللاهوت والطب والرياضيات والفلسفة ، فعُين أسقفاً على جوباس من أعمال ملطية ، وترقى وأصبح جاثليق أي : رئيساً للكهنة السريان في المشرق ، توفي في الموصل (١) ، ومن آثاره كتابان عُرف الأول باسم " تاريخ الزمان " أورد فيه معلومات هامة حول أعمال التحصين التي قام بها لويس التاسع في مملكة عكا ، ويبيّن أن

الصراع الأيوبي . المملوكي كان سبباً أساسياً في إطلاق المماليك لأسرى الحملة الصليبية السابعة , كما أمد البحث بمادة غنية تعلقت بالمغول .

أما كتابه "مختصر الدول " فأشار فيه للحملة الصليبية السابعة منذ بدايتها حتى نهايتها , كما نوه إلى انطلاق لويس التاسع إلى مملكة عكا , والأعمال التي قام بها فيها , وذكر دور هيثوم الأول ملك أرمينية في محاولة كسب المغول ضد المسلمين , فقد زار هيثوم العاصمة المغولية قراقورم , وشجع المغول على غزو بلاد العرب المسلمين , وفي الحقيقة كان هيثوم ولويس التاسع وراء تدمير المغول لبلاد المسلمين .

(١) كحالة , عمر : معجم المؤلفين , دار الترقى , دمشق , ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م , ج ٧ , ص ٣٩ - ٤٠ .

٧- فابري , فيلكس :

أحد الرهبان الألمان الدومينيكان , اتسم بتعصبه الشديد لدينه وقوميته , ويعد ما تركه هذا الرحالة أفضل ما كتبه الرحالة الأوربيون , فقد قام برحلتين إلى فلسطين , الأولى سنة ١١٨٥ هـ / ١٤٨٠ م , وكانت رحلة قصيرة , بينما كانت رحلته الثانية سنة ١١٨٨ هـ / ١٤٨٣ م طويلة الأمد , وخلال رحلته ألف كتاباً سماه " جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته " , واعتمد فيه على ما رآه كما استمع إلى الروايات الشفوية (١) , وكان هذا المصنف أحد أجزاء الموسوعة الشامية , وقد أغنى البحث بما تضمنه , ولا سيما إبراز موقف البابا أنوسنت الرابع من استعادة المسلمين لبيت المقدس بالتعاون مع الخوارزمية وهنا سارع البابا لعقد اجتماع في مدينة ليون لإنقاذ الكيان الصليبي , ثم تطرق لمسير الحملة الصليبية السابعة إلى الشرق , و ما حل بها من محن على أيدي المسلمين , وعلى الرغم من ذلك بقي النشاط

الصلبيي يراود خيال لويس التاسع ، فرصد فيلكس أحداث الحملة الصليبية الثامنة ، و أشار إلى إصابة الجيش الصليبي بالطاعون ، وموت لويس التاسع، واضطرار شارل آنجو للصالح مع المسلمين .

وإضافة للمصادر أفاد البحث من العديد من المراجع العربية والمعرّبة والأجنبية .

يأتي على رأس المراجع العربية ما كتبه (سهيل زكار) و بشكلٍ خاص " الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية " ، وقد تضمنت هذه الموسوعة مصادر قيمة جداً حقق المصادر العربية منها , وترجم وحقق المصادر الأجنبية الأخرى التي احتوتها الموسوعة , ولا يوجد مبالغة بأن هذه الموسوعة هي بحق أفضل موسوعة كُتبت عن تاريخ الحروب الصليبية ، كما أفاد البحث من كتاب آخر , وهو من تأليف (سهيل زكار ألفه بالاشتراك مع وفاء جوني واكتمال إسماعيل) بعنوان "حروب الفرنجة " , وتم الحصول على معلومات قيمة وبخاصة في ما يتعلق بالجانب الصليبي

(١) زكار : الموسوعة ، ج ٤٠ ، ص ٤ .

لدى (سعيد عاشور) في كتابه " الحركة الصليبية " , وقد أفاد البحث مما كتبه (جوزيف يوسف) حيث امتازت كتاباته بالتحليلات المنطقية, ومن أهم مؤلفاته " العدوان الصليبي على بلاد الشام – العدوان الصليبي على مصر – العصور الوسطى – العلاقات بين الشرق و الغرب " ، وأفاد البحث من كتاب "فن الحرب في الشرق اللاتيني " لمارشال كريستوفر , كما أغنى البحث ما كتبه سامية عامر بعنوان "الصليبيون في شمال أفريقيا " , و يعد كتاب " تاريخ الحروب الصليبية" من أهم المؤلفات المعربة و هو من تأليف (ستيفن رنسيومان) المدرس في كلية مودلين بجامعة أكسفورد ، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب من قبل السيد الباز العريني , وأمد البحث هذا الكتاب بمعلوماتٍ قيمة عن أوضاع الصليبيين في الشرق وموقف أوروبا إزاء الكيان الصليبي .

ومن أهم المراجع الأجنبية التي أفادت البحث ما تركه المؤرخ (Rene Grousset) في كتابه "Histoir des croisades" وهو بأربعة أجزاء ، وقد أفاد البحث من الجزء الثالث منه بشكل كبير جداً ، ولا يقل كتاب المريكز (M.villeneuve) أهمية عن سابقه ، وهو بعنوان : " Sant Louis

"en orient" حيث مال فيه إلى مدح لويس التاسع والافتخار به ، و قد عدَّ ما حققه لويس التاسع في الشرق من إنجازات كافياً لتغطية هزائمه في مصر ، وأوعز ما حل به إلى القضاء والقدر .

وقد تم الحصول على معلومات جيدة مما كتبه المؤرخ (M.michaud) أودعها في كتابه "Biblioteque des croisades" حيث قدَّم الجزء الرابع من هذا الكتاب معلومات قيمة , وأمد البحث (W.B.Stevenson) بمعلومات مختصرة وموجزة في كتابه "The crusaders".

وهنا يطيب لي في هذا المقام التوجه بالشكر الجزيل إلى كل الذين أسهموا في كتابة وتحقيق وترجمة هذه المصادر والمراجع ، لأنها توضح الصفحات المشرقة من تاريخ أمتنا العريق .

تمهيد

إن الحروب الفرنجية (١) الصليبية التي شنها الغرب الأوربي على المشرق العربي الإسلامي ، بمثابة حرب عدوانية استيطانية استهدفت ضرب المسلمين وتسريلت برداء الدين زوراً وبهتاناً (٢) ، وقد بدت تلك الحروب مشروعاً فرنسياً جسدأً وروحاً ، ولعل فرنسا كانت أقدر من سواها على دعم الكيان الصليبي بالمستلزمات المادية والمعنوية حيث شكل الفرنسيون معظم المشاركين في الحملات الصليبية وكذلك المستوطنين ، وغالبية أفراد المنظمات العسكرية (٣) ، وأصبحت فرنسا مهد الحملات الصليبية بل و تصدر ملوكها قائمة المشاركين فيها، ومن أهم ملوكها الذين أسهموا في تلك الحملات لويس التاسع (٤) .

وُلد لويس التاسع سنة ٦١١هـ/١٢١٤م في مدينة بواسيه (poisser) الفرنسية ، و هو سليل أسرة كابيه الملكية الشهيرة التي أسسها هيو كابيه سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م ، وقد تم تعميد لويس التاسع في كنيسة بواسيه (٥) .

- (١) الفرنجة : عرفت الحروب الصليبية بالحروب الفرنجية نسبة إلى الفرنج , والمقصود بهم الفرنسيين الذين أسهموا بشكل فعال في تلك الحروب فعرفت باسمهم , حتى أن كلمة فرنسا مستمدة من كلمة فرنجة . القلقشندي , أحمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء, تح : نبيل الخطيب, دار الكتب العلمية , ط ١ , بيروت , ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م, ج ٥, ص ٣٨٩ .
- (٢) كومنين , أنا كومينا : الالكسياد , الموسوعة الشامية , تحقيق وترجمة: سهيل زكار , دار الفكر , دمشق , ١٤١٣هـ/١٩٩٣م, ج ٦, ص ١١ ؛ تشارتر , فولتيراوف : تاريخ الحملة إلى القدس , الموسوعة الشامية , تحقيق وترجمة : سهيل زكار , دار الفكر , دمشق, ١٤١٣هـ/١٩٩٣م, ج ٦, ص ٣١٠ - ٣٦٦ .
- (٣) مجهول : يوميات صاحب أعمال الفرنجة , الموسوعة الشامية , تحقيق وترجمة : سهيل زكار , دار الفكر , دمشق , ١٤١٣هـ/١٩٩٣م, ج ٦, ص ٨٧-٥٤١ ؛ مجهول : ذيل تاريخ وليم الصوري , الموسوعة الشامية , تحقيق وترجمة : سهيل زكار, دار الفكر , دمشق, ١٤١٣هـ/١٩٩٣م, ج ٨, ص ٣٧٥-٤٠٢ .
- (٤) الغزي , كامل: نهر الذهب في تاريخ حلب , تح: شوقي شعث ومحمود فاخوري , دار القلم , حلب , ١٤١٣/١٩٩٣م , ج ٣, ص ٥٨٢-٥٨٣ .
- (٥) رفعت , محمد وحسونة , محمد : معالم تاريخ العصور الوسطى , مطبعة المساهمة المصرية , ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م, ص ١١٢-١١٥ ؛ Rice , D.S: le baptistere de sant Louise ,Paris,1951 , p 9 .

وعُرف بالفرنسيين وهذه التسمية مستمدة من المملكة الفرنسية التي حكمها لويس التاسع وأدار شؤونها (١).

نشأ لويس التاسع وترعرع في كنف والده الملك الفرنسي لويس الثامن (٢) , ووالدته بلانشيه القشتالية (Castille) , وعاش مع إخوته وأخواته الذين بلغ عددهم اثنا عشر نفرًا , وقد اهتمت بلانشيه بأبنائها , وخصوصاً لويس التاسع لأنه كان مُرشحاً لاستلام الحكم بعد والده كونه أكبر أبنائه سنًا(٣). أما عن صفات لويس التاسع الجسدية , فقد اتصف بقامةٍ طويلة، وجسمٍ ممتلئ ، وشعرٍ أشقر ، وبشرةٍ بيضاء اللون(٤).

وعندما فارق الملك الفرنسي لويس الثامن الحياة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م ، استلم ابنه لويس التاسع ملكاً على فرنسا تحت وصاية والدته بلانشيه , فاهتمت بتربيته وتهذيبه وتوجيهه(٥)، وأرست في قلبه احتراماً كبيراً نحو الأشياء المقدسة منذ نعومة أظفاره وحباً شديداً للعفاف ، وأمضى ساعات طويلة من نهاره في الاستماع إلى القداصات وتلاوة الإنجيل المقدس , وتعلّم التاريخ والجغرافية والأدب عن خيرة المدرسين (٦) ، وأما أوقات فراغه فأمضاها في الصيد(٧), فأصبح ذا عقلٍ ناضج ,

(١) الدواداري ، عبد الله : كنز الدرر و جامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب) ، تح: سعيد عاشور، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م ج ٧، ص ٣٦٥ .

(٢) لويس الثامن: استلم حكم فرنسا سنة ٦٢٣-٦٢٤هـ/ ١٢٢٥-١٢٢٦م ، وهذه المدة الزمنية القصيرة لم تمكنه سوى من محاربة الهراطقة الفرنسيين . الغزي : ج ٣، ص ٥٨٣ .

(٣) <http://www.nndb.com/peopel/231/00009292>

(٤) رنسيما، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية ، تر : السيد الباز العريبي ، دار الثقافة ، ط ٢، بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ج ٣ ، ص ٤٣٩ .

(٥) الغزي : ج ٣، ص ٥٨٣؛

Encyclopedia alphabetque:Italie,volume15,p2103.

(٦) مونرود ، مكسيموس : الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب (تاريخ الحروب الصليبية)، تح: مكسيموس مظلوم ، طباعة دير الرهبان الفرنسي سكان ، أورشليم ، ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م، ص ٢٩٦ .

(٧) ديورانت ، ول : قصة الحضارة ، تر: محمد بدران ، بيروت وتونس ، ج ١٥، ص ٢٢٨ ؛

The new encyclopaedia Britannica : London and Tokyo , volume 7 , 1768 , p496 .

اتصف بحب الفضيلة ، والميل إلى التقشف الشديد ، وأحس بضرورة القيام بواجبه تجاه مملكته، واشتهر بعدله (١) ، وكان يردد دائماً مقولته الشهيرة " إنه عمل شرير أن تأخذ أملاك الآخرين " (٢).

ولكن هل حقاً طبق لويس التاسع هذا المبدأ قولاً وفعلاً؟.....

تعلق قلب لويس التاسع برجال الدين ولازمهم في حلهم وترحالهم للاستفادة من أفكارهم الدينية الكاثوليكية ، حتى غدا متعصباً لدينه فلم يتساهل مع الهراطقة ولم يرحمهم أبداً (٣).

وعندما ظهر في مدينة (ألبي) (Alba) الفرنسية جماعة من الغلاة الدينيين المتطرفين الذين عُرفوا

بالألبين تعامل معهم بمنتهى الشدة ، وتمكن بذلك والدته من قمع تمردهم ، والقضاء على حركاتهم (٤).

أما البارونات الفرنسيين فقد استغلوا صغر سن ملكهم إثر استلامه للحكم ، وظنوا أن بإمكانهم تحقيق

أطماعهم في ظل حكومة ترأسها امرأة وطفل صغير ، فتمردوا عليه وعدوا عمه فيليب كونت بولونيا سيداً

لهم بدلاً من لويس التاسع ، وقدموا له الولاء والطاعة وأخذوا يأترون بأمره متجاهلين الملك الشرعي لويس

التاسع والملكة بلانشيه الوصية عليه، كما طالبوا والدته بلانشيه بمنحهم ممتلكات كبيرة ، ولكنها جردت

الجيش وأرسلتها لقتالهم ، وأجبرتهم على الخضوع والانصياع لأوامرها (٥)، "وخذت الزبوعة التي قامت

وأرعبت حكومة الطفل" (٦).

وعندما صار لويس التاسع في ريعان الشباب تزوج سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م من مارغريث ابنة ريموند

برنغير الرابع كونت بروفانس (profence) والتي لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها (٧).

(١) جوانفيل، جين: حياة لويس الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق، ١٤٢٩هـ/١٩٩٩م، ج ٣٥، ص ١٧-٢٠ ؛ رنسيان: ج ٣، ص ٤٣٩.

(٢) جوانفيل: الموسوعة ، ج ٣٥، ص ٢١.

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥، ص ٣٠ ؛ بردج ، انتوني : تاريخ الحروب الصليبية ، تر : أحمد سبانو ونيل الجيرودي ، دار قتيبة ، دمشق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص ٢٦٢-٢٦٣ .

(٤) <http://www.newadvent.org/cathem/9368a.htm>

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥، ص ٣٨-٤٣ ؛

Maier, Christoph : preaching the crusades , cambridg , press , 1994 ,p69-70 .

(٦) المهندس ، محمود : البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، المطبعة الأميرية ، ط ١ ، بولاق ، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(٧) المهندس: ج ٣، ص ٢٥١ ؛ ديورانت : ج ١٥، ص ٢٢٩ .

لكن مالبث أن تمرد البارون الفرنسي هيو العاشر كونت لامارش (la march) على لويس التاسع بعد أن اتفق مع هنري الثالث ملك إنكلترا (١١٢-١٢٧٠هـ/١٢١٦-١٢٧٢م) ، وقد أعلن كونت لامارش العصيان على لويس التاسع لعله يمنحه مزيداً من الاقطاعات ، بينما استهدف هنري الثالث من مساعدة البارون إثارة الاضطرابات للملك الفرنسي أملاً في الاستيلاء على نورمانديا الفرنسية التي كانت محط خلاف قديم بين إنكلترا وفرنسا ، فشن لويس التاسع هجوماً والتقى معهما سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م بالقرب من نهر الشارانت (Charente) وانتصر عليهما ، وفر هنري الثالث بجيشه عائداً إلى إنكلترا ، بينما فرض لويس التاسع على البارون ضرائب مالية عقاباً له ، وعندما أدرك البارون أن لا جدوى من التمرد أعلن الطاعة لسيده لويس التاسع (١) ، وعاشت فرنسا في استقرار واطمئنان ، وشهدت في عهد لويس التاسع أماناً ورخاءً لم تنعم به منذ العصر الروماني (٢) .

وفي أواخر سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م أصيب لويس التاسع بحمى الملاريا ، مما ألزمه الفراش وأعجزه عن الحركة حتى يئس المحيطون به من شفائه ، وأفاق من غيبوبته ، فنذر إذا ما شفي من مرضه ليخرجن على رأس حملة صليبية دفاعاً عن صليبي مملكة عكا بعد أن وصلتهم أنباءً مخزنة عن أوضاعهم هناك (٣) .

وهنا كيف كانت أوضاع الصليبيين في الشرق آنذاك ؟

استقطب الصالح نجم الدين أيوب الخوارزمية (٤) ، لاستخدامهم في ضرب الصليبيين وحليفهم الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، فأعد الخوارزمية جيشاً جراراً بلغ ما يقارب عشرة آلاف مقاتل ، وعبر ذلك الجيش نهر الفرات سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، ووصل إلى دمشق ، فوجدها مُحصنة صعبة المنال ، وقد تحصن الصالح إسماعيل بداخلها ،

-
- (١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٤٧-٤٨ ؛ الخوري ، سليم : تاريخ فرنسا ، مطبعة العرفان، صيدا ، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م ، ص ١٤ ؛ Collier encyclopedia : new York , 1985 , volume 10 , p280 .
- (٢) ديورانت : ج ١٥ ، ص ٢٣٠ . ؛ Miquel , Pierre: l , histoire de France , Geneve , 1995 , p51 .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٥٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج ٥٨ ، ص ١٨٧٦-١٨٧٧ ؛ رنسيان : ج ٣ ، ص ٤٣٩-٤٤٠ ؛
- Brentano, Funck : les croisades , france , 1934 , p106-108 .
- (٤) الخوارزمية : أسس هذه الأسرة محمد بن أنوشتكين سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م في خوارزم ، وكانت نهايتها على يد المغول سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، فتحول جنودها إلى مرتزقة ، فاستمالهم الصالح نجم الدين أيوب. النسوي ، محمد: سيرة جلال الدين منكبرتي ، تح: حافظ حمدي، دار الفكر، مصر ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م ، صفحات متفرقة .

وهنا تابع الخوارزمية المسير إلى طبرية واستولوا عليها من أيدي الصليبيين (١) .

ثم هاجم الخوارزمية بيت المقدس واستماتت الحاميات العسكرية الصليبية بالدفاع عن نفسها ، وطلبت النجدة من الناصر داود صاحب الكرك مستغلة سوء علاقته مع الصالح نجم الدين أيوب ، فاقترح الناصر داود على الخوارزمية إعطاء الصليبيين الأمان مقابل تسليم بيت المقدس ، وبعد أن أعطوهم الأمان خرج نحو ستة آلاف صليبي ، وساروا نحو يافا ، ولم يتعدوا كثيراً ، ولسوء حظهم أن جماعة منهم تطلعت نحو الورا ، وإذا بأعلام صليبية ترفرف على أسوار القدس ، فظنوا بأن نجدات صليبية قد وصلت ، ودحرت الخوارزمية ، لكنهم وقعوا في الكمين الذي نصبته لهم الخوارزمية (٢) ، فقتلوا معظمهم ، وبذلك أعاد الخوارزمية بيت المقدس إلى أحضان المسلمين (٣) ، ثم تابعوا مسيرهم إلى غزة وانضموا إلى الجيش الذي أرسله الصالح نجم الدين أيوب بقيادة ركن الدين الهيكاوي ، بينما شكل الصليبيون جيشاً بالاتفاق مع حليفهم الصالح إسماعيل ، وقد تميز ذلك الجيش بضخامته حيث لم يجتمع لهم مثل ذلك الجيش منذ معركة حطين ، والتقى الطرفان في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، والتحم الطرفان ، وما هي إلا ساعات قليلة حتى فرَّ الجيش الشامي ، وبقي الجيش الصليبي وحيداً في المعركة ، فتم تدمير الجيش الصليبي وإبادته إبادة شبه تامة (٤) ، ثم هاجموا المعقل الصليبية ، فساءت أوضاعهم وانحسرت حدود مملكتهم (٥) ، وتعالى الأصوات الصليبية مطالبةً بالنجدات الأوربية ، وقد أعد روبرت بطريك بيت المقدس سفارة تألفت من جاليران أسقف بيروت ، وألبرت بطريك أنطاكية ، وأرسلها إلى البابا أنوسنت الرابع .

- (١) ابن سباط ، حمزة : صدق الأخبار ، تح: عمر تدمري ، دار جروس بروس ، ط١، طرابلس، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج١، ص٣٢٣-٣٣٢ ؛ عاشور سعيد: الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ج٢، ص١٠٤٤-١٠٤٥ .
- (٢) باريس ، متى: التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ج٤٧، ص٦٥٨-٦٦١ ؛ رنسيما : ج٣، ص٣٩١-٣٩٣ .
- (٣) المقريري ، أحمد : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح: محمد زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٢، القاهرة ، ج١، ص٣١٦ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٧، ص٦١٨-٦٢٠ .
- (٤) ابن سباط : ج١، ص٣٣٠-٣٣١ ؛ أبو الفداء ، إسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، تح: محمود ديوب ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص٢٧٦-٢٧٧ ؛ النويري ، أحمد : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح: محمد الرئيس ، دار الهيئة المصرية للكتاب ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٢٩، ص٣٠٥-٣٠٧ .
- (٥) سبط ابن الجوزي ، يوسف: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، دائرة المعارف العثمانية ، ط١، حيدر آباد الدكن - الهند، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ج٢، ص٧٦٦ ؛ اليافعي ، عبدالله : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، تح: خليل المنصور ، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٤، ص٨٧ .
- وصلت السفارة الصليبية إلى البابا أنوسنت الرابع ، وبينت له خطورة الموقف الذي آلت إليه أوضاعهم وطالبتهم في الحصول على المساعدات الأولية (١) ، أملاً في استمرار بقاء الكيان الصليبي في الوقت الذي كان فيه البابا منشغلاً بالصراع مع الإمبراطور الألماني فردريك الثاني (٦٠٨-٦٤٨هـ/١٢١٢-١٢٥٠م) بعد أن برزت أطماعه في أملاك البابا الذي فر هارباً من إيطاليا إلى مدينة ليون الفرنسية ، وبعد أن التقت السفارة معه وشرحت له الحالة المأساوية التي مرَّ بها الصليبيون ، عقد اجتماع في مدينة ليون سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م للتداول في اتخاذ التدابير اللازمة ، إزاء الكوارث التي حلت بساحتهم ، وأقر البابا في نهاية الاجتماع بضرورة الإسراع في إرسال حملة صليبية جديدة لإنقاذ الصليبيين قبل فوات الأوان (٢)، وإذا ما تم النظر إلى أوضاع أوروبا يلاحظ بأنها كانت غير مستقرة حيث مزق الصراع إيطاليا وألمانيا نتيجة لأطماع فردريك الثاني في مد نفوذه ، والتوسع في إيطاليا على حساب البابا (٣)، بينما انشغل ملك إنكلترا هنري الثالث بالصراع مع بارونات ، أما النروج فقد أصدرت وعوداً واهية بدعم الصليبيين لكنها لم تف بشيء من وعودها، وعلى هذا فالغرب الأوربي لم يكن مستعداً لتقديم المساعدات لمملكة عكا اللاتينية التي كانت تنادي بطلب النجدة (٤)، ويمكن استثناء فرنسا التي حكمها لويس التاسع ، وضبط أوضاعها ، وقضى على التمرد فيها ، وسادها الأمن والاستقرار، والأهم من ذلك كله تعصبه الديني ، وحقده الشديد على كل ما هو غير مسيحي (٥) ،

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٧، ص٦٦٧ ، ٨٢٠-٨٢١ ؛ طقوش ، محمد سهيل : تاريخ الأيوبيين ، دار النفائس ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٣٧٧-٣٧٨ ؛

Thorau, Peter: the lion of Egypt sultan baybars, london and new york ,1978,p33.

(٢) فابري، فيلكس : جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٤٣، ص١١٧٠-١١٧١ ؛ الدويهي، اسطفانوس : تاريخ الأزمنة ١٠٩٥-١٦٩٩م، تح: فردينان اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٣٧١هـ/١٩٥١م، ج٢، ص١١٩.

(٣) دي نوفارا ، فيليب : حروب فردريك الثاني ضد الإيلينيين في سورية وقبرص ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٣٤، ص٦١-٦٥؛ باريس ، متى : التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر، دمشق ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٤٦، ص٤٠-٢٩٢ ؛ ج٤٧، ص٨٢٨-٨٢٩ .

(٤) باريس ، متى : التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ج٤٨ ، ص٩٨٥ ؛ زابوروف ، ميخائيل : الصليبيون في الشرق ، تر : إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص٣١٠-٣١١ ؛

(٥) المقرئزي : السلوك ، ج١، ص٣٣٤.

وكانت فرنسا هي المرشحة لقيادة الحملة الصليبية ، وقد أشار أبو الفداء بأنها " أمة عظيمة" (١)، أما الدواداري فوصفها بأنها من أكثر ممالك أوروبا "قلاعاً وجموعاً" (٢)، ويلاحظ من ذلك أن فرنسا كانت دولة آمنة مستقرة ، ولها وزنها الاستراتيجي في أوربة ، وقد أسهمت بشكل كبير في المشروع الصليبي ، وكانت مستعدة دائماً لدعم الكيان الصليبي، بل ومتحمسة لإعداد حملة صليبية ، وإنقاذ مملكة عكا اللاتينية (٣) ، وذلك لأسباب عديدة ومن أهمها ما يلي :

أ_السبب الشخصي: أصبح الملك الفرنسي لويس التاسع شاباً يافعاً ، لكن والدته كانت هي الحاكم الفعلي للمملكة الفرنسية ، ولا يمكنه القيام بأي عمل دون استشارتها ، ولم تتدخل في شؤون الحكم فحسب بل حتى في حياته الشخصية (٤) حيث عاملت زوجته بقسوة ، ولربما وجد لويس التاسع في حملته الصليبية مهرباً له من سطوة والدته (٥) .

ب_السبب الديني : إن أنباء الهزائم التي مُني بها الصليبيون على أيدي الأيوبيين والخوارزمية ، وخسارة الصليبيين لبيت المقدس قد وصلت إلى أوروبا ، فألهبت مشاعر الفرنسيين الذين عُرفوا بتعصبهم الديني ، وأثارت الروح الصليبية في قلوبهم ، فعدوا العزم على استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين (٦) .

ج_السبب الاقتصادي : ما إن استقرت أوضاع المملكة الفرنسية حتى أخذت بتنمية اقتصادها ، وقد بدا أنها بحاجة إلى مد نفوذها في بلاد غنية كبلاد الشام ومصر ، والسيطرة على مواردها الاقتصادية وتقوية المستعمرة الفرنسية في الشرق (٧) .

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٧٤ .

(٢) الدواداري : ج٧، ص٣٦٥ .

(٣) المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٦-٣٣٣ ؛ باريس : الموسوعة ، ج ٤٧ ، ص ٦١٨-٦٢٢ .

(٤) يمكن إيراد أحد الأدلة على تدخل بلانشيه في حياة لويس التاسع الشخصية حيث لم تسمح له أن يلتقي مع زوجته إلا أثناء النوم ليلاً ، وقد كانت تقطن في الطابق السفلي ، أما لويس وزوجته في الطابق العلوي ، ولكل من الزوجين غرفته الخاصة ، وإذا ما أراد أحدهما أن يذهب لغرفة الآخر كان يحسب حساب لبلانشيه ، فكانا قد كلفا الحُجاب بتبنيهم فيما إذا صعدت بلانشيه إلى الطابق العلوي . جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢١٨-٢١٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢١٨-٢١٩ ؛ بردج : ص ٢٦٣-٢٦٤ .

(٦) فابري : الموسوعة ، ج ٣٨ ، ص ١١٧٠-١١٧١ .

(٧) ابن واصل ، محمد : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت ، ج ٦ ، ص ٧٢ ؛ الدواداري : ج ٧ ، ص ٣٦٥-٣٦٦ .

وعندما سمع البابا بالحماس الفرنسي للقيام بحملة صليبية بارك خطواتهم ، وما إن شفي لويس التاسع من مرضه حتى أرسل البابا الدعاة والمبشرين لجمع الهبات والتبرعات من أنحاء أوربة كافة (١) ، بينما عمد لويس التاسع إلى حث الصليبيين ، واستنهاض الهمم ، وإثارة المشاعر الدينية ، وقد حذا حذوه إخوته الثلاثة والكثير من رجال الدين والبارونات والمتطوعين (٢) .

وراح البابا أنوسنت الرابع يسعى لكسب قوة جديدة ضد المسلمين بعد أن تأثر مثله مثل الكثير من الأوروبيين بالشائعات التي انتشرت حول شخصية برستر جون (يُوحنا) ، وفحواها بأنه سيظهر إمبراطور مسيحي في الشرق ، وسيكون لذلك الإمبراطور دور كبير في إعلاء شأن المسيحيين واستعادة بيت المقدس لهم من أيدي المسلمين (٣) ، وظنوا أن برستر جون لعله أحد قادة المغول (٤) ، بعد انتشار المسيحية بين صفوف بعض أفراد المغول (٥) ، فأرسل البابا أنوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢ هـ / ١٢٤٢-١٢٥٤ م) سفارات عدة إلى المغول ، ووصلت إحدى السفارات إلى العاصمة المغولية قراقورم ، والتقت بالخان المغولي الأكبر كيوك سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م ، وعرضت عليه اعتناق المسيحية لكنه لم يتقبل الفكرة (٦) ، ومن المحتمل أن كيوك فكر أنه إذا دخل المسيحية قد لا يلقي القبول من قبل شعبه ، ولربما يجد معارضة ، لأنه في ذلك تغيير لدين آبائه وأجداده ، وقد يكلفه هذا التغيير خسارة منصبه كخان أعظم للمغول ، فلم يرغب بتغيير دينه ولم يبدِ رغبة في عقد حلف مع البابا ، فعادت السفارة إلى أوروبا خائبة .

(١) باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ٨٥٤-٨٥٥ ، ٨٥٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٥٠-٥١ .

(٣) رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٣٧-٤٣٨ ؛ بردج : ص ٢٦١ .

(٤) أصل المغول : أحد الشعوب التركية التي استقرت في منغوليا ، وقد عُرفوا بحب السلب والنهب ، وأفخر ملبوساتهم جلود الكلاب والتموس ، ولمع المغول إثر ظهور جنكيز خان سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م من قبيلة قيات ، حيث وُحِّد المغول ، ووضع لهم القوانين ، وقد فارق

الحياة سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وإثر وحدتهم امتدت حدود دولتهم من الصين إلى شرق أوروبا. الذهبي : الأمصار ذوات الآثار , تح: قاسم سعد , دار البشائر الإسلامية, بيروت , ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م , ص ٢٩-٣٧ ؛ القرماني , أحمد : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ , تح : أحمد حطيط وفهمي سعيد , دار عالم الكتب , ط١, بيروت , ١٤١٢هـ/١٩٩٢م , مج ٢ , ص ٤٨٧-٤٩٤ .
(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٥-١٨١ .

(٦) الجويني , عطا : تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي), تر: محمد التو نجي , ط١ , دار الملاح , ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م , مج ١ , ص ٢٣٠-٢٣٧ ;
مصلح , حفظ الله : العلاقات بين المغول والصليبيين وأثرها على الأمة العربية الإسلامية , رسالة ماجستير غير منشورة , جامعة دمشق , ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م , ص ٣٦-٣٧ ;

Brellier, Louis : L, eglise et L orient au moyen age(les croisade), paris, 1921, p222.

وعندما أدرك البابا أنه لا جدوى من استجداء المغول , قرر الاعتماد على موارد أوروبا لتجهيز الحملة الصليبية السابعة , وقد استغرق إعدادها ثلاث سنوات (١).

وما أن حان موعد الرحيل حتى أخذ لويس التاسع بتسوية علاقاته مع جيرانه للحفاظ على مملكته خلال غيابه عنها حيث توصل لعقد اتفاقية مع ملك إنكلترا هنري الثالث تضمنت إقامة سلام بين الطرفين , والتزام الهدوء , وعدم إثارة المشاكل لفرنسا طيلة مدة غياب لويس التاسع عنها , وبعد أن أمّن جانب إنكلترا (٢), أراد ضمان موافقة ألمانيا , فما هو موقف الإمبراطور الألماني فردريك الثاني من الحملة الصليبية السابعة ؟

بداية لا بد من التنويه إلى أن كونراد ابن فردريك الثاني كان هو الملك الشرعي لمملكة عكا آنذاك (٣), وبما أن الحملة الصليبية السابعة استهدفت الدفاع عن الصليبيين في مملكة عكا, لذلك وجد فردريك أن موقفه حرجاً فيما إذا عارض مسير الحملة , لأن لويس التاسع قد حظي باحترامه وتقديره كونه سعى جاهداً للإصلاح والتوفيق بينه وبين البابا أنوسنت الرابع (٤) , ولكن مسير الحملة الفرنسية سوف يُشكل خطراً كبيراً على مملكة ابنه كونراد , كونها اتخذت طابعاً فرنسياً , فقائد الحملة فرنسي , وغالبية المشاركين فيها هم من الفرنسيين , مما أخاف فردريك الثاني الذي خشي من ازدياد النفوذ الفرنسي على حساب النفوذ الألماني (٥) , وبشكل خاص بعد أن تلاشت القوة العسكرية التي كانت بقيادة مندوب فردريك الثاني لوثير فيلا نجيري , حيث هُزم لوثير وسقطت صور آخر معقل له منذ سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م , ولم تبق سوى بعض الحاميات العسكرية الألمانية الصغيرة التي غدت ضعيفة بعد أن أصبح آل إبلين هم الحكام الفعليين لمملكة عكا (٦) , وبشكل عام يلاحظ بأن فردريك الثاني لم يطمئن للحملة الصليبية السابعة , وأصبح موقفه حرجاً أمام لويس التاسع ,

(١) رنسيما : ج٣، ص٤٦٦-٤٧٤ ؛ كريستوفر ، مارشال . فن الحرب في الشرق اللاتيني ، الموسوعة الشامية ، تح وتر : سهيل زكار ١٠٥-١٠٣/هـ ١٤٢٦م ، ج٨٣، ص١٠٣-١٠٥ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٧، ص٨١٥ ؛ رنسيما : ج٣ ، ص٤٢١-٤٢٢ .

(٣) دي نوفارا : الموسوعة ، ج٣٤، ص٦٢ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٧، ص٨١٤-٨١٥ ؛ باركر ، ارنت : الحروب الصليبية ، تر : السيد الباز العريبي ، دار النهضة العربية ، ط٢ ، بيروت ، د.ت ، ص ١٢١ .

(٥) الدواداري : ج٧، ص٣٦٥-٣٦٦ .

(٦) دي نوفارا : الموسوعة ، ج٣٤، ص٦٣-٦٥ ؛ باركر : ص ١١٧ .

فأخذ يعمل من وراء الكواليس ، حيث أعد سفارة ارتدت زيّ التجار ، وأرسلها إلى الصالح نجم الدين أيوب ليستعد للمواجهة ، ويتصدى للحملة السابعة ، وبذلك يُمكن لفردريك الثاني تحقيق مكاسب عديدة هي على الشكل الآتي :

١- كسب مودة لويس التاسع والظهور أمامه بل وأمام الشعب الأوربي بمظهر الإنسان الغيور على مصلحة الصليبيين .

٢- تقوية علاقته مع الصالح نجم الدين أيوب .

٣- رغبة فردريك الثاني في أن ينال رضا البابا أنوسنت الرابع ، أو على الأقل عدم مهاجمة البابا له .

أما لويس التاسع فشرع أنه لم يضمن تأييد فردريك الثاني لكنه لم يلق معارضته (١) ، وهنا جمع لويس التاسع البارونات الفرنسيين ، "وجعلهم يقسمون له إذا ما حدث له حادث أن يبقوا مخلصين وأوفياء لأبنائه" (٢) من بعده ، وسلّم المملكة الفرنسية إلى والدته بلانشيه القشتالية ، وشرع بالرحيل سنة ١٢٤٦هـ/١٢٤٨م ، وبرفقته زوجته مارغريث ، واثنان من إخوته وهما روبرت كونت أرتوا، وشارل كونت أنجو ، والكثير من الأمراء الفرنسيين والجنود ، ثم لحق به مؤرخ الحملة جون جوفانيل (٣) .

أبحرت الحملة من ميناء إيخ مُورترز (Iage Mortes) بقيادة لويس التاسع ، بينما أبحر جزء آخر من ميناء مرسيليا (Marsilia) ، وعلى رأسهم أبناء عم لويس التاسع ، وهما هيو دوق برجنديا وبيير (بطرس) الطيب كونت بريتاني (Brittany) (٤) ، وسارت الحملة بمحاذاة سواحل المغرب العربي (٥) ، ووصلت إلى ميناء ليماسول (LIMASSOL) القبرصي ، وقد استقبلهم في الميناء ملك قبرص هنري الأول لوزجنان (٦٤٤-٦٥١هـ/١٢٤٦-١٢٥٣م) بكل حفاوة وتكريم ، وأعد لهم أفخر أنواع الأطعمة والخمور ، وقد أمدّه لويس التاسع بالأموال فكدّس لهم تلال من القمح والشعير ، وإثر تعرضها للأمطار بدت وكأنها روابي خضراء (٦) ،

(١) الدواداري : ج٧، ص٣٦٦ ؛ رنسيما : ج٣، ص٤٤٢ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٢ .

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص٩٦٢ .

(٤) مونرود : مج ٢ ، ص ٢٠٤ ؛

(٥) يُنظر المصور رقم (٢) ، ص ٣٠١ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٨_٥٥ .

Brellier:op.cit,p.222.

وبعد وصول الحملة لحق بها عدد من النبلاء الانكليز بقيادة وليم لونغييسي (١) (Wiliam Longuespee على رأس مائتي فارس (٢)، ثم وصل أمراء صليبيي مملكة عكا ، ومقدمو المنظمات العسكرية إلى قبرص للترحيب بالحملة ، والاتفاق مع قائدها على وضع خطة تستأصل المسلمين من جنودهم (٣)، وقد قرر الجميع مهاجمة مصر أولاً ، لكن لماذا اتفقوا على مهاجمة مصر دون غيرها ؟ بدت مصر لهم بأنها مركز الثقل الإسلامي بل وزعيمته ، بعد أن تركزت فيها القوة العسكرية والاقتصادية، كما أن مصر مقر السلطنة الأيوبية التي كان بيدها مفاتيح الأماكن المقدسة في فلسطين آنذاك منذ استعادتها من أيدي الفرنج (٤) ، وأشار ابن واصل إلى أن لويس التاسع عندما "حدثه نفسه أن يستولي على البيت المقدس للفرنج ، علم أن ذلك لا يتم إلا بمثلك الديار المصرية " (٥) ، وربما توقع أنهم إذا سيطروا على بيت المقدس فإن جيوشاً جارة ستأتي من مصر وتهدم كل ما بنوه ، فوجدوا أنهم إذا ما استولوا على مصر فقد ملكوا بلاد الشام (٦) .

بدا لويس التاسع متحمساً لمهاجمة مصر ، وكان الوقت آنذاك مع بداية فصل الشتاء ، ولكن قادة

(١) وليم لونغييسي (سالوري) : هو حفيد هنري الثاني ملك إنكلترا ، وقد قاد وليم الكثير من النبلاء الإنكليز ، وانضموا إلى حملة لويس التاسع ، وإثر عبور أشموم طنح نصح وليم زوبرث كونت أرتوا الذي قاد طليعة الجيش الصليبي بالتريث وعدم اقتحام المنصورة ، لكن زوبرث لم يصغ إليه ، ثم تغلوا في شوارع المنصورة ، حيث أخذ أهالي المنصورة رميهم بالحجارة من أعالي منازلهم ، وقد تلقى وليم الكثير من الضربات الحجرية ، مما أدى لإصابته بنزيف كان سبباً في لفظ أنفاسه الأخيرة في المنصورة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص ٩٦٢-٩٦٣ ، ١١٣٦-١١٣٩ ؛ رنسيما : ج٣ ، ص ٤٣٤ ، ٤٥٩-٤٦٠ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص ٩٦٢-٩٦٣ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص ٦٠-٦٢ ؛

Iorga , Nicolas : France de chypre ,Paris ,1931 ,p40- 41 .

(٤) فابري : الموسوعة ، ج٣٨، ص ١١٧٠-١١٧٢ .

(٥) ابن واصل : ج ٦ ، ص ٧٢ ؛ سانوتو ، مارينو : كتاب الأسرار ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ج ٣٦ ، ص ٢٣٨ .

(٦) دوبوا ، بيير : استرداد الأرض المقدسة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ج ٣٦ ، ص ١١٧ ؛ رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٤٤-٤٤٥ ؛ Stambouli, Raymond : les clefs de jeresalem (deux croisades des francaises en Egypt , Paris , 1991 , p253-252 .

الصلبيين لفتوا انتباهه إلى أن هبوب العواصف الشتوية ربما يؤدي لمشاكل لا تُحمد عقباه ، وإن من الأفضل الانتظار حتى مطلع الربيع ريثما تهدأ العواصف الشتوية ، فاضطر للانتظار في قبرص (١) ، وأثناء وجوده في قبرص نصحه قادة الصليبيين باستغلال النزاعات الأيوبية ، وذلك إثر مهاجمة الناصر يوسف الثاني ملك حلب لابن عمه الملك الأشرف موسى صاحب حمص ، واستيلائه على حمص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، فاستجار الأشرف بالسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي جرد جيشاً وحاصر حمص ، مما أدى لتدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله لتسوية الخلاف بينهما (٢) ، في الوقت الذي وصلت فيه سفارة من قبل فردريك الثاني ، وأخبرت الصالح نجم الدين أيوب بأن لويس التاسع قد قاد حملة صليبية ، وينوي مهاجمة الأيوبيين ، فتم تسوية الخلاف على وجه السرعة ، وفك الجيش المصري الحصار عن حمص عائداً إلى مصر (٣) ، وقد أخذت منظمة الداوية (٤) تسعى لمساعدة الصالح نجم الدين أيوب ضد الناصر يوسف الثاني مقابل بعض التنازلات ، ولكن عندما سمع لويس التاسع بذلك أمرهم بعدم إجراء أية مفاوضات مع المسلمين لأنه لم يأت لاستخدام الدبلوماسية والوسائل السلمية ، ولن يرضى عن السيف بديلاً (٥) .

(١) العمري ، أحمد : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : حمزة عباس ، دار المجمع الثقافي ، بيروت ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ج ٢٩ ، ص ٣٣٦ ؛ Kedar , Benjamin: crusade and mission , united states of America , new jersey , 1984 p160-161 .

(٢) سبط ابن الجوزي : ج ٨ ، ص ٧٧٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن كثير ، إسماعيل : البداية والنهاية ، تح: عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ، ط ٢ ، الرياض ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج ١٧ ، ص ٢٩٧-٣٠٤ ؛ Thorau : op . cit , p19-20.

(٣) الدواداري : ج ٧ ، ص ٣٦٥-٣٦٦ .

(٤) الداوية : قامت على الحماس الديني والفروسية في آن واحد ، وتشبه الاستبائية من حيث النشأة حيث اقترح الفارس الشامباني هوك دي بايان (Hugues de Payens) على ملك بيت المقدس بلدوين الثاني (٥١٢-٥٢٤هـ/١١١٨-١١٣٠م) إنشاء منظمة عسكرية للدفاع عن الحجاج الصليبيين سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ، فسمح لهم بالإقامة جانب مسجد قبة الصخرة، فعرفوا بفرسان المعبد ، وانخرط في تلك المنظمة أبناء العظماء والعوام ، ثم انحالت عليها المنح من الشرق اللاتيني وأوروبا ، مما زاد في ثراءهم فتخلوا عن حياة الفقر والتقشف . ماب ، وولتر: ما جاء عند وولتر ماب عن الحروب الصليبية ، الموسوعة الشامية ، دمشق ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ج ٣٥ ، ص ٣٨٤-٣٨٦ ؛ السوري ، ميخائيل: روايات ميخائيل السوري الكبير ، الموسوعة الشامية ، دار الفكر ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج ٥ ،

ص ١٠٥-١٠٦ ؛ زكار ، سهيل وجوي ، وفاء وإسماعيل ، اكتمال : حروب الفرنجة (الصليبية) ، منشورات جامعة دمشق ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص ٢٢٠-٢٢٣ .

(٥) ريلي سميث ، جوناثان : الاستتارية فرسان القديس يُوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠-١٣١٠م ، تر : صبحي الجابي ، دار طلاس ، ط١ ، دمشق ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، ص ١٨٣ .

أمضى الصليبيون في قبرص نهاية فصل الخريف والشتاء حتى أشرقت شمس الربيع سنة ١٢٤٩هـ/١٢٤٩م ، وأدى ذلك الانتظار الطويل إلى استهلاك تلال القمح وبراميل الخمر التي أُعدت للحملة (١) ، من جهة أخرى استفاد لويس التاسع من قدوم الكثير من صليبي مملكة عكا الذين انضموا إلى الحملة ، وكذلك وصل وليم هاردوين (٢) ، صاحب إمارة أخايا اللاتينية في بلاد اليونان على رأس أربع وعشرين سفينة حربية ، استقلتها مجموعات من المتطوعين الذين قدموا معه (٣) ، فضاحت جزيرة قبرص بنزلائها ، ونوه جوفانيل عن ذلك بقوله : " البحر كله بدا بقدر امتداد البصر مُغطى بقلوع السفن المبحرة ، ولقد بلغ تعداد السفن المبحرة ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وثمانمائة سفينة " (٤) ، حتى أن ذلك العدد الكبير من السفن لم يكن كافياً لنقل ذلك العدد من الجنود بأسلحتهم وعتادهم ومستلزماتهم ، وقد قدر أبو الفداء وابن سباط عددهم بـ " خمسين ألف مقاتل " (٥) .

اغتر لويس التاسع بتلك القوة الكبرى ، فأرسل من قبرص إلى الصالح نجم الدين أيوب يتهدده ويتوعده قائلاً : " إنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، فلو حلفت لي بكل الأيمان ودخلت على الرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصليبان مارديني عن الوصول إليك وقتالك ، وقد حذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسيايف القضا " (٦) ، يلاحظ أن لويس التاسع اتبع حرب الأعصاب فهدد الصالح نجم الدين ، وتوعده بالويل من جيوشه الجرارة ، ولكن هل حقق ما كان يرنو إليه وساق المسلمين أمامه أذلاء صاغرين كما تمنى ؟

وما هو رد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين على رسالته ؟

—

(١) باريس: الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١٠٥٧-١٠٥٨ .

(٢) وليم هاردوين: أمير أخايا والمورة منذ سنة ١٢٤٤هـ/١٢٤٦م وقد شارك في الحملة الصليبية السابعة ، ثم عاد إلى إمارته ، ودخل في صراع مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولغ حول منطقة البيلوبونيز ، ثم وقع أسيراً بيد ميخائيل سنة ١٢٥٧هـ/١٢٥٩م ، فأجبره على التنازل عن بعض الحصون الشرقية من المورة ، ثم أطلق سراحه وبقي أميراً لأخايا والمورة حتى فارق الحياة سنة ١٢٧٧هـ/١٢٧٨م . رنسيما: ج ٣ ، ص ٤٩٤ .

(٣) جوفانيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٦٤-٦٥ .

(٤) جوافيل: الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٤ .

(٥) أبو الفداء: المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٣ .

(٦) المقرئزي: السلوك ، ص٣٣٤ .

اغرورقت عينا الصالح نجم الدين أيوب وانهمرتا بالدموع ، ولكن أخوفاً من لويس التاسع أخذ بالبكاء ؟(١)

فيما لو أنه كان خائفاً لفعل كما صنع والده الكامل محمد ، حيث خشي ذلك المتقاعس على سلامته وعلى مملكته عندما قدم الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني على رأس الحملة الصليبية السادسة ذات الإمكانات المتواضعة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، فسلمه بيت المقدس دون ضربة سيف واحدة (٢) ، لكن الصالح نجم الدين أيوب مع اشتداد مرض السل عليه ، وبلوغه من الكبر عتياً ، إلا أنه لم ينحن للصعاب ، ولم يستسلم ، وأرسل إلى لويس التاسع مستهيناً بجيوشه الجرارة قائلاً له :

" ها أنا قد أتيتك بالخيول والرجال والقيود والأغلال فإن كانت لك فأنت الساعي ، وإن كانت عليك فأنت الجادع أنفك بظلفك " (٣) ، "ولابد أن تزل بك القدم فإن قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (٤) ، وكن على آخر سورة ص (ولتعلمن نبأه بعد حين) (٥) " (٦) .

أمر الصالح نجم الدين أيوب بتحسين دمياط ، وشحنها بآلات القتال ، وكلف أمراء بني كنانة وهم من البدو الذين اشتهروا بشجاعتهم للدفاع عنها ، بينما عسكر هو إلى الجنوب منها في أشموم طناح ، وأرسل قائد الجيش فخر الدين بن حمويه للمرابطة في البر الغربي لدمياط ، ويلاحظ أنه أبدى اهتماماً كبيراً بدمياط ، فلماذا توقع بأن دمياط هي المستهدفة من قبل الحملة الصليبية السابعة ؟(٧) هناك احتمالات عديدة ، وهي على الشكل التالي :

(١) المقرئزي: السلوك، ج١، ص٣٣٤ .

(٢) ابن أبي الدم ، إبراهيم : التاريخ المظفري ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج٢١ ، ص٩٧٥ ؛ أبو شامة ، عبد الرحمن : الذيل على الروضتين ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ج٢٠ ، ص٢٩٩ .

(٣) الدواداري : ج٧ ، ص٣٦٨ .

(٤) سورة النحل : الآية رقم ١ .

(٥) سورة ص : الآية رقم ٨٨ .

(٦) المقرئزي: السلوك ، ص٣٣٤-٣٣٥ .

(٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مراجعة : سهيل زكار ، ضبط الحواشي : خليل شحادة ، دار الفكر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ج ٥ ، ص ٤١٥-٤١٦ .

١- تُعد دمياط أهم موانئ مصر فضلاً عن موقعها الاستراتيجي ، وإذا ما استولوا عليها صار بإمكانهم إيصال الإمدادات إلى الحملة الصليبية عن طريق نهر النيل أثناء توغلها في مصر (١) .

٢- استهداف الصليبيين لدمياط سابقاً ، حيث هُوجمت من قبل الحملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، وهناك الكثير من الجنود الذين شاركوا فيها ، وهم أيضاً في صفوف الحملة السابعة ، وقد عَرَفُوا جغرافية المنطقة ، وكيفية المسير فيها (٢) .

٣- ربما المدة الزمنية الطويلة التي أمضاها لويس التاسع في قبرص أدت لتسرب الأنباء إلى الصالح نجم الدين أيوب بأن الحملة ستسير نحو دمياط ، وهذا هو الاحتمال الأقرب ، مما دفع بالصالح نجم الدين أيوب للاهتمام بدمياط (٣) .

أقلعت الحملة الصليبية من ميناء ليماسول القبرصي متجهةً نحو دمياط ، وما إن اقتربت السفينة الملكية من الشاطئ حتى سمع الصليبيون هدير الأبواق ، وأصوات قرع الطبول مدويةً بشكلٍ مُخيف ، وعندما أراد لويس التاسع اقتحام دمياط (٤) ، فوجئ بتحصيناتها القوية ، فضلاً عن المقاتلين الذين استعدوا للدفاع عنها (٥) ، فسار لويس التاسع بأسطوله إلى الغرب منها قليلاً كي لا يصطدم مع المدافعين عنها ، وما إن بدأت عملية الهبوط إلى البر حتى هاجمهم المسلمون ، ودارت معركة على رمال الشاطئ تفوق فيها الصليبيون بكثرة عددهم ، وتكبد الطرفان بعض الخسائر (٦) ، ومع حلول المساء أصدر فخر الدين بن حمويه أوامره للجيش بالتراجع إلى دمياط ، ولم يتوقف فيها ، إنما تابع المسير عائداً إلى أشموم طناح حيث رابط الصالح نجم الدين أيوب (٧) ، وقد أحدث انسحاب فخر الدين على رأس

(١) ابن فضل الله العمري ، أحمد : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : أحمد الشاذلي ، دار المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج ٣ ، ص ٤٩٧ .

(٢) دويوا : الموسوعة ، ج ٣٦ ، ص ١٣٢ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ ؛ ابن العبري ، غريغوريوس : مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ، ص ٢٨٥ .

(٤) جوائيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٦٤-٦٥ ؛ مونود : مج ٢ ، ص ٣٠٥-٣٠٦ ؛ Archibald , Lewis :

nomands and crusaders , Indiana , Bloomington , 1991 , p143 .

(٥) يُنظر الشكل رقم (٢) ، ص ٣١١ .

(٦) ابن سبط : ج ١ ، ص ٣٤٣ ؛ النويري : ج ٢٩ ، ص ٣٣٤ ؛ أبو بكر : ص ١٧٠ .

(٧) سبط ابن الجوزي : ج ٢ ، ص ٧٧٣-٧٧٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

قوته العسكرية هلعاً في صفوف الكنانين فلحقوا به (١) ، استبد الخوف بأهالي دمياط ، وهيمن عليهم القلق ، وربما أدركوا إثر انسحاب القوة العسكرية بأنهم غير قادرين على المواجهة (٢) ، وبالفعل خرجوا من دمياط هائمين على وجوههم حيارى بمن معهم من الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن حملوا ما استطاعوا حمله من أمتعة خفيفة ، ثم أشعلوا النيران في مدينتهم ، وخربوا بيوتهم بأيديهم وأحرقوا أسواقهم (٣) ، " ولم يبق في المدينة أحد البتة وصارت دمياط فارغة من الناس " (٤) ، وانطلقوا نحو القاهرة ، وقد نسوا جسر المراكب الواصل بين البرين الشرقي والغربي لدمياط حيث وقف الصليبيون ، لأن ذلك يسهل على الصليبيين الوصول إلى البر الشرقي لدمياط ، وبالفعل زحف الصليبيون نحو دمياط ، وقد عبروا ذلك الجسر ، ووصلوا إلى دمياط ، فدهشوا عندما لم يجدوا أية مقاومة ، وقد تريثوا قليلاً لأنهم ظنوا بأن هناك كمين قد نُصب لهم ، لكنهم ما إن دخلوا أبواب المدينة حتى أدركوا أنها خالية من سكانها (٥) ، وحُيِّل للصليبيين أن الاستيلاء على مصر مسألة سهلة ، فانشغلوا بتقسيم الغنائم في دمياط (٦) ، وأرسل لويس التاسع إلى زوجته مارغريت للقدوم من عكا إلى دمياط ، كما سعى لتغيير معالم دمياط الإسلامية وحوّلها إلى مدينة صليبية حيث حول مساجدها إلى كنائس ، ورفع الصليبان على أسوارها ، وفرح الصليبيون بما غنموا دون أن تراق قطرة دمٍ واحدة (٧) .

وبالمقابل ارتاع المسلمون لخسارة دمياط ، ولما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها وأغاروا على الفرنج في صيدا (٨) ، حيث استهدفوا توجيه ضربة للصليبيين في بلاد الشام

(١) ابن دقماق ، محمد : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والولاة ، تح : سعيد عاشور ، دار اقرأ ، السعودية ، د.ت ، ص ٢٤٤-٢٤٥ ؛

Brentano : op . cit ,p108 .

(٢) أبو شامة : الموسوعة ، ج ٢٠ ، ص ٣٦١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤-٢٨٥ ؛ الياقيني : ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٣) ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٣٣٦ ؛ أبو بكر : ص ١٧٠-١٧١ .

(٤) المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

(٥) ابن سبط : ج ١ ، ص ٣٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤-٢٨٥ ؛ ابن العربي ، غريغوريوس : تاريخ الزمان ، تر : إسحق أرملة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

(٦) جوائيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧١-٧٢ .

(٧) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩١٣-١٩١٤ ؛ رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٥٣-٤٥٤ .

(٨) المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

من أجل تخفيف الضغط عن مصر ، لكن لويس التاسع لم يأبه لذلك لأنه كان على ثقة بأن المعادل الصليبية قادرة على الصمود ريثما يصل إليها (١) ، بينما صب الصالح نجم الدين أيوب جام غضبه على أمراء بني كنانة ، وقائد جيشه فخر الدين ، وحملهم مسؤولية خسارة دمياط (٢) ، والآن ما هو موقف الأمراء الكنانيين وقائد الجيش فخر الدين أمام سيدهم الصالح نجم الدين أيوب ؟ وماهي الحجج والأعذار التي تقدموا بها؟

إن الهزيمة كلمة مرة ولعل العلقم ألد طعماً منها ، وقد دافع الكنانية عن أنفسهم ، وأظهروا لسيدهم بأنهم كانوا على أتم استعداد، ولكن عندما تراجع فخر الدين على رأس جيشه وجدوا أن بقائهم لا فائدة منه، أما فخر الدين فلا حجة لديه على الإطلاق حيث صممت المصادر عن الذريعة التي قدمها لأن موقفه كان ضعيفاً (٣) ، فهو لم يقم حتى بأبسط الأعمال الوقائية لتدمير الجسر الواصل بين القسم الغربي لدمياط والقسم الشرقي ، وفيما لو أنه قام بذلك لأعاق وصول الصليبيين واستيلائهم على دمياط (٤) ، وحمل الصالح نجم الدين أيوب الكنانية وفخر الدين مسؤولية خسارة دمياط ، وفي الحقيقة إن فخر الدين قاد الجيش النظامي الذي يُشكل الخط الدفاعي الأول ، بينما الكنانية هم من المتطوعين الذين هبوا للدفاع عن بلادهم ، وهم ليسوا في السلك العسكري، ولكن كان بإمكانهم التحصن داخل أسوار دمياط والدفاع عنها فلديهم فيها ما يكفيهم من المؤن لسنوات عديدة (٥) ، أما فخر الدين كان بإمكانه الصمود في وجه الصليبيين ، ولكن راودته أطماعه بالسلطة حيث ترك الصالح نجم الدين على فراش الموت ، عندما راسله ولم يأتيه الرد توقع أن الصالح فارق الحياة ، فترك ساحة القتال عائداً

(١) المقرئزي : السلوك، ص٣٣٧-٣٣٨ ؛ ابن الجزري ، محمد : المختار من تاريخ ابن الجزري ، تح : خضير المنشداوي ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٢١٥-٢١٧ ؛

Gabrieli , Francesco : chroniques du craisades , Paris , 1977 , p315 .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق ٢ ج ٨ ، ص٧٧٣-٧٧٤ ؛ الياضي : ج ٤ ، ص ٩٠ ؛ ابن سباط : ج ١ ، ص ٣٤٣ ؛ النويري : ج ٢٩ ، ص ٣٣٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي : ق ٢ ج ٨ ، ص٧٧٣-٧٧٤ ؛ الذهبي ، محمد : العبر في خبر من غير ، تح : محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ٣ ، د.ت ، ص ٢٥٦ ؛ الحريري ، أحمد : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين عن ديار المسلمين ، تح : سهيل زكار ، دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م ، ص ٩٦ .

(٤) ابن سباط : ج ١ ، ص ٣٤٣ ؛ المقرئزي : السلوك ، ص ٣٣٥ .

(٥) أبو الفداء :المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ ؛ النويري: ج ٢٩ ، ص ٣٣٤ ؛ ابن سباط : ج ١ ، ص ٣٤٣ .

إلى أشموم طنّاح لعله يكون سيداً على مصر (١) ، وقد أخطأ الصالح نجم الدين أيوب خطأً فادحاً عندما أمر بشنق أمراء الكنانية ، بينما غضّ النظر عن فخر الدين ، ومن المحتمل أنه أراد تأجيل عقاب فخر الدين لأنه كان ساعده الأيمن في تلك الظروف الحرجة ، وإذا ما تخلص منه فقد يتمرد المماليك ضده أو بالأحرى دون أن يتخلص الصالح نجم الدين من فخر الدين أراد زعماء المماليك قتله لأنه أعدم الكنانية، لكن فخر الدين هدأ من روعهم (٢) ، ونصحهم أن يصبروا عليه قائلاً : "اصبروا عليه فهو على شفا جرف " (٣) ، فكيف لو أنه قتل فخر الدين ؟ -----

كان الأولى أن يغض الصالح نجم الدين الطرف عن الكنانية أسوة بفخر الدين لكنه لم يتساهل معهم حتى أن أحدهم طلب أن يُشنق قبل ابنه ، فرفض وأمرهم أن يشنقوا الولد قبل أبيه، وبذلك أعدم أمراء الكنانية الضعفاء ، بينما القوة المملوكية التي ساندت فخر الدين أخافت الصالح نجم الدين (٤) ، ولم يتجرأ حتى على تقريع فخر الدين مُكتفياً بقوله : " أما قدرتم تقفوا ساعة بين يدي الفرنج " (٥) .

هنا أخذ نجم الدين أيوب بمفاوضة لويس التاسع على إعادة دمياط مقابل إعطائه بيت المقدس ، لكن ذلك العرض لم يلق القبول ، لأن المخطط الصليبي لا ينتهي مع الاستيلاء على بيت المقدس فقط، ولو أن لويس التاسع أراد بيت المقدس لحصل عليه مقابل تسليم دمياط (٦) ، فقد كان يرنو إلى أبعد من ذلك حيث جلب معه إلى الشرق " مساحي (٧) ومذاري وعربات ومحارث وأنواع أخرى من أدوات الفلاحة " (٨) ، ومما يؤكد أن طموحاته كانت بلا حدود فهو لم يكن عابر سبيل استهدف من مجيئه

(١) ابن واصل : ج ٦ ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ج ٢ ، ص ٧٧٤-٧٧٥ ؛ الياضي : ج ٦ ، ص ٩٠ .

(٣) الحريري : الإعلام والتبيين ، ص ٩٦ .

(٤) المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

(٥) سبط ابن الجوزي : ج ٢ ، ص ٧٧٤ .

(٦) دوبا : الموسوعة ، ج ٣٦ ، ص ١٣٢ .

(٧) مسحة : آلة لجرف التربة مصنوعة من الحديد ، وقد استخدمها العرب منذ القدم في تكسير الكتل الترابية إلى قطع صغيرة بعد حراثة الأرض ، وأول مسحة استخدمها البدائيون غصن شجرة له أطراف كثيرة وصغيرة تُجر فوق التربة ، ولكن مع مرور الزمن تطورت إلى مسحة حديدية ذات مقبض خشبي . عدد من المؤلفين : الموسوعة العربية العالمية ، تر : عشرات المختصين ، مؤسسة أعمال المؤسسة ، الرياض ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ج ٢٣ ، ص ٢١٣ .

تدمير القوة العسكرية المصرية ، ثم متابعة المسير للسيطرة على بيت المقدس فحسب ، وإنما أراد مد نفوذ المملكة اللاتينية إلى مصر وربما إلى غيرها من المناطق المجاورة لتحويلها إلى مستعمرة فرنسية زراعية ، وذلك لضمان بقاء الكيان الصليبي الذي لم يعد سوى مشروع فرنسي بشكله ومضمونه .

أمضى الصليبيون صيف سنة ١٢٤٧هـ/١٢٤٩م في دمياط حيث انتظروا قدوم الإمدادات من فرنسا (١) ، وأثناء وجودهم في دمياط شجع الصالح نجم الدين المصريين على إتباع حرب العصابات ضد الصليبيين كمرحلة تمهيدية للمعركة المقبلة التي ينوي القيام بها حيث " أعطى كل من جاء برأس فرنجي ديناراً ذهبياً " (٢) ، وما إن سمع البدو بالدينار الذهبي حتى طاروا فرحاً وشنوا الهجمات على الصليبيين في دمياط ، وتخطفهم أسراً وقتلاً ، وتحتّم على لويس التاسع اتخاذ الإجراءات الوقائية ، وإقامة الحواجز والخنادق حول المعسكر لتأمين حمايتهم (٣) ، وعندما وصل ألفونسو كونت بواتيه (poitiers) أخو لويس التاسع بالإمدادات (٤) ، عقد لويس التاسع اجتماعاً صليبياً لتحديد الخطوة الثانية للحملة بعد استيلائها على دمياط ، وأثناء الاجتماع أظهر بيير الطيب كونت بريتاني رغبة جامحة في مهاجمة الإسكندرية ، وقد أيده معظم البارونات ، لأنهم أدركوا أهمية ميناء الإسكندرية ، وذلك لاتساعه وهدوئه ، حيث يمكنهم اتخاذه مكاناً لرسو السفن بعيداً عن أخطار نهر النيل وفيضانه ، وفيما إذا امتلكوا الإسكندرية استولوا على الشواطئ المصرية ، وأصبحت مصر معزولة عن العالم الخارجي ، بينما ارتأى روبرت كونت أرتوا مهاجمة القاهرة ، وحجته في ذلك أن القاهرة بمثابة القلب من الجسد بالنسبة لمصر ، وإذا ما سيطروا عليها أصبحت مصر والشام في قبضتهم ، وقد مال لويس التاسع لرأي روبرت ، وقرر المسير إلى القاهرة (٥) فترك حامية عسكرية قوية في دمياط إلى جانب زوجته مارغريت (٦) ، وشرع الجيش الصليبي بالزحف "بفارسهم وراجلهم ، وشوانيهم

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٥-٧٦ ؛ رنسيان : ج ٣ ، ص ٤٥٣-٤٥٤ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٥ .

(٣) باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١١٠٢-١١٠٣ ؛ المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٧-٣٤٧ ؛ رنسيان : ج ٣ ، ص ٤٥٤-٤٥٨ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٥-٧٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩١٦ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٦-٧٧ ؛ باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١١٣٢ .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١١١٦ ؛ رنسيان : ج ٣ ، ص ٤٥٥-٤٥٦ ؛

في البحر تحاذيهم " (١)، وهذا يعني أن الصليبيين انطلقوا على تيارين الأول بري والثاني نهرى. وفي تلك اللحظات الحرجة لفظ الصالح نجم الدين أنفاسه الأخيرة (٢) ، في مدينة المنصورة (٣)، فأعلنت زوجته شجر الدر التي اتصفت بالذكاء والحزم بأن السلطان مريض ولا يجوز أن يزوره سوى أطباؤه ، وأدارت دفة الحكم ، وأصدرت المراسيم الموقعة باسم السلطان المتوفى ، وأمرت أمراء الجيش أن يحلفوا لتوران شاه بن الصالح نجم الدين ولياً للعهد من بعد والده ، ولفخر الدين بن حموية بقيادة الجيش ، وقد تم ذلك ، ثم أرسلت لاستحضار توران شاه حيث كان والده قد سلمه إدارة حصن كيفا (٤) ، وطلبت من فخر الدين الانطلاق لمواجهة الصليبيين حيث عسكر الجيش المصري في جديلة إحدى ضواحي المنصورة ، فأرسل فخر الدين فرقة من الخيالة قاربت الخمس مائة فارس لعرقلة مسير الصليبيين (٥) ، كما أرسل فخر الدين رسالة على جناح الحمام الزاجل إلى القاهرة لحض الناس على الجهاد ، وقد قرؤوا تلك الرسالة ، بعد صلاة الجمعة في الجامع الأزهر حيث تضمنت من بعد بسم الله الرحمن الرحيم " انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون " (٦) واستهدف فخر الدين من أهالي القاهرة أن يكونوا على أهبة الاستعداد للمواجهة ، لأن الحملة الصليبية كانت تسير في طريقها إليهم (٧) ، وبالرغم من كل الاحتياطات التي أخذتها شجر الدر تسرب نبأ وفاة الصالح نجم الدين ليس للأيوبيين فحسب بل حتى للصليبيين ، وربما عن طريق الأسرى الذين وقعوا في قبضة الصليبيين وهم في طريقهم إلى القاهرة ، فأرادوا الإسراع في المسير

—

(١) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٠٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ج ٨ ، ص ٤٧٤-٤٧٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ السيوطي، جلال الدين : تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٣٦٥ .

(٣) المنصورة : مدينة بناها السلطان الكامل محمد بن العادل بعد انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة ٦١٨هـ / ١٢٢١م تحسباً لأي هجوم صليبي ، وتقع المنصورة بالقرب من بلدة جومر أي في موقع استراتيجي على نقطة تفرع أشموم طناح عن دمياط . أبو الفداء، إسماعيل: تقويم البلدان، تصحيح ، رنود وماك ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، ص ١٠٦-١٠٧ .

(٤) ابن سباط : ج ١ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٤٦-٢٤٧ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٨ .

(٦) سورة التوبة : آية ٤١ .

(٧) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٠٧ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٦ ؛ الدوادري: ج ٧ ، ص ٣٧٥ .

مستغلين انشغال المصريين بوفاة سلطانهم (١) ، ووصلوا إلى شار مساح (بحر مساح) ، ثم تابعوا المسير إلى أشموم طنّاح (٢) ، يُلاحظ لم يرغب فخر الدين بن حمويه بإقحام جيشه ، وتبديد قوته في تلك المتاهات من العثرات الطينية والجداول المائية ، واكتفى بإرسال مجموعات صغيرة أعاقَت تقدم الصليبيين وأثارت الاضطرابات في صفوفهم (٣) .

وعلى هذا استولى الصليبيون على دميّاط ، وغدت معقلاً جديداً من معاقل الكيان الصليبي أما أهالي دميّاط ، فتبعثروا في أصقاع البلاد (٤) ، وفُجعت الكنانية بمقتل أمرائها ، وقبع الجيش الأيوبي المنهزم في الجنوب من أشموم طنّاح ، وفقد الأيوبيون سلطانهم وخيّم على مصر جو من الحزن والأسى (٥) ، بينما ازداد الصليبيون قوة بعد أن وصلتهم الإمدادات ، فجّدوا في المسير لضرب مركز القوة العسكرية في القاهرة ، واستطاعوا إحباط الهجمات التي تعرضوا لها ، واجتازوا كل القنوات والترع التي اعترضت سبيلهم ، ولم يبق سوى أشموم طنّاح أمامهم ، وبدأت نهاية الأيوبيين قد اقتربت (٦) .

-
- (١) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٤٣-٣٤٦ ؛ الدواداري : ج٧ ، ص٣٧٥ .
(٢) أشموم طنّاح : يعرف باسم أشموم الرمان ، أو الدقهلية ، وهو فرع نهرى يتفرع من دميّاط عند مدينة المنصورة ، ويتجه باتجاه الشمال الشرقي ليصل إلى البحر المتوسط . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص١١٨-١١٩ .
(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص١٨٦ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٤ .
(٤) الدواداري : ج٧ ، ص٣٦٥-٣٧٠ ؛ ابن الوردي ، عمر : تتممة المختصر (تاريخ ابن الوردي) ، تح: أحمد البدرأوي، دار المعرفة الجامعية، ط١ ، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠ م ، ج٢ ، ص٢٦٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٠٨-١٩١٦ ؛
Nadeije Dagen : les grandes batailles , Paris , 1997 , p72 .
(٥) ابن الجزري : ص٢١٦-٢١٧ .
(٦) ابن واصل : ج٦ ، ص١٠٧-١١١ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٤٦-٣٤٩ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧٦-٨١ .

– الفصل الأول –

هزيمة الصليبيين في المنصورة ودور لويس التاسع في تقوية الوجود الصليبي

- ١ – معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .
- ٢ – وقوع لويس التاسع والجيش الصليبي في الأسر .
- ٣ – استلام لويس التاسع حكم مملكة عكا .
- ٤ – الاهتمام في شؤون إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس .
- ٥ – إصلاح العلاقات بين أنطاكية وأرمينية الصغرى .
- ٦ – دور لويس التاسع في قبرص .
- ٧ – استنجد الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بالملك لويس التاسع .
- ٨ – علاقة لويس التاسع مع شيخ الجبل .
- ٩ – مراسلة لويس التاسع للمغول .

١- معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

سيطر لويس التاسع على دمياط , و قد أضعاف فيها حوالي خمسة أشهر , وقد أتنه فرصة ذهبية بعد أن لفظ الصالح نجم الدين أيوب أنفاسه الأخيرة , فانتهاز وفاته , وقرر إنزال ضربة قاصمة بالمسلمين قبل وصول توران شاه , وإكمالها للاستعدادات الحربية , وظن بأن حكومة تقودها امرأة من السهل الاستيلاء عليها , فزحفت جحافل الصليبيين دون أن تلقى مقاومة جدية , ولكن مالبت الصعاب أن واجهتهم عندما وجدوا أنفسهم محصورين بين فرعي دمياط وأشموم طناح (١) , وتوجب عليهم اجتياز أحد الفرعين للاتحام مع المسلمين في معركة حاسمة علماً أن الجيش المصري والشعب قد تجاوز محتته , ووقف لهم بالمرصاد (٢) , كما رابطة إلى جانبهم القوات التي أرسلها صاحب الكرك الناصر داود (٣) .

قرر لويس التاسع اجتياز بحر أشموم طناح , وبدا عبوره أمراً صعباً حيث أرسل قائد الجيش المصري فخر الدين بن حموية مجموعات صغيرة من جنوده لإيقاع الرعب والهلوع في قلوب الصليبيين , مما أجبرهم على حفر ترعة من الماء خلفهم من جهة الشمال لتأمين حمايتهم فأصبحوا مُحاطين بالماء من الجوانب كافة (٤) , وأدرك لويس التاسع ضرورة إنشاء جسر على أشموم طناح , لكن ما إن شرعوا بربط الأخشاب مع بعضها البعض حتى انهالت عليهم المجانيق بالقذائف النارية (٥) والضربات الحجرية من قبل المعسكر المصري الذي رابط جنوب أشموم طناح (٦) .

(١) يُنظر المصور رقم (٣) , ص ٣٠٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ج ٨ , ص ٧٧٣-٧٧٦ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٣٣٦-٣٤٧ ؛ ابن العري : تاريخ الزمان , ص ٢٩٤ ؛ الذهبي : العبر , ج ٣ , ص ٢٥٦-٢٥٧ ؛

Gabrieli , Francesco : Arab historians of the crusades , London , 1969 , P276-277 .

(٣) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٣٤٧ .

(٤) الدواداري : ج ٧ , ص ٣٧٥ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٧٨-٨٣ .

(٥) المنجنيق : كلمة فارسية تعني (ما أجودني) , ولها معنى آخر (الارتفاع إلى فوق) , وهو آلة حربية ثقيلة أستخدمت لقذف الحجارة والنيران . ابن أرنبا الزردكاش : الأنيق في المناجيق , تح : إحسان هندي , منشورات جامعة حلب , ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م , ص ١٦-٤٥ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٠-١٩٢٣ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٨٢-٨٦ . باريس : الموسوعة ج ٤٨ , ص ١١٥٤ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٥٨ ؛

Gabrieli , Francesco : le moyen age la croisade d , Egypt , Paris , p290-292 .

جزع لويس التاسع لتلك الضربات النارية التي مرت مدوية وكأنها صوت الرعد , فرزعت الخوف في قلوب الصليبيين , ولاسيما لويس التاسع الذي خاف على جنوده , فكان "كلما سمع المسلمين يقذفون النفوط نحوهم يرفع يديه بالدعاء وهو يبكي" (١) , وقد أكلت النيران ما لديهم من أخشاب , ولم يعد لديهم الخشب اللازم لإنشاء جسر , كما أخذ عمال الهندسة المصريون بتوسيع مجرى أشموم طنّاح من خلال إنشاء حفر غمروها بالماء لمنع الصليبيين من إنشاء جسر , فاضطر لويس التاسع لعقد اجتماع مع كبار رجاله عسى أن يجدوا حلاً لذلك المأزق , ولكن بدون فائدة , فهم لن يستطيعوا عبور أشموم طنّاح إلا بإنشاء جسر , ومسألة إنشائه بدت أمراً مستحيلاً , (٢) , فتملكهم اليأس والإحباط , وضافت عليهم الأرض بما رحبت لكن جوفيل ذكر أن بدوياً قد أتى وأخبرهم عن مخاضة (مكان ضحل) تُدعى مخاضة سلمون يمكنهم من خلالها اجتياز أشموم طنّاح لقاء مبلغ خمسمائة دينار (٣) , أما المقريري فقال: بأن الذين دلوه على المخاضة هم من "منافقي أهل الإسلام" (٤) , وقد أيدته في ذلك ابن واصل قائلاً: " فدل بعض المفسدين الفرنج على مخاضة " (٥) , وهنا يمكن ترجيح رأي جوفيل لأنه التقى مع ذلك الرجل شخصياً , وهو شخص واحد , وليست مجموعة كما ذكر ابن واصل والمقريري , والمهم أن ذلك البدوي باع ضميره , وخان وطنه لقاء متاع الدنيا .

استلم البدوي دنائره , ثم اصطحب الصليبيين بعد مضي زهاء الشهرين أمام أشموم طنّاح , وانطلقوا إلى المخاضة بعد أن ترك لويس التاسع حامية عسكرية قوية لحماية المعسكر , ثم شرعوا بعبورها , وقد تولى روبرت كونت أرتوا قيادة مقدمة الجيش , بينما أشرف أخوه لويس التاسع على تنظيم عملية العبور (٦) , ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى اجتازت طلائع الجيش الصليبي المخاضة

(١) جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٨٥ .

(٢) جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ج ٣٦ , ٨٢-٨٨ ؛ زيادة , محمد : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمة المنصورة , مطبوعات المجلس الأعلى للدراسة والآداب , القاهرة , ١٣٨١هـ / ١٩٦١م , ص ١٣٦-١٤٢ .

(٣) جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٨٨ ؛

Stevenson , W . B : the crusaders in the east , Beirut , 1958, p326-327 .

(٤) المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٣٤٩ .

(٥) ابن واصل : ج ٦ , ص ١١١ .

(٦) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٢٨-١١٣٣ ؛ جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٨٨-٨٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٣ .

بصعوبة , ولكن رُوبرت كونت أرتوا خالف أوامر لويس التاسع , وهاجم المعسكر الإسلامي الذي غط في سبات عميق بعد أن اعتقد بأن بحر أشموم طناح كفيل بتأمين الحماية لهم من الصليبيين إذا ما هاجمهم من جهة الشمال , فقرر رُوبرت مباغتتهم قبل طلوع الفجر (١) , ولم "يشعر المسلمون بهم إلا وهم قد خالطوا معسكرهم " (٢) , وما إن سمع قائد الجيش فخر الدين بن حموية الضجيج , وأصوات العويل حتى ارتدى ثيابه , دون أن يلبس دروعه , وأسرع لمواجهة الموقف , لكنه وقع في كمين نصبته له الداوية فلقى مصرعه , وتفرق جيشه متبعثراً في مدينة المنصورة والحقول المجاورة (٣), وأراد رُوبرت متابعة فلول الجيش الإسلامي داخل المنصورة , لكن الداوية وبعض العقلاء من رجاله طلبوا منه التريث, ريثما يصل لويس التاسع مع ما تبقى من الجيش , ولكنه لم يأخذ برأيهم (٤) , ثم "جاء عشرة فرسان مسرعين نحو كونت أرتوا وأخبروه باسم الملك بأن لا يتحرك , وأن عليه الانتظار حتى وصول الملك لويس التاسع " (٥) , وبالرغم من كل التوسلات اندفع متهوراً مع مقدمة الجيش, ولم يسأل نفسه لماذا لم يغلق المسلمون باب المدينة , وتركوه مفتوحاً ؟

وأين ذهب الجيش المصري المبعثر , فهل تحصن بداخل المنصورة أم فرّ هارباً ؟
لم يكن لمقتل القائد فخر الدين تأثيراً كبيراً على جيش المسلمين لأنهم مالبثوا أن عينوا أكثرهم قدرة , وكفاءة حيث سلموا ببيرس البندقاري قيادة الجيش (٦) .

(١) ابن واصل : ج٦ , ص ١١١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , تح وتر: سهيل زكار , دمشق ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م , ج ٥٨ , ص ١٩٩١ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٣٣ ؛
Dagen : op . cit , p72 .

(٢) ابن واصل : ج٦ , ص ١١١ .

(٣) أبو شامة : الموسوعة , ج ٢٠ , ص ٣٦٢ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٣٩-٣٤٠ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٣٤٩-٣٥٠ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٦ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٣٣٨-٣٣٩ ؛
Irwin , Robert: the middle east in the middle ages (the early momluk sultanate 1250-1382,London , 1986 , p20 ; Villeneuve , M : sant Louis en orient , Paris , 1909 , p 120-123 ; Michaud , M :bibliothèque des croisades , Paris , 1829 , volume 4,P458-459 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٨٩ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٣٣-١١٣٦ .

(٥) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٦ .

(٦) الدواداري : ج ٧ , ص ٣٧٦ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٣٤٩-٣٥٠ .

أوعز ببيرس لجنوده بترك باب المنصورة مفتوحاً , ووزع جنوده على أطراف الشوارع ومدخلها , أما أهالي المدينة فجعلهم في أعالي المنازل , ورمى جذوع الأشجار الضخمة في الشوارع لإعاقة حركتهم , وبعد قليل أتى رُوبرت يقود طليعة جيشه , وتراءى له أن بإمكانه القضاء على الجيش الإسلامي الذي فرَّ إثر مقتل فخر الدين , فتوغلت طليعة الجيش الصليبي داخل المدينة حتى وصلت أسوار قلعتها , كما انتشر جنوده في أزقة المدينة , وعندما حان الوقت المناسب أطبق عليهم المسلمون من كل حذب وصوب , ووقعوا في حالة من الفوضى والاضطراب , وطاردوا فلولهم وتعقبوهم في شوارع المنصورة , وعندما أرادوا الاحتماء داخل البيوت انهمال السكان عليهم ضرباً بالحجارة ورشقات السهام (١) , وقام المسلمون " وحملوا على الفرنج حملة واحدة عظيمة فزعزعوا بها أركانهم وهدوا بنيانهم ونكسوا صلبانهم وأخذتهم سيوف الترك ودبابيسهم , فأثخنوا فيهم قتلاً وجرحاً وطرحوهم في أزقة المنصورة " (٢) , بينما تحصن رُوبرت داخل أحد بيوت المنصورة , وأرسل إلى لويس التاسع طالباً النجدة , لكن مالبث أن تم اقتحام البيت وقُتل مع أفراد حاميته (٣) , كما قتلت مجموعة من الانكليز ترأسها (٤) وليم لونغوسي , أما بطرس كونت بريتاني فقد أصيب بجراح خطيرة لكنه تمكن من الفرار ليخبر لويس التاسع بالكارثة التي حلت بهم , ولم يكن الجيش الصليبي قد عبر المخاضة (٥) وما إن انتهى الجيش الصليبي من عبور المخاضة حتى وصلت الأنباء إلى لويس التاسع بطلب النجدة من قبل أخيه رُوبرت , ففوجيء بعمق الكارثة التي حلت بجيشه (٦) , وأمر بإنشاء خط دفاعي في المقدمة لحماية الجيش , كما طالب بإنشاء جسر على أشموم طناح إذا ما أُجبروا على التراجع , ثم أخذوا بالتقدم

(١) ابن واصل: ج٦ , ص ١١١-١١٢ ؛ أبو شامة : الموسوعة , ج٢٠ , ص ٣٦٢-٣٦٤ ؛ ابن العبري : مختصر الدول , ص ٢٥٩ ؛ ابن العميد , جرجس : , دار الثقافة الدينية , بور سعيد , ١٤١١هـ/١٩٩٠م , ص ٣٧ ؛ ابن إلياس , محمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور , تح: محمد زيادة , الهيئة المصرية للكتاب , القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م , ق ١ ج ١ , ص ٢٨٠ ؛ باريس : الموسوعة الشامية , ج ٤٨ , ص ١١٣٧-١١٤٠ ؛ يوسف , جوزيف : العدوان الصليبي على مصر , دار النهضة العربية , بيروت , ١٤٠٢هـ/١٩٨١م , ص ١٦٨ ؛

Villeneuve : op .cit , p 140-142 .

(٢) ابن واصل : ج٦ , ص ١١٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٩٤ .

(٤) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٣٩-١١٤٠ .

(٥) رنسيما : ج ٣ , ص ٤٦٠ ؛ زيادة : ص ١٥٧-١٥٨ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٩٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٤٠-١١٤١ .

نحو المنصورة ,فهاجمهم المسلمون وساقوهم نحو الوراق, وأصبحوا محصورين مابين أشموم طنّاح شمالاً , والجيش الإسلامي جنوباً (١) , وقرر الجيش الإسلامي شن هجوم شامل على الصليبيين في يوم الجمعة الموافق ٧ ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/ ١١ شباط ١٢٥٠م , وبدأت المعركة من ظهيرة يوم الجمعة حتى غروب شمس (٢) , وقد بين جوانفيل طريقة الهجوم بقوله : " قامت القوات الإسلامية جميعها من رجالة وخيالة بالحملة علينا , حملة رجل واحد " (٣) , فشتتوا شمل الصليبيين , ثم انشغل الصليبيون برمي جثث المسلمين والصليبيين في نهر النيل , مما أدى لانتشار الأمراض بينهم مثل تورم اللثة والغرغرينا والبقع الجلدية السوداء والرعاف , مما اضطرهم لانتشال الجثث فدفنوا جثثهم, أما جثث المسلمين فقد رموها بعيداً عنهم (٤) , ثم انشغل المسلمون بوصول توران شاه سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م من حصن كيفا إلى دمشق , و قد أعلن فيها سلطاناً , ثم تابع المسير إلى مصر حيث سلمته شجر الدر مقاليد الحكم (٥) , فبدأ بمناوشة الجيش الصليبي , ثم أنشأ مراكب صغيرة تركزت في فروع النيل هاجمت السفن التي كانت تحمل الإمدادات للصليبيين (٦) , ونجحت في المهمة التي أوكلت إليها ,

" وكانت عدة المراكب المأخوذة من الفرنج اثنين وخمسين مركباً , وقُتل وأسر ممن فيها نحو ألف رجل وأخذ ما فيها من الميرة " (٧) , وتسارعت الصعاب أمام الصليبيين لكن لويس التاسع لم يستكن وأراد رفع الروح المعنوية لدى جيشه , فأرسل إلى توران شاه لفتح باب المفاوضات والتخلي عن دمياط مقابل إعطائه بيت المقدس , وذلك بعد أن شعر بعجزه عن الاحتفاظ بدمياط , كما أنه أراد أن يضمن انسحاباً آمناً لجيشه لكنه لم يلق استجابته لأن عرضه أتى بعد فوات الأوان إذ كان توران شاه يتتبع

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٩٤-٩٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٢٩-١٩٣٠ ؛

Michelet , M : l, histoire de france , paris , 1988 , p204-205 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٣٠-١٩٣١ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٠٤-١٠٥ ؛ قجة , محمد: معركة المنصورة , دار الحوار , اللاذقية , ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م , ص٤١-٤٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٠٥ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١١٢-١١٣ ؛ يوسف: العدوان الصليبي على مصر, ص١٨١-١٨٧ .

(٥) أبو شامة : الموسوعة, ج٢٠ , ص٣٦٢ ؛ ابن العميد : ص٣٧-٣٨ ؛ ابن تغري بردي , يوسف : مورد اللطافة فيمن ولي السلطة والخلافة , د.م , د.ت , ص١٤٥ .

(٦) ابن فضل الله العمري : ج٢٧ , ص٣٤٠ ؛ الدواداري: ج٧, ص٣٧٧-٣٧٨ ؛ Irwin : op . cit , p21 .

(٧) ابن واصل : ج٦ , ص١٢١ .

أخبارهم , وما آلت إليه حالة الجيش الصليبي من ضعفٍ معنوي وعسكري (١) , وهنا مع تدهور أوضاع الصليبيين قرر لويس التاسع العودة إلى دمياط , وأكد على ضرورة الانطلاق عبر الجسر الذي نصبوه على أشموم طناح , ثم متابعة الطريق البري الواصل إلى دمياط , أما المرضى والجرحى فأراد إرسالهم على متن السفن عبر الفرع النهري الواصل ما بين المنصورة ودمياط (٢) , وفي صبيحة اليوم التالي بدأ الصليبيون بتقويض معسكرهم وأقلعت سفنهم , بينما حمل البقية أمتعتهم وعبروا جسر أشموم طناح , وساروا في ظلمة حالكة , ولم يكن يُسمع سوى صهيل الخيول وقعقة الأسلحة , وتولى لويس التاسع مراقبة مسيرة الجيش , وعمل على رفع معنوياتهم وشد أزهم , وتمت عملية الهروب بنجاح بعد أن دمروا كل ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون , وربما أنسأهم الخوف تدمير جسر أشموم طناح بعد عبورهم إياه , وعندما سمع المسلمون بهزيمتهم قرروا شن هجومٍ عام عليهم فتعقبوهم , وعبروا الجسر الذي تركوه خلفهم , وساروا إلى قرية فارسكور , مما أدى لإرهاق الجيش الصليبي , لأن المسافة ما بين أشموم طناح وفارسكور قاربت الخمسين كيلو متراً , كما أن المسير لم يكن أمراً سهلاً لكثرة القنوات والترع التي اعترضت سبيلهم , فضلاً عن مطاردتهم من قبل المسلمين الذين أدركوهم في فارسكور حيث لم يستطيعوا الهرب أكثر من ذلك , وفي فارسكور سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م (٣) , حدثت الملحمة الكبرى " وأخذتهم سيوف المسلمين واستولوا عليهم قتلاً وأسرًا " (٤) وقدّر سبط ابن الجوزي بأن عدد القتلى بلغ مائة ألف (٥) , ولكن هذا الرقم مبالغ فيه لأن تعداد الحملة خمسين ألف (٦) , بينما قدر ابن واصل وأبو الفداء عددهم بثلاثين ألفاً , وهذا هو الرأي الأرجح (٧) ,

(١) العيني , بدر الدين : عقد الجمان , الموسوعة , تح وتر: سهيل زكار , دمشق , ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م , ج ٦٠ , ص ٥٨٩ ; عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٧٢ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٤١ ; الجزري : ص ٢٢٠-٢٢١ ; جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١١٨-١٢١ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٣٥-١٩٣٦ ; ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٤١ ; الذهبي : العبر , ج ٣ , ص ٢٥٨-٢٥٩ ; جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١١٨-١١٩ ; ابن تغري بردي , يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , دار الكتب المصرية , ط ١ , القاهرة , ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م , ج ٦ , ص ٣٦٤-٣٦٥ ; زيادة : ص ١٨٥-١٩١ .

(٤) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٢٤ .

(٥) سبط ابن الجوزي : ج ٢ , ص ٧٧٨ .

(٦) ابن سبط : ج ١ , ص ٣٤٣ .

(٧) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٢٤ ; أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٧ .

بينما " استشهد من المسلمين نحو مائة رجل " (١) , وعلى هذا تلقى الجيش الصليبي ضربات موجعة , وخاصة في المنصورة وفارسكور , وذلك لأسباب عديدة أهمها :

١- تمرد وعصيان روبرت كونت أرتوا الذي لم يتقيد بأوامر أخيه لويس التاسع , مما أدى لإبادة معظم الفرسان الصليبيين في معركة المنصورة , وهم العنصر الأهم في المعركة (٢) .

٢- اهتمام توران شاه بالأسطول , وأسر السفن الصليبية المحملة بالميرة , مما أدى لقطع الإمدادات وانتشار المجاعة في صفوفهم (٣) .

٣- انتشار الأمراض والأوبئة بين الصليبيين بعد أن رموا جثث الموتى في نهر النيل قريباً من معسكرهم ثم عادوا وانتشلوها ودفنوها , وكان الأولى أن يدفنها منذ البداية مما كلفهم وقتاً وجهداً كبيراً (٤) .

٤- تلقي مصر الدعم والمؤازرة من بلاد الشام , فكانت الوحدة بين بلاد الشام ومصر هي السبيل لتدمير القوات الصليبية (٥) .

وضاقت على الصليبيين الأرض بما رحبت فقلل زادهم , وانقطع مددهم واشتدت الضربات عليهم , وكانت خسارتهم عظيمة تربو أضعاف ما خسرهم المسلمون , وهنا أدرك لويس التاسع أنه لا بد من بذل كل جهوده لإنقاذ جيشه وسحبه بسلام , فأيقن أنه أخطأ الطريق في الوصول إلى القاهرة حيث اعترضت سبيله الفروع النهرية والسبخات , مما أعاق حركة الجيش الصليبي , وأدى به إلى التهلكة (٦) .

(١) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٣٥٦ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٣٩-١١٣٤ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٨٩ .

(٣) اليماني , يحيى : غربال الزمان في وفيات الأعيان , تح : محمد العمر , دار الخير , دمشق ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م , ص ٥٢٤ ؛ الدواداري : ج ٧ , ص ٣٧٧-٣٧٨ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١١٢-١١٣ ؛ مونزود : مج ٢ , ص ٣١٦-٣١٧ .

(٥) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٣٣٧-٣٤٧ .

(٦) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٣٥٤-٣٥٦ ؛ اليافعي : ج ٤ , ص ٩١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص ١٩٨-٢٠٢ ؛

Stevenson : op . cit , p327-328.

٢- وقوع لويس التاسع والجيش الصليبي في الأسر .

إزاء المحن التي حلت بالجيش الصليبي أصبح من المستحيل متابعة الهرب , كما غدا من الصعب متابعة القتال , فضلاً عن المجاعات ونقص السلاح وسوء الأوضاع النفسية , إلا أن لويس التاسع نجى من الموت , ولم يعد يتحمل الصدمات , فمرض وأغمي عليه مرات عدة (١) , واصطحبه قائد حرسه الملكي جيفري دي سارجين إلى شار مساح حيث وضعه في قرية منية أبي عبد الله (٢) , ثم أرسل لويس التاسع فيليب مُونتيفورث (٣) صاحب صور للمفاوضة على تسليم دمياط مقابل الانسحاب بسلام (٤) , ربما التقى فيليب مُونتيفورث مع قاضي القضاة بدر الدين السنجاري (٥) , وبينما كانت المحادثات جارية قديم سيرجندي (٦) صليبي يُدعى مارسيل أخذ ينادي على قادة الجيش الصليبي " استسلموا أيها الفرسان , لأن الملك قد أمر بذلك ولا تكونوا سبباً في قتله " (٧) , فاستجابوا لطلبه , وهنا لماذا طالب مارسيل قادة الصليبيين بالاستسلام وعدم انتظار نتيجة المفاوضات ؟

إن من الغبن أن ينتظر مارسيل أو غيره من الصليبيين نتيجة المفاوضات , وإذا ما تم الافتراض جدلاً بأن المفاوضات أسفرت عن شيء فلن يكون سوى الاستسلام , لأن الجيش الصليبي قد تم تدميره وبعثرته , وأصبح عديم الفائدة بسبب الظروف الصعبة التي مر بها , وهنا وجد مارسيل بأن الاستسلام لا بد منه , ولكي يجبرهم عليه أكد لهم بأن حياة لويس التاسع في خطر إن لم يستسلموا , ولكن في الحقيقة من يقرر

(١) أبو شامة : الموسوعة , ج ٢٠ , ص ٣٦٤ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١١٤-١١٩ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٥٦-١١٥٧ .

(٢) قرية منية أبي عبد الله : إحدى قرى فارسكور , حيث تقع على الشاطئ الشمالي الشرقي لفرع دمياط , وتعرف اليوم باسم ميت الخوالي عبد الله . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , حاشية ص ٣٦٥ .

(٣) فيليب مُونتيفورث (إبلين) : يعد من أشهر بارونات آل إبلين , وقد كان حاكماً لإقطاع تبنين , وشارك في الحروب الإبلينية ضد فردريك الثاني , ثم انضم لحملة لويس التاسع الأولى , وقد أصبح خصماً عنيداً لبيبرس , ولكن الثاني دبر له عملية اغتيال سنة ١٢٦٩هـ / ١٢٧٠ م . رنسيما : ج ٣ , ص ٣٦٠-٥٧٠ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١١٩-١٢٠ .

(٥) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٢٢ .

(٦) سيرجندي (sergans) : أحد خيالة فرقة السيرجندي , وهم من الفرسان ذوي الأسلحة الخفيفة , وغالباً ما كانوا من المرتزقة . نوفارا : الموسوعة , ج ٣٤ , ص ٢٥٤ ؛ سميل , ر . سي : فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر , تر : محمد الجلاد , دار طلاس , دمشق , ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م , ص ١٧٥-١٧٦ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٢٠ .

الحرب أو الاستسلام الملك لويس التاسع وليس الجنود ، وهذه ليست مهمة مارسيل ، وفيما إذا راودنا الشك بأن مارسيل قد تلقى الأموال من المسلمين لقاء ما قام به ، ليس ذلك ببعيد ، فمارسيل جندي سيرجندي وغالباً ما كانت السيرجنديّة من المرتزقة التي هدفها الأساسي الحصول على الأموال ، ومن المحتمل أنه إثر انقطاع الإمدادات عن الصليبيين أصبح لويس التاسع غير قادر على دفع رواتب المرتزقة وتأمين متطلباتهم ، وهم غير مستعدين للقتال دون مقابل ، فأسرع مارسيل ينادي بالاستسلام .

ألقى الصليبيون أسلحتهم وأعلنوا الاستسلام ، فقام المسلمون بتطويقهم وأسروهم ، ولم يمه فليب مونتيغورث مباحثاته مع المسلمين حول هدنة محتملة (١)، كذلك أسرت السفن التي أقلت المرضى والجرحى قبل وصولها لدمياط (٢) ، كما استقصى المسلمون تحركات لويس التاسع ، وعرفوا بأنه كان مختفياً مع حاميته العسكرية في قرية منية أبي عبد الله ، فحاصروه ، ودافعت عنه الحامية العسكرية بكل شجاعة حتى قُتل معظم أفرادها ، ولم يجد المحاصرون بداً من الاستسلام ، وقد طلب لويس التاسع الأمان لنفسه وما تبقى من حاميته ، فأعطوهم الأمان وقبض المسلمون عليهم في الثاني من محرم سنة ٦٤٨هـ/السادس من شباط سنة ١٢٥٠م (٣) ، وسيق الأسرى جميعاً إلى مدينة المنصورة ، وقد نوه سبط ابن الجوزي إلى كثرتهم قائلاً : " أما عن الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج " (٤) ، أما جوانفيل فقال : " جرى حشد البارونات مع ما يزيد على عشرة آلاف رجل " (٥) ، وإثر ذلك النصر المبين أرسل توران شاه إلى نائبه في دمشق قائلاً : " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن (وما النصر إلا من عند الله) (٦) نبشر المسلمين كافة بما من الله على المسلمين من الظفر " (٧)، فابتهل المسلمون فرحاً بذلك النصر .

(١) جوانفيل: الموسوعة ، ج ٣٥، ص ١٢٠؛ رنسيما: ج ٣ ، ص ٤٦٥-٤٦٦ .

(٢) الذهبي ، محمد : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تح : عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط ١، بيروت ،

Dagen : op . cit , p72 .

١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، مج ٢٠ ، ص ٤٩-٥٠ ؛

(٣) الحنبلي ، أحمد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥١هـ/١٩٢٣م ، ج ٥، ص ٢٣٩

ابن الجزري: ص ٢٢١ ؛ ابن سباط : ج ١ ، ص ٣٤٨-٣٤٩؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٤-٣٦٥؛

Brentano : op . cit , p292-296 .

(٤) سبط ابن الجوزي : ج ٢، ص ٧٧٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥، ص ١٢٧ .

(٦) سورة الأنفال : آية رقم ١٠ .

(٧) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٥-٤٥٦ .

ووضع الأسرى في سجن كبير ، ودخل لويس التاسع مدينة المنصورة بعد جهودٍ مضنية ، ولكن ليس كما كان يحلم حيث دخلها مهزوماً مدحوراً (١) ، وسُجن في دار كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان، حيث كلف توران شاه الطواشي صبيح المعظمي (٢) بخدمته (٣) وعندما بدأت المفاوضات طالب توران شاه لويس التاسع بتسليم دمياط والممتلكات الصليبية في بلاد الشام ، فأشار لويس التاسع بأنه يمكن التنازل عن دمياط ، أما الممتلكات الصليبية فهي ليست من أملاكه ، إنما تخص كونراد بن فريدريك الثاني (٤) فهدده المسلمون ، وأصر على موقفه فأغفلوا ذلك الطلب ، وتم الاتفاق على تسليم دمياط افتداءً له ، ودفع مبلغ أربع مائة ألف ليرة ذهبية (٥) وبعد أن تم الاتفاق على شروط الصلح نُقل لويس التاسع وكبار البارونات من المنصورة إلى فارسكور حيث مقر إقامة توران شاه ، وقرروا الانطلاق إلى دمياط لتسليمها، وإطلاق سراح كبار الأسرى الصليبيين ، وقبل تطبيق الاتفاق استاءت شجر الدر من توران شاه ، فتآمرت مع الماليك وتخلصوا منه (٦) ، واستلمت شجر الدر الحكم من بعده (٧) .

كانت مارغريث زوجة لويس التاسع آنذاك في دمياط ، وقد أنجبت طفلاً سمته جين وعرف بجين الحزين (يُوحنا الحزين) ، لمولده في ظروف بائسة (٨) ، وسمعت مارغريث بأن ممثلي بيزا (٩) وجنوه (١٠)

(١) يُنظر الشكل رقم (٣) ، ص ٣١٢ .

(٢) صبيح المعظمي : أحد خدم السلطان توران شاه الذين قدموا معه من حصن كيفا، وقد كان له مكانة عالية لدى توران شاه ، فعينه خادماً للويس التاسع . ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٢٤ .

(٣) ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٣٤١ ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٦-٣٦٨ ؛ ابن سباط: ج ١ ، ص ٣٤٩ .

(٤) ابن الوردي: ج ٢ ، ص ٦٤ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٢٧-١٢٨ .

(٥) ابن العبري : مختصر الدول ، ص ٢٦٠ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٣٠-١٣١ .

(٦) سيتم الحديث بالتفصيل عن مقتل توران شاه في الفصل الثالث بعونه تعالى .

(٧) ابن فضل الله العمري: ج ٢٧ ، ص ٣٤١-٣٤٢ ؛ يوسف: العدوان الصليبي على مصر ، ص ٢١٥-٢٢٨ .

(٨) جوانفيل: الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٤٩ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٩٤ .

(٩) بيزا : ميناء يقع على الركن الشمالي الغربي من إيطاليا قريباً من الأندلس ، واشتهرت بصناعة الحديد البيزاني ، كما أسهمت بدور فعال في الحروب الصليبية . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٨٨ .

(١٠) جنوه : تقع شمال إيطاليا إلى الغرب من بيزا ، وهي منطقة خصبة فضلاً عن كونها ميناءً هاماً ، وبدت بيوت أهلها أشبه بالقلاع، وقد أسهمت بدعم المشروع الصليبي لتأمين مصالحها التجارية في الشرق . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٨٣ . مونرود : مج ٢ ، ص ٣٣١ .

في دمياط أرادوا الانسحاب منها بحجة نقص المؤن بعد أن سمعوا بأسر لويس التاسع وجنوده ، فاشتريت الأطعمة الموجودة في دمياط ، وأنفقت على جميع الصليبيين في دمياط، ثم أرسلت روبرت بطريك بيت

المقدس لمفاوضة توران شاه , ولم تكن تعلم بأن المماليك قتلوه, ثم غادرت إلى عكا (١) , وفي تلك الآونة ارتدت مجموعة من المسلمين لباساً أشبه باللباس الفرنسي و حملوا الرايات الصليبية , ثم موهوا أنفسهم وانطلقوا إلى دمياط أملاً في خداعهم , وأخذها منهم , وما إن نظر حراس المدينة ورأوا الأعلام الصليبية مرفرفة فوقهم حتى فرحوا فرحاً شديداً, لكن مع اقترابهم من المدينة ظهروا بأنهم لا يشبهون الفرنسيين حيث ساروا بسرعة , وتأكد الحراس بأنهم ليسوا فرنسيين عندما شاهدوا وجوههم السمراء ولحاهم الطويلة , فأغلقوا باب المدينة بوجههم وعادوا أدراجهم (٢) , وقد وصل آنذاك روبرت بطريك بيت المقدس لمفاوضة توران شاه , لكنه فوجئ بمقتله , ولم تعترف الحكومة المملوكية الجديدة بالاتفاق الذي عقده توران شاه مع لويس التاسع (٣) , وذهب عدد من المماليك , وقد استلوا سيوفهم , وهددوا لويس التاسع والبارونات , وطالبوه بالمزيد من الأموال مكافأةً على قتلهم غريمه توران شاه (٤), لكنهم مالبتوا أن استأنفوا المفاوضات مع الصليبيين , وعقدوا اجتماعاً ناب فيه عن المسلمين الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني (٥) في حين انتدب عن الصليبيين وليم كونت فلاندر وجين كونت سواسون والأخوان بلدوين الثاني إبلين وجاي إبلين (٦) , وتم افتتاح الاجتماع وبدأ حسام الدين الهذباني بتوجيه سؤال إلى لويس التاسع عن سبب قدومه إلى بلادهم , فرد لويس التاسع مبتسماً ولم يعط جواباً , ثم نصحه ألا يركب البحر مرة ثانية , ويقصد بلاد المسلمين , وعليه أن يتعلم من خطئه , وإن فعل ذلك مرة ثانية فهذا دليل على ضعفٍ في عقله , فرد لويس التاسع ضاحكاً , ولم يكن أمام لويس التاسع في ذلك الموقف الحرج سوى إظهار الابتسامات , لأنه كان قد أظهر عكس ما أضمر حيث سائر

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٤٩-١٥٠ .

Dagen : op . cit , p72. ; Grousset , Rene : histoire des croisades et du royaume franc du jeressalem , Paris , 1936 , volume 3 , p491 .

Villeneuve : op .cit , p179-180 .

Irwin : op .cit , p21 .

(٢) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٤٨-١١٤٩ ؛

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٣٨-١٥٠ ؛

(٤) سبط ابن الجوزي : ق٢ ج٨ , ص٧٨٢-٧٨٣ .

(٥) ابن واصل : ج٦ , ص١٣٣ ؛ العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٦٠١ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٣٦ .

حسام الدين الهذباني في كل ما قاله ريثما يخرج من ذلك المأزق , وتأتي الفرصة المناسبة للتأثر من المسلمين حيث رد لويس التاسع (١) قائلاً : " لقد صدق هذا القائل وما قصر فيما حكم به " (٢) , وأسفرت المحادثات التي جرت بين الطرفين عن عقد اتفاقية تضمنت البنود التالية:

- ١- إطلاق سراح لويس التاسع , وكبار قاداته مقابل تسليم دمياط للمسلمين (٣) .
- ٢- تعهد لويس التاسع بدفع " مائتي ألف ليرة ذهبية (٤) إليهم قبل مغادرته النهر , ومبلغ مماثل " إثر إطلاق سراحه (٥) مقابل إطلاق سراح الأسرى الصليبيين , وكذلك إخلاء مالديهم من أسرى المسلمين (٦) .
- ٣- احتفاظ المسلمين بالأسلحة الصليبية واللحوم المملحة , والأسرى الموجودين لديهم حتى يتم دفع المبلغ المتبقي على لويس التاسع (٧) .
- ٤- يتعهد لويس التاسع ألا يقصد سواحل المسلمين مرة ثانية (٨) .
- ٥- مدة الهدنة بين المسلمين والصليبيين عشر سنوات (٩) .

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٣-١٣٤ ؛ الدواداري : ج ٧ , ص ٣٨٤ .
(٢) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٤ ؛ المقرئزي , أحمد : السلوك لمعرفة دول الملوك , تح : محمد عبد القادر عطا , دار الكتب العلمية , ط ١ , بيروت , ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م , ج ١ , ص ٤٦٠ ؛

Dagen : op . cit , p72 .

- (٣) دويوا : الموسوعة , ج ٣٦ , ص ١٣٢-١٣٣ ؛ الدواداري : ج ٧ , ص ٣٨٤ . باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٥٧ ؛ قاسم , قاسم : ماهية الحروب الصليبية , مجلة عالم المعرفة , العدد ١٤٩ , مطابع الصفاء , الكويت , ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م , ص ١٥٨ ؛
- Miquel : op . cit , p52.
- (٤) هناك بعض المصادر التي ذكرت بأنه تم الاتفاق على دفع أربع مائة ألف بيزنطة , وهنا أشار جوانفيل إلى مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية في الحقيقة المبلغ نفسه لأن كل ليرة ذهبية تعادل اثنين بيزنطة جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٣١-١٣٦ .
- (٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٣٦ .
- (٦) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام , مج ٢٠ , ص ٥٣ ؛
- Grousset : op . cit , volume 3 , p292-293 .

- (٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٣٦-١٣٧ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٥١ .
- (٨) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٣-١٣٤ ؛ ابن إياس : ج ١ , ص ٢٨٢ .
- (٩) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٥٠ ؛ المهندس : ج ٣ , ص ٢٥٣ .

وتوجب على الطرفين أداء القسم على الالتزام بالاتفاقية (١) , و يذكر جوفانفيل بأن المماليك أعجبوا بتمسك لويس التاسع بدينه فاقترحوا تسليمه ملكاً عليهم (٢), و يمكن الإشارة إلى أن جوفانفيل انفرد من بين كل المصادر العربية والأجنبية بهذا الاقتراح , في الحقيقة من المستحيل أن يقوم أمراء المماليك بتسليم القيادة إلى لويس التاسع , وهنا يجب ألا ننسى بأنهم أطاحوا بسيدهم توران شاه من أجل الحكم , ومن جهة ثانية هذا العمل يُقلل من مكانتهم وهيبته في قلوب المسلمين إذا ما سلموا سيادتهم إلى عدوهم , وربما لم يكن ذلك إلا على سبيل المداعبة والمزاح .

وبعد إبرام المعاهدة بين الجانبين أرسل لويس التاسع أحد رجاله ويدعى جيفري دي سارجين إلى دمياط لتسليمها للمسلمين (٣) حيث دخل أهالي دمياط مدينتهم بعد " أن ملكها الفرنسيون أحد عشر شهراً وسبعة أيام " (٤) , وأصبحت دمياط الآن بأيدي المسلمين , واختلفوا حول تطبيق الاتفاقية مع الصليبيين حيث انقسم المسلمون إلى قسمين :

- مثّل الطرف الأول شجر الدر والمماليك الصالحية (مماليك الصالح أيوب) حيث رأوا أن لا فائدة من احتجاز الأسرى ومن الأفضل أخذ الفدية منهم وإطلاق سراحهم .
- أما الطرف الثاني الذي مثّله الأمير حسام الدين الهذباني وبعض الأمراء المماليك , فقد فضلوا قتل لويس التاسع وكبار القادة الذين معه , وذلك خوفاً من أن يشكلوا خطراً على المسلمين في المستقبل , وعندما سمع الصليبيون بذلك قال جوفانفيل: " فذرنا الكثير من الدموع " (٥) ,

(١) جوفانفيل: الموسوعة , ج٣٥, ص١٣٦-١٣٩ ؛ زيادة : ص٢٣٤-٢٣٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص٢٣٣-٢٣٥ .

(٢) جوفانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٣٩ .

(٣) ابن واصل : ج٦, ص١٣٤ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧, ص٣٤٢ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨, ص١١٥٠-١١٥١ .

(٤) الزبيدي , مرتضى : ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب , تح : صلاح الدين المنجد , دمشق ١٣١٩هـ/ ١٩٧١م , ص٨٣ .

(٥) جوفانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٤١ .

وبعد جدالٍ طويل تغلب رأي الطرف الأول لأن شهادتهم ورجولتهم لم تسمح لهم أن يغدروا بالصلبيين (١), واستطاع لويس التاسع جمع المبلغ المتفق عليه ودفع به إلى المسلمين , وأُفرج عن لويس التاسع وأخويه وكبار فرسانه وباروناته , أما بقية الأسرى فظلوا في الأسر ريثما يتم دفع كامل المبلغ المتفق عليه (٢), ثم سار لويس التاسع ورجاله الذين أخلى المسلمون سبيلهم إلى دمياط , وهم حوالي أربعمئة أسير (٣) , ووصلوا إلى شاطئ دمياط حيث كانت سفينة جنوية راسية صعد إليها لويس التاسع , ثم تبعه رجاله (٤) وغدا يوم رحيل الصليبيين في يوم الجمعة الموافق في الرابع من صفر سنة ٦٤٨هـ/ الثامن من آذار ١٢٥٠م يوم عيد ليس لأهالي دمياط فحسب بل للمسلمين جميعاً , وأقيمت الأفراح , وتبارى الشعراء بتمجيد الانتصارات , ووزعت شجر الدر الهدايا على الأمراء , وأنفقت الأموال على العامة , واختتمت الحملة الصليبية السابعة صفحة أعمالها بنهاية مفاجئة , وأخفقت كحرب استعمارية في السيطرة على مصر وبلاد الشام , وتحطم ذلك الجيش الضخم حيث ابتلعت أرض مصر ونيلها , وتبعثر مقاتلوها ما بين أسير وقتيل وجريح (٥) .

-
- (١) الذهبي : تاريخ الإسلام , مج ٢٠ , ص ٥٢-٥٣ ؛ الذهبي : العبر , ج ٣ , ص ٢٥٩ ؛ اليافعي : ج ٤ , ص ٩٢ .
(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٤٢-١٤٦ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٢ ؛ طقوش , محمد سهيل : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام , دار النفائس , ط ١ , بيروت , ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م , ص ٣٩ .
(٣) مونرود : مج ٢ , ص ٣٣١ .
(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٤٦-١٥١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص ٢٣٨-٢٤٠ .
(٥) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٤-١٣٦ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٠-٤٦٢ .

٣- استلام لويس التاسع حكم مملكة عكا .

أبحر لويس التاسع من دمياط قاصداً عكا على رأس ثلة قليلة من البارونات الناجين بأنفسهم تاركاً الكثير من جنود حملته الصليبية في الأسر , ناقلاً مسرح الأحداث الصليبية من مصر إلى بلاد الشام , أو بالأحرى من دمياط ومشارفها إلى عكا وما يجاورها (١) .

ولم يجد لويس التاسع في السفينة التي استقلها أبسط المستلزمات الأساسية (٢) , ولحسن حظه أنه احتفظ بالفراش الذي نام عليه في سجنه , وارتدى الملابس التي أهداها إليه توران شاه , وقد وصف جوانفيل تلك الملابس بأنها صُنعت من الحرير , وكانت مبطنة بفرو سنجاب , (٣) , فكم هناك فارق كبير بين نوايا لويس التاسع الذي كان ناقماً على المسلمين مُهدداً بقتل الرجال وترميل النساء وإبادة الجميع , وبين المسلمين الذين عاملوه بكل شجاعة وإنسانية , وألبسوه رداءً ذو أزرار ذهبية , فهل رأى التاريخ أرحم من العرب والمسلمين (٤) ؟.....

تابع لويس التاسع مسيره إلى عكا , وعلى ظهر السفينة استعاد مع رجاله ذكرياتهم الحزينة في مصر , وأظهر لويس التاسع حزناً عميقاً على فقدان أخيه روبرت , وغالباً ما اشتكى إلى جوانفيل من أخويه شارل وألفونسو اللذين انشغلا بلعبة النرد , ولم يتحمل كل ذلك الاستهتار , وأبدى غضباً شديداً ذات مرة , فحمل طاولة النرد ورمى بها في البحر (٥) , وأمضى لويس التاسع ورجاله مسيرة شاقة في البحر , وكأن كل ما حدث لهم في مصر لم يكن كافياً حيث ضربتهم عواصف بحرية كادت تؤدي لإغراقهم , وبعد ستة أيام وصلوا إلى مشارف عكا في التاسع من صفر سنة ٦٤٨هـ / في الثالث عشر من أيار ١٢٥٠م (٦) .

استقبل أهالي عكا الوفد القادم برئاسة لويس التاسع استقبال الأبطال الفاتحين , وقد خرجوا بشكل

-
- (١) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠١ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٦٣-١١٦٤ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٨ ؛ ابن سبط : ج ١ , ص ٣٥١-٣٥٢ ؛ زيادة : ص ٢٣٦-٢٣٧ ؛
- (٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٤ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٧٢ .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٥١ .
- (٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , ص ٣٦٢-٣٦٦ .
- (٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٥١-١٥٢ .
- (٦) رنسيما : ج ٣ , ص ٤٧٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص ٢٤٠-٢٦٨ .

مهيب تقدمهم رجال الدين حاملين الصليبان , وسار خلفهم الرجال والنساء والأطفال , وارتدوا أجمل ألبستهم وقرعت نواقيس الكنائس فرحاً بقدوم لويس التاسع نظراً لما كان يتمتع به من مكانة لديهم , فكانوا يأملون ببقائه ومساعدتهم على النهوض من كبوتهم بعد ما زعزعت الكوارث كيانهم , وأفقدتهم هيبتهم وحرمتهم من خيرة فرسانهم , وقد سار الجميع إلى الكنيسة وأدوا الصلوات , ثم طافوا في شوارع عكا , وبعد ذلك أوصلوا لويس التاسع ورجاله إلى أماكن إقامتهم, وعينوا لهم الخدم وقدموا لهم الهدايا الثمينة , وهنا شعر الصليبيون بالطمأنينة إثر وصول لويس التاسع (١) بعد أن انحسر وجودهم على الساحل الشامي " ما بين جبل لبنان وبحر الروم وهيفا (٢) وأرسوف وقيسارية وعكا وصور وغذنون (٣) وتبنين والشقيف وصيدا وبيروت وجبيل وأنفة (٤) والبترون وطرابلس (٥) وأنطرسوس وجزيرة أرواد والمرقب وجبيل واللاذقية " (٦) , ولم يرغب الصليبيون في الحفاظ على هذه المناطق فحسب بل بنوا الآمال بقدوم لويس التاسع بمد حدود كيانهم الصليبي , لكن ما إن وصل لويس التاسع إلى عكا حتى أتته رسالة من السيدة بلانشيه تحثه فيها على الإسراع في العودة إلى المملكة الفرنسية لمواجهة تهديدات ملك إنكلترا هنري الثالث الذي كان طامعاً بالسيطرة على الأراضي الفرنسية (٧) , فما كان من لويس التاسع إلا أن عقد اجتماعاً في يوم الأحد ١٧ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ / ١٩ حزيران ١٩٥٠م حضره أخواه شارل وألفونسو وكبار رجال الصليبيين في مملكة عكا , وافتتح لويس التاسع الاجتماع ورحب بالسادة الحضور وبين لهم بأنه أمام أمرين , إما العودة إلى فرنسا لمواجهة خطر إنكلترا , أو البقاء في مملكة عكا من أجل التصدي للمسلمين , وقد أعطاهم مهلة لمدة أسبوع

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ١٥٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٤ ؛ الافرنسي , لومند : تاريخ الكنيسة , تر : يوسف البستاني , مطبعة أبناء اليسوعيين , بيروت ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م , ص ١١٢ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p293-294 .

(٢) هيفا : المقصود بها حيفا , الباحث .

(٣) غذنون : المراد بها أرنون , الباحث .

(٤) أنفة : مدينة حصينة تقع على الساحل الشامي في جنوب القلمون وشمال البترون . ابن حوقل : صورة الأرض , دار الحياة , بيروت , ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م , ص ١٥٣-١٥٤ .

(٥) طرابلس : المقصود بها إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس , وقد شكلت إمارة واحدة بقيادة بُوهيند الرابع , الباحث .

(٦) الحريري : الإعلام والتبيين , ص ٩٧ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ١٥٦ ؛ مونرود : ج ٢ , ص ٣٣٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص ٢٦٨ .

لإبداء آرائهم (١) ، وفي يوم الأحد التالي عقد لويس التاسع اجتماعاً ثاني للبت في مسألة عودته أو بقاءه في عكا ، وحضر الاجتماع بارونات فرنسا ومملكة عكا ، وبدأ لويس التاسع حديثه بتوجيه السؤال إلى أخويه والبارونات الفرنسيين حيث طلب منهم إبداء مشورتهم حول القضية التي شغلتهم ، وكانوا قد عهدوا إلى البارون غي موفوزين (Guy de mauvoisin) التحدث باسمهم ، وقد أشار هذا البارون إلى لويس التاسع أن بقاءه في مملكة عكا أمر صعب لأن فرنسا في خطر ، وإذا ما أراد البقاء فلا يستطيع مهاجمة المسلمين بذلك العدد الضئيل من فرسانه (٢) الذين بلغوا حوالي مائة فارس ، وقد نصح لويس التاسع بالعودة إلى فرنسا لتسوية الخلافات مع إنكلترا ، وبعد ذلك يمكنه إعداد حملة صليبية جديدة لإنقاذ مملكة عكا ، لقد اكتشف لويس التاسع نوايا بارونات ، صحيح أن هذا رأي غي موفوزين ، لكن دون شك اتفق معهم مسبقاً على تلك المؤامرة من أجل إفساد خطة لويس التاسع بالبقاء في الشرق بحجة أنه لم يبق معه سوى قوة ضئيلة غير قادرة على صنع أي شيء ، مما يؤكد أن هؤلاء البارونات لم يدفعهم للاشتراك بالحملة الصليبية إلا الرغبة في زيادة أملاكهم وثرواتهم ، ولكن أحلامهم تلاشت إثر الهزائم التي لحقت بهم ، وأظهروا أنهم ليسوا مستعدين للبقاء مع لويس التاسع في الشرق ، ومن الأفضل العودة إلى فرنسا للدفاع عن أملاكهم وذويهم ، ثم أراد لويس التاسع معرفة رأي بارونات مملكة عكا الذين مثلهم يوحنا دي إبلين كونت يافا ، وقد أعطى رأياً جديداً عندما طلب من لويس التاسع تمديد إقامته في عكا لمدة عام واحد ، ريثما يتم إصلاح الأوضاع الداخلية ، واتخاذ الإجراءات الضرورية لتأمين الحماية لمملكة عكا ، وهنا احتج أودو النائب البابوي في فرنسا ، وأكد بأن بقاء لويس التاسع على رأس عدد ضئيل من الفرسان لا يمكن أن يحقق أية فائدة ، فرد جوانفيل ونوه بأن لويس التاسع لديه الكثير من الأموال ، وبإمكانه تجنيد عدد كبير من الفرسان الأوربيين المرتزقة إذا ما دفع لهم رواتب مغرية، واحتدم النقاش ما بين مؤيد ومعارض لرحيل لويس التاسع ، وتوترت الأجواء وهذا لويس التاسع من روعهم ، ولم يعط رأيه وطلب منهم إعطائه مدة أسبوع لإعطاء قراره النهائي ، ثم انصرف الجميع (٣)، وانتظروا قدوم يوم الأحد بفارغ الصبر لمعرفة رأي ملكهم حول البقاء أو العودة

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٥٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٧ ؛ زيادة : ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٥٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٨ ؛ رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٧٢-

Villeneuve : op .cit , 182-190 .

؛ ٤٧

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٥٦-١٥٩ ؛ يوسف ، جوزيف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، دار المطبوعات الحديثة

ط ٢ ، د. م ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ، ص ٨٠-٨١ .

إلى فرنسا، وعندما انعقد الاجتماع في يوم الأحد رسم لويس التاسع علامة الصليب على فمه (١) ، ثم توجه بالشكر الجزيل إلى الذين نصحوه بالبقاء في عكا ، وإلى الذين أشاروا عليه بالعودة إلى فرنسا ، وقد أعطاهم حرية الاختيار في البقاء أو العودة ، أما هو فأبى ترك مملكة عكا والعودة إلى فرنسا (٢) ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، لماذا لم يُعد لويس التاسع إلى فرنسا على الرغم من حاجة فرنسا الماسة إليه ؟ وما هو هدفه من الاستقرار في مملكة عكا ؟

قرر لويس التاسع البقاء في مملكة عكا لأسباب عديدة وهي على الشكل الآتي :

أ- لقد استاء لويس التاسع من والدته بلانشيه التي كانت مستبدة ، ولم تراع مشاعره ، ففضل البقاء بعيداً عنها ، ولم يَخَف على فرنسا لأن والدته قادرة على إدارة فرنسا بمن معها من الرجال الأشداء بل والدفاع عنها ضد الأخطار التي هددتها ، وبخاصة تهديدات هنري الثالث ملك إنكلترا (٣) ، بينما وصلت مملكة عكا مرحلة لا تحسد عليها من الضعف والانحلال ، ومن المحتمل أنه إذا عاد إلى فرنسا لربما يلحق به الكثير من الصليبيين ، ويتم القضاء على الكيان الصليبي إلى الأبد ، وهذا لا يتناسب مع لويس التاسع الذي لم يكن راغباً في الحفاظ على الكيان الصليبي فحسب بل كان يحلم أن يجعل منه قوة عظمى تبتلع كل ما حولها (٤) .

ب - وجد لويس التاسع بأن الصليبيين " كانوا ضعفاء وبائسين وغير سعداء " (٥) ، وقد شتت الخلافات شملهم ، فأراد تلافي تلك النزاعات ولم شملهم (٦) ، كما أراد تقوية علاقاته الدبلوماسية مع دول الجوار المعادية للمسلمين لعله يكسبهم إلى جانبه ، وبخاصة المغول لتشكيل حلف

(١) المقصود برسم علامة الصليب على الفم كما أوضحها جوفانفيل أن والدته علمته رسم تلك الإشارة من أجل استشارة السيد المسيح عليه السلام فيما ينوي الشخص التحدث به ، كي لا ينطق إلا بالحق والصواب. جوفانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٦١ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p494-495.

(٢) جوفانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٦١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٧-١٩٤٨ .

Gebhart : op . cit , p201-205 .

(٣) جوفانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١١٨-١٦١ ؛

(٤) أبو شامة : الموسوعة ، ج ٢٠ ، ص ٣٤٢-٣٦٤ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٦-٣٥٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ،

ص ٢٧٧-٢٨٨ ؛

Brentano : op , cit , p285-299 ; Stevenson : op , cit , p229-230 .

(٥) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٧ .

(٦) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٩٢-١٩٩٤ .

من أجل مجابهة المسلمين , والحفاظ على الكيان الصليبي بقوة السلاح (١), متناسياً اليمين الذي أقسم عليه لويس التاسع للمماليك (٢) .

ج - إن المؤامرة التي حاكها المماليك ضد سيدهم توران شاه , وتخلصهم منه قد زرعت الأمل في نفس لويس التاسع بأن هذا يعني انفصال بلاد الشام تحت قيادة الأيوبيين عن مصر , ونشوء دولة مملوكية جديدة فيها , وبذلك يتفرق الصف الإسلامي , فأخذ يأمل بأن يستغيث أحدهما به ضد الآخر , كما أنه ربما توقع حدوث ثورة أيوبية في مصر ضد المماليك الذين تخلصوا من توران شاه, وأخذوا بحكم مصر من خلال شجر الدر , فكان بقاءه في عكا هو السبيل للانتقام من المسلمين (٣) .

د - لم ينس لويس التاسع الهزائم التي مُني بها , ومقتل أخيه روبرت كونت أرتوا , كما لم تنس فرنسا فقدانها لخيرة فرسانها بتلك السرعة , ومن المحتمل أن الزمن قادر على محو تلك الآلام من أذهانهم , وإن لم يستطع لويس التاسع الانتقام من المسلمين فعلى الأقل يمكن أن يسعى لإطلاق سراح الأسرى من السجون المصرية (٤) , والدليل على رغبة لويس التاسع بالانتقام إرساله أخويه شارل وألفونسو والكثير من النبلاء الى أوربة لعل أوروبا ترسل حملة صليبية جديدة أملاً في مساعدة الكيان الصليبي للوقوف على قدميه (٥) .

وهكذا أصبح لويس التاسع حاكماً لمملكة عكا , علماً أنه ليس ملكاً شرعياً لأن الملك الحقيقي

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ١٦٧-١٨١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨, ص ١٨٨٠-١٩٥٠ ؛

Hamilton , Bernard : monastic reform catharism and the crusades 900-1300 , London , 1979 , p80-81 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ١٣٧-١٣٩ .

(٣) الحريري , أحمد : منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان , تح : عبده خليفه , دار عشتار , ط ١, بيروت , ١٤١٥هـ/١٩٩٥م , ص ٣٤٠-٣٤٢ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٦٦ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٤١-٣٤٣ ؛ سبط ابن الجوزي : ج ٢٨ , ص ٧٧٩-٧٨٣ ؛ ابن خلدون : ج ٥ , ص ٤١٧-٤١٨ .

(٤) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٠٧-١٣٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٣٢-١١٤٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية , ج ١٧ , ص ٣٠٥-٣٠٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , ص ٣٦٤-٣٧٠ ؛ فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٢ ؛

Delort : op . cit , p258-260 .

(٥) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٦٣-١١٧٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٤٨ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p496-497 .

لمملكة عكا هو كونراد بن فريدريك الثاني هوهنشتاوفن (١) , وذلك بسبب عدم قدوم كونراد إلى مملكة عكا مما أفسح المجال أمام لويس التاسع في حكم مملكة عكا , وذلك على الرغم من مطالبة بارونات عكا بقدوم كونراد لكنه كان متردداً في المجيء لعكا (٢) , ومن المحتمل أنه لم يكن مقتنعاً بمشروع الحروب الصليبية, ولو أنه كان مقتنعاً بذلك المشروع الصليبي لم يتوان عن القدوم إلى عكا لأنه انشغل بملذاته الخاصة فكان "سكيراً , مُبذراً , ومُضطهداً للكنيسة " (٣) أيضاً ربما أن سوء علاقته مع الكنيسة جعلته عازفاً عن القدوم إلى الشرق أو حتى تقديم الدعم للصليبيين , ولم يكن كونراد رافضاً لفكرة الحروب المقدسة فحسب بل كان معادياً للكنيسة , ولرجال الدين حيث لم يسمح لأحد بمعارضته أو الاحتجاج على أعماله , وقد قَتَلَ الكثير من الرهبان ظلماً وعدواناً , مما أدى لحرمانه كنسياً من قبل البابا أنوسنت الرابع , وبقي محروم كنسياً حتى فارق الحياة سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٤) .

وعلى هذا مالت قلوب الصليبيين جميعاً بما فيهم البارونات إلى لويس التاسع الذي عُرف بتقواه وورعه, متجاهلين الملك الشرعي كونراد وأصبح لويس التاسع سيداً للصليبيين , ولم يمتلك صفة الشرعية , كما لم يجد معارضة لحكمه عندما وجدوا رغبته الصادقة في الإصلاح وتوحيد قوتهم , والعمل يداً واحدةً ضد المسلمين , لإقامة الكيان الصليبي رغماً عن المسلمين (٥) .

(١) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص ١١٦٤ - ١١٩٦ ؛

Setton , Kent: a history of croisades , London , volume 2 , p559-566 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص ١٨٦٥ , ١٩٤٤ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص ١٩٩٢ .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص ١٩٩٢-١٩٩٣ .

(٥) ابن العبري : تاريخ الزمان , ص ٢٥٩ ؛ فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص ١١٧٢-١١٧٣ ؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة , ص ١٣٢ ؛
الافرنسي : ص ١١٢-١١٣ ؛

Hamilton : op . cit , P 80 .

٤ - الاهتمام في شؤون إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس .

شكلت إمارة أنطاكية حكومة مستقلة عن مملكة بيت المقدس (١) منذ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وارتبطت مع كونتية طرابلس سنة ٦١٧هـ/١٢١٩م تحت حكم البيت البُوهِمَنْدِي النورماندي الأصل (٢) , لكنها أصبحت فريسة لهجمات التركمان (٣) , لذا وجه لويس التاسع عنايته لإنقاذها في ذلك الوقت الحرج (٤) , لكن إسهاماته لم تفِ بالمطلوب تماماً , وهنا من الضروري العودة إلى الوراء قليلاً لإلقاء الضوء على الدور الذي قام به لويس التاسع من أجل النهوض بإمارة أنطاكية وكونتية طرابلس خلال مدة إقامته في الشرق , وتقديم صورة واضحة عن علاقة لويس التاسع مع مسيحيي الشرق حيث أنه عندما سمع بُوهِمَنْدُ الخامس أمير أنطاكية وكونتيه طرابلس (٦٣١-٦٤٩هـ/١٢٣٣-١٢٥١م) بوصول لويس التاسع إلى قبرص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م استغاث به لمساعدته في التصدي لغارات التركمان , وعلى الفور أرسل له لويس التاسع من قبرص ستمائة فارس , فتصدى بُوهِمَنْدُ الخامس لهجمات التركمان ووضع حداً لتماديهم (٥) , لكن ما إن سمعوا بهزيمة لويس التاسع في مصر حتى أدركوا أن المدد قد انقطع عن بُوهِمَنْدُ الخامس , فهاجمت جموع التركمان أنطاكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م , واجتاحوا ضواحيها ونهبوا حقولها , وخطفوا الماشية وقتلوا كل من وقع بأيديهم من السكان , وعندما أيقن التركمان أن بُوهِمَنْدُ الخامس غير قادر على ردعهم شنوا غارةً

(١) إثر معركة حطين اضمحل سلطان ملوك مملكة بيت المقدس الثانية , فأصبحت أنطاكية في حالة استقلال تام , ولم تبق هناك سوى تبعية اسمية لمملكة بيت المقدس الثانية حيث أصبح لها مجالسها المنفردة , وأدارت أمورها الداخلية دون تدخل ملوك مملكة بيت المقدس الثانية في شؤونها . غروسيه : الحروب الصليبية , ص ١٠١ .

(٢) الزين , سميح : تاريخ طرابلس , دار الأندلس , ط ١ , ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م , ص ١٢٤-١٢٧ ؛ سالم , عبد العزيز : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي , دار المعارف , مصر , ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م , ص ١٣٥-١٦٢ .

(٣) التركمان : قدم التركمان من بلاد ما وراء النهر , وانساح التركمان غرباً في شمال بلاد الشام , وسهل الجزيرة الفراتية , وجبال طوروس , وقد حملوا خيامهم , وساقوا أمامهم قطعان الإبل والأبقار والماعز , ثم اعتنقوا الإسلام وتطوعوا في الجيش الأيوبي , وبخاصة في عهد الصالح نجم الدين أيوب الذي استكثر منهم في جيشه . مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٨٩ ؛ ابن خلدون : ج ٥ , ص ٤٢٦-٤٣٠ ؛ الحايك , منذر : العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية , دار الأوائل , ط ١ , دمشق , ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م , ج ١ , ص ١٥٢-١٥٣ .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٨٩-١٩٩٠ ؛ عطية , حسين : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ٥٦٧-٦٦٦هـ/١١٧١-١٢٦٨م , دار المعرفة الجامعية , ط ١ , الأزاريطة , ١٤١٠هـ/١٩٨٩م , ص ٣٧٦ .

(٥) رنسيमान : ج ٣ , ص ٤٤٩-٤٥٠ ؛ زيادة : ص ٩٨ .

جديدة على أنطاكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠ م ، فشكّل بُوهيند الخامس جيشاً ، وانطلق من طرابلس للتصدي لهم ، ولكنه لم يصمد أمامهم ، وفرّ هارباً بعد أن مُني بخسائر في الرجال والعتاد ، وهنا أرسل بُوهيند الخامس إلى لويس التاسع لإخباره بالحالة المأساوية التي كانت تعيشها بلاده بسبب هجمات التركمان عليها (١) ، فما هو موقف لويس التاسع من رسالة بُوهيند الخامس ؟

كان لويس التاسع قد أصبح حاكماً لمملكة عكا ، وتوجب عليه تأمين الحماية والأمن للصليبيين ، ولكنه بسبب ضعفه لا يمكن إفادة بُوهيند الخامس بشيء بعد أن دُمرت حملته في مصر ، وراح جنوده مابين قتل وأسير ، كما أن المساعدات لم تأت بعد من أوروبا إن كانت هناك مساعدات ، ولم يستطع التفريط بما لديه من عدد ضئيل من الجنود إذرهم لوقت الحاجة (٢) ، وعلى ما يبدو وجد لويس التاسع أن الناصر يوسف الثاني ملك حلب (٣) هو الذي كان وراء دعم التركمان ضد أنطاكية (٤) ، لذا لجأ لويس التاسع لإثارة الفتنة بين الناصر يوسف الثاني والمماليك في مصر ، وبالفعل نجح بإشعال نار الحرب بينهما (٥) ، والأهم من كل ذلك العمل على إشغال الناصر يوسف الثاني عن دعم التركمان ، ولكن هذا لا يعني انعدام غارات التركمان على أنطاكية (٦) ، ويمكن التنويه إلى أن بُوهيند

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٩ .

(٢) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٥٨-٢٦٠ .

Etenne, Lamy : france du levant ,Paris , 1900 ,p41 ; Hamilton : op .cit , p80 .

(٣) الناصر يوسف الثاني : هو الملك الناصر يوسف الثاني بن الملك العزيز صاحب حلب ، ولد سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩ م ، وملك حلب بعد وفاة والده سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦ م وأشرف على تدبير مملكته جدته ضيفة خاتون بنت العادل ومقدم العسكر شمس الدين لؤلؤ الأرمني ، وقد توفيت جدته سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢ م ، وأدار المملكة وعمره ثلاث عشرة سنة ، واستولى على مملكة حمص من يد الأشرف موسى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨ م ، وعوضه بتل باشر وتدمر والرحبة ، لكن الخلافة العباسية أعادت الأشرف موسى إلى مملكته ، بينما ضم الناصر يوسف الثاني نصيبين ودمشق إلى مملكته ، وعندما هاجم المغول حلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩ م تصدى لهم ، ثم طلب المعاضدة من مصر ، وكان له مستشار كردي اسمه حسين دُلّ المغول على مكان وجوده ، فأسروه وأرسلوه إلى هولاكو ، فقتله سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠ م . المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٣٩ ؛ الحنبلي ، أحمد : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تح : ناظم رشيد ، دار الحرية بغداد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨ م ، ص ٤٠٨-٤٢٠ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج ٤٩ ، ص ١٣٠٨ .

(٥) سبط ابن الجوزي : ق ٢ ج ٨ ، ص ٧٨٣-٧٨٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٨-٢٩٢ ؛ ابن سباط : ج ١ ، ص ٣٥٢-٣٦٠ ؛ الحريري : منتخب الزمان ، ص ٣٤١-٣٤٣ ؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ص ١٢٣-١٢٤ ؛

Smil , R. C: the crusaders , new yourk , 1972 , p34 .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١٣٠٨ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٩٦-٢٩٧ .

الخامس لم يكن قادراً على ردع التركمان في الوقت الذي أرسل فيه الموارنة (١) ابن أميرهم سمعان (٢) " ومعه خيل بخمسة وعشرين ألف مقاتل نجدة للملك " ! (٣) الفرنسي لويس التاسع مع العلم أن الموارنة كانوا تحت سيادة بُوهيند الخامس , فلماذا لم يساندوا بُوهيند الخامس ضد التركمان ؟ ولكن مما يلفت الانتباه هذا العدد الكبير من الموارنة الذين قدموا إلى لويس التاسع , فمن المؤكد أن هذا العدد مُبالغ فيه , لأن خمسة وعشرين ألف مقاتل لا تستطيع إعدادة سوى الدول الكبرى ! أما فيما يتعلق بعدم مساندة الموارنة لبوهيند الخامس , فهناك احتمالان :

الاحتمال الأول : عدم اعتراف الموارنة بسلطة بُوهيند الخامس حيث استقلوا بشؤونهم الداخلية , وتمتعوا بالحكم الذاتي , ولربما بسبب نظرة اللاتين المتعالية تجاه الموارنة سكان كونتية طرابلس الأصليين (٤) .

الاحتمال الثاني : الخلاف الديني _ المذهبي بين سكان أنطاكية , وبخاصة بين العنصر البيزنطي الأرثوذكسي من جهة , والمستوطنين الصليبيين الكاثوليك من جهة أخرى , فإذا ما تعاون الموارنة مع بُوهيند الخامس الذي يدين بالمذهب الكاثوليكي , فإن ذلك سيؤدي لإثارة الخلافات مع جيرانهم الأرثوذكس من أبناء أنطاكية (٥) .

ويمكن ترجيح الاحتمال الأول مما أدى في النتيجة لعدم وقوف الموارنة إلى جانب بُوهيند الخامس في أحلك الظروف , بينما ساندوا لويس التاسع , وقد أُعجب لويس التاسع بالموارنة , وأرسل رسالة إلى أميرهم أظهر في مقدمتها الفرح والسرور الذي انتابه بقدوم سمعان ورجاله حاملين الهدايا الفاخرة ,

(١) الموارنة : ظهر الموارنة مع نهاية القرن السادس الميلادي , ويعودوا بنسبهم إلى الراهب مارون بن أغاثون بن عبرون , ومارون كلمة سريانية تعني السيد , وكان مارون موافقاً رأي الكنيسة الرومانية التي تقول بأن للسيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام طبيعة واحدة , فعينه البابا مطراناً على جبل لبنان والبترون والساحل الشرقي للبحر المتوسط , وذلك من أجل حماية تلك المنطقة من البدع , وعندما مات مارون دفنوه في حمة على ضفة نهر العاصي , وبنوا فوق قبره دير عرف بدير مار مارون . الدويهي, اسطفانوس: تاريخ الطائفة المارونية , تح : رشيد الشرتوني , المطبعة الكاثوليكية , د.م , ١٢٦١ هـ / ١٨٩٠ م , ص ٨-١٣ ؛ الشدياق , طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان , تح : مارون رعد , دار نظير عبود , لبنان , ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م , ج ١ , ص ٣٧-٣٨ .

(٢) الأمير سمعان : أقام في أنطاكية , وحكم الموارنة من سنة ٦٤٣-٦٧٦ هـ / ١٢٤٥-١٢٧٧ م , وكان على علاقة وثيقة مع البابوية في روما . يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٣١٤ .

(٣) الشدياق , طنوس : أخبار الأعيان في جبل لبنان , تح : مارون رعد , دار نظير عبود , د.ت , ج ٢ , ص ١٢ .

(٤) الدويهي : الطائفة المارونية , ص ١١٠-١١١ ؛ سالم : ص ٢٢٥-٢٢٦ .

(٥) عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩٦ ؛ الزين : ص ١٢٦-١٢٧ ؛

Setton op . cit , volume 2 , p566 .

ثم أكد لويس التاسع للموارنة مكانتهم الغالية في قلبه ,ومن حقهم دخول الوظائف في فرنسا مثلهم مثل الفرنسيين , وأشار الى الروابط الوثيقة التي ربطت فرنسا والموارنة والتي تمثلت بالرابطة الدينية الكاثوليكية , وأوصاهم بالتمسك بالمذهب الكاثوليكي من أجل خدمة المشروع الصليبي (١).

تواترت هجمات التركمان على أنطاكية سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م (٢) , كما احتدم الصراع بين الفرنجة الكاثوليك والعنصر المحلي الأرثوذكسي , فآثر بُوهيند الخامس الاستقرار في طرابلس تاركاً أنطاكية وشأنها إلى أن فارق الحياة سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م (٣) , لم يترك بُوهيند الخامس سوى ولداً واحداً في الرابعة عشر من عمره , تم تنصيبه أميراً على إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس باسم بُوهيند السادس (٤) تحت وصاية أمه لوسي الإيطالية الأصل ريثما يصل إلى سن البلوغ (٥) , وقد مرت أنطاكية آنذاك بظروف قاسية , ولم تكن أحوالها قد تحسنت عن ذي قبل بل سارت أوضاعها من سيء إلى أسوأ بعد أن واصل التركمان هجماتهم عليها سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م , حيث أسروا المزارعين , وأحرقوا المحاصيل , ودمروا كل ما وجدوه أمامهم حتى أن أهالي أنطاكية لم يجرؤوا على مزاوله أعمالهم خارج أسوارها (٦) , وأمام تلك الظروف القاسية تركت الأميرة لوسي أنطاكية واستقرت في طرابلس , وأهملت أنطاكية بدلاً من أن تتولى الدفاع عنها , وهذا ما أزعج الأمير بُوهيند السادس الذي لم يكن راضياً عن تصرفات والدته , فانتهاز فرصة ذهابه معها لزيارة لويس التاسع في عكا سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م , حيث رحب لويس التاسع بالأمير الضيف وأمه لوسي , وشكى له ما آلت إليه أوضاع أنطاكية نتيجة لإهمال والدته لوسي لها واستقرارها في طرابلس , وإذا ما بقي مع أمه في طرابلس فإن أنطاكية مآلها الضياع , وطلب منه لويس التاسع إقناع والدته الأميرة لوسي

(١) الدوبيهي : الطائفة المارونية , ص ١١٠-١١١ ؛ الشدياق : ج ٢ , ص ١٢ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٢٥ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p512 .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩٦ ؛ الزين : ص ١٢٧ ؛

Setton : op . cit , volume2 p566 .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٢ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٧٩ .

(٦) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٠٧-١٣٠٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٣٠ .

بإنهاء وصايتها عليه قبل بلوغه سن الرشد فعلاً (١) , ومن الواضح أن لويس التاسع أعجب بذكائه وشجاعته , فأقنع لوسي بإنهاء وصايتها عليه مقابل تعيين دخل كافٍ لها , وقد نصّب لويس التاسع بُوهيند

السادس فارساً وسط احتفال مهيب , وبذلك أصبح تابعاً لسيده لويس التاسع , ووافقت الأميرة لوسي على إعطاء بُوهيند السادس الأموال الكافية للدفاع عن إمارته (٢) , وبعد عودته إلى إمارته قام بتنظيم أمورها , وواجه الأخطار التي هددتها , فتصدى لهجمات التركمان , كما أضاف شعار فرنسا (٣) إلى شعار أنطاكية (٤) اعترافاً منه بفضل لويس التاسع عليه (٥) .

أرسل لويس التاسع سنة ١٢٥٠هـ/١٢٥٢م مجموعة من الحجاج وعلى رأسهم جوانفيل للحج إلى كنيسة مريم العذراء في طرطوس التي تعد من أكثر الأماكن المسيحية قداسه في العالم لأن القديس بطرس أكد أن السيدة مريم العذراء تجلت له هناك , فبنيت كنيسة في ذلك المكان , وقد أوصى لويس التاسع جوانفيل أن يشتري له " مائة قطعة قماش من وبر الجمل " (٦) , لتوزيعها على الرهبان الفرنسيين عند عودته إلى فرنسا (٧) وبعد أن أدى الحجاج مناسكهم قادهم جوانفيل لزيارة بُوهيند السادس من أجل الاطمئنان على أوضاع إمارته , ويمكن الإشارة إلى أن جوانفيل قد ارتبط

(١) في الحقيقة إن سن البلوغ وفقاً لشرائع مملكة عكا هو سن الخامسة عشر , وفي هذه الحالة يتبقى بضعة أشهر حتى يصل بُوهيند السادس سن البلوغ , أما سن البلوغ في فرنسا فهو سن الحادية والعشرين , فهو بحاجة لست سنوات كي يصل سن البلوغ , وقد أخطأ جوانفيل عندما حدد بأنه احتاج لأربع سنوات حتى وصوله لسن البلوغ , وفي كلتا الحالتين سواء حسب القانون الفرنسي أم حسب قانون مملكة عكا , فهو لم يصل للسن القانوني , فأراد موافقة لويس التاسع لاعفائه من شرط المدة وكان له ما أراد . جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٢ ; يوسف , جوزيف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , دار النهضة العربية, بيروت , ١٤٢١هـ/١٩٨١م , ص ٣٠٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٢ ; عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩٦ .

Setton : op .cit , volume2, p566 ; pernoud : op .cit .p234-235 ;

Grousset : op . cit , volume 3 , p512-513 ; Villeneuve : op .cit , p205-206.

(٣) شعار فرنسا : اتخذت فرنسا من اللون الأحمر شعاراً لها , وقد كان أحد طرفي الشعار مشقوق من أحد جانبيه , فبدا وهو يرفرف كأنه ألسنة النار الملتهبة , وهذا الشعار اتخذته الملوك الفرنسيون منذ عهد فيليب أوغسطس ولويس الثامن شعاراً لفرنسا بعد أن كان خاصاً بدير القديس ديس في فرنسا . عطية : ص ٣٩٠-٣٩١ .

(٤) شعار أنطاكية : اتخذت أنطاكية من اللون الأصفر الذهبي علماً لها . جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٢ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٢ ; عطية : ص ٣٩٠ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢١٦ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢١٦ ; مونود : ج ٢ , ص ٣٣٧ ; pernoud : op .cit , p234-235 .

معه بصلة قرابة , واحتفل بُوهيند السادس بالحجاج الصليبيين أظهر فرحاً عظيماً , ولم ينس اهتمام سيدهم لويس التاسع وعنايته به , فأعد للحجاج هدايا ثمينة , وسر لويس التاسع بالأخبار التي وصلته عن بُوهيند

السادس (١) بتصديه للخطر التركماني, وقد تلقى مساندة البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٤/هـ٦٥٢م عندما فرض على الكنائس القبرصية دفع جزء من إيراداتها لمساعدة بُوهْمُنْد السادس في أعمار ما خربه التركمان في إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس (٢) .

وعلى هذا وقفت إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس على شفا جرف بعد أن اجتاحتها التركمان , وكادوا يجعلوها أثراً بعد عين , ولكنها حظيت بعناية لويس التاسع ودعّمه العسكري والمعنوي (٣) , بل وسياسته الدبلوماسية التي قامت على إذكاء نار الفتنة بين الأيوبيين والمماليك , فشغل الأيوبيين بالنزاع مع المماليك (٤) , مما أطل في عمر إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس , ولم يهتم لويس التاسع بتحسين أوضاع أنطاكية وطرابلس فحسب بل أصلح علاقاتها مع جيرانها كي يصنع حلفاً صليبيّاً قادراً على مواجهة المسلمين (٥) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٦٠ , ٢١٧

(٢) إديوري , بيترو: قبرص والحروب الصليبية , دار الملتقى , ليماسول , ١٣٩١هـ/١٩٧١م , ص٧٣-٧٤ ؛ عطية : ص٣٨٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٨٩-١٩٩٥ ؛

Grousset : op . cit volume 3, p512-513 .

(٤) الدواداري : ج٧ , ص٣٨٥-٣٨٦ ؛ المقرئزي: السلوك, ج١, ص٤٦٠-٤٦٩ .

(٥) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٣-١٩٩٥ ؛ رنسيما : ج٣, ص٤٧٩ ؛

Mayer : the crusades ,new York , 1988 , p266 .

٥ - إصلاح العلاقات بين أنطاكية وأرمينية الصغرى .

أدرك لويس التاسع أهمية توحيد المسيحيين بعد انقسامهم إلى ممالك هزيلة متناحرة , مما مكّن المسلمين من تحقيق مكاسب كبيرة على حسابهم , وقد بدأ لويس التاسع بمساعي الصلح بين مملكة أرمينية الصغرى (١), وإمارة أنطاكية , فتحسنت العلاقة بينهما بفضل وساطته وتوطدت روابط الصداقة وتكثرت جهوده بعقد زواج سياسي بين الأسرتين الحاكمتين فيهما (٢) .

فمنذ أن وصل لويس التاسع إلى قبرص أرسل هيثوم الأول (٣) ملك أرمينية الصغرى إليه وفداً مُحملاً بالهدايا , وقد تحدث لويس التاسع مع ذلك الوفد حول إنهاء الخلاف الذي طال أمده بين أرمينية وأنطاكية (٤) , وهنا لابد من العودة إلى الوراء قليلاً لمعرفة سبب ذلك النزاع ؟

إثر وفاة ليو الثاني ملك أرمينية ترك وراءه ابنته إيزابيلا (٥) وريثة عرش أرمينية من بعده , وهنا اقترح بارونات أرمينية تزويجها من فيليب نجل بُوهيند الرابع رغبةً منهم في إنشاء مملكة أرمينية - فرنجية , وتم الزواج سنة ١٢٢٢/هـ ٦١٩م ولكن فيليب خيب آمالهم بعد أن أساء معاملتهم حيث أحاط نفسه

(١) أرمينية الصغرى (كيليكيا) : تقع شمال أنطاكية , وسميت بأرمينية نسبة إلى أرمن قومس ياشور أحد أشرافها , وقد فتحها المسلمون في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . الحميري , محمد : الروض المعطار في خبر الأقطار , تح : إحسان عباس , دار السراج , ط ٢ , بيروت , ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م , ص ٢٥-٢٦ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٥ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٨ ؛

Setton : op.cit , volume 2 , p566 .

(٣) هيثوم الأول : هو ابن قسطنطين زعيم آل هيثوم أحد أشراف أرمينية , حيث عُيّن قسطنطين وصياً على الأميرة إيزابيلا إثر وفاة والدها الملك ليو الثاني , ثم تزوجت إيزابيلا من فيليب بن بُوهيند الرابع , وبعد اغتيال الأرمن لزوجها قام قسطنطين باختيار هيثوم زوجاً لإيزابيلا سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م فأصبح هيثوم الأول ملكاً لأرمينية , وقد سعى لإيجاد وحدة وطنية بين الفئات الأرمينية , واتبع سياسة المهادنة مع دول الجوار , وله دور كبير جداً في الغزو المغولي لبلاد المسلمين , مما أدى لاجتياح الظاهر بيبرس لأرمينية واشتبك مع ابني هيثوم ليون وطوروس , فأسر الأول وقتل الثاني لكن بيبرس عفى عنه , وتنازل هيثوم عن الحكم لابنه ليون , ثم انطلق ليعيش في أحد الأديرة , وبعد ذلك بقليل فارق الحياة سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م . ابن العبري : تاريخ الزمان , ص ٢٦٣-٢٦٤ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٣٠٦-٥٧٠ .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٥ ؛ زيادة : ص ٩٨ .

(٥) إيزابيلا : ابنة ليو الثاني ملك أرمينية تزوجت من فيليب بن بُوهيند الرابع سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م , ثم تزوجت من هيثوم الأول ولها منه ثلاثة أولاد , وعُرفت بورعها , وسخائها وحبها للأعمال الخيرية , وتوفيت سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م . ابن العبري : تاريخ الزمان , ص ٢٦٢-٢٦٣ , ٢٧٩ ؛ الأرمني , سمباط : التاريخ المعزو لسمباط الأرمني , الموسوعة الشامية , تح وتر : سهيل زكار , دمشق , ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م , ج ٣٥ , ص ٣٢٠-٣٢٤ .

بحاشية فرنجية , واستخف بالجنود الأرمن وكان يناديهم بالفلاحين , كما احتجب عنهم حتى إذا ما أرادوا زيارته لم يأذن لهم (١) , فتآمر عليه الأرمن واختطفوه , ثم سجنوه فأرسل بُوهيند الرابع مطالباً بإطلاق سراحه

، وبدلاً من إخلاء سبيله سقوه سماً ، وتخلصوا منه ، وزوجوا أرملة إيزابيلا من هيثوم الأول سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ، فتأججت العداوة بين أرمنية وأنطاكية (٢) .

ولكن ما إن تدخل لويس التاسع بين أرمنية وأنطاكية حتى حل الوئام ، وتعمقت العلاقة بينهما مع مرور الزمن (٣) ، وبشكل خاص بعد أن تعرضتا لهجمات التركمان ففي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ودمروا مناطقها وأسروا أحد إخوة الملك الأرمني هيثوم الأول ، فأرسل هيثوم الأول إلى لويس التاسع يخبره بالخطر التركماني الذي هدد أرمنية ، ومن المحتمل أن لويس التاسع نصحه باستجداء المغول بعد أن أصبحوا أكبر قوة عظمى في الشرق (٤) ، وبالفعل سار هيثوم الأول على الطريق الذي مشى عليه لويس التاسع في استجداء المغول لتدمير كل ما هو عدو للمسيحيين ، فقرر التوجه إلى العاصمة المغولية قراقورم (٥) لتقديم ولاءه وخضوعه لهم ، حيث خرج مُتخفياً بعد أن ارتدى ثياباً رثة ، وركب دابة هزيلة، وسار عبر بلاد الروم متجهاً نحو قراقورم ، وإلى جانبه بارسيل أحد فرسانه ، وفي الطريق عَرفه أحد رجال الروم ، فصاح هذا هو الملك هيثوم الأول ، وعندما سمعه بارسيل لطم هيثوم الأول، وشتمه قائلاً : " يا جاهل هل أصبحت ملكاً وأصبحوا يشبهونك بالملوك " (٦)، لدفع الشبهة عنه ، (٧)، واجتاز هيثوم وبارسيل بلاد الروم ، ثم توغلا في بلاد فارس ، ووصلا إلى خراسان ، وعلى ما يبدو انتظر هيثوم في خراسان ريثما تصل الهدايا التي أعدها والده قسطنطين ، حيث أرسلها له مع مجموعة من رجاله ، وربما أولئك الرجال ارتدوا زيّ التجار خوفاً من اكتشاف أمرهم ،

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٦٣ .

(٢) الأرمني : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٣٢٠-٣٢٤ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٦٢-٢٦٣ ؛ المدور ، مروان : الأرمن عبر التاريخ ، منشورات مكتبة الحياة ، ط ١، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ، ص ٢٣٥ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٩٥ ؛ رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٧٩ ؛

Hamilton : op .cit , p80 ; pernoud : op .cit , p235 .

(٤) مجهول : ذيل روثلين : الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٦١-٦٢ ؛ الأرمني : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٣٢٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٩ ؛

Hanilton : op .cit , p80-81 .

(٦) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٩٧ .

(٧) الأرمني : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٩٧-٢٩٨ ؛ مختصر الدول : ص ٢٦٢-٢٦٣ .

ووصلوا بأمان والتقوا مع سيدهم هيثوم الأول في خراسان ، وسلموه الهدايا ، ثم سار هيثوم الأول ، ووصل إلى قراقورم سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (١) ، وقَدَّم الكثير من الهدايا الثمينة إلى مُنكوخان (٢) ، فاستقبله

مُنكوخان بحفاوة وابتهاج ، وسُر الخان المغولي بالهدايا التي قدمها له هَيْثُومُ الأول (٣) وقد سار هَيْثُومُ الأول على الطريق الذي رسمه له لويس التاسع حيث سعى لإقناع المغول بإيجاد تحالف مغولي- مسيحي ضد المسلمين (٤) ، موضحاً لمُنكو خان الخلافات الأيوبية- المملوكية في مصر وبلاد الشام فضلاً عن حالة الضعف التي مرت بها الخلافة العباسية آنذاك ، حيث قدم للمغول معلومات مهمة عن مناطق مجهولة بالنسبة لهم مثل العراق وبلاد الشام ومصر ، وذلك ما شجع المغول على غزو بلاد المسلمين (٥) ومما يدل على ذلك الاتفاقية التي عقدها هَيْثُومُ الأول مع مُنكو خان التي تضمنت ما يلي :

أ _ تبعية هَيْثُومُ الأول للخان المغولي مُنكو (٦) .

ب _ تعيين هَيْثُومُ الأول مستشاراً للخان المغولي ، فيما يتعلق بالمسيحيين الخاضعين لسيادة المغول .

ج _ مساندة مُنكو خان للمسيحيين لأخذ بيت المقدس من أيدي المسلمين .

د _ إرسال حملة مغولية لغزو العراق وبلاد الشام ، وتدمير الخلافة العباسية المركز الروحي والسياسي للمسلمين (٧) .

(١) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٥ .

(٢) مُنكوخان : ٦٤٩-٦٥٨هـ/١٢٥١-١٢٦٠م هو الخان الأعظم للمغول مُنكو بن تولوي بن جنكيز خان ، وقد عقد اجتماع القورتلاي الذي ضم أمراء دولته سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م ثم قرر إرسال أخيه هولاكو لغزو بلاد المسلمين ، بينما أرسل أخيه قوبيلاي لإدارة بلاد الخطا الواقعة شمال الهند ، وقد سار في حكم المغول على القوانين التي سنّها جده جنكيز خان . المنصوري ، بيبس : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تح : دونالد ريتشاردز ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، دار الشركة المتحدة ، ص٧-١٣ ؛ الهمداني ، رشيد الدين : جامع التواريخ ، تر : محمد نشأت وفؤاد الصياد ومحمد الهنداوي ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، مج٢ ج١ ، ص٢٣٢-٢٣٤ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٨ .

(٣) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٥ ؛ هلال ، عادل : العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي ، دار عين ، ط١ ، مصر ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص٩٧ .

(٤) جوافيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٧٤-١٨١ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٧-٢٩٨ ؛

Archibald : op . cit , p148 .

(٥) ابن الجزري : ص٢١٢-٢٤٥ ؛ ابن الفوطي ، عبد الرزاق : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص١٠٩-١٥٦ .

(٦) جوافيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٢ .

(٧) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٥ ؛ العربي ، السيد الباز ، : المغول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ،

The Cambridge history of islam : op . cit , volume 1 . p211 .

ص١٩٩ ؛

وبذلك حقق هَيْثُومُ الأول أهدافاً عديدة ، وهي :

أ _ أصبحت أرمينية تحت حماية المغول , وفي هذا إبعاد لشبح الخطر الكامن وراء المغول بل وهذا كافٍ لإرهاب كل من يفكر بمهاجمة أرمينية .

ب _ يكون هَيْثُومٌ قد قدّم خدمة كبيرة إلى الصليبيين إذا ما استولى المغول على بيت المقدس , وسلموه لهم .

ج _ تحقيق خدمة جليلة للويس التاسع , وذلك بالثأر من المسلمين الذين أبادوا الحملة الصليبية السابعة , هذا إذا ما صدّق المغول معه , وهاجموا العراق وبلاد الشام .

سار المغول لتحقيق ما كان يرزى إليه هَيْثُومٌ الأول وسيدّه لويس التاسع سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م , فأغاروا على خراسان و سمرقند وقلاع الإسماعيلية في إيران (١) , ثم تابعوا سيرهم إلى ديار بكر وميفارقين ورأس العين وسروج " وقتلوا خلق لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل " (٢) , وأخذوا بامتلاك ديار المسلمين (٣) , وهذا أعظم ماتمناه هَيْثُومٌ الأول ولويس التاسع .

نظر لويس التاسع إلى هجمات المغول بعين الارتياح لأن الفضل في الهجوم المغولي على المسلمين يعود إلى جهود هَيْثُومٌ الأول , فأبدى لويس التاسع اهتماماً كبيراً بالحجاج الأرمن احتراماً لسيدهم هَيْثُومٌ الأول (٤) , وبالعالم مسيحيو الشرق في اهتمامهم بلويس التاسع , وتطلع الجميع لرؤيته والتحدث إليه , ونظروا له بوصفه ملكاً مسيحيي الشرق على الرغم من أنه ليس الملك الشرعي , فعندما كان لويس التاسع في عكا سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م أتت مجموعة كبيرة من الحجاج الأرمن الذين كانوا في طريقهم إلى بيت المقدس , حيث طلبوا من جوائيفيل رؤية لويس التاسع , وكان سرورهم عظيماً بعد أن حظوا بتلك المقابلة , ثم تابعوا سيرهم إلى القدس مُحملين بأطيب التمنيات , وقد أظهر لويس التاسع محبته وتقديره لجميع المسيحيين , ولم يظهر تكبراً أو اشمئزازاً بل حاول تقويتهم وتوحيدهم لأن وحدتهم كفيلة

(١) الجويني , عطا : تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي) , تر : محمد ألتونجي , دار الملاح , ط ١, د.م , ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م , مج ٢ , ص ٢٣٧-٢٤٨ ؛ ابن دقماق , إبراهيم : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام , تح : سمير طيارة , المكتبة العصرية , ط ١ , صيدا وبيروت , ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ , ص ٢١٣ .

(٢) الدواداري : ج ٨ , ص ٢٢ .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام , ج ٢٠ , ص ٦٧ ؛ الجويني : مج ٢ , ص ٢٣٧-٢٤٨ ؛ ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣١٦ ؛ الخياط , علم الدين سنجر : المختصر الكامل في التاريخ وتكملته , تح : عمر تدمري , المكتبة العصرية , صيدا وبيروت , ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م , ص ١٥٤-١٥٥ .

(٤) جوائيفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٢-١٩٣ .

بتأمين حمايتهم (١) , لذا سعى لربط مملكة أرمينية مع الصليبيين لتحويلها إلى مملكة أرمينية - فرنجية من خلال المصاهرات التي عُقدت بين العائلات الحاكمة , والتي يعود الفضل فيها له حيث تزوج جُولِيَّان صاحب صيدا من ابنة هَيْثُوم الأول سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (٢) , كما تزوج بُوهَيْمَنْد السادس أمير أنطاكية من سيبيل (Sibylle) ابنة هَيْثُوم الأول سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م بناءً على اقتراح لويس التاسع , فاندثرت الخلافات القديمة بل وقويت أواصر المحبة (٣) , وغالباً ما تدخل هَيْثُوم الأول للإصلاح ما بين وصهره بُوهَيْمَنْد السادس , كما أن أرمينية لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه هجمات التركمان على أنطاكية بل ساندتها ضد التركمان, (٤) , وذلك ما أدى لتحول هجمات التركمان - الذين استقروا شمال بلاد الشام - نحو أرمينية حيث قاد تركمان بيك أحد قادة التركمان هجوماً ضد أرمينية , استهدف منه السلب والنهب , وبالفعل ألحق بالأرمن أضراراً بالغة فنهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من محاصيل زراعية وقطعان ماشية , ثم أضرموا النيران وأشعلوا الحرائق , ولكن الأرمن شنوا هجوماً معاكساً , وصدوا التركمان , وقتلوا تركمان بيك, مما أدى فلاذ رحاله بالفرار (٥) , وهدأت هجمات التركمان ضد أرمينية , ربما بسبب اقتراب الخطر المغولي بعد أن أصبح الأرمن تحت حماية المغول (٦) .

وهكذا فاق لويس التاسع معاصريه بما امتاز به من رغبة جامحة في إصلاح ذات بَيْنِ الصليبيين, وتوحيد كلمتهم حيث أزال الجفاء والخصام بين أرمينية وأنطاكية بعد أن أدرك أن المسلمين هم المستفيد الوحيد من انقسامهم , فسعى لإزالة الانقسامات التي فرقته (٧), كما استطاع هَيْثُوم الأول تحقيق مالم يستطع سيده لويس التاسع أن يحققه , وكاد أن يضاهي لويس التاسع ببراعته السياسية حيث استطاع تحقيق حلم لويس التاسع في إيجاد تحالف مسيحي - مغولي , ويعود الفضل في ذلك إلى لويس التاسع المخطط السياسي لإصلاح أوضاع الصليبيين (٨) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٥-٢٠٦ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص٣١٢ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٥ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١٠٩٧ ؛ Setton : op . cit , volume2 , p566 .

(٤) رنسيما : ج٣ , ص٤٧٩ ؛ عطية : ص٣٩١-٣٩٢ .

(٥) الأرمني : الموسوعة , ج٣٥ , ص٣٢٦ .

(٦) الدواداري : ج٨ , ص٢٤ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص٢١٣ .

(٧) الأرمني : الموسوعة , ج٣٥ , ص٣٢٥ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١٠٥٨ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p515 . setton : op .cit , volume 2 , p566 ;

(٨) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٥٨-٦٢ ؛ العربي : ص١٩٠-١٩١ ؛ Hamilton : op .cit , p80-81 .

٦- دور لويس التاسع في قبرص .

يتوجب العودة إلى الوراء قليلاً لإيضاح دور لويس التاسع وعلاقته مع قبرص , فمنذ أن هبطت الحملة الصليبية السابعة في جزيرة قبرص سنة ١٢٤٦هـ/١٢٤٨م , استقبلهم هنري الأول لوزجنان ملك قبرص في ميناء ليماسول بالترحاب وسط هتاف أهل الجزيرة , وإثر وصول لويس التاسع اصطحبه ملك قبرص إلى مدينة نيقوسيا , وشعر الصليبيون وكأنهم في بلادهم (١) , وقد قدمت الوفود الصليبية من مملكة عكا للانضمام إلى الحملة الصليبية , وبعد أن قرر لويس التاسع مهاجمة مصر نصحه قادة الصليبيين ومنهم هنري الأول لوزجنان بقضاء فصل الشتاء في قبرص تحسباً لفيضان نهر النيل , ومتابعة المسير إلى مصر مع بداية فصل الربيع , وبالفعل تم ذلك , وحصل لويس التاسع على المستلزمات المادية لحملته (٢) , ولم يمض لويس التاسع وقته عبثاً في الجزيرة بعد أن وجد أن هناك هيجاناً شعبياً بسبب دخول قبرص في صراع مرير بين العنصر اللاتيني الأجنبي والشعب اليوناني الأصلي , إثر القرارات التعسفية التي أصدرها اللاتين في عهد هنري الأول لوزجنان والتي نصت على تقليص عدد الأسقفيات الأرثوذكسية من أربع عشر إلى أربع أسقفيات , فأصبحت مساوية لعدد الأسقفيات الكاثوليكية (٣) , مما أثار غضب الأرثوذكس فتدخل لويس التاسع وأصلح بين الطرفين (٤) , وأكد لهم ضرورة وضع الخلافات جانباً , لأنه لا يوجد مُتسع للنزاع المذهبي , ولا بد من التكاتف , والإعلان بأن العدو للجميع هم المسلمون .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٥٨-٦٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٨٧٨ ؛ داوود , مها : دور قبرص في أحداث الحروب الصليبية من أواخر القرن ١٢هـ/١٢م حتى أواخر القرن ١٤هـ/١٤م , أطروحة دكتوراه غير منشورة , جامعة دمشق , ١٤٣١هـ/٢٠١٠م , ص١٠٤ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٣٥ , ج٥٨-٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٠ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٠٥ ؛

Khader, Bichara : l'Europe la Palestine des croisades , Genneve ,2004 , p33 .

(٣) اميليانيدس , أشيل : تاريخ قبرص , تر : يعقوب الطليحي ويني كيس , مطبعة التجارة , الإسكندرية , ١٣٩٠هـ/١٩٧١م , ص١٠٢ ؛ سبيريذاكيس , د : موجز تاريخ قبرص , دار انترسيبس , قبرص , د.ت , ص٨٧-٨٨ ؛

Iorga . op , cit . p41 .

(٤) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١٠٥٨ ؛ الدبس , يوسف : تاريخ سورية الديني والديني , تح : مارون رعد , دار نظير عبود , د.م.د.ت , ص٢٣٦ ؛

Mayer : op , cit . p263-272 .

وما إن انطلق لويس التاسع على رأس حملته إلى مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م حتى انضم إليه الملك القبرصي مع مجموعة من فرسانه ,وما أن استولوا على دمياط قفل هنري الأول لوزجنان راجعاً إلى قبرص ولم يشارك لويس التاسع فيما حدث بعد ذلك (١) .

أدار هنري الأول لوزجنان قبرص وفق قوانين مملكة عكا حيث كانت المحكمة العليا في نيقوسيا هي صاحبة السلطة الفعلية في مملكة قبرص , وقد تألفت من نبلاء المملكة , بينما أشرف هنري الأول لوزجنان على توزيع الاقطاعات وسك النقود , وإدارة الشؤون المالية (٢) , وبقي على اتصال وثيق مع لويس التاسع حتى في الأمور الشخصية , فعندما تزوج من بليسانس (Blaisance) ابنة بوهيند الخامس أمير أنطاكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م أرسل هنري الأول لوزجنان لإخبار لويس التاسع بذلك الزواج "وكان الملك لويس التاسع مسروراً جداً تجاه هذا " (٣) , وهذا يدل على مكانة لويس التاسع لديه , حيث كان يستشير في كل قضية سواء أكانت كبيرة أو صغيرة , وذلك لوجود رابطة قومية تجمع بينهما , وكذلك الرابطة الدينية الكاثوليكية , ومن المحتمل أنه أراد كسب لويس التاسع إلى جانبه ضد طبقة الأرثوذكس التي غدت طبقة منبوذة في ظل السيطرة الكاثوليكية (٤) .

اعتمد لويس التاسع بشكل كبير على أبناء قبرص والمورة ورومانيا من أجل إعداد جيش خاص به (٥) , كما أرسل له هنري الأول لوزجنان مجموعة من الجنود كي يتجاوز محنته إثر هزيمته في مصر (٦) , وبالفعل أدى ذلك لازدياد قوة لويس التاسع و نشاطه ,

(١) عاشور , سعيد : قبرص والحروب الصليبية , دار الهيئة المصرية للكتاب , ط٢ , ١٤٢٣هـ/٢٠٠١م , ص٤٣ ؛ إديوري : ص٧٠-٧١ ؛ داوود:ص١٠٧-١٠٩ .

(٢) غروسية , رينه : الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب , تر : أحمد أيش , دار قتيبة , ط١ , دمشق وبيروت , ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ص١١٩ ؛ سبيريداكيس: ص١٠٠-١٠٢ ؛ اميليانيدس : ص٨٢-٨٥ ؛

Iorga : op . cit , p41-43 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٠ .

(٤) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٠ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٢ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٥٨ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٣٥-٣٣٦ .

(٦) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٣١٠ ؛ إديوري : ص٧٨ .

فأراد مخالفة القاهرة ضد دمشق سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (١) , لكن تلك المساعدات القبرصية للويس التاسع لم تدم طويلاً , لأن هنري الأول لوزجنان فارق الحياة سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وترك وراءه ابنه الصغير هيو الثاني الذي لم يتجاوز بضعة أشهر من العمر , والذي أصبح وريثه في مملكة قبرص وعكا تحت وصاية أمه بليسانس الأنطاكية , وهنا ظهرت مشكلة وراثة العرش (٢) فقد أقرت المحكمة العليا في قبرص بوصاية بليسانس على ابنها الملك هيو الثاني (٣) , بينما رفض بارونات عكا الاعتراف بها ملكة على عكا , لأنهم عدوا يوحنا الثالث دي ابلين (٤) سيد أرسوف (٥) هو النائب للملك هيو الثاني

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٧٤ ؛ المنصوري : زبدة الفكر , ص ٦ . باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣١٠ ؛ Brellier : op .cit , p270-272 ; Stambouli : op .cit , p227 .

(٢) وراثة العرش : كان الحكم في مملكة عكا حُكماً وراثياً , ولمعرفة كيفية وصول هيو الثاني إلى العرش , لا بد من العودة إلى الوراء قليلاً , فعندما فارق ملك عكا هنري كونت شامبانيا الحياة سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م , ورثت زوجته إيزابيلا إبلين حكم مملكة عكا من بعده , فاقترح بارونات عكا زواج ملك قبرص عموري الثاني لوزجنان من إيزابيلا سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م , وبالفعل تم اتحاد تاجي عكا وقبرص , وأملأ باستمرار وحدة التاجين تم زواج هيو بن عموري الثاني من أليس ابنة زوجة أبيه من زوجها السابق هنري كونت شامبانيا , ولكن كانت ماريا الأخت الكبرى لأليس زوجة يوحنا برين أحق بعرش مملكة عكا , لأنها أكبر منها سناً , فغدت ماريا سيدة عكا , وهيو سيد قبرص , وأنجبت ماريا ابنة سمته إيزابيلا , ورثت العرش من بعدها , وتزوجت من فريدريك الثاني وولدت كونراد سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م , فأصبح كونراد ملك عكا , بينما انتقل تاج قبرص من هيو إلى ابنه هنري الأول لوزجنان تحت وصاية أمه أليس , وعندما لم يأت كونراد إلى الشرق رشح بارونات عكا أليس سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م ملكة على قبرص , ونائبة لكونراد في حكم عكا , ثم ما لبثت أن توفيت سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م , فترجع ابنها هنري الأول على عرشي قبرص وعكا , وقد بقي في قبرص وعين ابن خاله يوحنا الثالث إبلين صاحب أرسوف نائباً له في مملكة عكا , وإثر وفاة هنري الأول لوزجنان استلم ابنه هيو الثاني عرشي مملكة عكا وقبرص تحت وصاية أمه بليسانس وزوجها باليان ووالده يوحنا الثالث دي إبلين سيد أرسوف . نوفرار : الموسوعة , ج ٣٤ , ص ٢٩٩ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ١٧٢ - ٣١٩ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٤-١٩٩٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٦٩٦٠ - ١٩٦١ ؛ غروسيه : الحروب الصليبية , ص ١١٣ ؛ اميليانيدس : ص ٩٤ ؛ Mayer : op .cit , p272 .

(٤) يوحنا الثالث إبلين : استلم حكم سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م , كما استلم قيادة الحامية اللاتينية في مملكة عكا سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م , ويوحنا هو بن عم يوحنا إبلين صاحب يافا , وإثر وفاة يوحنا الثالث صاحب أرسوف سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م استلم أرسوف ابنه باليان . رنسيما : ج ٣ , ص ٤٠١-٤٩٣ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٠٣ .

(٥) أرسوف : بلدة ذات قلعة حصينة تقع على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا , وتتميز بسور قوي أحاط بها . الحموي , ياقوت : معجم البلدان تح : فريد الجندي , دار الكتب العلمية , بيروت , د.ت , ج ١ , ص ١٨٢ ؛ البغدادي , كمال الدين : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع , تح: علي البجاوي , دار المعرفة , ط ١ , بيروت , ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م , ج ١ , ص ٥٦ ؛ البشاري : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم , دار إحياء التراث , بيروت , ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م , ص ١٤٨ .

وقد تم تعيينه منذ عهد الملك القبرصي الراحل هنري الأول لوزجنان , ولكن في الحقيقة كان لويس التاسع هو الحاكم الفعلي لمملكة عكا (١).

تولى لويس التاسع حل مشكلة عرشى قبرص وعكا حيث سهّل عملية ربط المملكتين من خلال زواج الملكة بليسانس من باليان بن يوحنا الثالث دي إبلين صاحب أرسوف , وبذلك أصبح يوحنا الثالث دي إبلين وابنه باليان وبليسانس زوجة باليان أوصياء على القاصر هيو الثاني ملك قبرص وعكا (٢) , ولكن في حقيقة الأمر استقرت بليسانس مع زوجها في أرسوف , وتركت ابنها الصغير تحت وصاية ابن عمها هيو في قبرص , وكان لويس التاسع هو الملك الفعلي لمملكة عكا , وله تأثيره الفعال على قبرص (٣) , حيث هدأت الخلافات بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية حتى سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٤) , وقد تدخل البابا أنوسنت الرابع وطلب من رئيس أساقفة نيقوسيا أوبيزيو دي فيشي (Obaizo du faichet) إعطاء جزء من إيرادات أسقفية وعشر مداخيل كنائس قبرص إلى أنطاكية لمساعدتها في أعمار ما خربه التركمان , ولم تبد الكنائس القبرصية أية معارضة تجاه ذلك (٥) , لكن ما لبث أن تجدد الخلاف عندما أراد رئيس أساقفة نيقوسيا إخضاع الكنائس الأرثوذكسية (٦) مستغلاً وفاة البابا أنوسنت الرابع ٦٥٢هـ/١٢٥٤م واستلام البابا الكسندر الرابع وتأييده لذلك (٧) .

وفي هذه السنة قرر لويس التاسع العودة إلى فرنسا , بعد أن أصلح أوضاع مملكة عكا , وأثناء عودة لويس التاسع إلى فرنسا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م كان الجو ضبابياً , فاصطدمت إحدى السفن بصخرة مما أدى لتسرب المياه إلى داخلها , فقرر الملك الالتجاء إلى قبرص لإصلاح السفينة, والأهم

Setton : op . cit , volume2, p566 .

(١) رنسيما : ج٣, ص٤٨٠ ؛ عطية : ص٣٩٤ ؛

(٢) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٦ ؛

Kohler, CH : mélanges de l'orient latin et des croisades , Paris , 1906 , p347 .

(٣) عاشور : قبرص , ص٤٣-٤٦ ؛ اميليانيدس : ص٩٤ .

(٤) الدبس : ج٦ , ص٢٣٦ ؛ اميليانيدس : ص٨٨ .

(٥) عطية : ص٣٨٢ ؛ إديوري : ص٣٣-٧٤ .

(٦) اميليانيدس : ص٨٨ ؛ سبيرذاكيس : ص١٠٤ ؛ عثمان , أحمد : تاريخ قبرص, القاهرة , ١٤١٨هـ/١٩٩٧م , ص١٥٤-

١٥٥ .

(٧) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٥ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٤٨٦-١٤٨٩ ؛ اميليانيدس :

Villeneuve : op .cit , p204-242.

ص٨٨ ؛

من ذلك للاطمئنان على أوضاع الجزيرة , وقد حصل على بعض المستلزمات الغذائية, ثم تابع مسيره عائداً إلى فرنسا (١) .

وهكذا استقبلت قبرص لويس التاسع , وقد ودعته وقدمت له الكثير من المساعدات المادية والعسكرية كي ينهض من كبوته (٢) , بينما سعى هو لإصلاح خلافاتها الداخلية وإنهاء النزاع بين العنصرين اليوناني الأرثوذكسي واللاتيني الكاثوليكي , لكن لا يمكن اندماج المواطن الأصلي مع المحتل لأن اللاتين شكلوا طبقة السادة وأمراء الإقطاع والتجار , أما أبناء البلاد فتحولوا إلى مزارعين يعملون لديهم لقاء قوتهم اليومي حيث بقوا على خصام ديني واجتماعي , حليفين ضد المسلمين على الرغم من هدوء الأوضاع أحياناً مع تدخل لويس التاسع الذي قام بدورٍ فعال في تهدئة التوتر لكنه لم يستطع إنجائه (٣) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٢٢-٢٢٨ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٤٠ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٥٨ , ٢٢٨ ؛ الدبس : ج ٦ , ص ٢٣٦-٢٤٩ .

(٣) اميليانيدس : ص ٨٠-٩٦ ؛ سبيريداكيس : ص ١٠١-١٠٤ .

لم يترك لويس التاسع أثناء إقامته في الشرق فرصة إلا وأراد استغلالها لتقوية الروح المعنوية للصليبيين , ولمّ شمل المسيحيين بالرغم من المآسي التي فرقهم , ولكن هيهات أن يتفق الجلاذ والضحية (الفرنج والبيزنطيون) , وبشكل خاص إن كانت هناك جروح عميقة من الصعب أن تندمل , ومع ذلك أراد لويس التاسع تحدي الصعاب , وإيجاد جبهة مسيحية قادرة على الوقوف في وجه المسلمين (١) , فعندما كان في قبرص وفدت إليه الإمبراطورة ماري زوجة بلدوين الثاني (٢) الإمبراطور اللاتيني للقسطنطينية سنة ١٢٤٦هـ/١٢٤٨م , والتمست منه ومن كبار النبلاء الصليبيين المساعدة لإقرار مركز زوجها الإمبراطور المزعزع أمام تهديد البيزنطيين , وبخاصة مملكة نيقية (٣) , وهنا لابد من العودة إلى الوراء قليلاً لإعطاء لمحة سريعة عن ظهور الإمبراطورية اللاتينية .

يبحث الحملة الصليبية الرابعة وجهها نحو القسطنطينية سنة ١٢٠٤هـ/١٢٠٤م وألقت عليها الحصار , واستطاع الفرنج اختراق حصونها , وتوغلوا فيها , وقتلوا كل من صادفوه في طريقهم , ولم تسلم منهم حتى الكنائس والأديرة , وبات البيزنطيون ينوحون على دولتهم الحبيبة , لكن المسألة تطلبت وضع الأحن جانباً (٤) , وأنشؤوا إمبراطورية نيقية في آسيا الصغرى , وإمارة طرابزون على البحر الأسود وأخرى في شبه جزيرة البلوبونيز ,

(١) جوافيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٦٠-٦١ .

(٢) بلدوين الثاني : استلم عرش القسطنطينية سنة ١٢٢٨هـ/١٢٢٨م تحت وصاية يوحنا برين ملك عكا , وتزوج بلدوين من ماريا ابنة يوحنا برين , وعندما علم بوصول لويس التاسع - الذي ارتبط معه بصلة قرابة - إلى الشرق طلب معونته ضد البيزنطيين , ثم قام بزيارته سنة ١٢٤٧هـ/١٢٤٩م , وباعه بعض المخلفات المقدسة التي تعود للسيد المسيح عليه السلام , وبقي بلدوين الثاني سيداً للقسطنطينية حتى تقدم البيزنطيون بقيادة ميخائيل باليولغ سنة ١٢٥٩هـ/١٢٦١م , واستولوا على القسطنطينية , وطردها بلدوين الثاني . جوافيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٦٠-٦١ ; رنسيان : ج ٣ , ص ٣١٤-٤٩٤ .

(٣) جوافيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٦٠-٦١ ; زيادة : ص ٩٨ . عثمان : ص ١٥٦ .

(٤) فيلهاردين , جوفري : الاستيلاء على القسطنطينية , الموسوعة , تح وتر : سهيل زكار , دمشق , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج ١٠ , ص ١٠٧-١١٤ ; مجهول : مجموع هافنيس : الموسوعة الشامية , تح وتر : سهيل زكار , دمشق , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج ١٠ , ص ٤٨٦ ; القلقشندي : صبح الأعشى , ج ٥ , ص ٣٨٦ ; ابن الأثير , علي : الكامل في التاريخ , تح : عمر تدمري , دار الكتاب العربي , ط ١ , بيروت , ١٤١٧هـ/١٩٩٧م , ج ١٠ , ص ١٩٧-١٩٨ .

بينما شكل اللاتين دويلات فرنجية لاتينية(١), وهي إمبراطورية القسطنطينية , ومملكة تيسالونيكا وإمارة أخايا في المورة ودوقية أثينة وطبية , في الوقت الذي سيطرت فيه البُنْدُقية (٢) التي مولت الحملة الصليبية على السواحل والمراكز الإستراتيجية (٣) , وقد تعرض إمبراطور القسطنطينية اللاتيني بلدوين الثاني لهجمات البلغار والبيزنطيين , مما جعله يُرسل زوجته ماري لطلب معونة لويس التاسع (٤) , واستقبل مع زوجته مارغريت الإمبراطورة ماري في قبرص , وقد حملها نبلاء الصليبيين عدد من الرسائل إلى بلدوين الثاني تعهدوا فيها بأغلظ الأيمان بتقديم المساعدة , وأكد لها لويس التاسع أن الحملة مُتجهة نحو مصر , وإذا ما حققت الحملة أهدافها فهو لن يتخلى عنهم (٥) , ولكن باءت الحملة الصليبية بالإخفاق , وتحطمت في مصر ولم تحقق ما كانت تصبو إليه, وأصبح لويس التاسع لا حول له ولا قوة , وغدا غير قادر على مساعدة بلدوين الثاني(٦) .

لم يكن لويس التاسع المرجعية الأساسية لللاتين فحسب بل كان البيزنطيون على اتصال معه حيث أرسل إمبراطور نيقية يُوحنا (جُون) الثالث فاتازِس (jone 3 vatazes) سفارة إلى لويس التاسع , وانفرد صاحب ذيل روثلين بالإشارة لتلك السفارة , ولم يُبين الهدف منها (٧) , وإذا ما تم الافتراض بأن يُوحنا الثالث أراد كسب لويس التاسع ضد بلدوين الثاني إمبراطور القسطنطينية (٨) , فإن لويس التاسع لا يمكن أن يؤيد البيزنطيين ضد أبناء جلدته اللاتين , وهنا يبقى احتمالان :

(١) يُنظر المصور رقم (٤) , ٣٠٣.

(٢) البُنْدُقية (فينيسيا) : تقع شمال شرق إيطاليا , حيث شكلت أكبر قوة بحرية في البحر الإديرياتيكي , وتطلعت للسيطرة على بحر الشام (البحر المتوسط) , مستغلة قوة أسطولها وسفنها الكثيرة , وغدت من أكبر الجمهوريات الإيطالية شهرة في مجال الملاحة البحرية والتجارة , وبخاصة بعد أن مولت الحروب الصليبية . الفلقشندي: صبح الأعشى , ج ٥ , ص ٣٨٢-٣٨٣ ؛ دوبا : الموسوعة , ج ٣٦ , ص ١٠٢-١٠٤ .

(٣) مجهول : مجموع هافنسيس : الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥٩٤ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٢٢٥-٢٣٠ ؛ غنيم , اسمت : الحملة الصليبية الرابعة , دار المجمع العلمي , جدة , ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م , ص ٨٧-٩٥ ؛ عامر , سامية : الصليبيون في شمال أفريقيا (حملة لويس التاسع على تونس) , دار عين , ط ١ , مصر , ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م , ص ٧٤ .

(٤) رنسيما : ج ٣ , ص ٤٥٠ ؛ غروسيه : الحروب الصليبية , ص ١٤٤ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٦٠-٦١ .

(٦) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧١-١١٧٢ ؛ ابن العميد : ص ٣٦-٣٩ .

(٧) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٩ .

(٨) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨٣ .

الاحتمال الأول : أراد يُوحنا الثالث من لويس التاسع التدخل لإقناع البابا أنوسنت الرابع من أجل الاعتراف بالبطيركية اليونانية في نيقية , والتي لم يعترف بها البابا (١) .

الاحتمال الثاني : إن ظهور الخطر المغولي قد أرعب العالم , ومن جملتهم اليونانيين وبشكل خاص مع اقتراب الزحف المغولي منهم آنذاك , فأراد البيزنطيون توثيق علاقتهم مع لويس التاسع (٢) .
المهم أن لويس التاسع لم يُرجع سفارة يُوحنا الثالث فاتازس خائبة بل أرسل معها سفراءه أملاً في كسب يُوحنا الثالث إلى جانبه , وتهدئة حالة التوتر بين اللاتين واليونان (٣) .

وكان لويس التاسع على علم بتطورات الأحداث في القسطنطينية حيث قدم إليه عندما كان في قيسارية سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م فيليب دي تُوسي (failib du toucy) أحد فرسان القسطنطينية وهو ابن عم لويس التاسع , ودخل في خدمته , وأخبره عن أوضاع القسطنطينية بالتفصيل , وبخاصة فيما يتعلق بهجمات الإمبراطور البيزنطي يُوحنا الثالث فاتازس عليهما , مما اضطر الإمبراطور اللاتيني بلدوين الثاني للتحالف مع الكومان (comans) (٤) , للتصدي لهجمات يُوحنا الثالث فاتازس (٥) , علماً أن ذلك التحالف لم يسفر عن نتائج مهمة لللاتين في القسطنطينية .

وبقي لويس التاسع بانتظار الفرصة الملائمة لمساعدة اللاتين حتى قدم إليه سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وفد من قبل أمير طرابزون كومنين العظيم مُحملاً بالهدايا حيث طلب ذلك الوفد اليوناني من لويس التاسع

(١) رستم , أسد : الروم وصلاتهم بالعرب , دار المكشوف , ط١ , بيروت , ١٣٧٦/١٩٥٦م , ج ٢ , ص ١٩١ .

(٢) الجويني : مج ١ , ص ٢٤٠-٢٥٢ ؛ الديار بكري , حسين : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس , دار شعبان , بيروت , ج ٢ , ص ٣٧١-٣٧٢ ؛

Archibald : op .cit , p144-147 ; Maier : op . cit , p79-86 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٩ .

(٤) أمام الخطر الذي شكلته نيقية على القسطنطينية اتحدت الثانية مع الكومان أحد الشعوب التركية , وقد تم استخراج الدم من كلا الوفدين المتحالفين , ووُضع في إناء ومزجوه , ثم شرب منه الطرفان دليلاً على التأخي بينهما , ثم تركوا كلباً يعدو , وسددوا عليه بسهامهم ورماحهم فأردوه قتيلاً , وقرر الطرفان إذا ما أخل أحد منهما بالاتحاد , فإن مصيره سيكون كمصير ذلك الكلب البائس , ويتبين من خلال ما ذكره جوانفيل أن الكومان وثنيتين حيث كانوا يدفنون الذهب والفضة إلى جانب أسيادهم الأموات , كما كانوا يدفنوا معه حصان وأحد الجنود الأحياء لخدمته في عالم الآخرة . جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨٣-١٨٤ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨٣ ؛ زكار , سهيل : تاريخ المورة , الموسوعة الشامية , دمشق , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج ١٠ , ص ٣٢١-٣٢٢ ؛

Mayer : op .cit , p266 .

إرسال فتاة من سيدات بلاطه كي تكون زوجة لأميرهم كومنين العظيم (١) , " فأجابه بأنه لم يجلب معه أياً من مثل هؤلاء السيدات من بلاده , وقام على كل حال بنصيحة الرسل بالذهاب إلى القسطنطينية للطلب من ابن عمه الإمبراطور بإعطائهم زوجة لسيدهم لعل إمبراطور القسطنطينية يدخل في تحالف مع هذا النبيل العظيم ضد فاتازس " (٢) , ولكن هل يمكن أن يكون هناك زواج سياسي بين عرشي طرابزون والقسطنطينية ؟

بدايةً لابد من الإشارة إلى أن إمارة طرابزون قد ضمت الشعب اليوناني الذي شتته الحملة الصليبية الرابعة , والذي لم ينس ما حل به على أيدي اللاتين , ولكن لويس التاسع أراد من ذلك الزواج إيجاد توازن بين القوتين اللاتينية واليونانية , لكسر شوكة يُوحنا الثالث فاتازس إمبراطور نيقية الذي أقض مضاجع اللاتين , لكنه لم يستطع تحقيق وحدة لاتينية - يونانية , لأنه لا يمكن إزالة مظاهر العداء بين المغتصب والمواطن الحقيقي بعد أن رسخ اللاتين في ذاكرة اليونان تلك الذكريات الأليمة .

رأى البابا أنوسنت الرابع أن قوة يُوحنا الثالث فاتازس تزداد يوماً بعد يوم فأخذ بمفاوضة يُوحنا الثالث من أجل تسليمه القسطنطينية مقابل الاعتراف بسلطة البابا على الكنائس البيزنطية , وقبل أن يتم ذلك مات البابا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م , ثم لحق به يُوحنا الثالث فاتازس , وظل اتفاقهما مشروع اتفاق غير موجود فعلياً (٣) , واستمر العداء بين الطرفين ليس لأسباب دينية فحسب بل لأسباب عرقية حيث نظر اليونانيون إلى اللاتين على أنهم بقايا القبائل البربرية التي دمرت الحضارة الرومانية (٤) .

أوشك الوجود اللاتيني في القسطنطينية على السقوط , وهم بانتظار معونة لويس التاسع , وعلى ما يبدو لم يكن بإمكانه إرسال أية مساعدات وعندما حان موعد عودته إلى فرنسا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ذكره جوافيل بالتعهدات التي أعطوها لماري زوجة بلدوين الثاني حول تقديم المساعدة لزوجها الإمبراطور حيث أشار عليه جوافيل إذا ما أراد إرسال ثلاثمائة فارس إلى بلدوين الثاني فهو على استعداد

(١) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢١٤-٢١٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٣١٦ .

(٢) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢١٤-٢١٥ .

(٣) رستم : ص٢٠٢-٢٠٣ .

(٤) فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص١١٧٦ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس , الموسوعة , ج١٠ , ص٤٧٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٨٢ ؛ المطوي , محمد : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب , دار الغرب الإسلامي , ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م , ص١٠١ ؛ غنيم : ص٩٥ .

للاضمام إليهم , ولكن ما هو موقف لويس التاسع من اقتراح جوانفيل ؟

احتج لويس التاسع بأنه ليس لديه الإمكانيات المادية لتجهيز مثل هذا العدد (١) , لقد اقترح جوانفيل تقديم ثلاثمائة فارس لأنه أدرك أن لويس التاسع بإمكانه تجهيز عدد كهذا , وإرساله لدعم بلدوين الثاني , لكن من المحتمل أن لويس التاسع لم يرغب بأن يكون سبباً في إيقاد حرب بين المسيحيين (البيزنطيين واللاتين) , ويكون المسلمون هم المستفيد الوحيد في هذه الحالة.

وهكذا انتظرت القسطنطينية وعود لويس التاسع لعله ينقذها من الخطر اليوناني , ولم يكن بوسعه سوى تتبع أخبارها , وقد لاحت له بارقة أمل عندما اقترح عقد زواجٍ سياسي بين عرشي القسطنطينية وطرابزون (٢) , لكن بالرغم من مكانة لويس التاسع لديهم , فإنهم لم ينسوا ما حل بهم على أيدي اللاتين من بطشٍ وتدمير (٣) , فكان ما يرنو إليه لويس التاسع من إصلاح اللاتين مع البيزنطيين أمراً في غاية الصعوبة , لأن البيزنطيين قد أدركوا بأن الذئب مهما بدل جلده لن يتغير , ولم يكن لدى البارونات والفرسان اللاتين الذين سادوا الدولة البيزنطية بين عشية وضحاها الإمكانيات , ولا التفوق الحضاري اللازم كي يثبتوا أنفسهم , فانبرى الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولغ لقتالهم , واسترد القسطنطينية عاصمة البيزنطيين سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م , ولم تكن دبلوماسية لويس التاسع مجددة مع البيزنطيين (٤) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٦١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢١٤-٢١٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٣١٦ .

(٣) فيلهاردين : الموسوعة , ج ١٠ , ص ١٠٧-١١٤ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٤٤١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى , ج ٥ , ص ٣٨٦ ؛ ابن الأثير : ج ١٠ , ص ١٩٧-١٩٨ .

(٤) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٦ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٧٩٥ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان , ص ٣٠٦ . مختصر الدول , ص ٢٦٩ .

٨- علاقة لويس التاسع مع شيخ الجبل (١) .

لم يكتف لويس التاسع بوضع نظام دفاعي لتأمين حماية الصليبيين ولم شملهم فحسب ، وإنما وضع أساس سياسة واسعة النطاق ، حيث سعى لالتماس حلفاء جدد لا يمتنون إليه بأية صلة دينية أو قومية ، فأنشأ علاقات ودية مع الحشيشية في بلاد الشام وهم من الإسماعيلية (٢) ، وقد كانت الحشيشية في بلاد الشام (٣) على علاقة وثيقة مع الحشيشية في بلاد فارس (٤) .

إثر هزيمة لويس التاسع في المنصورة وذهابه إلى عكا ، وصل إليه رسل شيخ الجبل تاج الدنيا أبو الفتوح محمد (٥) حيث وصلوا في صبيحة أحد أيام كانون الأول سنة ٦٤٨هـ/ شهر شوال عام ١٢٥٠م (٦) ،

(١) شيخ الجبل : هو سيد الحشيشية في بلاد الشام ، وأشار صاحب ذيل روثلين إلى أنه مقدم الحشيشية الذين استقروا في قلاع عظيمة ، وقد ربي مقدم الحشيشية في قصره الأولاد ، ودرهم على عمليات الاغتيال ضد أعدائهم ، فأرعب الناس ، أما وولتر ماب فقد نوه إلى أنه صاحب نفوذ عظيم ، وله مكانة رفيعة بين جماعته ، وتمتع بسلطة دينية وسياسية ، وانتشرت الحشيشية في بلاد فارس ومن أشهر قلاعهم قلعة الموت ، وهم موجودين اليوم في الهند وسورية وإيران وشرق أفريقيا . مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٨٢٢-١٨٢٣ ؛ ماب : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٣٨٩ ؛ زكار ، سهيل : المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ، ج ١ ، ص ٦٩-٧٠ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٦٧-١٦٩ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٩٧ ؛

Grousset : op.cit, volume 3 , p516-517 ; brellier : op , cit . p227 .

(٣) قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام : امتدت ما بين حماة وحمص في الغرب من بلاد الشام وهي قلعة الكهف والقدموس والمنيفة والعليقة والخواوي والرصافة ومصيف . جوش ، نصر : مناقب المولى سنان راشد الدين شيخ الجبل الثالث ، تح : مصطفى غالب ، دار اليقظة ، بيروت ، د.ت ، ص ١٦٧-٢١٣ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، تح : محمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ؛ الصغير ، أجفان : القلاع في فترة الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ، ص ٧٧ .

(٤) الجويني : معج ٢ ، ص ٣٤٣ ؛ الحايك : ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٥) المقصود بشيخ الجبل هو تاج الدنيا أبو الفتوح محمد الذي استقر في قلعة مصيف ، بينما كان إمام الإسماعيلية آنذاك جلال الدين محمد ٦١٨-٦٥٣هـ/ ١٢٢١-١٢٥٥م ، وفي صبيحة أحد الأيام وجدوا جلال الدين مقتولاً في فراشه سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م ، وتعددت التهم والظنون وبقي قاتله مجهولاً ، واستلم الإمامة من بعده ابنه ركن الدين خورشاه . الجويني : معج ٢ ، ص ٣٤٢-٣٤٤ ؛ لويس ، برنارد : الحشاشون ، تعريب : محمد موسى ، مكتبة مدبولي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م ، ص ١٣٢-١٣٣ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٩ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٦٨ . يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢٣٠-٢٤١ .

وقد وصفهم جوانفيل بأنهم من أسرة حسنة ، وقد استقبلهم لويس التاسع وسمح لهم بالجلوس ، فجلسوا واحداً تلو الآخر حيث جلس كبيرهم في المقدمة ، وكان رجل ضخيم مدجج بالأسلحة والدروع ، أما الثاني

فقد حمل في يده ثلاثة خناجر مجموعة في قبضة واحدة متحدياً لويس التاسع إن لم يوافق على مطالبهم , بينما لفَّ الثالث على ذراعه قطعة قماش من الكتان كي تكون كفنًا للويس التاسع إذا ما تم قتله , ولا يخفى على لويس التاسع أن هذا التهديد إنما هو نوع من أنواع حرب الأعصاب من أجل تحقيق غايتهم , مستغلين الهزائم التي حلت به , فلم يبد لويس التاسع الغضب أو الانزعاج تجاه ذلك إنما أراد معرفة مطالبهم , حيث سأل كبيرهم لويس التاسع فيما إذا كان يعرف شيخ الجبل أم لا , فرد لويس التاسع بأنه لا يعرفه وإنما سمع به , فذهش كبير الحشيشية ثم استفسر عن سبب تأخره عن دفع الأموال له طالما أنه قد سمع به , وذلك حسب ما اعتاد قادة المنطقة حفاظاً على أرواحهم , فلم يبد لويس التاسع أية رغبة في دفع أي شيء , وقد شعر كبير الحشيشية بذلك , فأشار عليه إن لم يكن راغباً بدفع الأموال فلا بأس أن يطلب من مقدم الداوية رينوه دي فيشييه ومقدم الاستبارية (١) وليم دي شانتوف إعفاءهم من الجزية التي يؤدونها إليهم , ويمكن من خلال ذلك أن يكسب صداقة شيخ الجبل (٢) , وإذا ما تم التساؤل عن السبب الذي أجبر الحشيشية على دفع الجزية للداوية والاستبارية , فإن جوانفيل أجاب على ذلك بأن مقدمي الداوية و الاستبارية لم يخافا الحشيشية وفيما إذا تم اغتيالهما " سيحل محل المقتول واحد بالجودة نفسها " (٣) .

ويلاحظ أن جوانفيل قد اعترى بقوة الداوية و الاستبارية لكن في حقيقة الأمر ليس هذا سبباً أساسياً , إنما معاقل الحشيشية كانت محاطة بالصليبيين ومراكز الطوائف العسكرية الصليبية , مما

(١) الاستبارية : مجموعة من الفرسان الذين جمعوا بين الفكرتين الدينية والعسكرية , وترجع تسميتهم إلى بيمارستان (Hospital) أقامه تجار مدينة أملفي الإيطالية في عهد المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٦-١٠٩٤ م) , وقام أولئك الفرسان بإيواء الحجاج المسيحيين ومعالجة المرضى , وما لبثوا أن تطوعوا لحماية الحجاج المسيحيين , مما جعلهم موضع احترام ملوك بيت المقدس , فمنحهم ملك بيت المقدس جودفري دي بويون (٤٩٢-٤٩٣هـ / ١٠٩٩-١١٠٠ م) إحدى ضواحي القدس , وأغدق عليهم الأموال , فشكّلوا قوة عسكرية اشتركت في الحملات الصليبية . ماب : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٩٠-٣٩١ ; المطوي : الحروب الصليبية , ص ٩٦-٩٧ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٨ ; مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٧ . رنسيما : ج ٣ , ص ٤٨١-٤٨٢ .

Grousset : op.cit, volume 3 , p516-517 ; Villeneuve : op .cit , p196-198.

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٨ .

أعاق حركة الحشيشية , فوجدوا في دفع الجزية سبيلاً للحفاظ على أرواحهم وأموالهم وحرية تنقلهم , وربما حتى داخل المناطق التي سيطر الصليبيون عليها .

وعندما طالب رسل الحشيشية إعفائهم من دفع الجزية وجد لويس التاسع أن هذه المسألة تتعلق بمقدمي الداوية و الاستبارية , فطلب من الرسل الانصراف والحضور بعد ظهر ذلك اليوم كي يجتمعوا بمقدمي الطائفتين , وفي الموعد المتفق عليه اجتمعوا مع لويس التاسع , وكرر كبير رسل شيخ الجبل ما قاله في الصباح , ولم يعطه المقدمان أي وعد حول إعفاء الحشيشية من الجزية لأن هذه المسألة بحاجة للتداول مع لويس التاسع بشكلٍ جدي من أجل استكمال المباحثات للبت فيها , واتفقا مع رسل الحشيشية على الاجتماع بهم في دير الاستبارية الموجود في عكا لمتابعة المباحثات (١) , وفي اليوم التالي التقى مقدما الداوية و الاستبارية مع رسل الحشيشية , وقد أبدى المقدمان غضباً شديداً تجاه الرسل بسبب سوء تصرفهم مع لويس التاسع , وتهديدهم إياه , وأنه من الضروري أن يقدموا الهدايا له تعبيراً عن اعتذارهم , ثم عنفهم وهدوهم برميهم في البحر لولا مكانة لويس التاسع لديهم (٢) , لكن ليس احتراماً للويس التاسع فحسب بل " كان ملوك الروم والفرنجة خوفاً من هؤلاء الحشيشية صفر الوجوه " (٣) , وربما لو استطاع المقدمان رمي رسل الحشيشية لم يكتفيا بالتهديد لأن فرائصهم ارتعدت خوفاً من خناجر الحشيشية , وليس من مصلحة الحشيشية الدخول في نزاع مع الطوائف العسكرية , حيث حصلت تلك الطوائف على الجزية , بينما كان الحشيشية مجبرين على مسايرتهم لأنهم تحكموا بطرق مواصلاتهم , والمسألة تطلبت مزيداً من التروي .

عاد رسل الحشيشية إلى شيخ الجبل وأحاطوه علماً بمطالب لويس التاسع التي تقدم بها مقدما الاستبارية والداوية بالنيابة عنه , و أمام ذلك التكتل الصليبي لم يكن أمام شيخ الجبل سوى إعداد سفارة حملت الكثير من الهدايا الفاخرة , وانطلقت إلى لويس التاسع , وقد حملت صندوقاً كبيراً وعندما وصلت السفارة إلى مقر لويس التاسع في عكا فتحت ذلك الصندوق , وفاحت منه رائحة العنبر فأخرجت منه قميص شيخ الجبل وخاتمه , وتمثال لفيل وزرافة من البلور وطاولة شطرنج مطعمة بالذهب ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص ٢٥٤ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p516-517 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٨ ؛ مونود : مج ٢ , ص ٣٣٧ .

(٣) الجويني : مج ٢ , ص ٢٧٠ .

والعاج والأبنوس (١) , ورد لويس التاسع على تلك الهدايا بأن أرسل مع رسل الحشيشية لسيدهم " كمية كبيرة من الجواهر وقطع من الأقمشة القرمزية وكؤوس من الذهب وخيول وقطع من الفضة " (٢) , ويلاحظ أن لويس التاسع قد أرسل هدايا ثمينة في سبيل كسب حليف جديد من أبناء بلاد الشام ضد

الأيوبيين أملاً في تفرقة صفوفهم , فهو من خلال تلك الهدايا لم يأمن خناجر الحشيشية فحسب بل ضمن وقوفهم على الحياد .

أرسل لويس التاسع الراهب إيف البريتوني (yves de Breton) الناطق باللغتين الفرنسية والعربية إلى جانب سفارة الحشيشية , لتوثيق العلاقة مع شيخ الجبل , ووصلوا قلاع الحشيشية (٣) , وقدم إيف البريتوني الهدايا لشيخ الجبل في قلعة مصيف , وحاول معرفة عقيدة الإسماعيلية , وجرت مناقشات دينية بينه وبين شيخ الجبل حول الأنبياء والمرسلين عليهم السلام , ثم اطلع على مكتبة شيخ الجبل , وأعجب بأحد الكتب الذي ضم المواعظ التي أوردها السيد المسيح عيسى عليه السلام لتلميذه القديس بطرس , ربما حاول جذب الحشيشية إلى المسيحية حسب رغبة سيده لويس التاسع , لأن لويس التاسع لم يرسل فارس من فرسانه للحشيشية , إنما تقصّد إرسال راهب لعله أقدر على جذبهم للمسيحية, لكن اقتناع شيخ الجبل بمعتقداته جعله غير مُكثرث للنقاش, وفي النتيجة لم يصل إيف البريتوني لمبتغاه (٤), وتوقفت بعد ذلك المراسلات بين لويس التاسع وشيخ الجبل , وبقيت العلاقة ودية بينهما .

وهكذا كان لويس التاسع لطيفاً مع الحشيشية وغيض النظر عن تهديدهم ووعيدهم , وما لبث أن جرى تبادل السفارات والهدايا بينهما , وكسب لويس التاسع صداقة شيخ الجبل , وأقن حماية الصليبيين من اغتالات الحشيشية , ويُحتمل أراد استخدامهم في عمليات الإغتيال ضد الملوك الأيوبيين , لكن الحشيشية لم ينقادوا وراء رغباته وإن لم يضمن لويس التاسع دعم الحشيشية ضد الأيوبيين فعلى الأقل ضمن وقوفهم على الحياد (٥) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٨-١٦٩ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٧ . لويس : ص ١٧٦ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٩ .

(٣) يُنظر المصور رقم (٥) , ٣٠٤ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٩-١٧١ ؛ الدبس : ج ٦ , ص ٢٨٤ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٨٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٣٥-٢٤٧ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٧-١٧١ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٧ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٨٢ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p516-518.

٩- مراسلة لويس التاسع للمغول .

أصبح المغول خطراً مدمراً هدد العالم في الوقت الذي تلقى الصليبيون ضربات قاسية من قبل المسلمين , فأدرك لويس التاسع أن خير وسيلة لاتقاء شرهم كسبهم إلى جانبه , ووجد أن تلك القوة المغولية تصلح لتدمير المسلمين (١) , ولذا جرت اتصالات بين مختلف قوى أوروبا والمغول , وقد كان البابا أنوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢هـ/١٢٤٢-١٢٥٤م) من أكبر المحبذين لفكرة محالفة المغول حيث أرسل سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م ثلاث سفارات إلى المغول لكنها أخفقت في تحقيق الغاية المرجوة منها لأن الخان المغولي الأكبر كيوك (Guyuk) (٢) قد طالب البابا , وملوك أوروبا بالاعتراف له بالتبعية دون قيد أو شرط (٣) , وقد مهدت تلك السفارات التي أرسلها البابا السبل أمام لويس التاسع في مواصلة السياسة التي رسمها البابا أنوسنت الرابع في استجداء المغول , وبشكل خاص إثر قدوم سفارة أرسلها الخان المغولي في بلاد فارس جَغْطاي (achatay) إلى لويس التاسع أثناء وجوده في قبرص سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م , وقد تألفت السفارة من داود ومرقص , وهما من مسيحيي بلاد فارس , وقد أقرت السفارة بأن جَغْطاي قد عقد العزم على مساعدة لويس التاسع في حربه ضد المسلمين , وبالع لوييس التاسع بإكرام ضيوفه (٤) , ثم أعد سفارة بقيادة الراهبان الدومينيكان (Dominican) (٥)

(١) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٨٥ , ص١٨٧٩-١٨٨١ ؛ باريس : الموسوعة, ج٤٨ , ص١٠٧٣-١٠٧٤ ؛

Maier : op . cit , p78-79 .

(٢) كيوك : استلم خاناً أعظم للمغول سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م وقد عُرف بشدته وقوة شخصيته , وغالباً ما كان يأتيه السفراء من بلاد بعيدة ولا يجروون على مقابلته , ولم تتعد غزواته سمرقند حيث وافته المنية فيها سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م الجويني : مج١, ص٢٣٠-٢٣٩ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١٠٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص٨٤-٨٦ ؛

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٧٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٨٧٩-١٨٨٠ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١٠٧٤ ؛ ج٥٠ , ص١٨٨٢-١٨٨٣ .

(٥) جماعة الراهبان الدومينيكان : أسسها القديس الإسباني دومنيك (dominic) سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م , واستهدفت تلك الجماعة مكافحة الهرطقات , وهم يشبهون الفرنسيين في ضرورة الاختلاط مع الآخرين , وإرشادهم إلى طريق الحق . يوسف , جوزيف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها , مؤسسة شباب الجامعة , الإسكندرية , ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م , ص١٧٦ .

Mayer : op . cit , p267 ; Furon , Raymond : la perse , Paris , p122-123, p1938 .

أندرو لونجيجمو (Andreau longjmeau) وأخيه وليم لونجيجمو (Wailiam longjmeau) حيث أعد لويس التاسع لتلك السفارة بعض الهدايا منها كنيسة متنقلة صُنعت من القماش القرمزي , ووضع بداخلها مجموعة تماثيل تتعلق بالعقيدة المسيحية , وعادت السفارة

المغولية وإلى جانبها سفارة لويس التاسع ، وقد قصدوا جَعِطاي الذي اقترح على السفارة الصليبية الذهاب إلى الخان المغولي الأكبر إذا ما أرادوا إنشاء تحالف مغولي صليبي فلا بد من أخذ موافقة الخان الأكبر ، وقد وصلت إلى العاصمة المغولية قراقورم (١) ، فوجدت أن الخان المغولي الأكبر كيوك قد فارق الحياة (٢) ، وأصبحت زوجته أغول غايميش وصية على منصب الخان الأعظم ، ريثما يتم اجتماع أعضاء القوريلتاي لتعيين خان أعظم للمغول ، وقد أرادت الاحتفاظ بذلك المنصب لأحد أبنائها ، فلم يوافقها أحد من أمراء المغول ، ثم اتفق أعضاء القوريلتاي على تعيين مُنكو بن تولوي ، بينما عارضت أغول غايميش ، وأخذت بإحاطة مؤامرة ضد مُنكو ، وعندما علم بنواياها ، ألقى القبض عليها وأعدمها غرقاً في الماء (٣) ، وبدأ مُنكو حكمه بإطلاق سراح الأسرى والمساجين ، وأعفى الكهنة والرهبان المسيحيين والعلماء المسلمين من الضرائب ، ولم يستثن من ذلك الكرم إلا اليهود كما أشار ابن العبري (٤).

وعلى ما يبدو أن السفارة الصليبية شهدت انعقاد اجتماع القوريلتاي ، حيث قدّمت الهدايا لمُنكوخان (٥) ، وتوجه مُنكو إلى أمراء المغول في الاجتماع قائلاً : " لقد بعث ملك فرنسا يلتمس عطفنا ووضع نفسه تحت طاعتنا ، ويمكنكم أن تروا هنا الجزية التي أرسلها لنا " (٦) .

(١) يُنظر المصور رقم (٦) ، ص ٣٠٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٧٤-١٨١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٨٨٠-١٨٨١ ؛ زابوروف : ص ٣١٣-٣١٤ ؛

brellier : op . cit , p222 ; Grousset : op . cit , volume 3 , p520-522 .

(٣) العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٣٤ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص ٢٢١ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٩٦ ؛ مختصر الدول ، ص ٢٥٨-٢٦٢ .

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٩٧ .

Hamilton : op . cit , p81.

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٨١ ؛

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٨١ .

عدّ مُنكو ماحملته السفارة الصليبية جزية ، وليست هدايا ، كما أن مُنكو لم يعد السفارة الصليبية بأية مساعدات ، أو حتى إنشاء حلف معهم ضد المسلمين ، ثم أعد سفارة مغولية حملت رسالة إلى لويس التاسع ، وانطلقت السفارتان إلى لويس التاسع حيث وصلتا سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م إلى قيسارية حيث كان لويس التاسع مشغولاً بتحسينها ، واستلم رسالة مُنكو فوجد فيها التهديد والوعيد والإرشاد (١) وقد قال :

" ننصحك بأن تبث إلينا كمية كافية من أموالك سنوياً , لتدفع إلينا حتى نبقي أصدقاء لك , وإذا ما رفضت فعل هذا سوف ندمرك كما دمرنا الملوك " (٢) الذين تمردوا علينا ولم يخضعوا لنا , ويلاحظ أن حلم لويس التاسع كان مخالفة المغول , بينما أراد مُنكو أن يكون السيد الوحيد في ذلك العالم آنذاك , وأن تأتي الملوك من أصقاع الدنيا ليقدموا له فروض الطاعة , وهم صاغرين , ومُحمّلين بالهدايا والجزية , ومع ذلك هل أفلح لويس التاسع عن فكرة مخالفة المغول ؟

لم تكن رسالة مُنكو القاسية من عزيمة لويس التاسع بل أصر على توثيق علاقته مع المغول , وذلك للأسباب التالية :

أ_ خوف لويس التاسع من قوة المغول الغاشمة بعد أن أشار له مُنكو بأنك " لن تعرف السلم ما لم تكن بسلام معنا " (٣) .

ب_ ظهور بارقة أمل أمام لويس التاسع إثر مسير هَيْثُوم الأول ملك أرمينية الصغرى على خطى لويس التاسع في كسب المغول لتدمير المسلمين (٤) .

ج_ أيقن لويس التاسع بأنه لن تأتيه النجدة من قبل البابا , ولا يمكن أن يثار للهزائم التي حلت به على أيدي المسلمين إلا إذا تلقى مؤازرة المغول (٥) .

د_ طار لويس التاسع فرحاً عندما علم أن الديانة المسيحية أخذت بالانتشار في صفوف المغول , وبخاصة

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٦٧-٢٧٠ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p522-524 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨١ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨١ .

Bernard Hamilton : op . cit , p80-81 .

(٤) الأرمني : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٢٦ ؛

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٢-١٧٤ ؛ هلال : المغول وأوروبا , ص ٧١-٧٣ .

النساء مثل سُورجقتاني والدة مُنكو (١) .

أدت هذه الأسباب إلى إرسال لويس التاسع سفارة جديدة إلى المغول سنة ١٢٥٢م / ٦٥٠هـ , ترأسها الراهب الفرنسي سكاني (٢) وليم رُوبروك (William Rubruk) (٣) , وغادرت سفارة رُوبروك قيسارية وسارت شمالاً حيث وصلت القسطنطينية , ثم إلى شبه جزيرة القرم التي كانت تحت سيادة اليونانيين

, ووصلت جنوب روسيا , حيث سكن المغول العربات التي نصبوا عليها الخيام , و أكرم المغول السفارة , وقدموا لأعضائها شراب الكوميس , وهو لبن الفرس المخمر , ثم التقت السفارة مع سارتاق بن باطو (sartak de Batu) وقدمت له الهدايا , وطلبت منه السماح لهم بنشر المسيحية أملاً في إيجاد تحالف صليبي . مغولي , فوجد سارتاق أنه لا يمكنه البت في هذه المسألة دون موافقة والده باطو (٤) الذي استقر في مدينة سراي عاصمة المغول في روسيا , وإثر مقابلة السفارة له وجد روبروك أن باطو " لا يدين بدين ولا عقيدة , وكذلك لم يكن معادياً ديناً معيناً ولا متعصباً لمعتقد " (٥) , وقد نصح روبروك بمقابلة الخان المغولي الأكبر منكو لأنه لا يستطيع عقد أي تحالف دون موافقة سيده (٦) , ما لبثت السفارة أن قصدت قراقورم , والتقى وليم روبروك قائد السفارة مع منكو ,

(١) الصديقي , رزق الله : تاريخ دول الإسلام , الدار العالمية , مصر , ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م , ج ٢ , ص ٢٧٨-٢٨٠ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٥٠٩-٥١٠ .

(٢) جماعة الفرنسيسكان (Franciscan) : جماعة رهبانية أسسها القديس الإيطالي فرنسيس الأسيزي (Francis Assisi) في مدينة أسيزي (Assisa) حوالي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م , واستهدف من تلك الجمعية تخليص الرهبان من حالة القوقعة , والعمل على إرشاد الناس إلى طريق الخير بالعلم والتعلم . يوسف : العصور الوسطى الأوروبية , ص ١٧٥-١٧٦ .

(٣) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٧٠-٢٧١ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p522-524 .

(٤) باطو : لقب بصاين قان , ومعناه الملك الجيد , وقد استلم خاناً للمغول في روسيا والقفحاق سنة ٦٢٥-٦٥٠هـ/١٢٢٧-١٢٥٢م وقد ترك من بعده ثلاثة أبناء وهم سارتاق وبركجار . العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٢٧-٦٢٨ ؛ المنصوري , بيبس : التحفة المملوكية في الدولة التركية , تح : عبد الحميد حميدان , الدار المصرية اللبنانية , ط ١ , القاهرة , ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م , ص ٧ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ٢١٣ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p522-525 .

(٥) الجويني : مج ١ , ص ٢٤٤ .

(٦) رنسيما : ج ٣ , ص ٥١٠-٥١١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٥٦-٢٧٥ ؛ هلال : ص ٧٤-٧٧ ؛

Mayer : op . cit , P269.

فشرح له الأول إذا ما اعتنق منكو المسيحية , فإن العالم سرعان ما يدين له بالولاء والطاعة , وسعى روبروك جاهداً لإدخاله في خضم الصراع الصليبي مع المسلمين (١) , وتراءى لمنكو أنه إذا ما ساعد الصليبيين ضد المسلمين فقد ضمن الهيمنة على المسيحيين من روما (٢) حتى أرمينية الصغرى (٣), فضلاً

عن سيطرته على بلاد المسلمين التي صورتها له السفارات المسيحية التي تواترت إلى المغول بأنها مليئة بالثروات وسهلة المنال (٤).

ترك رُوبروك أحد أعضاء سفارته ويدعى برثولماوس دي كرمونا في قراقورم للتبشير بالمسيحية, وقفل راجعاً سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٥) , ووصل طرابلس وعلم عندها أن لويس التاسع عاد إلى فرنسا , ولم يسمح له مقدم هيئة الفرنسيين بالذهاب إلى فرنسا , وإنما طلب منه كتابة النتائج التي توصل لها خلال رحلته لإرسالها إلى لويس التاسع , وقد أكد رُوبروك في رسالته إلى لويس التاسع متابعة سعيه الحثيث لكسب المغول , لأن هناك أمل كبير بهجوم مغولي ضد المسلمين (٦).

وهكذا بذل لويس التاسع كل ما في وسعه لتقوية علاقاته الدبلوماسية مع القوى المسيحية والوثنية بل وحتى الإسلامية أملاً في إيجاد حلف صليبي قادر على تحطيم المسلمين , والثأر لهزائم الحملة الصليبية السابعة , وإقامة الكيان الصليبي رغماً عن المسلمين , وبالفعل فقد حقق نجاحاً باهراً , وبالوقت نفسه فقد أعطى جزءاً كبيراً من اهتمامه لتحسين الأوضاع الداخلية للصليبيين , لأن الجبهة الداخلية لا تقل شأناً عن الجبهة الخارجية (٧) .

—

(١) عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١١٠٠-١١٠١ ؛ يوسف : العصور الوسطى الأوربية , ص ٢٧٤-٢٧٥ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٧٣-١٠٧٤ .

(٣) الأرمني : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٢٦ ؛

Archibald : op . cit , P148 .

(٤) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٨٠-١٨٨١ .

(٥) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٧٣ ؛ الغامدي , عبد العزيز : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين , دار اقرأ , مكة المكرمة , د.ت , ص ١٥٤-١٥٥ .

(٦) هلال : ص ٧٦ ؛ العربي : ص ١٩٨ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٣-١٨١ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٧٩-٥١٠ .

— الفصل الثاني —

أعمال لويس التاسع الإدارية وإصلاحاته الداخلية في مملكة عكا .

١- لويس التاسع والمنظمات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية - التيوتون - اللعازر) .

٢- علاقة لويس التاسع مع ممثلي الجمهوريات الايطالية في مملكة عكا .

٣- التسليح الصليبي في عهد لويس التاسع .

٤- التحصينات والدفاعات .

٥- مشاكل لويس التاسع البشرية .

٦- مشاكل لويس التاسع المالية .

٧- العملة الصليبية في عهد لويس التاسع .

١- لويس التاسع والمنظمات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية - التيوتون - اللعازر) .

أوشكت مملكة عكا على السقوط بعد أن استبدت بها الكوارث , وافتقدت إلى القيادة الواحدة (١) , وما إن وصل لويس التاسع إلى الشرق حتى وضع إستراتيجية جديدة لإصلاح الأوضاع الداخلية المتداعية , ولم يكن ذلك بالأمر السهل بعد أن بلغت درجة كبيرة من الضعف , فتطلبت المسألة جهداً كبيراً كي تقف على قدميها , وتصمد أمام القوى الإسلامية التي كانت تتحين الفرصة المناسبة للإطاحة بها , وقد أراد لويس التاسع استقطاب القوى العسكرية الصليبية حتى ينهض بالصليبيين , في الوقت الذي مثلت فيه الطوائف الدينية آنذاك مركز القوة العسكرية الصليبية, وحازت أقوى نفوذ لها في أوساط الفرنج , وقامت بنشاط بارز في مملكة عكا (٢) , فماذا عن علاقة لويس التاسع مع المنظمات الدينية ؟

وما هو مدى تجاوب تلك المنظمات مع سياسته ؟

أ- الاستبтарыة: ما إن وصل لويس التاسع إلى قبرص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م حتى أعدت الاستبтарыة قوة عسكرية من مملكة عكا , ثم انطلقت إلى قبرص للترحيب به , وقد حضر مقدم الاستبтарыة آنذاك وليم شاتونيف (٦٤١ - ٦٥٦هـ/١٢٤٣-١٢٥٨م) الاجتماع الذي عُقد لتحديد وُجهة الحملة الصليبية, وأيد وليم مهاجمة مصر (٣) , وإثر استيلاء الصليبيين على دمياط حصلت الاستبтарыة كغيرها من المنظمات العسكرية على حصة الأسد من الغنائم (٤) , ثم تقدم الصليبيون نحو القاهرة , فحاول قائد الجيش الأيوبي فخر الدين بن حموية عرقلة مسيرهم , وأرسل مجموعة فرسان لأداء تلك المهمة (٥) , فتصدت لها الاستبтарыة , وأخذت بمطاردتها , ولكن تلك المجموعة ما لبثت أن شنت هجوماً معاكساً (٦) , وقتلت " من الاستبтарыة أحد عشر رجلاً " (٧) , فأصبح فرسان الاستبтарыة موضع ثناء

—

(١) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٥٤٧-٥٤٩ ؛ ابن العميد : ص ٣٢-٣٣ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٨٧٨-١٩١٣ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩١٣ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٥٧ ؛ إدويري : ص ٧٠ .

(٤) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩١٣ ؛ Thorau : op . cit , p 34- 35 .

(٥) النويري : ج ٢٩ , ص ٣٣٨ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٨٢ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٢٤ ؛ حسين عبد الوهاب , حسن : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي

المقدسة , دار المعرفة الجامعية , الأزاريطة , ١٤١٠هـ/١٩٨٩م , ص ٢٥٩ .

(٧) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٢٢ .

ذلك اليوم لدى الصليبيين على الأعمال البطولية التي قاموا بها ضد المسلمين , والتضحيات التي قدموها , وقد زاد ذلك الإطراء من ثقتهم بأنفسهم , فأسدى وليم مقدم الاستبтарыة النصح إلى روبرث كونت أرتوا للترث , وعدم اقتحام المنصورة , ريثما يتم عبور الجيش الصليبي لأشمو طناح , ولكنه لم يأخذ برأيه (١) ,

وجرت معركة حاسمة في المنصورة , ولم ينج من الاستتارية فيها سوى خمسة فرسان , وكان أحدهم مصاباً بجراح خطيرة , أدت لوفاته لاحقاً (٢) , ثم وقع الجيش الصليبي في الأسر ومن ضمنهم مقدم الاستتارية وكثير من رجاله , وفي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بعد استقرار لويس التاسع في عكا توصل لإطلاق سراح دفعة من الأسرى الصليبيين كان في مقدمتهم مقدم الاستتارية وليم مع خمسة وعشرين من فرسانه (٣) وبرز نشاط وليم شاتونيف في دعم الوجود الصليبي حيث فرض على الحشيشية جزية سنوية أملاً في كسر شوكتها وتأمين حماية الصليبيين من خناجرها , وقد أيدها لويس التاسع في ذلك لما فيه من إضعاف للحشيشية , وزيادة ثراء الصليبيين (٤) .

استغلت الاستتارية تأزم الموقف بين القاهرة ودمشق , فهاجمت حلب سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م , وأشعلت فيها حريقاً أدى لإتلاف " أموال لا تحصى واحترقت ستمائة دار " (٥) , وعلى ما يبدو أن ذلك الهجوم أخذ شكل غارة سريعة , استهدفت السلب والتخريب , ثم الإسراع للتحصن داخل القلاع , قبل أن يرد المسلمون عليهم , وهذا دليل على مدى غيرة الاستتارية على الكيان الصليبي , فقد سارت على السياسة التي رسمها لها لويس التاسع , فعملت على تأمين حماية الصليبيين , فما إن لمست ضعفاً في صفوف المسلمين حتى أغارت عليهم لإحداث الضرر والتخريب وأخذ الغنائم (٦) .

التزمت منظمة الاستتارية بالنظام والانضباط ولم تكن قوتها ومكانتها تسمح لها بالإساءة إلى الآخرين , فعندما اشتكى جوانفيل سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م إلى مقدم الاستتارية وليم على مجموعة

(١) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٣٦ ؛ Brellier : op . cit , p224-225 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٦-١٩٢٧ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٤٥ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٣٨-١٩٥١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٢ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p 500 ; Villeneuve : op . cit , P197-200 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٧-١٦٨ .

(٥) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٧٨ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٢٥ .

(٦) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٧٨ ؛ طلاس , مصطفى والجلاد , محمد : قلعة الحصن , دار طلاس , ط ١ , دمشق ,

١٤١١هـ/١٩٩٠م , ج ١ , ص ١٣٠ ؛ Stevenson : op . cit , p330-331 .

من جنود الاستتارية اعترضت سبيل عدد من فرسان جوانفيل كانوا يلاحقون أحد الغزلان , فمنعوه من اصطيداده , ووفقاً لقوانين مملكة عكا (١) , فقد فرض وليم على تلك المجموعة من جنوده ألا تتناول الطعام إلا بعد أن تخلع أرديتها , ثم تجلس عليها وتتناول الطعام , واستمروا أياماً على هذه الحالة , وأتى جوانفيل

كي يَصْفَح عنهم , فرد عليه وليم بأنه "لن يسمح لأعضاء من طائفته بإساءة السلوك نحو الذين قدموا حجاجاً إلى الأراضي المقدسة " (٢) , فخلع جوانفيل رداءه وجلس عليه يتناول الطعام معهم , ولم يكن مقدم الاستبارة ليرضى أن يأكل جوانفيل مستشار لويس التاسع على تلك الحالة , فأمر الجميع بالقيام , فنهض جوانفيل معهم , وهذا يعني أنه لم يكن هناك تمييز بين الصليبيين في عهد لويس التاسع , فالكمل يجب أن يخضعوا للقوانين بغض النظر عن انتمائهم أو مكانتهم (٣) .

ازدهرت اقطاعات الاستبارة , وانتشرت أملاكها في عكا وأنطاكية وطرابلس , وقد امتلكت حوالي مائة وسبعين قرية من أصل ثمانمائة وثمان وخمسون قرية في مملكة عكا (٤) , فضلاً عن الهبات التي كانت تصلها من أوربة , سخرت الاستبارة أملاكها في دعم الصليبيين قدر المستطاع (٥) , وعلى هذا يلاحظ أن الفكرة الأساسية للاستبارة قامت على محاربة المسلمين , والتعاقد مع لويس التاسع للدفاع عن الصليبيين , والحفاظ على الكيان الصليبي بقوة السلاح (٦) .

ب_ الداوية : لم تكن منظمة الداوية أقل نفوذاً من منظمة الاستبارة بل كانت أكثر نشاطاً بعد أن وضعت يدها بيد لويس التاسع , وآزرته منذ أن وطأت أقدامه جزيرة قبرص , ثم سارت معه لمهاجمة مصر (٧) , وإثر المسير من دمياط باتجاه القاهرة أمرهم لويس التاسع بعدم مهاجمة أحد في طريقهم

(١) قوانين مملكة عكا : عُرِفَت القوانين في مملكة عكا بالدواوين الشرعية , وقد استمدوها من الكتاب المقدس والأعراف المتبعة لديهم , وظهر بعض المشرعين كالمؤرخ الشهير والمشرع فيليب دي نوفارا , وقد أشرف على تطبيق القوانين عدة محاكم هي : المحكمة العليا والبرجوازية والإكليروس (الكنيسة) . غروسيه : الحروب الصليبية , ص ٩٦-٩٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨٧ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨٧ .

(٤) ريلي سميث : ص ٤٢١-٤٢٤ .

(٥) ماب : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٩٢ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٨٣-٨٤ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٦-١٨٧ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٤٥-١١٥٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩١٣-١٩٥١ ؛

Kohler : op . cit , p522-523 .

(٧) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٧٨-١٩٢٤ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٤٤-٤٥٣ ؛

Nicolle , David : arms and armour of the crusading , New yourk , 1988, p318 .

إلا من أجل الدفاع عن أنفسهم , وبالفعل أخذ المسلمون يتسللون لضرب الصليبيين , وحدث أن قام أحد المسلمين بضرب فارس داوي فألقاه أرضاً , فنأدى وليم سوناك مقدم الداوية فرسان الداوية " من أجل الرب دعونا ننقض عليهم فأنا لا أستطيع أن أتحمل ما يجري " (١) وتبعه فرسانه , وأخذوا بملاحقة المسلمين

فشنت شملهم ,وأغرق معظمهم في ماء النيل (٢) , ثم اجتاز الصليبيون أشوم طناح ,وهاجموا معسكر المسلمين , واستطاعت الداوية قتل قائد الجيش الأيوبي فخر الدين بن حمويه حيث طعنوه في جنبه , فسقط من فوق فرسه , ثم ضربوه في وجهه بالسيف طولاً وعرضاً ومثلوا به (٣) , وعندما قرر روبرت كونت أرتوا مهاجمة المنصورة أسدى له مقدم الداوية النصح بعدم التورط في مهاجمتها , لأنه أدري من الأوربيين بطرائق القتال لدى المسلمين , حيث توقع بأن هناك كمين قد نُصب لهم في المنصورة , فاتهم روبرت الداوية وكذلك الاسبتارية بالخيانة , ولو أنهما أخلصا للمشروع الصليبي لتحول المشرق العربي الإسلامي إلى مستعمرة أوربية , وبالرغم من ذلك الاتهام لم يتركه مقدم الداوية وسار معه نحو المنصورة (٤) , فكانت خسارة الداوية كبيرة حيث لم يسلم منهم أكثر من أربعة أو خمسة فرسان , وقد قتل في مقدمتهم مقدم الداوية وليم سوناك بعد أن فقد إحدى عينيه (٥) .

حلت الهزيمة بالجيش الصليبي ووقع في الأسر , واحتاج لويس التاسع لمبلغ ثلاثين ألف ليرة ذهبية لدفع الفدية للمسلمين , فنصح جوافيل بأخذ ذلك المبلغ من الداوية , وبالفعل أرسل جوافيل إلى سفينة نائب مقدم الداوية الراهب إيتين دي أوتريكورت (Etinne d, otricourt) الذي رفض إعطائه المال , وتقاذفا الشتائم , ولكن كان إيتين على حق لأن الأموال كانت ودائع لديه , فوقع في ورطة فيما أن ينكت بعهده أو يعيد جوافيل خائباً , وثار جوافيل غضباً , وحمل فأساً دافرية وقع بصره عليها في السفينة,وهدد بكسر الصندوق لأخذ ما يلزمه , وهنا تدخل مارشال الداوية (٦) ,

(١) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٧٨ .

(٢) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٧٩ .

(٣) العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٥٩١ ; سبط ابن الجوزي : ص٧٧٧ ; ابن كثير : ج٧ , ص٣٠٥ .

(٤) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٨٩ ; باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٣٥-١١٣٧ ; مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ ,

ص١٩٢٥-١٩٢٦ ; Delort : les croisades , seuil , 1988 , p258-259 .

(٥) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٢٧ ; يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص١٦٩-١٧٠ .

(٦) المارشال: رتبة عسكرية يحملها أكبر قائد عسكري في المنظمة بعد مقدم المنظمة , ويتولى إدارة شؤون الجنود , وحل مشاكلهم. باركر : ص١٨٦ .

رينالد دي فيشييه (Renald du Vichier) وطلب من إيتين إعطاء جوافيل ما يلزمه من المال , لأنه لا يجوز رفض مطالب لويس التاسع , وإن لم يتم دفع الفدية فهم باقين في الأسر لا محالة , وبالفعل استجاب إيتين , وأخذ جوافيل طلبه عائداً إلى لويس التاسع (١), ولم ينس لويس التاسع ذلك الجميل

لرينالد دي فيشييه إثر عودته إلى عكا , فعينه مقدماً للداوية (٦٤٨-٦٥٠هـ / ١٢٥٠-١٢٥٢ م) , حيث عينه لويس التاسع دون انعقاد اجتماع لفرسان الداوية , فقد اعتادت الداوية عقد الاجتماعات لتعيين مقدم للمنظمة , وكذلك أثناء الأزمات , ولكن هنا أدرك لويس التاسع غيرة رينالد على المصلحة العامة للصليبيين , فتخطى القوانين العامة للداوية , وعينه مقدم للداوية ولم يعارضه أحد , وفي ذلك دلالة على الطاعة العمياء للويس التاسع , وإلى مكانته لدى الداوية (٢) , وعندما أُطلق سراح الدفعة الأولى من الأسرى الصليبيين كان من بينهم خمسة عشر فارساً من فرسان الداوية (٣) .

أسهم رينالد دي فيشييه في أعمال التحصين التي قام بها لويس التاسع لزيادة مناعة المواقع الصليبية (٤) , واتصفت الداوية في عهد رينالد بالالتزام بالنظام , وكان أفرادها دائماً على أهبة الاستعداد فيما إذا تعرض أي موقع صليبي لهجوم إسلامي مفاجئ (٥) ولم تهتم الداوية بالجانب العسكري فحسب بل كان أفرادها سادة القروض المالية (٦) , وعلى ما يبدو أن حبها للمال أدى لإحراجها أحياناً , فعندما اختلف مقدم الداوية رينالد مع الناصر يوسف الثاني ملك دمشق سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢ م , على قطعة أرض كانت محط خلاف بينهما , ولم تحدد المصادر موقعها , وهي من المرجح على المناطق الحدودية مع الكيان الصليبي , فتم الاتفاق على اقتسامها , وبعد توقيع الاتفاق أخبر رينالد لويس التاسع بذلك , فغضب لويس التاسع لعدم استشارته فيما حدث , وطلب لويس

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٤٣-١٤٥ ; رنسيان : ج٣ , ص٤٧١-٤٧٢ ; زيادة : ص٢٢٩-٢٣٠ ;

Grousset : op . cit , volume 3 , p493 ; Ebrhard : op . cit , p264-265 ; Villeneuve : op . cit , P 176-179 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٥٤ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥١ ; يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص٢٧٥ ;

Grousset : op . cit , volume3 , p500 .

(٤) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٥٦ ; فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص١١٥٨-١١٥٩ ;

Labrune , Gerard et Toutain , Philippe : L,histoire de France , Nathan , 1986 , p36-37 .

(٥) كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٩١-٩٥ .

(٦) غروسيه : الحروب الصليبية , ص١٠١ ; زيادة : ص٢٢٩ .

التاسع اجتماع النبلاء الصليبيين , فما كان من مقدم الداوية إلا أن سار إلى الاجتماع مع فرسانه حفاة الأقدام لعلهم ينالون الرضى , ولم يكن الأمير الدمشقي الذي أرسله ملك دمشق لتوقيع الاتفاق قد عاد إلى دمشق بعد , فحضر مع الداوية وأشار لويس التاسع للجميع إلى الخطأ الذي ارتكبه مقدم الداوية من

خلال اتفاهه مع المسلمين دون العوده إليه , فطلب من رينالد التراجع عما قام به " وبناءً عليه تناول مقدم الداوية الوثيقة المكتوبة وناولها إلى الأمير , وهو يقول أُعيد إليك الاتفاق الذي عقدته معك خطأ وإنني أُعبر عن أسفي لقيامي بذلك " (١) , وتراجع مقدم الداوية عن اتفاهه وهو حافي القدمين , ثم أمره لويس التاسع بالركوع عند قدميه , وقرر نفيه من مملكة عكا , ولم تشير المصادر إلى المكان الذي نُفي إليه , ومن المرجح أنه نُفي إلى أوربة (٢) , ولكن لماذا تعامل لويس التاسع مع مقدم الداوية بتلك القسوة ؟

أراد لويس التاسع أن يجعل من رينالد عبرة للصليبيين , كي يكونوا طوع بنانه ورهن إشارته , لتأمين الأمن للكيان الصليبي , لأنه إذا ما كان هناك اتفاق بين رينالد والناصر يوسف الثاني , فإن هذا قد يؤدي لغضب المماليك , بعد أن استغل لويس التاسع صراعمهم مع الأيوبيين , فتوصل لإطلاق سراح قسم من الأسرى الصليبيين الموجودين في مصر , وبقي الكثير منهم في السجون المملوكية , وربما كان ذلك الاتفاق مع ملك دمشق يحقق مصلحة الداوية , ولكنه سوف ينعكس سلباً على واقع الأسرى الصليبيين , ولم يرغب لويس التاسع بإعلان عداوته للمماليك إلا بعد إخراج آخر جندي صليبي من سجونهم (٣) .

وعلى هذا عززت الداوية الوجود الصليبي واستمرت عنصراً مفيداً لأنها نذرت نفسها لخدمة المشروع الصليبي , ومع ذلك تخلل إخلاصها تعارض المصالح أحياناً , وبشكل عام كانت الساعد الأيمن للويس التاسع (٤) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٨٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٨٨-١٨٩ ؛ عاشور : الحروب الصليبية , ج٢ , ص١٠٩٥ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p510.

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٤٥-١٨٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩١-١٩٩٢ ؛ العيني :

Irwin : op . cit , p20-30 .

الموسوعة , ج٦٠ , ص٥٩٣-٦٢٩ ؛

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٤٥-١٨٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٤٥-١٨٩ ؛

Kohler : op . cit , p522-523 .

ج _ التوتون : أسهمت منظمة التوتون (١) كإحدى المنظمات العسكرية بدور مهم في الدفاع عن الكيان الصليبي , وتثبيت أركانه , ولم تختلف عن الاستتارية بما أنها تفرعت عنها , لكن عضوية التوتون اقتصرت على الألمان بينما ضمت الاستتارية أعضاء من مختلف البلدان الأوربية (٢) , وعندما وصل لويس التاسع إلى الشرق انضمت إلى حملته الصليبية , وتصدرت طليعة الجيش الصليبي , وفرحت بما حصلت عليه من غنائم في دمياط وتولت أثناء المسير نحو القاهرة تأمين حماية الجيش الصليبي من هجمات المسلمين

, وقد أبلت بلاءً حسناً في التصدي لغارات المسلمين , وقُتل من التيوتون أربعة فرسان نتيجة للاصطدامات المتكررة (٣) , كما تلقت التيوتون ضربة قاصمة في المنصورة حيث قُتل الكثير من فرسانها داخل المنصورة (٤) , ثم وقع الجيش الصليبي بالأسر ومنهم فرسان التيوتون (٥) , وبعد أن توصل لويس التاسع سنة ١٢٥٠هـ/١٢٥٠م لإطلاق دفعة من الأسرى الصليبيين كان من بينهم عشرة فرسان من التيوتون (٦) , ومن المرجح أن مقدم التيوتون هنريش هوهنلوه قد قتل في معركة المنصورة , فعين لويس التاسع إثر وصوله إلى عكا بدلاً منه جونتر تزبورج (Jonter Tezbourg) (٦٤٨-٦٥٠هـ/١٢٥٠-١٢٥٢م) (٧) , وفي عكا استردت منظمة التيوتون قوتها , ووقفت إلى جانب لويس التاسع , وشاركت في أعمال التحصين التي قام بها (٨) , وتميزت التيوتون بغناها المادي حيث امتلكت حوالي مائتي قرية في مملكة عكا (٩) , فضلاً عن الدعم المادي

-
- (١) التيوتون : هم سكان شمال ألمانيا , أما منظمة التيوتون فهي منظمة خيرية ارتبط تأسيسها بتأسيس مشفى القديسة مريم في القدس من قبل الحجاج الألمان سنة ١١٢٧هـ/١١٢٧م ومع نهاية القرن ١٢هـ/١٢م تحولت من منظمة إنسانية إلى منظمة عسكرية , واقتصرت عضويتها على الطبقة الأرستقراطية الألمانية فقط . زكار وجوني وإسماعيل : ص٢٢٦-٢٢٧ . غروسية : ص٩٩-١٠٠ .
- (٢) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٤٥ ; حومد , أسعد : تاريخ الجهاد لطرده الغزاة الصليبيين, ط١, د.م, ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م , ج٢ , ص١٨٩ .
- (٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩١٣-١٩٢٢ .
- (٤) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٤٥ ; حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون , ص٢٥٩ .
- (٥) ابن واصل : ج٦ , ص١٢٤ ; مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩١-١٩٩٢ ;
- Brentano : op . cit , p108-109 .
- (٦) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥١ ; حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون , ص٢٦٤ .
- Grousset : op . cit , volume 3 , p500 ; Villeneuve : op . cit , P 202 .
- (٧) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٨٢-١٢٠٧ ; رنسيان : ج٣ , ص٨٥٠ .
- (٨) فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص١١٥٨-١١٥٩ .
- (٩) حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون , ص٢٣٦-٢٣٩ .
- الذي تلقته من أوربا فشكلت جيشاً دائماً ساند لويس التاسع في أعماله القتالية (١) .

توفي مقدم التيوتون جونتر تزبورج سنة ١٢٥٢هـ/١٢٥٢م واستلم بدلاً عنه بوبو دي أوسيرنا (Popo de Ositerna) (١) , الذي شارك لويس التاسع في هجومه على بانياس التي كانت تابعة للناصر يوسف الثاني آنذاك , وعندما فرَّ المسلمون من بانياس ليتحصنوا في قلعة الصبيبة أسرع التيوتون في مطاردتهم دون أن ينتظروا جوانفيل وبقيّة الجيش الصليبي , فردهم المسلمون على أعقابهم , وعادوا إلى صيدا بعد أن

حمل جوفيل التوتون مسؤولية الهزيمة في بانياس (٢) ، وإثر حملة بانياس وقع خلاف بين التوتون ، وأسقف حبرون بارثولوميو دي سوكا (Bartholomew du Sofa) حول بعض المنازل التي استقر فيها التوتون في عكا حيث طالب أسقف حبرون بإيجار تلك المنازل ، فرفض مقدم التوتون متذرعاً بأن منظمة التوتون لا تخضع لقوانين الأسقفيات ، وهي لا تتبع سوى أوامر البابا ، ولكن عندما وجد مقدم التوتون أن الإيجار السنوي للبيت الواحد لا يساوي سوى سبع بيزنتات ، لم يمتنع عن دفع ذلك المبلغ الزهيد (٣) .

وعلى هذا فإن منظمة التوتون شاركت لويس التاسع في حربه وسلمه ، وبالرغم من أخطائها فقد اعتمد عليها اعتماداً كبيراً علماً أنها ألمانية الشكل والمضمون بينما لويس التاسع من أصل فرنسي ، وذلك أنه جمعهم هدف واحد ، وهو إقامة الكيان الصليبي ، مما أدى لتكاتفهم في مواجهة المسلمين (٤) .

د_ اللعازر : شاركت منظمة القديس اللعازر (٥) الصليبيين في أعمالهم القتالية بالرغم من إمكاناتها

(١) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص٨٣-٨٤ .

(١) بوبو دي أوسيترا: انضم إلى منظمة التوتون سنة ١٢٢٨م/٦٢٥هـ ، ثم أصبح ممثلاً للمنظمة في بروسيا ، وإثر قدومه إلى عكا أصبح مقدماً لها سنة (٦٥٠-٦٥٤هـ/١٢٥٢-١٢٥٦م) . حسين عبد الوهاب: جماعة التوتون ، ص٢٦٥-٢٦٦ .

(٢) جوفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٢٠٧-٢٠٨ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التوتون ، ص٢٦٥-٢٦٦ ؛

Stevenson : op . cit , p331 ; Grousset : op . cit , volume3 , p507-509 .

(٣) حسين عبد الوهاب : جماعة التوتون ، ص٢٦٦ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٨-١٠٨٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩١٣-١٩٥١ ؛

Stevenson: op. cit, p326-330.

(٥) اللعازر : نشأت هذه المنظمة سنة ١١٤٢م/٥٣٧هـ كمؤسسة صحية لمعالجة مرضى الجذام ، واتخذت من بيت المجذومين عند السور الشمالي لمدينة بيت المقدس مقراً لها ، ولم يكن هناك علاج ناجع للمجذومين آنذاك ، لذا قامت هذه المؤسسة بعزل المجذومين عن بقية الناس تفادياً للعدوى ، وأشرفت على علاجهم ، ووضعهم جميعاً مع بعضهم دون أن تخشى من انتقال العدوى بما أنهم جميعاً مصابين بالمرض ، واتخذت صورة مريض الجذام شعاراً لها ، وقد حمل بيده مطرقة لتحذير الناس من الاقتراب منهم ، وفي سنة ١١٥٧م تحولت لمنظمة عسكرية ، وأصبح لها أملاك في طبرية وعسقلان وعكا وقيسارية =

المتواضعة مقارنة مع بقية المنظمات العسكرية ، لأن وضعها الصحي قد حدد من نشاطها ، ولكنها لم تستكن لذلك الأمر ، فانخرطت في بعض الأعمال القتالية ضد المسلمين ، ولا تشير المصادر إلى أن منظمة اللعازر انضمت إلى الحملة الصليبية السابعة التي هاجمت مصر ، وربما كانت مشاركتها ضئيلة الأهمية مقارنة مع المنظمات العسكرية الأخرى ، أو أنها لم تقم بتلك الأعمال البطولية التي تستحق الذكر ، فلم تشير المصادر إليها ، وكُتب لتلك المرحلة من تاريخ اللعازر أن تكون غامضة (١) ، وأهم ما يميز اللعازر الهجوم الذي شنه مقدم منظمة اللعازر على المسلمين عند مدينة الرملة (٢) ، وذلك عندما علم مقدم

اللعازر ,ربما من خلال جواسيسه بوجود قطعان كبيرة من المواشي على أطراف مدينة الرملة , فأعد فرقة من فرسانه بطريقة سرية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م , ولم يخبر أحداً بما قام به حتى أنه لم يستأذن لويس التاسع , وسار مقدم منظمة اللعازر وفرسانه , فهاجموا الرعاة وقتلوا بعضهم ,وفر الآخرون إلى الرملة لطلب النجدة ,بينما ساق جنود اللعازر أمامهم قطعان الماشية وقد قصدوا مدينة يافا , وقبل أن يصلوا أدركتهم مجموعة خيالة من المسلمين كانوا قد أتوا من الرملة , وأنزلوا بهم هزيمة نكراء " ولم ينج من جميع الرجال الذين كانوا برفقته أكثر من أربعة " (٣) , وفرّ مقدم اللعازر إلى المعسكر الصليبي في يافا , وأخذ ينادي بطلب النجدة (٤) , وما إن سمعه جوانفيل حتى استأذن لويس التاسع وخرج على رأس مجموعة من فرسان الداوية و الاستتارية , واصطحبهم مقدم منظمة اللعازر إلى المكان الذي اشتبك فيه مع المسلمين لعله يثأر منهم , وقد أدركوهم في باطن أحد الأودية بعد أن انقسموا إلى قسمين حيث ساق فريقٌ منهم المواشي وسار إلى الرملة , بينما بقي وراءهم مجموعة من الفرسان لحمايتهم , واشتبكوا مع أولئك الفرسان فقتلوا عدداً منهم , بينما فر البقية , ولم يتابع جوانفيل

= وأسند إليها مهمة حماية برج القديس اللعازر أحد الأبراج الشمالية لمدينة عكا , وشاركت في معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م فأبيد معظمهم في تلك المعركة . كريستوفر :الموسوعة, ج٨٣ , ص٩٨-٩٩ ؛ براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين , تر : عبد الحافظ البنا , دار عين , ط١ , مصر ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م , ص٣٣٤ .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٧٨-١٤٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩١-١٩٩٣ .

(٢) الرملة : إحدى مدن فلسطين , وقد بناها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) , ومن المحتمل بأنها سميت الرملة لأن تربتها رملية , وهي قرية من بيت المقدس ولا تبعد عنه سوى مسيرة يوم .أبو الفداء : تقويم البلدان , ص٢٤١ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩٧ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص١٩٩ .

وجنوده فلولهم بعد أن أصبحوا على مضارب الرملة , وعاد مقدم منظمة اللعازر بخُفي حُنين بعد أن فقد قطع الماشية مع الكثير من فرسانه (١).

إن حادثة طريفة لفتت انتباه جوانفيل أثناء القتال مع فرسان الرملة حيث كان هناك سيرجندي تابع للملك الفرنسي قد قدم مع جوانفيل ,وقد أبصر السيرجندي فارسين يتصارعان أحدهما صليبي والثاني مسلم ,وقد أصيب كلاهما بجراح ,وبدلاً من إنقاذ السيرجندي للفارس الصليبي فقد جر جواديّ الفارسين بعد أن وقعا على الأرض , وكان ممتطياً حصاناً آخر , وسار متخفياً بقصد سرقة الحصانين , ولسوء حظه

أنه مر من على خزان مياه قديم تم تغطيته بالأخشاب التي وضعت عليها طبقة من التراب , وفجأة سقط مع خيوله في قعر الخزان , ولولا سماع جوانفيل وفرسانه صراخه لذهب ضحية طمعه (٢), ولا عجب في ذلك لأن هذا السيرجندي لم يأت للشرق باحثاً عن المقدسات أو الدفاع عن الصليبيين , فهدفه الوحيد زيادة أملاكه سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أو الصليبيين , فهو لم يترك رفيقه في المعركة يتألم فحسب بل تركه دون حصان لعله يموت ويكسب السيرجندي حصاناً آخر.

نجح جوانفيل بإنقاذ مقدم منظمة القديس اللعازر مع القليل من فرسانه (٣) , وقد عاد الجميع إلى لويس التاسع , وإثر ذلك يُذكر بأن مقدم منظمة اللعازر نقل مركز المنظمة من عكا إلى فرنسا , وبموافقة لويس التاسع تم ذلك سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م (٤) , ولكن من المحتمل أن لويس التاسع نفى مقدم منظمة اللعازر مع الفرسان الذين شاركوه في مهاجمة رعاة الرملة بسبب عدم استشارته في تلك الغارة التي ذهب ضحيتها الكثير من فرسان منظمة اللعازر حيث اعتاد لويس التاسع طرد كل من يخالف أوامره أو يتصرف دون استشارته , ولا غرابة في ذلك الأمر , فقد نفى لويس التاسع مقدم الداوية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م , وهذا ما يؤكد بأن لويس التاسع على الأرجح قد نفى مقدم اللعازر وفرسانه الذين

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٩٩ ؛ براور : الاستيطان الصليبي , ص ٣٣٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٩٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٨ ؛ براور : الاستيطان الصليبي , ص ٣٣٥ .

(٤) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٩٨ .

شاركوه في غارتهم على المسلمين فقط (١) , لأن أعضاء من هذه المنظمة بقوا في الشرق حتى جلاء الصليبيين عن بلاد الشام حيث قصد أعضاء اللعازر فرنسا واستقروا فيها (٢) , ويلاحظ بأن منظمة اللعازر حاولت أن تشغل دوراً في الحفاظ على الكيان الصليبي على قدر إمكاناتها المتواضعة , وقد اكتنف تاريخها الغموض وبخاصة في النصف الثاني من القرن ١٣هـ/١٣م , ربما استخفافاً بتلك المنظمة المجذومة لم يولها الكثير من المؤرخين أهمية كبيرة (٣).

وهكذا قامت المنظمات العسكرية بدور بارز تحت قيادة لويس التاسع , فتميزت بالطاعة العمياء لأوامره , وأدى ذلك الانضباط إلى قيامها بدور متميز في مملكة عكا , فكانت بمثابة العمود الفقري , ربما ودون مبالغة دون المنظمات العسكرية لا يمكن أن تقوم قائمة للصليبيين إثر هزيمة المنصورة , ويعود الفضل في

ذلك إلى لويس التاسع الذي اتبع مع المنظمات سياسة صارمة للقضاء على مظاهر الفوضى أملاً بإصلاح الكيان الصليبي (٤) .

-
- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٧٨-١٨٩ .
- (٢) نهاية منظمة اللعازر : على ما يبدو أن فرسان اللعازر توافدوا إلى فرنسا بعد أن طُرد الصليبيون من بلاد الشام , وبقيت قائمة في فرنسا حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م حيث قُضي عليها . يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص١٩٨ .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩٧-١٩٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٩٨-٩٩ .
- (٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٧٨-١٩٨ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٣-١٢٠٧ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩١-١٩٩٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩١٣-١٩٥١ ؛
- Rene Grousset : op . cit , volume3 , p493-512 ; Louis Brellier : op . cit , p222-227 .

٢- علاقة لويس التاسع مع ممثلي الجمهوريات الإيطالية في مملكة عكا .

فتحت الحروب الصليبية أسواقاً رائجة أمام الجمهوريات الإيطالية في المشرق العربي الإسلامي , فحصلت على الامتيازات في مملكة عكا بسبب توفيرها الأساطيل اللازمة التي نقلت الحملات الصليبية , وأمنت اتصالها ببلدانها , فشكلت تلك الجمهوريات قومونات مستقلة تتبع لإيطاليا الدولة الأم بشكل اسمي لكنها شكلت قوى استعمارية , وهيئات غنية ذات نفوذ , وقد تميزت بأنانيتها وتعطشها للمجد والثروة (١) , وما إن التمس لويس التاسع السفن اللازمة من الجمهوريات الإيطالية حتى بادرت مدينتا جنوه وبيزا بإمداده بالسفن , بينما أحجمت مدينة البندقية , لارتباطها مع السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب باتفاقية تجارية تعود إلى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م , وبالفعل أقلت جنوه وبيزا الحملة الصليبية السابعة إلى

قبرص سنة ١٢٤٦هـ/١٢٤٨م (٢) ، وبدأ آنذاك قتال عنيف بين أبناء بيزا وجنوه على امتداد الساحل الشامي (٣)، وربما كان ذلك الصراع أحد أسباب تأخر لويس التاسع في المسير من قبرص (٤) ، واستمرت الحرب بينهما "ثمانية وعشرين يوماً وقد رموا على بعضهم وتقاذفوا بواسطة ثمان وعشرين آلة من آلات رمي الحجارة والعرادات والمجانيق " (٥) ، ولم ينته ذلك الصراع إلا بعد أن كلف لويس التاسع حاكم أرسوف يوحنا الثالث دي إبلين للتوسط بينهما من أجل حل النزاع، فتوصل لعقد هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات (٦) ، ثم انشغلت كل من جنوه وبيزا بمداواة جراحهما ، مما أدى لمحاولة لويس التاسع طلب المعونة من البندقيّة للمرة الثانية ، ولكن هذه المرة وافقت على بيعه كمية كبيرة من المواد الغذائية ، تضمنت " ست سفن كبيرة محملة بالقمح والخمر

-
- (١) باريس: الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٧-١٢٠٣ ؛ غروسيه: الحروب الصليبية، ص١٤٥-١٤٦ ؛ كاهن ، كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، تر: أحمد الشيخ ، دار سينا ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص٢٩٤ .
- (٢) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص١٠٤ ؛ رنسيما : ج٣ ، ص٤٤٢ ؛ حومد: ج٢ ، ص٢٨١ .
- (٣) الصراع بين بيزا وجنوه : إن المنافسة التجارية بين جنوه وبيزا جعل جنوه تحاول فرض سطوتها على بيزا ، مما أثار غضب الثانية، فهاجمت مراكز جنوه التجارية على الساحل الشامي . زيادة : ص٩٧-٩٨ .
- (٤) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٥٧ ؛

Mayer : op . cit , p262 .

- (٥) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ .

- (٦) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٤٨ ، ص١٩٩١ ؛ عطية : ص٣٩٧ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p493-494 .

وأنواع المؤن الأخرى ، وكذلك نجدة من الجنود مع أعداد ممن حملوا الصليب " (١) ، ويلاحظ أن البندقيّة امتنعت بالأمس عن مساعدة لويس التاسع ، وتقديم السفن له لكن ما إن اشتبكت جنوه وبيزا حتى رغبت أن تكون هي الممولة الوحيدة للويس التاسع فيما يتعلق بالمواد التموينية والسلاح ضاربة عرض الحائط باتفاقيتها مع الصالح نجم الدين أيوب (٢) .

عرف لويس التاسع الجمهوريات الإيطالية على حقيقتها ، وتأكد بأنها لا تبحث سوى عن مصالحها الخاصة ، فلم يرغب باصطحاب الكثير من مقاتليهم معه إلى دمياط ، وكى لا يحتجوا تظاهر بأنه أبعد مجموعة صغيرة من الفرنسيين أبقاهم في قبرص ، بينما أبعد معظم أبناء الجمهوريات وأشار لذلك متى باريس قائلاً :

" أبعد عشرة آلاف رجل من رماة القسي الزيارة (٣) كان من بينهم بنادقة وبيازنة وجنويين وكذلك بعض الفرنسيين " (٤) , ثم أسهمت الجمهوريات الثلاث بإيصال الحملة الصليبية من قبرص إلى شواطئ دمياط (٥) , وبعد استيلاء لويس التاسع على دمياط حصلت الجمهوريات الإيطالية على نصيبها من الغنائم , فحازت كل واحدة سوقاً وشارعاً في دمياط مكافأة على الجهود التي بذلتها في مساعدة لويس التاسع , وبقيت تلك الجمهوريات في دمياط لإدارة مصالحها التجارية , ولم تشارك لويس التاسع في الهزائم التي نزلت بحملته في المنصورة وفارسكور (٦) , وعندما علمت أن الجيش الصليبي وقع في الأسر أرادت مغادرة دمياط خوفاً على مصالحها التجارية وأملاكها , فتوسلت الملكة مارغريت زوجة لويس التاسع إلى ممثلي الجمهوريات للبقاء لعلها تفاوض المسلمين على إطلاق سراح لويس التاسع والأسرى الصليبيين مقابل دمياط , فقدّمت المئونة على حسابها الخاص لهم حتى ثبتوا معها (٧) , وقد احتاج لويس التاسع لمبلغ من المال من أجل دفع الفدية للمسلمين ,

(١) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٨ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٧-١٠٥٨ ؛ رنسيان : ج ٣ , ص ٤٤٢-٤٥٣ .

(٣) القوس الزيار : آلة ثقيلة مخصصة لرمي السهام الكبيرة . الطرسوسي , مرضي : موسوعة الأسلحة , دار صادر , ط ١ , بيروت , ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م , ص ١٢٣-١٢٦ .

(٤) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٢٠٢ .

(٥) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٠٤ ؛ زيادة : ص ٩٤-٩٨ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ٤٥٣ ؛ يوسف , جوزيف : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى , دار شباب الجامعة , الإسكندرية , ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م , ص ٩٣ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٥٠ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٢٧ .

فاستقرضه من جنوه وبيزا (١) , وسلم الصليبيون دمياط , ثم عاد لويس التاسع والأسرى الذين أُطلق سراحهم على متن سفينة جنوبية (٢) إلى عكا , وعادت الجمهوريات الإيطالية إلى مواقعها في بلاد الشام , وقد تناثرت أملاكها على طول الساحل الشامي حيث تواجدوا في أنطاكية واللاذقية وطرابلس وعكا وصور (٣) , وكان لها أحياء خاصة بها يمكن تسميتها (بالقومونات) لأنها أُديرت من قبل ممثلين أرسلتهم المدن الأم في إيطاليا , وقد حملوا لقب فيكونت (Viconte) أي نائب الكونت أو بايل (Baile) وتعني القنصل , حيث تولى ذلك القنصل السلطة في تلك القومونات , وكان أولئك القناصل مستقلين عن ملوك عكا , ولكنهم كانوا مسؤولين أمام السلطات المحلية عن كل ما يصدر عن أبناء جالياتهم من مخالفات , ولم يتجاوز عدد سكان القومون لكل جمهورية إيطالية بضع مئات , ولم تعتمد قوة الجمهوريات على عدد أبنائها إنما

اعتمدت على قوتها الاقتصادية (٤) ، وامتهن أبناء الجاليات الإيطالية الصناعة والتجارة ، فأسسوا الفنادق ، ووسعوا الأسواق ، وأنشؤوا الطواحين والمخابز (٥) ، واشتهرت الجمهوريات الإيطالية بتجارة المنسوجات الحريرية والتوابل وجوز الطيب والزنجبيل (٦) ، والحديد والأسلحة والدروع والرقيق (٧) ، وقد امتدت علاقاتها التجارية من بلاد الشام شرقاً إلى أوروبا غرباً (٨) ، كما أقامت علاقات تجارية طيبة مع المسلمين في بغداد ودمشق وحلب ومصر (٩) ،

Grousset : op . cit , volume 3 , p493 .

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٣٣١ ؛

(٢) باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١١٨٣ .

(٣) دوبوا : الموسوعة ، ج ٣٦ ، ص ١٠٣ . رنسيما : ج ٣ ، ص ٦١٠ ؛

Weill, Raymond: la phenicie et l'asie occidentale , paris , 1939 , p142-143 .

(٤) غروسيه : الحروب الصليبية ، ص ١٠٥-١٠٦ ؛ زيتون ، عادل : أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية

البندقيّة ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ١٤٣-١٤٤ ؛ براور : الاستيطان الصليبي ، ص ١١٥-١١٧ .

(٥) زيتون : جمهورية البندقيّة ، ص ١٤٣-١٤٤ ؛ توفيق ، عمر : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، دار شباب

الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص ٨٥ .

(٦) رنسيما : ج ٣ ، ص ٦١١ ؛ غروسيه : ص ١٠٥-١٠٦ .

(٧) زيتون : جمهورية البندقيّة ، ص ١٤٥ .

(٨) دوبوا : الموسوعة ، ج ٣٦ ، ص ١٠٣ ؛ كوكتون ، ج : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، تر : جوزيف يوسف ، دار

Weill : op . cit , p142-145 .

المعارف ، ط ١ ، الإسكندرية ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ص ١٦٦ ؛

(٩) زكار ، سهيل : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، الموسوعة الشامية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ .

ويلاحظ أن المشروع الصليبي لم يكن هدفها الأساسي ، إنما كان هدفها جمع الثروات والكسب المادي إذ كانوا أكثر حرصاً على المال والربح المادي ، وتمتين علاقاتهم التجارية مع المسلمين ومع الصليبيين (١) ، ولم يكن البابا أنوسنت الرابع راضياً عن علاقتها التجارية مع المسلمين لكنها لم تكن آبهة بتلك المعارضة بل اتصفت بالعناد والتشدد في موقفها لأن معظم علاقاتها التجارية كانت مع المسلمين ، وإذا ما قاطعت المسلمين ، فإن مصالحها التجارية مآلها إلى الارتباك والاضمحلال (٢) ، كما أن لويس التاسع لم يرض عن علاقاتها الودية مع المسلمين بل رفض تعاملها معهم بشكل قطعي إلا إذا أدى ذلك التعامل إلى خدمة الكيان الصليبي (٣) ، ولكنه لم يحاول الاصطدام مع تلك الجمهوريات الإيطالية لسببين وهما :

أ _ أمنت الجمهوريات المواصلات البحرية للكيان الصليبي مع الغرب الأوربي (٤) ، كما وفرت له معظم المستلزمات الاقتصادية التي احتاج إليها (٥) .

ب _ أراد لويس التاسع التخفيف من نقمة الجمهوريات عليه بعد أن استثنى الآلاف من أبنائها من المشاركة في حملته الصليبية وأبقاهم في قبرص , فتحولوا إلى قراصنة في البحر المتوسط ضد السفن الفرنسية بشكل خاص , لكن ذلك الغضب ما لبث أن تلاشى عندما لم يساند لويس التاسع البابا في اتخاذ موقف صارم للحد من النشاط التجاري للجمهوريات مع المسلمين (٦) .

وهذا ما أجبر لويس التاسع على غض طرفه عن علاقة الجمهوريات مع المسلمين , ولاسيما بعد التزامها الهدوء طيلة مدة وجوده في مملكة عكا , وقد أدرك أن الجمهوريات عدت السيطرة التجارية على أسواق العالم بالنسبة لها هي مسألة حياة أو موت , وإذا اصطدم معها

-
- (١) رنسيما : ج٣ , ص٥٩٩-٦١١ ؛ غروسيه : ص١٠٥-١٠٦ . زيتون : جمهورية البندقية , ص١٣٥-١٤٤ ؛
Setton : op . cit , volume2 , p565-569 .
- (٢) رنسيما : ج٣ , ص٦٠٣-٦٠٩ ؛ زيتون : جمهورية البندقية , ص١٤٥ .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٤٨ .
- (٤) دوبا : الموسوعة , ج٣٦ , ص١٠٢-١٠٣ ؛ مونرود : ج٢ , ص٣٣١ .
- (٥) غروسيه : ص١٠٥-١٠٦ ؛ يوسف عبد القادر : العلاقات بين الشرق والغرب , ص٧٩-٨٦ ؛ توفيق : ص٨٥-٨٧ ؛
Weill : op . cit , p144-147 .
- (٦) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١٢٠٢-١٢٠٣ .

عمت الفوضى في المملكة اللاتينية , وضعفت القوة الصليبية أمام المسلمين (١) . وعلى هذا أصبحت الجمهوريات الايطالية قوى غنية تعارضت مصالحها أحياناً مع طموحات لويس التاسع والبابا , ولكن لويس التاسع لم ينظر إلى سلباتها فقط بل نظر أيضاً إلى ايجابياتها , فوجد أنه بدونها قد تحدث أزمة اقتصادية ومجاعة في مملكة عكا , فأخذ بمسايرتها , وخشي من الاصطدام معها , ولو أنه في قرارة نفسه لم يكن مطمئناً لها وراضياً عنها , ولكن رأى بأن التجارة مقدسة لديها , فتظاهر أنه راض عنها تفادياً للخلافات معها , ويكفي أنها أمدت الكيان الصليبي بالمستلزمات الغذائية والأسلحة (٢) .

-
- (١) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩١ ؛ فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧١ .
(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٧-١٢٠٢ ؛ رنسيان : ج ٣ , ص ٦٠٣-٦١١ .

٣- التسليح الصليبي في عهد لويس التاسع .

اقتضت ضرورات الأمن والدفاع أن يهتم لويس التاسع بالتسليح الصليبي , فالسلاح عاملٌ أساسيٌّ في المعركة بل إن إحراز النصر يتوقف أحياناً على تنوع الأسلحة وجودتها , وقد كانت الحروب المستمرة بين المسلمين والصليبيين من أهم الأسباب التي أدت لتطور الأسلحة (١) , حيث تنوعت مصادر التسليح الصليبي في عهد لويس التاسع , ومن أهم مواردها ما يلي :

__ **الغنائم** : استفاد الصليبيون من الأسلحة التي غنموها من المسلمين , فعندما استولوا على دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م عثروا فيها على الكثير من الأسلحة والذخائر , لأن الصالح نجم الدين أيوب كان قد شحنها بأفضل أنواع الأسلحة (٢) , كما استولوا على أسلحة الجيش الأيوبي أثناء مهاجمته جنوب أشموم طناح , ولم تكن الأسلحة التي غنموها من المسلمين أقل جودة من أسلحتهم (٣), ومن أهم أنواع الأسلحة التي حصلوا عليها المجانيق والأبراج والكبش والسيوف والتروس والدروع(٤).

— **الأسلحة الأوربية:** أتت الحملة الصليبية السابعة وهي مدججة بأحدث أنواع الأسلحة الأوربية (٥), ولم يكن البابا أنوسنت الرابع ليُرسل تلك الحملة إلى الشرق دون إمدادها بالأسلحة , فإثر وصول لويس التاسع إلى عكا سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م أرسل أخويه إلى البابا لإمداده بالأسلحة (٦) , وقد تولت المنظمات العسكرية الصليبية مهمة نقل الأسلحة والعتاد من ملوك أوروبا والبابا إلى مملكة عكا , وغالباً ما أتهم على شكل هبات (٧) , وأحياناً تم شراؤها من الجمهوريات الإيطالية , وقد كان تجار الجمهوريات من أكبر صناع وتجار الأسلحة ,

- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٥ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٧٤-٧٥ .
(٢) ابن واصل : ج ٦ , ص ٧٥ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٣٣٦ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٣٦ ؛
Brellier : op . cit , p224-225 ; Michaud : op . cit , volume 4 , p451-453 .
(٣) ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٦٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٥ .
(٤) ابن واصل : ج ٦ , ص ٧٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٣١ ؛
Encyclopaedic history of wourld civilization , New delhi , 1992 , volume16 , p102-104 .
(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٥٣-٥٨ ؛
smith , Jonathan : les croisades , paris , 1990 , p183-185 .
(٦) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٦٣ .
(٧) براور : الاستيطان الصليبي , ص ٣٣٦ .

حيث كسبت جنوه شهرة عالمية بصناعة الدروع الجنوية في ذلك الحين (١) .

— **صناعة الأسلحة :** لم يعتمد لويس التاسع على ما وصله من أسلحة أوربية فحسب , إنما فضّل تصنيع الأسلحة في مملكة عكا , فحول عكا إلى مركز لصناعة الأسلحة الثقيلة والخفيفة , كما أوجد في صفد مركزاً آخر لصناعة القسي والسهام وآلات الحصار (٢) , واهتمت أنطاكية وطرابلس بصناعة الأسلحة الخفيفة أيضاً , وذكر جوانفيل بأن لويس التاسع قد أرسل أحد الجنود الذين دخلوا في خدمته ويدعى جون الأرمني إلى دمشق , لشراء مادة الغراء لاستخدامها في صناعة الأسلحة (٣) , كما حصلوا على الأخشاب من غابات جبال لبنان لأن الخشب المادة الأساسية في صناعة الأسلحة (٤) , وبذلك استطاع لويس التاسع تأمين الأسلحة اللازمة للجيش الصليبي .

تنوعت وتعددت الأسلحة الصليبية في عهد لويس التاسع , ويمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية:

أ_ الأسلحة الخفيفة : وهي الأسلحة الفردية التي حملها الفرسان والمشاة على حدٍ سواء كالسيف والرمح والخربة والقوس والبلطة (الفأس الحربية) والهاوذة (العصا) والخنجر (٥) , ومن أهم الأسلحة الفردية الخفيفة ما يلي :

ـ السيوف : السيف هو من الأسلحة الجارحة والقاتلة التي استخدمها الفرسان والمشاة , وقد تميزت السيوف الصليبية بصلابتها (٦) , وتنوعت الأذواق الصليبية في حمل السيوف فاستعمل بعضهم السيوف الطويلة حتى أن كبار رجال الصليبيين كانوا يتباهون بحمل السيوف الطويلة (٧) , بينما حمل قسم آخر منهم السيوف القصيرة المستقيمة (٨) , وتميز السيف الطويل بثقل وزنه ,

(١) كاهن : ص ٢٢٦ .

(٢) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٧٤-٧٥ , ١٧٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٥-١٩٢ .

(٤) ابن بطوطة , محمد : رحلة ابن بطوطة , دار الرسالة , ط ١ , دمشق , ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م , ص ٦٥ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٥٣-١٩٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٧-١٩٣١ .

(٦) بيشوب , موريس : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى , تر : علي علي , طباعة المجلس الأعلى للثقافة , ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م , ص ٩١

؛ Labrune et Toutain : op . cit , p37 .

(٧) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٤٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٢ .

(٨) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٣٢ .

بينما اتصف السيف القصير بوزنه الخفيف لكنه أجبر صاحبه على الاقتراب بشكل أكبر من خصمه , وهذا ما عرّضه للخطر , مما جعل بعض الصليبيين يستخدمون السيوف اليمينية التي امتازت بطولها المتوسط وخفة وزنها , ويُحتمل أنهم اشتروا تلك السيوف من تجار الجمهوريات الإيطالية (١) .

ـ الرماح : استخدم الصليبيون الرماح الطويلة أكثر من الرماح القصيرة , وبشكل عام صُنعت من الخشب القاسي , أما أسنتها (مقدمتها) فصُنعت من الحديد على شكل مدبب (٢) , واستعمل الفرسان الرماح أكثر من الرجالة لأنه أيسر استعمالاً للفارس من الراجل , فعندما نزل الصليبيون على شاطئ دمياط ظهر لويس التاسع وهو يحمل رماً تحت إبطه لاخترق صفوف خصومه (٣) , وأثناء الهجوم الصليبي على المسلمين جنوب أشموم طناح استخدموا الرماح أكثر من غيرها , وذلك من أجل ضرب التجمعات , وإلحاق الأذى فيها , كما لفوا أسنة الرماح بالقماش المبلل بالمواد المشتعلة أحياناً من أجل إشعال الحرائق و حرق الأشخاص أيضاً (٤) .

— **القسي الفردية** : القوس عبارة عن عود من الخشب اللين يثبت عليه وتر من الجلد (٥) , وقد عُرف بالقوس النشاب الذي أستخدم في رمي السهام الخشبية البسيطة (٦) , كما عرفوا نوعية أخرى سُميت بقوس الزنبورك (٧) , وهو أكثر تطوراً من سابقه حيث تم تزويده بمجرة (نفق) , مما أعطى دقة في التصويب لأنها حددت مساراً محدداً للسهم , ووصل طول السهم حوالي نصف متر , وسماكة بسماكة الإبهام , وله رأس حديدي أحياناً وفي بعض الأحيان تم وضع الريش في نهايته لتثبيته في الفضاء (٨) ,

(١) النقاش , زكي : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية , دار الكتاب اللبناني, ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م , ص١٦٢ .

(٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٢٥-١٩٢٧ ؛ بيشوب : ص٩١ ؛

Labrune et philipp : op . cit , p37 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص٦٩ .

(٤) كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣, ص١٣٣ .

(٥) هندي , إحسان : الحياة العسكرية عند العرب , مطبعة الجمهورية , دمشق , د.ت , ص٩٧-٩٨ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٨٢-١٨٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٠٩ ؛ كريستوفر :

Nicolle : op . cit , p318.

الموسوعة , ج٨٣, ص١٣٣ ؛

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٠٧ .

(٨) هندي , إحسان: الأسلحة وآلات القتال عند العرب المسلمين في القرون الوسطى , مركز الدراسات العسكرية , دمشق , ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م , ص١٨١-١٨٢ .

وأنشأ لويس التاسع إثر وصوله إلى عكا فرقة خاصة أجرى لها الدورات التدريبية على الرمي بقسي الزنبورك (١) , كما استعملوا القوس العقار (٢) أما العقار فخصص لرمي النيران والقوارير النفطية بواسطة السهام (٣) , ولم تكن عكا مركزاً لصناعة القسي العقارة فحسب بل أنفق لويس التاسع تسعة وثلاثين ألف ليرة ذهبية على فرقة رماة القسي العقارة في صفد (٤) , ولم يبدِ لويس التاسع عناية بالأسلحة الخفيفة فقط بل حظيت الأسلحة الثقيلة بجزء من اهتماماته .

بـ الأسلحة الثقيلة : تحتاج لمجموعة من المقاتلين لحملها واستخدامها , وغالباً ما تطورت عن الأسلحة الخفيفة , ومن أهم الأسلحة الثقيلة لدى الصليبيين ما يلي :

— **المجانيق** : لم تختلف المجانيق الإسلامية عن الصليبية من حيث بنية المنجنيق الذي هو عبارة عن آلة لها ذراع , وفي نهايته كفة لوضع المقدوف (٥) , ويُعد أعنف اشتباك بالمجانيق بين المسلمين والصليبيين عندما كان المسلمون جنوب أشموم طنّاح والجيش الصليبي شماله حيث انهالت الضربات من كلا الطرفين

بالمقذوفات الحجرية (٦) ، والنفوط (النيران الإغريقية) (٧) ، وعلى ما يبدو أن المسلمين كانوا أكثر مهارة من الصليبيين في استخدام المنجنيق لأنهم أحدثوا أضراراً كبيرة في المعسكر الصليبي ، مقارنة مع الأضرار البسيطة في معسكر المسلمين ، مما جعل لويس التاسع يأمر عمال الهندسة ببناء آلات جديدة للتصدي لضربات المسلمين والرد عليهم (٨) ، وبشكل عام فقد احتاج ذلك المنجنيق حوالي خمسة عشر رجلاً لتشغيله ، وغالباً ما كان المقذوف حجارة أو نفوط قارب وزنها مائة وخمسين كيلو غرام ، ووصلت إلى مدى أقصاه مائة وخمسين متر (٩) .

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٦٥-١٩٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٥ ؛ كريستوفر : الموسوعة ج ٨٣ ، ص ٧٤ .

(٣) الطرسوسي : ص ١٢٣-١٢٦ .

(٤) كريستوفر : الموسوعة ، ج ٨٣ ، ص ٧٤ .

(٥) ابن واصل : ج ٦ ، ص ٧٥ ؛ هندي : الحياة العسكرية ، ص ١٣٠-١٣١ ؛

The new encyclopedia Britannic, Paris and London and Tokyo, volume 29, p536-538.

(٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٩١ .

(٧) النار الإغريقية : صنعها المهندس السوري كاليينيكوس للإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (٤٨-٦٦هـ/٦٦٨-٦٨٥ م) ، لمواجهة الحصار الإسلامي للقسطنطينية ، وهي تتألف من مزيج من النفط والزيت المحمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال . يوسف : العدوان الصليبي على مصر ، ص ١٥٦ .

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٨١ .

(٩) كريستوفر : الموسوعة ، ج ٨٣ ، ص ٣١٤-٣١٥ .

— **الأبراج القتالية** : أطلق عليها الدبابة والزحافة والقطة والسنور (١) ، وكل هذه المسميات تدل على مسمى واحد ألا وهو البرج الحربي (٢) ، وخير مثال على تلك الأبراج ذلك البرج الذي أمر لويس التاسع بإنشائه شمال أشموم طناح لتأمين الحماية للمهندسين الذين أرادوا إنشاء جسر على أشموم طناح ، ولكن نيران المسلمين التهمت ذلك البرج ، فأمر لويس التاسع بإنشاء برج آخر ، فكان مصيره كسابقه (٣) ، أما عن آلية عمل البرج فيلاحظ أنه انقسم إلى طوابق عديدة تعلو بعضها بعضاً ، وقد خصص القسم السفلي للنقابين الذين اختصوا بتفكيك حجارة التحصينات ، وغالباً ما استخدموا رأس كبش (٤) ، غلق بسلاسل في سقف البرج ، وإلى جانب النقابين وجدت فرق الألغام التي كانت تحفر الأنفاق ، وتشعل الحرائق داخل المناطق المحاصرة ، بينما اتخذ الرماة من الطابق الثاني مقراً لهم ، وربما إلى جانبهم مجموعة من عمال الإطفاء ، أما القسم العلوي من البرج فخصص للمراقبة ، وتوجيه الأوامر إلى الرماة ، وتم تزويد البرج بجسر متحرك

للنزول إلى داخل الأماكن المحاصرة , وبذلك جمع الصليبيون عدة آلات في آلة واحدة أدت العديد من المهام (٥) .

— **القصي الثقيلة** : طوّر الصليبيون القصي الفردية إلى قصي ثقيلة , وقد اتخذ لويس التاسع من عكا مقراً لصناعة القصي الثقيلة والتدريب عليها (٦) , وقد عرفوا القصي الزيارة التي أخذوها عن المسلمين , وسموها بالقصي الزيارة أو القصي الكبيرة (٧) , ولا تشير المصادر الصليبية إلى التفاصيل الدقيقة حول هذه النوعية من القصي , ولكنها لا تختلف عن القصي الزيارة الموجودة لدى المسلمين بما أنهم أخذوها عنهم , وقد أوضح الطرسوسي بأنها آلة ثقيلة ثابتة لرمي السهام الكبيرة (٨) , كما عرف الصليبيون

(١) يُنظر الشكل رقم (٤) , ص ٣١٣ .

(٢) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٣٤٦-٣٤٨ .

(٣) المقريزي : السلوك , ج ١ , ص ٣٨٤ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١١٤-١١٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢٠-١٩٢٣ .

(٤) رأس الكبش : عمود من الخشب طوله حوالي عشرة أمتار , ويحمل في مقدمته رأس من الحديد على شكل رأس الكبش , وإذا ما أرادوا هدم جدار معين أرجحوا العمود , وصدموه بالجدار حتى ينهار . هندي : الحياة العسكرية , ص ١٤٦-١٤٧ .

(٥) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٣٤٦-٣٤٨ ؛ هندي : الأسلحة , ص ٢٢٦ ؛

The new encyclopedia Britannic : op . cit , volume 29 , p538 .

(٦) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٦٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٥ .

(٧) هندي : الحياة العسكرية , ص ١٢٤ .

(٨) الطرسوسي : ص ١١٨-١٢٣ .

نوعاً آخر من القصي شبيه بالقصي الزيارة , ولكنها أصغر منها حجماً سُميت قوس الجرخ , وخصصت لها سهام أصغر من سهام القصي الزيارة (١) , واستخدموا أيضاً القصي العقارة (٢) , وهذه النوعية خصصت لرمي القوارير النفطية والقذور النارية (٣) , وبذلك تنوعت الأسلحة الثقيلة لدى الصليبيين , وبلغت شأنًا كبيراً , وقد اعتقدوا بأنها قادرة على تأمين الحماية لهم .

د— **أسلحة الوقاية** : وهي الأسلحة التي استخدمها الصليبيون لحماية أنفسهم , وأظهروا اهتماماً بها أكثر من الأسلحة الهجومية , وذلك بسبب خوفهم الشديد من الموت , ومن أهمها ما يلي :

— **الخوذ** : إن الرأس هو الجزء الأكثر عرضة للخطر من الجسم , وقد تنوعت الأذواق الصليبية في استعمال الخوذ , فوضع بعضهم قلنسوة من الزرد غطت الرأس والعنق مع قبعة فولاذية تحتها كالتى لبسها جوانفيل في بلاد الشام (٤) , بينما استخدم فرسان آخرون خوذة عريضة سميت خوذة القدر , ومن المحتمل أن لويس

التاسع لبس خوذة اسطوانية عُرفت بخوذة وعاء الغلي , وهذا النوع من الخوذ كان على نوعين إما أن تكون الخوذة قطعة واحدة , ولا يظهر منها سوى عيني الفارس , أو أن تكون مُزودة بقناع متحرك يغطي الوجه , وهذه تُمكن الفارس من رفع الغطاء عندما يريد استنشاق الهواء الصحي ثم إعادة القناع , كما أن لويس التاسع ارتدى التاج فوق قلنسوة حديدية , ولم يرتد الجنود الصليبيون الخوذ فحسب بل ألبسوا أحصنتهم خوذةً حديدية لم يظهر منها سوى عينا الحصان (٥) .

— **التروس** : الترس آلة تُحمل باليد تقي الفارس ضربات السيوف والسهام والرماح والحجارة (٦) , وقد صُنعت التروس من الحديد والفولاذ , وأخذت أشكالاً عديدة منها البيضوي والمستطيل (٧) ,

(١) مجهول : منظومة نونية في شرح علم الفروسية , رقم المخطوط ٣٤٦٥٩ , مكتبة الأسد , دمشق , ورقة ٢١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٢١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٣٧ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٧٢ .

(٣) الطرسوسي : ١٢٣-١٢٦ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٠ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٣٠ ؛ بيشوب : ص ٩٣ .

(٥) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٣٠-١٣١ ؛

Encyclopaedic history of world civilization , volume 16 , p102-105 .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٩٧-٩٨ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٤٠ ؛ الطرسوسي : ص ١٤٧-١٤٨ ؛

Nicolle : op . cit , p318-319 .

(٧) هندي : الحياة العسكرية , ص ٧٠-٧١ .

بينما حمل لويس التاسع ترساً مثلث الشكل , وهو من أكثر التروس شيوعاً في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي , لمتانته وخفة وزنه (١) , وأخذ المسلمون عن الصليبيين نوعية من التروس سميت طاريقا مستطيلة الشكل (٢) , وغدت التروس أداة فعالة لصد الضربات عن الفارس وعن حصانه إذا أمكنه ذلك .

— **الدروع** : أكثر الصليبيون من لبس الدروع , وقد أخذوا لبس الدروع عن المسلمين , واشتهرت لديهم الدروع الجنوية (٣) , حيث ظهر لديهم نوعان من الدروع بدا النوع الأول على شكل صفائح معدنية غطت الجسم بشكل كامل , وأحياناً عدا الظهر (٤) , أما النوع الثاني فعُرف بالسوابغ أو الزرديات , وهو على شكل قميص صُنِع من الزرد فغداً أشبه بحرشف السمك , وغالباً ما ارتدى الفارس الصليبي معطفاً خارجياً فوق دروعه (٥) وقد ظهر لويس التاسع مع جنوده في لوحه مرتدياً قميصاً من الزرد , ووضع صفائح واقية على ركبتيه (٦) , وبشكل عام أكثر الصليبيون من لبس الدروع حتى أن روبرت كونت أرتوا

كاد أن يغرق أثناء عبور أشموم طنّاح لكثرة دروعه , فألقوه , ولكنهم لم يستطيعوا إنقاذ حصانه الذي غرق في الماء (٧) , ولم يكن روبرت هو الوحيد الذي أكثر من لبس الدروع بل معظم الفرسان الصليبيين كذلك , مما أفقدهم سرعة الحركة , وقد اعتادوا في أوربة على ارتداء الدروع الثقيلة , ولم يكن لها تأثير كبير عليهم لأن بلادهم معتدلة الحرارة وعلى الأغلب مناخها بارد , فلما جاؤوا إلى الشرق واصطدموا مع المسلمين , عانوا من كثرة الدروع التي أدت لارتفاع حرارة أجسادهم , وبخاصة في فصل الصيف الحار الذي تميزت به مصر وبلاد الشام .

(١) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٣٢ .

(٢) كاهن : ص ٢٢٦ .

(٣) حتي , فيليب : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين , تر : كمال اليازجي , دار الثقافة , بيروت , ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م , ج ٢ , ص ٢٥١ .

(٤) يُنظر الشكل رقم (٦) , ص ٣١٥ .

(٥) كاهن : ص ٢٢٦ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٠٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٢٩ ؛

Tate , Georges: L ,orient des croisades ,1991 , p158-160 .

(٧) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٣١ .

وعلى هذا حصل لويس التاسع على أحدث أنواع الأسلحة في عصره , وجهز الجيش الصليبي بترسانة عسكرية لا يستهان بها , ولكن المشكلة لا تكمن في السلاح , إنما فيمن استخدم السلاح , أي في الفارس الصليبي الذي خاف من الموت , وهذا أمر بديهي , فهو في النتيجة مُعتدٍ ومُحتل (١) , مما جعله يُكثر من لبس الدروع وحمل الأسلحة حتى بدى وكأنه رجل حديدي طالما أنه على ظهر حصانه , وما إن يسقط من على جواده حتى يموت خوفاً , لأنه يدرك اقتراب منيته , وقد حاول لويس التاسع أن يصنع من أولئك الصليبيين رجالاً أشداء , وأن يجعل من مواقعهم معقل حصينة منيعة تتحدى الصعاب . (٢) .

-
- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٥-٥٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٨١-١٩٥٥ .
(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٣٨-١١٣٩ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٣٤-١٣٦ .

٤_ التحصينات والدفاعات

خشي لويس التاسع على المملكة اللاتينية التي أحاط بها المسلمون من الجوانب كافة , ولم يبق لهم منفذ سوى البحر , فحاول تعزيز دفاعاتها حتى غدت المدن الواقعة تحت سيطرة الصليبيين فائقة التحصين , وتمتعت بقدرات دفاعية عظيمة أملاً بأن تكون في حالة تأهب للدفاع والهجوم ضد أي قوة إسلامية , وبدأ لويس التاسع بأعمال التحصين منذ وصوله إلى عكا سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م , واستمر طيلة مدة وجوده هناك , وبادئ ذي بدء أخذ بتحسين عكا عاصمة الكيان الصليبي (١).

__ **تحصين عكا** : تربض مدينة عكا على تلة مرتفعة في منطقة زراعية خصبة , اتخذت شكل مثلث أشرف ضلعان منه على البحر بينما امتد الثالث على اليابسة , فأعطاه ذلك الموقع أهمية إستراتيجية (٢), ولم يكن سيد مدينة عكا يُوحنا بن حنا بريين (٣) مُبالياً بأوضاع مدينته التي غدت مسرحاً للفوضى (٤) , بينما شعر لويس التاسع بضرورة تحسين عاصمة الصليبيين , فبدأ بترميم أسوارها, ثم عززها بمجموعة من

الأبراج امتدت على طول الأسوار , والغاية من الأبراج تتمين الأسوار , كما أستخدم القسم السفلي من تلك الأبراج لحفظ المئونة والمعدات القتالية , أما القسم العلوي فخصص للمراقبة , كما زود الأسوار والأبراج بمزاغل (فتحات) حُصصت لرمي السهام والنيران إذا ما حوصرت المدينة , ثم أمر بحفر خندق أحاط بالأسوار , وعلى الأغلب كان يُملأ بالماء , لإبعاد المهاجمين عن أسوار المدينة (٥) , وأما ميناء عكا فبني على بوابته برجان , ومُد بينهما سلسلة حديدية (٦) ,

- (١) باريس : الموسوعة , ج٩ , ص١٤٣٧ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٢ ؛
Fedden , Robin : crusaders castles , London , 1955 , p27 ; Lawrence , T . E :
crusader castles , London , 1992 , P53-57.
(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان , ص٢٤٢-٢٤٣ ؛ ابن بطوطة , محمد : رحلة ابن بطوطة , دار الرسالة , ط١ , دمشق , ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م . ص٤٥ .
(٣) يُوحنا بريين : هو شقيق الإمبراطورة ماري زوجة إمبراطور القسطنطينية بلدوين الثاني , وقد تزوج يُوحنا سنة ١٢٥١م من جين صاحبة قلعة مونتفورت (الفورين) الواقعة شمال حيفا . دي نوفارا : الموسوعة , ج٣٤ , ص١٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢٩١ .
(٤) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢٩١ .
(٥) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٢ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية , الموسوعة ج٣ , ص٤٠٨ - ٤٠٩ ؛
Smail , R . S: the crusaders , Cambridge , 1973 , p73 .
(٦) زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية , الموسوعة ج٣ , ص٤٠٨ - ٤٠٩ .
حتى غدت عكا بحصانتها " تشبه قسطنطينية العظمى " (١) , بعد أن استغرق لويس التاسع في تحصينها زهاء عشرة أشهر منذ شهر صفر سنة ٦٤٨ - شهر محرم ٦٤٩ هـ / شهر أيار عام ١٢٥٠ - حتى أواخر شهر آذار من عام ١٢٥١م (٢) .

— **تحصين حيفا** : انطلق لويس التاسع من عكا جنوباً إلى قيسارية , ومن المحتمل أنه مرّ في طريقه على حيفا إحدى المدن الواقعة تحت سيطرة الفرنجة (٣) , ولم يُطل الإقامة فيها لأنها كانت حصينة , فبحث عن مناطق الضعف فيها , ورممها على وجه السرعة , ثم تابع سيره إلى قيسارية (٤) .

— **تحصين قيسارية** : وصل لويس التاسع إلى قيسارية في شهر صفر سنة ٦٤٩ هـ / أيار ١٢٥١م وأمضى فيها قرابة عام (٥) , وقيسارية هذه إحدى موانئ فلسطين التي تتميز بحصانتها , وقد أطلق الصليبيون عليها قيسارية البحر (٦) , وحُكمت آنذاك من قبل جون (يُوحنا) أليمان (Jean Aleman) (٧) , الذي استقبل لويس التاسع وجيشه عندما حلوا ضيوفاً عليه , ولم يصطحب لويس التاسع الجيش معه محارباً , إنما من أجل تحصين قيسارية , وهذا يدل على أن لويس التاسع اعتمد على جنوده في أعمال التحصين فضلاً عن مساعدة المتطوعين من الصليبيين (٨) , وأخذ لويس التاسع في البحث عن مناطق الضعف في

تحصينات قيسارية , فأمر بحفر خندق أحاط بالمدينة من جهة الشمال والشرق والجنوب , بينما كان البحر حارساً للجهة الغربية

-
- (١) ابن بطوطة : ص ٤٥ .
- (٢) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٩١ .
- (٣) يُنظر المصور رقم (٧) , ص ٣٠٦ .
- (٤) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٤٣٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٩٣-٢٩٤ ؛ عطية : ص ٣٨٨ ؛
- Grousset : op . cit , volume3 , 506-507 .
- (٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٠٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٩٧ .
- (٦) ابن شداد , عز الدين محمد : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة , تح : سامي الدهان , المطبعة الكاثوليكية , بيروت , ١٣٨١هـ/١٩٦٣م , ص ٢٥٠ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان , ص ٢٣٨-٢٣٩ .
- (٧) يُوحنا أليمان : استلم حكم قيسارية سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م , وشارك في الأعمال الصليبية بشكل عام , ولكن إثر رحيل لويس التاسع إلى فرنسا اضمحل نفوذه , وهاجم الظاهر بيبرس قيسارية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م حيث فرض الحصار عليها , فهرب يُوحنا ورجاله من أحد منافذ قيسارية السرية , فاستولى بيبرس وجنوده عليها , ثم دمروها . العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٨٠٥ ؛ زنسيان : ج ٣ , صفحات متفرقة .
- (٨) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣ .
- فضلاً عن وجود القلعة بالقرب من الشاطئ في الغرب (١) , ثم أحاط المدينة بأسوارٍ عاليةٍ وأبراجٍ ضخمة , مستخدماً في بنائها حجارة مصقولة مربعة الشكل , واستهدف من الأبراج تدعيم الأسوار (٢) , ولم يكتف بذلك بل وضع ضمن الأسوار أعمدة رخامية وجرانيتية على شكل صليب , وعبر عن ذلك المقريري بقوله : قام " بتصليب العمد في بنائها حتى لا تعمل فيها النقوب ولا تقع إذا علفت " (٣) , وبدت أسوار المدينة شديدة الانحدار ذات شكل مائل كي لا يستطيع المهاجمون تسلقها إذا ما اجتازوا الخندق (٤) , وأصبح عدد الأبراج كما أشار صاحب ذيل روثلين قائلاً : " أحاط (لويس التاسع) المدينة بسواتر دفاعية وبسته عشر برجاً " (٥) وقد نظم الأبراج حسب امتداد السور , فشيّد ثلاثة أبراج على السور الشمالي , وتسعة على السور الشرقي , وأربعة على السور الجنوبي (٦) , وأنشأ لويس التاسع المزاغل (كوى الرمي) في الأسوار والأبراج , فأكثر منها لاستخدامها في الدفاع عن المدينة من خلال ضرب المهاجمين لها من تلك المزاغل (٧) , وترك للمدينة بابين رئيسيين أحدهما في الشمال , والثاني في الجانب الشرقي , كما أنشأ أبواباً سرية للضرورة (٨) , وتوجب على من أراد الدخول من أحد الأبواب الرئيسية اجتياز الخندق , وذلك من خلال جسر متحرك نُصب عليه أمام الباب , وقد رُبط الجسر المتحرك بسلاسل حتى يتمكنوا من نصبه

على الخندق , ورفعته عند أي هجوم على المدينة , وفي هذه الحالة يمكن احتجاز الجنود المهاجمين , وأخذهم على حين غرة ,

(١) باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٥٠ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p504 .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٢-١٩٩٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣ ؛ حسين عبد الوهاب , حسن : تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي , دار المعرفة الجامعية , الإسكندرية , ١٤١١هـ / ١٩٩٠م , ص ١٩٦ .

(٣) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٥٢٦ .

(٤) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٤٢-١٥٧ ؛ حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام , ص ١٩٦ .

(٥) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣ .

(٦) حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام , ص ١٦٩ .

(٧) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛ حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام , ص ١٩٦ .

(٨) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٥٤ .

فيما إذا وقفوا على الجسر (١) , وبعد عامٍ من العناء غدت قيسارية قوية بأسوارها منيعة بخصونها (٢) وأشار ابن العبري إلى أن لويس التاسع إثر تحصينها أسكن فيها جماعة دون أن يحدد هويتها , ومن المحتمل أن لويس التاسع ترك حامية عسكرية فيها للدفاع عنها (٣) , ثم قرر لويس التاسع شدّ الرحال نحو يافا .

— **تحصين يافا :** يافا مدينة ساحلية من أعمال فلسطين تقع بين عكا وغزة , وفيها ميناء كبير ومرسى للمراكب البحرية (٤) , وتولى حاكم يافا يُوحنا إبلين (٥) تحصين قلعة يافا , وركّز جل اهتمامه عليها , وعندما وصل لويس التاسع إلى يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ / أيار ١٢٥٢م ضرب خيامه حول قلعة يافا وعسكر مع رجاله , وأعجب بحصانة القلعة لكنه وجد أن أسوار المدينة بحاجة إلى جهدٍ كبير , فبدأ بإزالة الطين من الخندق الذي أحاط بالمدينة , ولم يجلس على عرشه مراقباً للعمل بل كان أول النازلين لتنظيف الخندق (٦) , ثم جهز الخندق الثاني الذي أحاط بالقلعة (٧) , وبعد أن أعد الخندقين جرى ترميم الأسوار التي اندمج فيها أربعة وعشرون برجاً (٨) , وأنشأ للمدينة ثلاثة أبواب في الشمال والجنوب والشرق , وقد تطوع النائب البابوي

(١) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٥٤ ؛ حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام , ص ١٩٦-١٩٧ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤ .

(٣) ابن العبري : مختصر الدول , ص ٢٦٠ .

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة , ص ٢٢٥ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان , ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٥) يُوحنا إبلين : حاكم مدينة يافا (٦٤٥-٦٦٥هـ/١٢٤٧-١٢٦٦م) , وهو ابن أخ يُوحنا الثاني إبلين صاحب بيروت , وقد انضم إلى جانب لويس التاسع في هجومه على مصر , وإثر نجاته من ذلك الهجوم أخذ بمهاجمة القوافل التجارية للمسلمين ونهبها , وساءت علاقته مع جنوه فحاولت اغتياله لكنه نجا من الاغتيال , ويعد من أشهر رجال القانون الذين برزوا في مملكة عكا , وتوفي سنة ١٢٦٥هـ/١٢٦٦م , واستلم حكم يافا ابنه جاي من بعده. كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣, ص ٢٠٦ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٣٥٩-٨٠٩ .

(٦) جوائفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ١٩٠-١٩١ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣, ص ٢٠٦-٢٠٧ ؛

Smith : op . cit , p186 .

(٧) جوائفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ٢٠٤ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٩٦ ؛

Brellier : op . cit , p227 .

(٨) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة , ص ٢٥٧ ؛ جوائفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ٢٠٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨, ص ١٩٥٤ ؛

Brentano : op . cit , p298-299 .

(القاصد الرسولي) أودو أوف شاتوركس (Ado of Chateauroux) ببناء إحدى البوابات مع جزء صغير من السور , بلغت تكلفته حوالي ثلاثين ألف ليرة ذهبية (١) , كما تحافت الصليبيون إلى يافا للمشاركة في عملية التحصين بعد إصدار البابا أنوسنت الرابع سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م غفراناً لمدة أربعين يوماً إلى كل المشاركين في تحصين يافا , فتوافدت جموع الصليبيين إلى يافا لتتال الغفران (٢) , وما إن أحاط لويس التاسع " البلدة بالدفاعات والأبراج والخنادق " (٣) حتى ودع يافا بعد أن أمضى فيها أكثر من عام , ثم انطلق إلى صيدا في شهر جمادى الأولى سنة ٦٥١هـ / حزيران عام ١٢٥٣ م (٤) .

-**تحصين صيدا** : صيدا بلدة حصينة تقع شمال صور , وعُرفت بصيدون نسبة لصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام , وفيها ميناء مهم (٥) , وقبل وصول لويس التاسع إليها أرسل مجموعة من العمال للبدء في تحصينها , ولكنهم هُوجموا من قبل الجيش الأيوبي الذي أرسله صاحب دمشق الناصر يوسف الثاني , فقتل الكثير منهم , بينما تحصن من نجي منهم في قلعة صيدا التي تميزت بحصانتها (٦) , وقد شجع ذلك الهجوم لويس التاسع على الإسراع والمجيء بنفسه لاستكمال تحصين صيدا بعد أن كان يفكر بتحسين أحد القلاع القديمة الواقعة بين بيت المقدس ويافا , ولكن البارونات نصحوه بأن تحصين صيدا أهم من تلك القلعة القديمة ذات الأهمية الضئيلة, فأخذ برأيهم ووصل إلى صيدا في شهر جمادى الأولى سنة ٦٥١هـ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م (٧) ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ٢٠٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣, ص ٢٠٧ ؛
Villeneuve : op . cit , p208-209 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ٢٠٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣, ص ٢٠٧ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ١٩٠-٢٠٥ .

(٥) ابن شداد : الأعلام الخطيرة , ص ٩٨ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان , ص ٩٨ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ٢٠٢-٢٠٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٩٤ ؛ ابن شداد :
الأعلام الخطيرة , ص ١٠٥ ؛

Stevenson : op . cit , p330-331 .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥, ص ٢٠٢-٢١١ ؛

Tibble , Steven: kingdom of Jerusalem , oxford , 1989 ,P 173 .

وكان حاكمها آنذاك جُولِيَّان بن بَالِيَّان دي رِينَل (Julian du Rinel) (١) , وأخذ لويس التاسع
بترميم ما خربه ملك دمشق , وشرع في رفع الأنقاض , وإعادة بناء الاستحكامات العسكرية (٢) ,
فحصنها "بأسوار عالية وأبراج وخنادق واسعة نظفها من الطين من الداخل ومن الخارج " (٣), وبذلك
أصبح هناك سور للمدينة وآخر للقلعة , وأحاط خندقها بالأسوار (٤) , عدا الجهة الغربية البحرية التي كان
يحميها جرف صخري طبيعي (٥) , وبعد جهودٍ دامت ثمانية أشهر غدت صيدا مدينة فائقة التحصين (٦)
.

— **تحصين صور :** ولا تشير المصادر لتحصين لويس التاسع لمدينة صور , وقد أشار سعيد عاشور إلى أن
لويس التاسع قام بتحسينها وهنا لدينا احتمالان :

الاحتمال الأول : وجد لويس التاسع صور مُحَصَّنَةً بشكل جيد (٧) , وقد نوه القزويني إلى حصانتها بأنها
تميزت " بقنطرة من عجائب الدنيا , وهي من أحد الطرفين إلى الآخر قوس واحد " (٨) .
الاحتمال الثاني : من المحتمل أن لويس التاسع أثناء مسيره من يافا إلى صيدا وجَّه في طريقه الأوامر إلى سيد
صور فيليب مُونتفورت بتحسين مدينته , فأجرى لها تحصيناً سريعاً .

(١) جُولِيَّان : هو بن بَالِيَّان صاحب صيدا من زوجته مارغريث دي رينل ابنة عم يُوخنا بريين الذي قاد الحملة الصليبية الخامسة سنة
١٢١٥هـ/١٢١٨م , استلم جُولِيَّان حكم صيدا سنة ١٢٤٥هـ/١٢٤٧م , ثم تزوج من فيمي (Fime) ابنة هَيْثُوم الأول ملك أرمينية , ولم
يستطع جُولِيَّان حماية صيدا من المسلمين , فباعها لمنظمة الداوية سنة ١٢٥٩هـ/١٢٦٠م , وتوفي سنة ٦٧٤هـ /١٢٧٥م . رنسيما :
ج ٣ , ص ٨٤٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٩٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص ٢١١ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٩٨ ؛

Edde , Anne : la principaute ayyoubide d,alep , Paris , 1955 , p154 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص ٢٢١ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص ٢٢١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص ١٩٩٣-١٩٩٤ . كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص ١٤٢ ؛

Gebhart : op . cit , p205 .

(٥) فينر , فولفغانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية , تر : محمد الجلال , دار الفكر , ط٢ , دمشق , ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م , ص ٩١ .

(٦) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٩٨ .

(٧) عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص ١٠٩٤ ؛

Maurice , Chehab : Tyr des croisades , Paris , 1979 , P270-271 .

(٨) القزويني , زكريا : آثار البلاد وأخبار العباد , دار صادر , بيروت , ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م , ص ٢١٧ .

شغل لويس التاسع معظم وقته في أعمال التحصين , وقد توهم كما يتوهم الكيان الصهيوني اليوم بأن حصونهم مانعتهم من المسلمين , فبنى الكثير من القلاع والاستحكامات العسكرية بل لم يسبق أن اهتم ملك صليبي قبله ولا حتى بعده بأعمال تحصين كالتى قام بها , كما تبني الصهيونية المستوطنات على البقعة ذاتها من الأراضي المقدسة حتى غدت تلك المستوطنات أشبه بالقلاع لكثرة الأسوار والحواجز التي أحاطت بها .

وهكذا حمل لويس التاسع الحجارة بيديه ومواد البناء وحفر الخنادق , وتسابق مع جنوده في إنجاز العمل , وكل ذلك من أجل حماية الكيان الصليبي (١) , ولم يذهب ذلك الجهد سدى فقد أنتج نماذج من القلاع والاستحكامات العسكرية تمتعت بقدرات دفاعية عظيمة (٢) , وغدت تلك التحصينات بمثابة درع لحماية الصليبيين , كما استخدموها لشن الغارات على المسلمين , ثم العودة للتحصن بداخلها , ويعود الفضل في ذلك الانجاز إلى لويس التاسع الذي عمل على إطالة عمر الكيان الصليبي متحدياً الصعاب التي اعترضت سبيله سواء أكانت مشاكل بشرية أو مالية (٣) .

- (١) جوانفيل: الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٠-١٩١ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٣٩ .
(٢) باريس : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٨٨٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٣ .
(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص٥٩-٢٢١ ؛ ابن شداد : الأعلام الخطيرة , ص١٧٢-٢٥٧ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣, ص١٤٢-٢١١ ؛

Lawrence , T . E : op . cit , p63-105 .

٥- مشاكل لويس التاسع البشرية .

قدم لويس التاسع إلى مصر على رأس حملته الصليبية التي قارب عددها خمسين ألف مقاتل , وهذا عدد لا يستهان به في تلك الحقبة , لكن ذلك العدد الكبير تبدد وتلاشى في مصر , ما بين قتلى وأسرى , ولم يعد إلى عكا سوى عدد ضئيل منهم , وإذا ما أراد لويس التاسع الثأر لجنوده لا بد له من إعداد قوة عسكرية جديدة لعلها تحقق أهدافه في المشرق العربي الإسلامي , وقد بدا الحصول على العنصر البشري أمراً صعباً , ولكن لويس التاسع أظهر ذكاءً في هذا الجانب , فلم يعتمد على مورد واحد للحصول على المقاتلين , بل أراد الحصول عليهم من مصادر عديدة لعله يصنع جيشاً قوياً يقهر به المسلمين , ومن أهم موارد قوته العسكرية ما يلي : (١)

— الجنود الإقطاعيون : وجد لويس التاسع ضالته في نظام الإقطاع العسكري الذي ساد الكيان الصليبي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي , فأمد النظام الإقطاعي الجيش الصليبي بعناصر حية بشكل مستمر (٢) حيث توجب على الإقطاعي إنشاء فرقة عسكرية للدفاع عن أملاكه , وعن الفلاحين الذين عملوا لديه ضد أي خطر يهدده وبخاصة غارات المسلمين , كما فُرض على السيد الإقطاعي إمداد الجيش الصليبي بالفرسان بشكل دائم من أجل الخدمة في جيش لويس التاسع حيث قدّم الإقطاعي فارساً واحداً عن إقطاع قيمته ألف دينار , وكلما زادت قيمة الإقطاع زاد عدد الفرسان , وقد نظم السيد الإقطاعي دوراً لفرسانه للعمل تحت قيادة لويس التاسع , ومن أشهر الإقطاعيين الذين برزوا في عهد لويس التاسع أسرة آل إبلين التي حازت مساحات كبيرة من الأراضي , وأردفت الجيش الصليبي بعدد كبير من الفرسان (٣) .

– **النفير العام** : اعتاد الصليبيون إذا ما اشتدت عليهم الأزمات أن يعلنوا النفير العام , وخير مثال على ذلك عندما أعلن لويس التاسع من قبرص إثر وصوله إليها النفير العام ووجه النداء إلى صليبي الشرق للانضمام إلى حملته , فقَدِمَ كل من هو قادر على القتال , وتجمعوا في قبرص حتى ضاقت

(١) أبو الفداء : المختصر , ج٢ , ص٢٨٤-٢٨٨ ؛ النويري : ج٢٩ , ص٣٣٤-٣٦٣ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١٠٠٩-١١٦٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٠-١٩٩٢ ؛

Dagen : op . cit , p150 ; Brentano : op . cit , p285-299 .

(٢) رنسيمان : ج٣ , ص٦١٥-٦١٦ ؛ غروسيه : ص٩٨ ؛

(٣) كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٧٦-٨١ .

الجزيرة بنزلاتها (١) , ولكن لويس التاسع إثر هزائمه في مصر لم يعد يتجرأ على إعلان النفير العام للمملكة اللاتينية بأكملها , وغالباً ما اقتصر النفير على المدينة التي كانت تتعرض للخطر , حيث لم ينج بقواته كافة في المعركة خوفاً من الوقوع في كمين يكون سبباً في القضاء على الكيان الصليبي , فاقترنت الأعمال الهجومية على قوة متوسطة العدد لم تتجاوز في بعض الأحيان بضع مئات (٢) .

– **المرتزقة الصليبيون** : وجد لويس التاسع بأن المال وسيلة مجدية لإغراء الكثير من الصليبيين , وتجنيدهم في الجيش الصليبي (٣) فلم يمحض لويس التاسع شهراً واحداً إثر إطلاق سراحه , ووصله إلى عكا حتى أبدى غضبه تجاه باروناته لأنهم لم يبدؤوا في إعداد الجنود , واتهمهم بالتقصير فتذرع البارونات بأن معظم الجنود الصليبيين يفضلون العودة إلى فرنسا أو يطلبون أجور غالية , فاستدعى لويس التاسع ثيو بالد كونت شامبانيا , وطلب أن يُعَدَّ له جيشاً من المرتزقة الصليبيين إذا أمكن ذلك , فأكد له بأنه إذا توفر المال فليس ذلك بالأمر العسير , فأعطاه لويس التاسع مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية (٤) , وما إن أغدق المال على أولئك المرتزقة , وعين لهم رواتب عالية حتى شكل جيشاً منهم , وفضّل الكثير ممن كان يفكر بالعودة إلى فرنسا البقاء في مملكة عكا طمعاً بدعم لويس التاسع المادي والمعنوي (٥) .

– **الحجاج** : لم تنقطع وفود الحجاج المسيحيين من أوروبا وأرمينية عن القدوم إلى الأراضي المقدسة في فلسطين (٦) , وتوافدوا من أصقاع البلاد المسيحية , وبخاصة مع مطلع فصل الربيع حيث استفادوا من تخفيض رسوم النقل التي منحتها الجمهوريات الإيطالية مع بداية الربيع بمناسبة عيد الفصح (٧) , وقد اعتقد الحجاج بأن حجهم غير جائز إذا لم يشاركوا في دعم الكيان الصليبي معنوياً وعسكرياً من خلال شن الغارات أو حتى إلحاق الأذى بالمسلمين , وغالباً ما كانت وفود الحجاج

- (١) المقريري : السلوك, ج ١ , ص ٣٣٣ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ٢٠٥ ؛ مجهول : ذيل, الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٧٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٨١ ؛
Smith : op . cit , p184-186 .
(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٩ .
Grousset : op . cit , volume3 , p506-510 .
(٣) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٢٧-١٢٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٣٢ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p497 .
(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٢-١٦٣ ؛
Villeneuve : op . cit , p193 .
(٥) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٢٧-١٢٨ ؛ زيادة : ص ٢٤٢ .
(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٥ .
(٧) الحايك : ج ٢ , ص ٢١٣ .

قبل وصولها إلى القدس تلتقي بلويس التاسع كي تنال بركته لأنه في نظرهم حامي المسيحية والمدافع عن المقدسات , وقد شكّل الحجاج مورداً دائماً للعنصر البشري لم ينقطع (١) .

- المتطوعون : ظهر الكثير من الصليبيين الحاقدين على المسلمين أو الطامعين في الحصول على حياة أفضل في مملكة عكا , فعندما كان لويس التاسع في قبرص وصلت مجموعات من مسيحيي اليونان وانضمت إلى حملته في قبرص (٢) , كما أن أمير الموارنة في جبل لبنان إثر وصول لويس التاسع إلى عكا سنة ١٢٥٠هـ/١٢٥٠م تطوع بإرسال جيش تألف من خمسة وعشرين ألف مقاتل من أجل تدعيم قوة لويس التاسع العسكرية (٣) , ومن المحتمل أن الرابطة الدينية هي التي دفعت أمير الموارنة لتقديم ذلك الدعم الكبير للملك الفرنسي , علماً أن هذا العدد مبالغ فيه , بينما تطوعت مارغريث دي رينل والدة جوليآن صاحب صيدا سنة ١٢٥٠هـ/١٢٥٠م بإعداد أربعين مقاتل على حسابها الخاص , وألحقهم بخدمة لويس التاسع , وكثيرة هي الأمثلة عن المتطوعين والمتزمطين الذين ناصروا لويس التاسع تحت دوافع دينية أو مطامع شخصية (٤) .

— الخدمة العسكرية : شكلت كل من مملكة عكا , وإمارة أنطاكية وكونتية طرابلس , وقبرص جيوش خاصة بها (٥) , كما أن المنظمات العسكرية أعدت جيوش خاصة بها كانت تصول وتجول دفاعاً عن الكيان الصليبي , وتزعمت الطليعة في كل هجوم , وامتاز أفراد تلك المنظمات بالخدمة العسكرية مدى الحياة على الأغلب طالما أنهم قادرين على القتال (٦) , وكان الصليبيون بشكل عام يؤدون الخدمة العسكرية التي فرضت على جميع الصليبيين حيث توجب على كل من هو قادر على القتال منهم الالتحاق بالجيوش الصليبية لمدة عام كامل (٧) , ولم يُعَفَ أحد من الخدمة العسكرية سوى أبناء

- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٢-١٩٣ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣, ص٧٠ ؛ الحايك : ج٢ , ص٢١٤ .
(٢) فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص١١٧ ؛ رنسيما : ج٣ , ص٤٥٠ .
(٣) الدويهي : الطائفة المارونية , ص١١٠-١١١ ؛ الشدياق : ج٢ , ص١٢ .
(٤) جونفيل : حياة لويس , الموسوعة , ج٣٥ , ص١٧٣ .
(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٢ ؛ سالم : ص٢٠٢-٢٠٣ ؛

Grusset : op . cit , volume3 , p512-515 .

- (٦) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٦٢-١٩٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٢٥-١٩٥١ ؛
Brellier : op . cit , p224-227 .

(٧) الحايك : ج٢ , ص٢١٧ .

الجاليات الإيطالية لأنها كانت تتبع لإيطاليا الدولة الأم , فخدموا كمرتزقة , ولم يخضعوا لأنظمة مملكة عكا فيما يخص الخدمة العسكرية (١) .

وعلى هذا تغلب لويس التاسع على مشكلة نقص العنصر البشري بحنكته , فأغدق الأموال على كل من ينضوي تحت قيادته , فقصده المرتزقة من أماكن بعيدة (٢) , كما كان بإمكانه إعلان النفير العام إذا ما وقع في ورطة , وحينها تهب المملكة اللاتينية بأكملها لمواجهة الخطر (٣) , وازداد الجيش الصليبي " بشكل كبير جداً , ولقد تضخم مثل جدول في الوادي عندما ذابت ثلوج الجبال " (٤) , وأصبح لدى لويس التاسع قوة عسكرية كبرى , وفّر لها مستلزماتها العسكرية والمادية (٥) .

-
- (١) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٧٨ .
(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٨٢-١٨٣ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٢٧-١٢٨ .
(٣) المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٣٣٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٧٨ .
(٤) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٠٨ .
(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٢-١٧٢ ؛ Mayer : op . cit , p265-266 .

٦- مشاكل لويس التاسع المالية .

يعد الجانب المادي أحد الجوانب الأساسية في تقرير مصير المعركة , وربما تعكس المشاكل المادية واقع الأحداث وتُحوّل النصر إلى هزيمة , وقد وقع على أوروبا عبء إعداد الحملة الصليبية السابعة التي كادت أن تؤدي لأزمة مالية في أوروبا , فلم يترك البابا أنوسنت الرابع أسلوباً لجمع الضرائب والهبات والصدقات إلا واتبعه لتجهيز الحملة التي تطلب إعدادها مليون ونصف ليرة ذهبية (١) , ولم تنته المشاكل المالية للحملة مع مسيرها بل أدت المدة الطويلة التي أمضتها في قبرص لنفاد مؤناتها , فأخذ لويس التاسع يستعين بالمسيحيين " ويرجوهم بإلحاح بالإحسان إليه " (٢) , فتلقى المساعدات من صليبي مملكة عكا والجمهوريات الإيطالية , (٣) , كما أرسل له الإمبراطور الألماني فردريك الثاني المعونات , مما أدى لإنقاذ " الجيش الصليبي من مجاعة كبيرة ومُخيفة " (٤) , ووصلت الحملة إلى دمياط واستولت عليها فتنفست الصعداء بعد أن عثرت فيها على بقايا أسلحة وذخيرة وحبوب , وغيره من الأموال (٥) , وأخطأ لويس التاسع بتوزيعه تلك الأموال عليهم , لأنهم انغمسوا في الملذات وبدّروا أموالهم (٦) , ولكن ألفونسو كونت بواتيه أسعفهم بقدمه مُحملاً بالمساعدات الفرنسية (٧) , وما إن وصل الصليبيون إلى المنصورة حتى حلت بهم المجاعة بعد قطع توران شاه الإمدادات عنهم (٨) , وأشار متى باريس إلى أنهم أرغموا " حتى على أكل خيولهم الثمينة التي كانت ضرورية جداً إليهم " (٩) , أما صاحب ذيل روثلين فنوه على أنهم

-
- (١) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ٨٩٥-٩١٢ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٠٣ .
(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٧ .
(٣) رنسيما : ج ٣ , ص ٤٤٩ .
(٤) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٠٥٨ .

- (٥) ابن واصل : ج ٦ ، ص ٧٢ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٢ ، ص ٢٨٤-٢٨٥ ؛ العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٥٨١ ؛ ابن سباط : ج ١ ، ص ٣٤٣ ؛ ابن إياس : ق ١ ج ١ ، ص ٢٧٧ ؛ Michaud : op . cit , p451-453 .
- (٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٣ .
- (٧) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٦٤ ؛ رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٥٣ .
- (٨) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٢٠-١٢١ ؛ المقرئ : السلوك، ج ١ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٥ ؛ Smaith : op . cit , p184-185 .
- (٩) باريس : الموسوعة، ج ٤٨ ، ص ١٠٩٢ .

" صاروا نحيفين وضعفاء وأكلوا الحمير والبغال" (١) ، وكانت تلك المجاعة من الأسباب التي أدت لأسر الجيش الصليبي (٢) ، وبصعوبة بالغة دفع لويس التاسع نصف الفدية للمسلمين (٣) ، وحينما وصل إلى عكا وضع إستراتيجية استهدفت تقوية الاقتصاد الفرنجي بعد أن أخذ دروساً لا تُنسى في المجاعات والأزمات المالية التي مرت بها حملته ، فأراد تلافي المشاكل المالية الماضية ، وهنا يمكن التساؤل (٤) :

كيف حصل لويس التاسع على موارده المالية ؟

وكيف أنفق على مشاريعه العمرانية والعسكرية في مملكة عكا ؟

أراد لويس التاسع استثمار الموارد المالية الصليبية والأوربية ، وتسخيرها لخدمة المشروع الصليبي ، ومن أهم تلك الموارد ما يلي :

— **الزراعة** : اهتم الصليبيون بالزراعة ، وغالباً ما استخدموا الأسرى المسلمين في الأعمال الزراعية ، وكان النظام الإقطاعي هو السائد آنذاك ، وبلغت الزراعة درجة عالية من التطور نتيجة الاهتمام بها (٥) ، وقد قام الإقطاعي بتقديم المستلزمات الأساسية للفلاح ، ثم تولى الفلاح حراثة الأرض وزراعتها وسقايتها وجني المحصول ، وغالباً ما استقر الإقطاعي في المدينة ، وقسم الإقطاع إلى رساتق (قرى ومزارع) ، وعيّن في كل قرية مختار (ناظر الضيعة) للإشراف على سير الأعمال فيها، كما أخذ حصة الإقطاعي من المحصول التي تراوحت ما بين ربع وثلث الإنتاج ، وبالرغم من الحروب بقيت الزراعة نشيطة (٦) ، وأحياناً ساد الوباء في المناطق الحدودية بين المسلمين والصليبيين بسبب الحاجة لاستثمار الأراضي الزراعية (٧) ،

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج ٥٨ ، ص ١٩٣٢ .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج ٥٨ ، ص ١٩٣٢-١٩٣٨ ؛ دوبوا : الموسوعة ، ج ٣٦ ، ص ١٣٢ ؛

Stambouli : op . cit , p252-255 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٤١-١٩٤٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج ٣٥ ، ص ١٩٤١-١٩٤٢ ؛

Brellier : op . cit , p225 .

Setton : op . cit , volume2 , p566 .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٠-١٩٩٤ ؛

(٥) كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٧٨-٨٠ ؛ كاهن : ص٢٠٢-٢٠٣ ؛

The encyclopaedia of islam : London, 1997 , volume 9 , p267-268 .

(٦) براور : عالم الصليبيين , ص١١٣-١١٤ ؛ النقاش : ص١٧٠ .

(٧) ابن جبير , محمد : رحلة ابن جبير , الموسوعة , تح وتر: زكار , دمشق ١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج١٤ , ص٥٩-٦٠ ؛ الحايك

Smail : op . cit , p80-82.

: ج١ , ص٨٨-٨٩ ؛

واستغلوا الأراضي حسب نظام المقاسمة (١) , واستثمروا الأراضي في زراعة الأشجار المثمرة مثل التين والزيتون والعنب والمشمش والرمان والحمضيات والكرز , كما زرعوا الحبوب كالقمح والشعير والعدس والفلول والسمسم , ومن المحاصيل الصناعية القطن وقصب السكر (٢) , ويلاحظ بأن الصليبيين اهتموا بالزراعة بشكل كبير , ومنذ قدوم لويس التاسع إلى الشرق اصطحب معه الكثير من أدوات الفلاحة , وذلك لتأمين المواد الغذائية للصليبيين فضلاً عن توفير المواد الأولية للصناعة (٣) .

— **الصناعة :** إن تطور الزراعة في عهد لويس التاسع وفرّ المواد الأساسية للصناعة , فلم يقتصر الصليبيون على الأعمال العسكرية بل زاولوا المهن , وأتقنوا الكثير من الصناعات (٤) , فظهرت الصناعات الغذائية , كصناعة السكر وطحن الحبوب والمشروبات الكحولية مثل البيرة التي صنعوها من الشعير (٥) , كما اشتهروا بصناعة المنسوجات القطنية والحريرية والأقمشة (٦) حيث بلغ عدد أنوال النسيج في عهد لويس التاسع بأنطاكية وطرابلس أربع آلاف نول (٧) , بينما اشتهرت طرطوس بصناعة القماش من وبر الجمل , وقد أعجب لويس التاسع بهذا القماش , وكلف جوائفل أن يشتري له مائة

(١) المقاسمة (المنافسة) : طبق هذا النظام على مناطق الحدود بين المسلمين والصليبيين , وبخاصة الأماكن المتنازع عليها كي لا تُترك دون استثمار , وكانت أوضاع المناطق الحدودية مضطربة بسبب تعرضها للصراع , ومن أجل إنهاء النزاع القائم عليها رأى حكامها سواء أكانت تابعة للمسلمين أم للصليبيين أن تدار بطريقة المنافسة , وفي هذه الحالة يتنازل طرف للآخر عن نصف الغلال تفادياً للمشاكل واتقاءً لشره , وبشكل خاص إن لم يتمكن حكامها من الدفاع عنها , كما عرفوا نظام المثلثة , ولم يختلف عن سابقه كثيراً حيث يتم تقسيم المحصول على المسلمين والصليبيين والفلاحين الذين يعملون فيها , وقد استمر نظام المنافسة والمثلثة منذ بداية الوجود الصليبي وانتهى باتتهائه . ابن جبير : الموسوعة , ج١٤ , ص٥٩-٦٠ ؛ جوني , وفاء : دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي , أطروحة دكتوراه , جامعة دمشق , ١٤١٢هـ/١٩٩٠م , ص٩٦-١٠٤ .

(٢) القزويني : ص١٤٢-٢٢٤ ؛ ابن بطوطة : ص٤٥-٥١ ؛ النقاش : ص١٦٩-١٧٧ ؛ البيشاوي , سعيد : الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية , دار المعرفة الجامعية , الإسكندرية , ١٤١٠هـ/١٩٩٠م , ص٤١٨-٤٢٢ ؛

Sarkis , Hassan : L,histoire de Tripoli de sa saregion des croisades , Paris , 1980 , p22-23.

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٩٣ .

(٤) رنسيما : ج٣ ، ص٦٠٤-٦٠٥ .

(٥) النقاش : ص١٧١-١٧٩ ؛ حلاق ، حسان: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الدار الجامعية ،

Smail : op . cit , p82 .

١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٢١١-٢١٥ ؛

Villeneuve : op . cit , p224 .

(٦) رنسيما : ج٣ ، ص٦٠٤ ؛

(٧) سالم : ص٢٣٠-٢٣١ .

قطعة ليأخذها هدايا معه أثناء عودته إلى فرنسا (١) ، أما عكا فاشتهرت فيها صناعة الأواني النحاسية (٢) ، كما عرف الصليبيون صناعات أخرى مثل الأصبغة والخزف والمرايا (٣) ، والأواني الفخارية والعقاقير والحديد (٤) ، والأخشاب التي استخدموها في صناعة أسلحتهم (٥) ، وقد أمنت هذه الصناعات حاجات الصليبيين ، وفُرضت عليها الضرائب التي صبت في خزينة المملكة، فضلاً عن إسهامها في تقوية النشاط التجاري في مملكة عكا (٦) .

— التجارة : أدى النشاط الصليبي في مجالي الزراعة والصناعة لتطوير التجارة في مملكة عكا حيث توفرت المواد التجارية كالقواكه والزيتون (٧) ، والسكر والخزف والفخار والحريز والمنسوجات والحللي (٨) ، والأعشاب الطبية والقرفة والزنجبيل (٩) ، وغدا الصليبيون صلة وصل واتصال تجارية بين الشرق والغرب ، وتحولت عكا إلى سوق تجارية دولية ، وكان أحد أسباب ازدهار تجارتها ، وجود الكثير من أبناء الجاليات الايطالية فيها (١٠) ، ويمكن القول بأن معظم السكر الذي استهلكته أوروبا خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أتى من الكيان الصليبي ، وبخاصة من مدينة صور التي كانت أكبر مُصدر في مملكة عكا للسكر ، ربما تم تصنيعه من الشوندر السكري وقصب السكر (١١) وفُرضت ضرائب متنوعة على التجارة كالضرائب على المحلات التجارية والأسواق والمبيعات والمشتريات (١٢) ، وفُرضت المكوس على التجار المسلمين لقاء مرورهم في المناطق التي سيطر الصليبيون عليها ، وبذلك شكلت التجارة مورداً مالياً زاد

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٢١٦-٢١٧ .

(٢) ابن بطوطة : ص٤٧ .

(٣) النقاش : ص١٧١-١٧٩ ؛ حلاق : ص٢١١-٢١٥ .

(٤) رنسيما : ج٣ ، ص٦٠٥-٦١٧ .

(٥) القزويني : ص٢٢٣ .

(٦) كاهن : ص ٢٠٤-٢٠٧ ؛ البيشاوي : الممتلكات الكنسية , ص ٤٣٠-٤٣٢ .

(٧) ابن بطوطة : ص ٤٥-٥١ .

(٨) النقاش : ص ١٧٩-١٨٤ .

(٩) رنسيما : ج ٣ , ص ٦١٠-٦١١ .

(١٠) زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية , ج ٣ , ص ٤٠٨-٤٠٩ ؛ حلاق : ص ٢١٥-٢١٧ .

(١١) رنسيما : ج ٣ , ص ٦٠٤-٦١١ .

(١٢) سالم : ص ٢٠٥-٢٠٦ .

في ميزانية مملكة عكا (١) .

— الغنائم : عاش الصليبيون على السلب والنهب , حيث وجدوا في الغارات وسيلة لتوجيه الضربات لخصومهم والعودة بالغنائم , ولم تكلفهم هذه العمليات سوى مراقبة تحركات جيранهم المسلمين , وانتظار الأوقات المناسبة للهجوم على مواشيهم أو محاصيلهم الزراعية أو قوافلهم التجارية ونهبها , ثم العودة إلى حصونهم وقلاعهم للتحصن بداخلها , وكثيرة هي الشواهد على ذلك فقد هاجم حاكم أرسوف يوحنا الثالث إبلين ورجاله سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م إحدى مراعي المسلمين في بيسان حيث استقرت إحدى القبائل , فقتلوا بعض رجالها , وغنموا " ١٦٠٠٠ رأس من الحيوان مابين كبير وصغير " (٢) , وأسروا شيخ القبيلة , وعادوا إلى أرسوف للعناية بذلك العدد الكبير من الحيوانات الذي درّ عليهم أرباحاً كبيرة , وأمن لهم الغذاء لمدة زمنية طويلة (٣) , كما تابع كونت يافا يوحنا إبلين الذي كان ابن عم حاكم أرسوف يوحنا الثالث إبلين أخبار القوافل التجارية وتنقلاتها , وأكد ذلك جوافيل , وأشار إلى أنه " عاش معظم وقته على ما كان يربحه من المسلمين " (٤) , بينما اعتاد الصليبيون في قيسارية على حياة الرفاهية ولم يتحملوا التقشف , ولكي يبقوا في رفاهية دائمة توجب عليهم شن الغارات بشكل مستمر على المناطق الإسلامية المجاورة لهم للحصول على الغنائم (٥).

— الدعم البابوي : لم يكن البابا أنوسنت الرابع ليرسل قوة إلى المشرق العربي الإسلامي وينسأها حيث استمر الدعم البابوي للويس التاسع على الرغم من وضع البابا الحرج , وخلافه مع الإمبراطور الألماني فردريك الثاني (٦) , فقد استمر البابا في فرض ضريبة العشر على أملاك الكنائس الأوروبية لاستمرار بقاء الكيان الصليبي , وهدد كل من يتواطأ بالحرمان , كما صادر أموال الهراطقة , وفرض الضرائب على اليهود , وجمع النذور والهبات , وبشكل خاص من المرضى وضعفاء الأجساد غير القادرين على المشاركة في الحملات الصليبية , وشكل البابا جمعيات خيرية لجمع الأموال والتبرعات (٧) ,

(١) كاهن : ص ٢٠٧ ؛ عطية : ص ٣٧٨ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩١ .

- (٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩١ .
 (٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٣ .
 (٥) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٩٦-١٣٩٧ .
 (٦) دويوا : الموسوعة , ج ٣٦ , ص ١٣٩٦-١٣٩٧ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٨٥ . ج ٤٩ , ص ١٢٧٣ ؛
 مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٧٧ .
 (٧) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٠٤-١١٣ .

وطلب من ملك إنكلترا هنري الثالث تقديم المساعدات للويس التاسع في الأراضي المقدسة (١) , ولكن هنري الثالث لقي احتجاجاً من قبل أساقفة إنكلترا على جمع المساعدات , وأظهروا له أن لويس التاسع بدد شعبه وأمواله , وهم ليسوا مجبرين على إفقار إنكلترا, مما يؤدي لارتداد الناس عن المسيحية , وبشكل عام كانت تصل المعونات الأوربية إلى لويس التاسع لعلها تسد احتياجاته المادية (٢) .

— **المعونات الفرنسية** : تحملت فرنسا العبء الأكبر في إعداد الحملة الصليبية السابعة حيث دفعت الكنائس الفرنسية ضريبة العشر عن أملاكها لمدة ثلاث سنوات (٣) , ولم يكتف البابا بذلك بل أراد الاستمرار في أخذ ضريبة العشر من الكنائس الفرنسية لحسابه الخاص , فاحتج لويس التاسع لأن تلك الأموال ضرورية لمشاريعه الإصلاحية في مملكة عكا (٤) , ولم يتوقف دعم بلانشيه لابنها لويس التاسع فما إن سمعت بالمآسي التي حلت بحملته الصليبية في مصر حتى أرسلت له سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م مبالغ مالية كبيرة على متن إحدى السفن الفرنسية , ولكن عاصفة قوية هبت , وأغرقتها في مياه البحر المتوسط (٥) , ولم تأس بلانشيه بل جمعت حوالي مائتين وأربعة وسبعين ألف ليرة ذهبية , وأرسلتها إلى لويس التاسع , ولم تنقطع الإمدادات الفرنسية عن لويس التاسع حتى فارقت بلانشيه الحياة سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م , حيث قلَّ الدعم الفرنسي إثر الأزمة المالية التي رافقت وفاة بلانشيه (٦) .

وبذلك سعى لويس التاسع لتنويع موارده المالية حيث قوّى الاقتصاد الداخلي لمملكة عكا , كما حصل على المعونات الأوربية , مما مكّنه من القيام بالكثير من الإصلاحات التي كلفته مبالغ مالية طائلة , وتجاوز كل المشاكل المالية التي اعترضت سبيله (٧) .

(١) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١١٧٣-١١٧٤ ؛

Wrong , George : Britain history , London , p79-80 .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١١٧٣-١١٧٤ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٧٧ .

- (٤) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٣٦ .
- (٥) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٣٦ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص ٢١٧ .
- (٦) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١٠٤ .
- (٧) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٣٦-١٣٩٦ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٠-١٩٩٤ . كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٧٥-١٢٦ ؛
- Setton : op . cit , volume2 , p566 .

٧_ سك عملة جديدة .

تدخل لويس التاسع في كل صغيرة وكبيرة فيما يخص الإدارة المحلية للكيان الصليبي , وقد عدَّ السِّكَّةَ (١) أحد المظاهر الحضارية التي عبرت عن جانب من جوانب التقدم الحضاري , فلم يكن مرتاحاً للتقليد الصليبي للسِّكَّة الإسلامية , فتضافرت جهوده مع جهود البابا أنوسنت الرابع لإيجاد نقود صليبية جديدة مغايرة لنقود المسلمين (٢) , وقد استعمل الصليبيون النقود الفضية والنحاسية والحديدية للتعامل الداخلي (٣) , واضطروا لاستخدام النقود الذهبية للتعامل الخارجي (٤) مع العلم أن أوروبا لم تستعمل العملة الذهبية قبيل الحروب الصليبية بشكل كبير باستثناء الأندلس وصقلية , لأن الفضة كانت هي المعدن الأكثر استعمالاً في صناعة النقود الأوروبية (٥) , ومن أهم أنواع النقود التي استعملها الصليبيون ما يلي :

— الدينار : قطعة نقدية ذهبية (٦) كُتِبَ عليها العبارات الدينية مثل (الله أحد) (٧) , وبلغ وزن الدينار حوالي ٤,٢٥ جرام (غرام) (٨) , وقد تداول الصليبيون الدينار الإسلامي أحياناً , وقد سكوا دنانير مشابهة له (٩) .

— الليرة التورونية : سميت نسبة لمدينة تُور (TOUR) الفرنسية , وهي عملة فرنسية ذهبية سُكَّتْ

(١) السِّكَّة : أشار ابن خلدون إلى أن السكة بكسر السين وتشديد الكاف هي الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس لمعرفة الصحيح من المغشوش منها , بينما نوه المقرئزي إلى أنه يتم قياس قطع ذهبية وفضية بأوزان متساوية ثم تُوضع نقوش عليها . ابن خلدون , عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر , مؤسسة الأعلمي , بيروت , ١٣٩١هـ/١٩٧١م , ج ١ , ص ٢١٧-٢١٨ ؛ المقرئزي , أحمد: النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود , تح : محمد بحر العلوم , المكتبة الحيدرية , طه , النجف , ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م , ص ٦٧-٦٩ .

(٢) يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣١٥-٣١٧ ؛ حلاق : ص ٢٢٢-٢٢٣ .

(٣) كاهن : ص ٢٥١-٢٥٢ ؛ براور : الاستيطان الصليبي , ص ٤٥٩-٤٦١ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة , ج ٢ , ص ٣٦ ؛ فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٢ ؛

The encyclopaedia of islame : op . cit , volume 9 , p268 .

(٥) رنسيما : ج ٣ ، ص ٦١٨ .

(٦) القزويني : ص ٢١٧ ؛ فابري : الموسوعة ، ج ٣٨ ، ص ١١٧٢ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p492-493 .

(٧) ابن خلدون : ج ١ ، ص ٢١٧ .

(٨) المقرئ : النقود ، ص ٦٠ .

(٩) براور : عالم الصليبيين ، ص ١٦٨ .

في مدينة تور بجنوب فرنسا (١) ، ولم يعط لويس التاسع جنوده رواتبهم إلا بها (٢) .

— **البيزنت (البيزنط)** : عملة ذهبية قديمة عُرفت بالنوميسما أو الهيربيرون ، ومصدرها بيزنطة (٣) ، حيث تراوح وزن القطعة ما بين ٢,٨٢ – ٣,٦٣ جرام ، وقد نافس الدينار الإسلامي البيزنط ، ونادراً ما استخدم المسلمون البيزنط ، ربما لأسباب دينية (٤) .

— **الدرهم** : قطعة نقدية فضية (٥) ، أخذها الصليبيون عن المسلمين ، وسكوا الصليب عليها ، وعلى الوجه الثاني صورة الشمس أو الهلال تقليداً لشعار مدينة تولوز (Touloz) الفرنسية (٦) ، وبلغ وزن الدرهم ٢,٧٠ – ٢,٩٠ جرام من الفضة (٧) .

وقد سُكَّت هذه النقود في أوربة ، وأُرسلت إلى الكيان الصليبي ، بينما وصلتهم أحياناً سبائك معدنية استخدموها في سكِّ النقود ، (٨) ، وبشكلٍ عام كانت النقود التي سكَّها الصليبيون تقليداً للنقود الإسلامية ، كما أحدثوا فيها تغييراً طفيفاً (٩) ، ويلاحظ بأنهم قلَّدوا المسلمين في سكِّ نقودهم حرصاً على استمرار التعامل التجاري مع المسلمين ، بينما استعمل لويس التاسع العملة التورونية الفرنسية المسكوكة باسمه ، ثم استحدث نوعية أخرى عُرفت بالذيرة التورونية الكبيرة (Gros tournois) ، ومن المحتمل أنها من الذهب الخالص ، أما الأولى فمزجت ببعض المعادن الرخيصة ، وإلا أبقى لها التسمية ذاتها ، ولم يُسميها التورونية الكبيرة (١٠) ، وقد استعملها لويس التاسع على الدوام إلا ما ندر حيث أشار جوفانفيل إلى أن لويس التاسع شهد الصلاة على جنازة في عكا ،

(١) باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١١٩٥ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص ٣١٦ ؛ سوريال عطية ، عزيز : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، تر : فيليب سيف ، دار الثقافة ، ط ٢ ، القاهرة ، د.ت ، ص ٧٧ .

(٢) كريستوفر : الموسوعة ، ج ٨٣ ، ص ١١٨ .

(٣) جوفانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٣١ ؛ سوريال عطية : ص ١٧٥-١٧٦ ؛ Stambouli : op . cit , p254 .

(٤) براور : الاستيطان الصليبي ، ص ٤٥٥-٤٦١ .

(٥) جوفانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٧٣ .

(٦) سالم : ص ٢٠٤-٢٠٥ .

(٧) المقريري : النقود , ص ٥٣ .

(٨) يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣١٥-٣١٦ .

(٩) سالم : ص ٢٠٥ ؛ حلاق : ص ٢٢٣ ؛ براور : عالم الصليبيين , ص ١٦٩ ؛

The encyclopaedia of islam : op . cit , volume 9 , p268 .

(١٠) يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣١٦ .

دعته إليها مارغريث برين والددة صاحب صيدا جُولِيَّان دي رينل , وكان المتوفى ابن عمها يُوحَنَّا برين , واعتادوا إثر دفن الجنازة , وإجراء القداس أن يحمل أحدهم طبق , ثم يدور على الجميع لجمع التبرعات منهم , وغالباً ما تبرع كل شخص بدرهم من الفضة لمساعدة المحتاجين , وشمعة لإشعالها على قبر المتوفى , وعندما أتى دور لويس التاسع تبرع بشمعة ودينار ذهبي من دنانير صيدا , فأثار هذا العمل دهشة الحضور لأن لويس التاسع لم يستخدم سوى النقود التورونية المنقوشة باسمه , ولكن هذه المرة خرق القاعدة المعتادة , ومن المحتمل من أجل التقرب من سيدة صيدا , ولطفاً منه نحوها استخدم دينار من عملة صيدا (١) , وفي الحقيقة لم يستخدم لويس التاسع النقود الصليبية سوى لمرة واحدة , لأنها مأخوذة عن النقد الإسلامي , فلم يرض استخدامها إلا في ذلك الموقف الوحيد (٢) , ولم يختلف موقف البابا عن موقف لويس التاسع حيث ندد أنوسنت الرابع باستخدام الصليبيين للنقود الإسلامية والنقود الصليبية المشابهة لها (٣) , وهنا راح لويس التاسع يسعى لإيجاد عملة صليبية جديدة لا تمت للمسلمين بأي صلة , وبالفعل ظهر تغيير جذري في النقد الصليبي حيث كلف لويس التاسع سيد المورة غليوم الثاني سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م بسكِّ نقود تتماشى مع طموحات لويس التاسع (٤) , ومن المحتمل أن لويس التاسع كلف سيد المورة بذلك العمل لأن سيد المورة كان من المؤيدين والمشجعين للحروب الصليبية , فقد أسهم في دعم الحملة الصليبية السابعة حيث أرسل قوة عسكرية انضمت إليها , وهذا ما أدى لتكليفه من قبل لويس التاسع بسكِّ النقود (٥) , بينما ذهب بُوهْمِنْدُ السادس أمير أنطاكية وكونتية طرابلس تماشياً مع رغبة لويس التاسع واعترافاً بفضله وعنايته له , فقد سكَّ نقوداً ذهبية وفضية عليها شعار لويس التاسع وهو (المسيح يقهر , المسيح يحكم , المسيح يهيمن) , وهذا الشعار يعود إلى سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م حيث تم تتويج الإمبراطور الفرنجي شارلمان , ثم توارث ملوك أوروبا هذا الشعار , وكان يُهتف به عندما يتم تتويج أحدهم , وغداً شعاراً للويس التاسع (٦) , كما أخذت دار السكة في عكا

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٣ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣١٦-٣١٧ ؛

(٢) حلاق : ص ٢٢٣ .

(٣) حلاق : ص ٢٢٣ . براور : الاستيطان الصليبي , ص ٤٦١ .

(٤) مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , حاشية ص ٦٠٥ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٦٤-٦٥ .

(٦) عطية: ص ٣٩٠-٣٩١ .

بأوامر لويس التاسع , وسُكَّت سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م نقود ذهبية وفضية ونحاسية وحديدية تختلف عن النقود الإسلامية شكلاً ومضموناً حيث زُينت بنقوش دائرية متحدة المركز , ونُقش بوسطها صليب , وكتب عليها عبارة (الله واحد) وعلى الوجه الآخر (نفتخر بسيدنا المسيح) عليه السلام , ويلاحظ أنهم استبدلوا الآيات القرآنية بعبارات مسيحية , (١) حيث بلغ قطر الدينار ٢٣ مم , ووزنه ٨٢,٢ - ٢٥ , ٤ جرام , واعتمدوا في الغالب على النقود الفضية والنحاسية في التعامل اليومي , بينما استخدموا العملة الذهبية في التداول العالمي (٢) , كما أن البُنْدُقيّة اتبعت أسلوباً مماثلاً خوفاً من احتجاج البابا وعدم رضى لويس التاسع , فسُكَّت نقود نقشت عليها العبارات المسيحية باللغة العربية كي تُرضي المسلمين والمسيحيين (٣) , وبذلك نجح أنوسنت الرابع ولويس التاسع في إجبار الصليبيين على سلكِ نقود جديدة , وتم تحقيق ما لم يستطع تحقيقه من قبل البابوات الذين سبقوا أنوسنت الرابع أو حتى الملوك الأوربيون الذين أتوا قبل لويس التاسع , وأصبحت النقود الصليبية معتدلة الشكل والمضمون حيث كُتبت عليها العبارات المسيحية التي تُعلن عن عقيدتها إرضاءً للبابا ولويس التاسع , بينما بقيت حروفها أحياناً باللغة العربية للحفاظ على التعامل مع السوق العالمية وبخاصة في بلاد العرب المسلمين (٤) .

وهكذا ساس لويس التاسع الكيان الصليبي بذكاء خارق , ويكفي أن الصليبيين أصبحوا طوع بنانه ورهن إشارته , والسّر في ذلك هو إخلاصه لمبدئه , وغيرته على مصالحهم , وإصلاحاته العظيمة التي قام بها على الأصعدة كافة , فقداد مملكة عكا إلى بر الأمان , وأطال في عمرها , وحقق خلال مدة زمنية بسيطة ما لم يستطع غيره من قادة الصليبيين تحقيقه خلال عشرات السنين , وكل ذلك من أجل الحفاظ على بقاء الكيان الصليبي في قلب المشرق العربي الإسلامي رغماً عن المسلمين الذين ألحقوا به في مصر هزائم لا تنسى . (٥) .

(١) حلاق : ص ٢٢٣ ؛ براور : الاستيطان الصليبي , ص ٤٦١ .

(٢) براور : الاستيطان الصليبي , ص ٤٦٢ .

- (٣) يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص٣١٨ ؛ كاهن : ص٢٥١ .
- (٤) مجهول : مجموع هافنسييس , الموسوعة, ج١٠ , حاشية ص٦٠٥ ؛ عطية : ص٣٩٠-٣٩١ ؛ حلاق : ص٢٢٣ .
- (٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٦١-٢٢١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٤٧-١٩٥١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٦٤-١٩٩٢ ؛
- Brentano : op . cit , p298-299 .

_ الفصل الثالث _

علاقة لويس التاسع مع المماليك .

- ١- نهاية الحكم الأيوبي في مصر .
- ٢- موقف الصليبيين والمماليك من اتفاقية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .
- ٣- إطلاق سراح الدفعة الأولى من الأسرى الصليبيين .
- ٤- معركة العباسة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م .
- ٥- اتفاقية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م بين لويس التاسع والمعز أيبك .
- ٦- المحاولة الصليبية - المملوكية لشن هجوم على الأيوبيين .
- ٧- اجتماع أرسوف الصليبي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م .

١ - نهاية الحكم الأيوبي في مصر .

أصيب لويس التاسع بخيبة أمل بعد إخفاق حملته الصليبية , وتدمير جيشه الذي أتى على رأسه , ويعود الفضل الكبير في الهزائم التي حلت به إلى المماليك الذين أبلوا بلاءً حسناً , ودمروا الحملة الصليبية السابعة (١) , وهنا أخذ لويس التاسع في البحث عن طريقة للتأثر منهم , وكان يأمل بحدوث انشقاق في صفوف المسلمين إثر الثورة المملوكية التي أطاحت بالسلطان الأيوبي توران شاه , فتوترت العلاقة الأيوبية المملوكية , وساد المنطقة جوٌ كثيب , وما إن لاحت الفرصة للويس التاسع حتى أصبح ميالاً للدبلوماسية أكثر من إتباع أسلوب القوة العسكرية , فتظاهر بنهج سياسة ودية مع ملوك المسلمين , وانتهز خلافتهم لعله يضرب الطرفين مع بعضهما البعض , مما يُنهك الطرفين , وربما يقضي أحد الأطراف المتصارعة على الطرف الآخر ويضعف الثاني , وهذا ما يسهل على لويس التاسع تحقيق غاياته في السيطرة على المشرق العربي الإسلامي , والانتقام من خصومه المماليك أو على الأقل إخراج الأسرى الصليبيين من السجون المصرية , وبذلك يكسب ماء وجهه أمام فرنسا , والكيان الصليبي بل والغرب الأوربي وعلى رأسه البابا راعي الحروب الصليبية (٢) .

ذهب توران شاه ضحية خبرته الضئيلة في شؤون السياسة , أمام نشوء قوة مملوكية فتية في مصر , لا يمكن تجاهلها بأي شكلٍ من الأشكال , وكانت تقتضي الضرورة كسب تلك القوة المملوكية أمام التحديات الصليبية , لأن تناسيها يعني خسارتها , وربما تحويلها لقوة عاتية ومدمرة , وبالفعل ظهرت عوامل عديدة أدت لاستياء المماليك ونفورهم من سيدهم توران شاه , ومن أهمها ما يلي (٣) :

أ- كان توران شاه يتهدد ويتوعد البحرية , فإذا احتسى الخمرة , استل سيفه , وأخذ يضرب الشموع

(١) سبط ابن الجوزي : ق ٢ ج ٨ , ص ٧٧٤-٧٧٨ ؛ أبو شامة : الموسوعة , ج ٢٠ , ص ٣٦١-٣٦٤ ؛ المقرئبي : السلوك , ص ٣٣٩-٣٤٠ ؛ الحريري : منتخب الزمان , ص ٣٣٩-٣٤٠ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٦-٢٨٧ ؛

Setton : op . cit , volume 2 , p566-567 .

(٢) باریس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٢٢٥-١٢٤٨ ؛ مجهول : ذیل روثلین , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٣١-١٩٥٤ ؛

Kedar , Benjamin : crusade and mission , press , united states of America , 1984 , p161-168 ; Holt , P.M : the age of the crusade , London , 1986 , p83-84 .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج٦ , ص٣٦٩-٣٧١ ؛ ابن سباط : ج١ , ص٣٤٩-٣٥٠ ؛ ابن الوردي : ج٢ , ص٢٦٥-٢٦٦ ؛ ابن دقماق : الجواهر الثمین , ص٢٤٧-٢٤٨ ؛ النويري : ج٢٩ , ص٣٦٠-٣٦١ .

قائلاً : "كذا أفعل بالبحرية" (١) , ويسميههم بأسمائهم (٢) .

ب- اعتمد توران شاه على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا , وقد عبّر عن ذلك العيني بقوله : "قدم الأراذل والأنذال , وأبعد الأماثل والأكابر" (٣) وعلى ما يبدو أن توران شاه وجد أولئك المماليك قد استبدوا بشؤون الحكم فخشى من ازدياد سطوتهم , وأخذ بالحد من نفوذهم (٤) .

ج- أشار ابن تغري بردي أن توران شاه "احتجب عن الناس أكثر من أبيه" (٥) , ولكن في الحقيقة من حق القائد الاحتجاب عن الناس أحياناً لإدارة شؤون دولته أو أموره الخاصة , وأي احتجاب لتوران شاه طالما كان يمد السماط (٦) , ويتناول الطعام مع كبار رجال دولته ! (٧) .

د- خلاف توران شاه مع أقطاي الجمدار المعروف بأقطيا أحد أمراء البحرية حيث وعده توران شاه عندما انطلق للمجيء به من حصن كيفا أن يؤمره , ولكنه عندما رأى ازدياد النفوذ المملوكي , لم يف بوعده له (٨) .

هـ- طالب توران شاه زوجة أبيه شجر الدر بأموال وثروة أبيه , واتهمها بأنها قد أخفتها عنه , وهي التي أرسلت للمجيء به من حصن كيفا كي تُسلمه الحكم فتملكها الذعر , والتجأت لطلب مساعدة البحرية ضد توران شاه (٩) .

كل ماتقدم جعل المماليك يحقدون على توران شاه , فحاكوا مؤامرة بالتنسيق مع شجر الدر , للتخلص

(١) العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٥٩٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ ج٨ , ص٧٨١-٧٨٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج٦ , ص٣٧٠-٣٧١ .

(٣) العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٥٩٦ .

(٤) ابن واصل : ج٦ , ص١٢٨ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج٢ , ص٢٨٨ ؛ ابن سباط : ج١ , ص٣٥٠ ؛ ابن خلدون :

Mayer : op . cit , p263-265 .

ج٥ , ص٤١٧ . ابن دقماق : الجواهر الثمین , ص٢٤٨ ؛

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج٦ , ص٣٧٠ .

(٦) السماط : المائدة السلطانية , أو ما ييسط على الأرض من أجل وضع الطعام عليه . نجم , زين الدين : معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية , ط ١ , د.م , ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م , ص ٣٢٧ .

(٧) ابن إلياس : ج ١ , ص ٢٨٤ .

(٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , ص ٣٦٤-٣٧١ ؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , تح : محمد شمس الدين , دار الكتب العلمية , ط ١ , بيروت , ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م , ج ٧ , ص ٧ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٥٩٧ .

(٩) سبط ابن الجوزي : ج ٢ , ص ٧٧٤-٧٨٢ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٥٨٦-٥٩٧ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٣٤٠-٣٦٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص ٢٢٥ .

منه , وتزعم المؤامرة أربعة من زعمائهم , لم تذكر المصادر منهم سوى أقطاي وبيبرس البندقداري (١) .

انشغل توران شاه بالانتصارات التي حققها على الحملة الصليبية السابعة فحضر لنفسه برجاً خشبياً على شاطئ النيل في مدينة فارسكور , وإلى جانبه دهليزاً سلطانياً (٢) , وأقام الولائم , ومد السماط بعد ظهره يوم الاثنين في ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ / ٢ أيار سنة ١٢٥٠م , ثم تناول طعام الغداء مع كبار رجال دولته , وكان زعماء البحرية الأربعة بانتظار الفرصة المواتية ليفتكوا بتوران شاه , وبعد أن انصرف الجميع وبقي توران شاه وحيداً هاجمه بيبرس وضربه بسيفه , فتلقى الضربة بين أصابعه , وما إن قام بيبرس بفعلته حتى فر هارباً , بينما صعد توران شاه إلى برجه الخشبي , وأخذ ينادي من نافذة البرج " من جرحني؟ قالوا : الحشيشية , فقال لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية ! " (٣) , ثم استدعى الطبيب لمداواة جرحه , وهنا خشي قادة المؤامرة على أنفسهم , فأحاطوا بالبرج , وأضرموا النار في البرج , فرمى بنفسه من أعلى البرج , والسهم تنهال عليه , وهو ينادي " خذوا مملكتكم , ودعوني أرجع إلى حصن كيفا " (٤) , ورمى بنفسه على أقطاي مستجيراً به , فما كان من أقطاي إلا أن ركله برجله , ولم يكتف بذلك بل استل سهماً وصوبه نحوه , فهرب ليرمي بنفسه في ماء النيل حيث أصابه أقطاي في جنبه , مما أدى لاختلال توازنه , ووصل إلى شاطئ النيل ورمى بنفسه في الماء وقبل أن يبتعد كثيراً تعاورته سيوف البحرية , وأتت الضربة القاضية من قبل بيبرس حيث وجه له ضربة بالسيف " من تحت إبط اليد الأخرى فوق قطعتين " (٥) , , وأصبحت جثته قطعتين وسقط ميتاً دون أن يتجرأ أحد على إنقاذه أو الاقتراب منه (٦) .

(١) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٣٥٨-٣٦٠ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٥٩٧-٥٩٨ .

(٢) الدهليز السلطاني : خيمة حربية تُنصب للقائد , وتختلف عن الخيم التي تنصب أثناء الأعياد , وفي أوقات السلم . نجم : ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٣) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٣٩٥ .

(٤) ابن إياس : ق ١ ج ١ , ص ٢٨٤ .

(٥) أبو شامة : الموسوعة , ج ٢٠ , ص ٣٦٥ .

(٦) سبط ابن الجوزي : ق ٢ ج ٨ , ص ٧٨٢ ؛ ابن واصل : ج ٦ , ص ١٢٨-١٣٠ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٥٩٧-٥٩٩ ؛ الحريري : منتخب الزمان , ص ٣٤٠-٣٤١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , ص ٣٧١ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٣٦١ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٣٥٩-٣٦٠ ؛ ابن إياس : ق ١ ج ١ , ص ٢٨٤ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ١٩٣ ؛ الحنبلي : شذرات الذهب , ج ٥ , ص ٢٤١ ؛ ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣٠٥ .

كم هي نهاية مؤلة للسلطان الأيوبي , ولكن لماذا صمت الجميع دون أن يتجرأ أحد على إنقاذه ؟
أخوفاً من البحرية ؟ أم كرهاً بتوران شاه ؟

هذا هو حكم القوي على الضعيف , لقد شكلت البحرية أكبر قوة عسكرية في مصر , والأقوى هو الذي يحكم بغض النظر عن أن توران شاه صاحب الحق الشرعي في الحكم حيث وقف توران شاه أمام أمرين , إما أن يكون دمية بيد البحرية , أو أن يقف بوجهها ويدفع حياته ثمناً لذلك , فالمشكلة أنه دخل وحيداً في المعركة حتى أن رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا , وسلمهم المناصب لم يدافعوا عنه , وهذا دليل على أنه أخطأ في اختيار حاشيته التي خذلتها في أحلك الظروف , بينما قامت البحرية من على مائدته وغدرت به , ولم تقم وزناً لذلك , كما لم تقم وزناً لوالده الصالح نجم الدين أيوب الذي اشتراهم رقيقاً وصنع منهم رجالاً , وصدق المتنبي في قوله :

لا تشتري العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاسٍ مناكيد

توفي توران شاه بعد شهرين ونصف من استلامه السلطنة , وبقيت جثته في العراء ثلاثة أيام , والسماط تتخاطفه الكلاب , ولا يجسر أحد على الاقتراب منه , وهناك روايتين حول دفنه فتشير الأولى إلى تدخل رسول الخليفة العباسي حيث سمح المماليك بدفنه (١) , أما الرواية الثانية فنوهت إلى أن أحد صيادي الأسماك علقه بسنارة صيد , ثم ركب في القارب وجره من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية من النيل , فبدى وهو يجره كأنه حوت علق بتلك السنارة حيث واره التراب هناك (٢) .

لاحت بارقة أمل أمام لويس التاسع إثر مقتل توران شاه على الرغم من أنه كان لازال أسيراً , ولكن سرعان ما انتشر خبر مقتله حتى بين الصليبيين , فموت توران شاه يعني انتهاء الحكم الأيوبي في مصر , فضلاً عن عدم استقرار أوضاع المماليك في مصر بين عشية وضحاها , وربما تكون هناك ثورة أيوبية في مصر ضد المماليك , وإذا لم يحدث شيء من هذا فإن بني أيوب في بلاد الشام لا يمكن أن يخضعوا لسيادة مماليكهم , وبذلك تنفصل عرى الوحدة بين بلاد الشام ومصر , وإذا ما حدث هذا ,

-
- (١) سبط ابن الجوزي : ق ٨ ج ٨ ، ص ٧٨٢ ؛ المقرئزي : السلوك ، ق ١ ج ١ ، ص ٣٦٠ . الحريري : منتخب الزمان ، ص ٣٤١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧١ .
- (٢) أبو شامة : الموسوعة ، ج ٢٠ ، ص ٣٦٦ .

فربما يستطيع لويس التاسع رد اعتباره ، وحينئذ يثار للهزائم التي حلت بحملته الصليبية (١) . انتهى حكم الأسرة الأيوبية في مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وأضحى عرش السلطنة شاغراً ، فعقد أمراء البحرية اجتماعاً أسفر عن تسليم السلطنة لشجر الدر ، وأن يكون عز الدين أيك التركماني (٢) أتابك (٣) ، العسكر ، فأصبحت أول سلطنة مملوكية ، وهي أمة ذات أصل أرمني أو تركي اشتراها الصالح نجم الدين ثم أعتمدها وتزوجها (٤) ، فأنجبت منه طفلاً سمته خليل ، توفي وهو صغير (٥) ، وبعد أن استلمت الحكم قبضت على زمام الأمور بقوة ، وتحاشت إبراز اسمها في المراسيم التي أصدرتها ، فوَقَّعت المراسيم والكتب باسم أم الخليل نسبة لابنها المتوفى ، أو باسم المستعصمية كدلالة على نيابتها عن الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦) ، وأدارت أمور الدولة على خير ما يرام " حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن ، وساست الرعية أحسن سياسة " (٧) ، لم تستطع شجر الدر مجابهة الرأي العام خارج مصر حيث ثار الأيوبيون في بلاد الشام ضدها وعلى الصعيد السياسي عقدت اتفاقية سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م مع لويس التاسع ، واستعادت دمياط من أيدي الصليبيين ، وقد

-
- (١) الحريري : منتخب الزمان ، ص ٣٤١-٣٤٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٤٠-١٩٤٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٩٢ ؛ باريس : الموسوعة ، ج ٤٨ ، ص ١١٤٦-١١٦٠ . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٩٤-٢٩٥ ؛ Hakky , Ihsan : Brentano : le moyen age la croisade ,p296-299 ; L'enseignement sous les Ayyubides et les premiers Mamluk en Syrie et Egypt , these de doctorat , volume3 , p1404-1405 .
- (٢) عز الدين أيك : هو عز الدين أيك المعروف بالتركماني ، أصله من مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد جعله جاشنكيره () الشخص الذي يتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفاً من دس السم فيه) ، وإثر مقتل توران شاه سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م سلمه المماليك البحرية أتابك العسكر مستغلين عدم قوة شوكتهم ، فيما إذا أرادوا عزله ، فساس البلاد بحنكة ودهاء ، وتزوج من أرملة سيده شجر الدر ، وعندما علمت بأنه قد خطب ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ الأرمني تأمرت عليه ، وتم قتله سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م .
- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣-١٢ ؛ القرماني : مج ٢ ، ص ٢٦٧-٢٦٨ .

- (٣) أتابك : أصلها أطابك , وتعني الوليد الأمير أو الأمير الأب , كما تعني أبو الأمراء , وهو بمثابة نائب للسلطان , وأول من تلقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي عندما فوضه ملكشاه في تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م .
- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء , تح : محمد شمس الدين , دار الكتب , بيروت , ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م , ج ٤ , ص ١٨ .
- (٤) النويري : ج ٢٩ , ص ٣٦٢-٣٦٣ ؛ ابن تغري بردي , يوسف : الدليل الشافي على المنهل الصافي , تح : فهم شلتون , مكتبة الخانجي , القاهرة , ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م , ص ٣٣٠-٣٤٤ ؛ Hakky : op . cit, volume3 , p1400-1404 .
- (٥) الفيومي , عبد البر : نثر الجمان , رقم المخطوط ٦١٩ , مكتبة الأسد , دمشق , ورقة ١١٧ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٥٩ .
- (٦) ابن تغري بردي : مورد اللطافة , ص ١٤٤-١٤٦ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٦٦ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٤٢ .
- (٧) ابن إياس : ج ١ , ص ٢٨٦ .

فتح استلامها أمام لويس التاسع آمالاً عريضة , فظن بأن حكومة تقودها امرأة من السهل الإيقاع بها , مما جعله يمتنع عن العودة إلى فرنسا , وأصر على البقاء في مملكة عكا (١) , وحملوها مسؤولية مقتل توران شاه (٢) , كما احتج الخليفة العباسي المستعصم بالله (٣) , فأرسل إلى مصر مُستهزئاً باستلام شجر الدر للحكم قائلاً : "إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نُسير إليكم رجلاً" (٤) , ليكون سيداً على مصر , فما كان من أمراء البحرية إلا أن عقدوا اجتماعاً , واقترحوا زواج عز الدين أيك التركماني من شجر الدر , وتسليمه الحكم بدلاً منها , وقد استجابت شجر الدر لمطلبهم , وتنحت عن السلطة أواخر شهر ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ/شهر تموز عام ١٢٥٠م بعد أن دام حكمها حوالي ثلاثة أشهر , ثم تزوجت من أيك , وتلقب بالمعز أيك (٥) .

مما تقدم يلاحظ أن المماليك ظهروا على مسرح الساحة السياسية في مصر وازدادت مكانتهم لدى الجميع عدا توران شاه الذي خشي من نفوذهم المتزايد , وعندما أراد الوقوف بوجههم غدروا به ودفع حياته ثمناً لذلك بل لا زال يُضرب المثل بمقتل توران شاه الذي مات جريحاً حريقاً غريباً , وعلى أنقاض الدولة الأيوبية في مصر نشأت دولة مملوكية فتية , بدأت باستلام شجر الدر لها , ولأول مرة في تاريخ مصر في العصر الإسلامي , استلمت زعامتها امرأة , فساست البلاد بحنكة ودهاء , ولكنها ما لبثت أن فُوجئت بسيل من الانتقادات , فأجبرت على التنحي عن العرش بعد أن استعادت دمياط من الصليبيين , وقامت بإجلائهم عنها (٦) .

- (١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٢-١٣٤ ؛ Smith : op . cit , p184-185 ; Mayer : op . cit , p260-265 .
- (٢) الدوادري : ج ٨ , ص ١٢-١٣ ؛ Stevenson : op . cit , p328-330 ; Holt : op . cit , p 83-84 .
- (٣) المستعصم بالله : هو عبد الله ابن المستنصر بوبع بالخلافة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وكان رجلاً سمحاً اتصف بحمة ضعيفة , وخبرة ضئيلة في تدبير أمور البلاد , فكان حاله كما يقال في الأمثال : من أضع جنده في السلم لم يحفظوه في لقاء الخصم , كما أخطأ في اختيار

حاشيته حيث أشار عليه وزيره ابن العلقمي استرضاء المغول بالمال , فساقه إلى حتفه حيث قتله هولاء سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م السكتواري , علي دده : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر , رقم المخطوط ١٤٥٣٨ , مكتبة الأسد , دمشق , ورقة ٣٠١-٣٠٦ .
(٤) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٤ .

(٥) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٤ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٣٦٢-٣٦٤ ؛ العاملي , زينب : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور , المطبعة الأميرية , ط ١ , بولاق , ١٣١٢هـ/١٨٩٤م , ص ٢٢٥ .

(٦) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٢٤ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٣٩٣-٣٤٦ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين , ص ٢٤٦-٢٥٢ ؛ الذهبي : العبر , ج ٣ , ص ٢٥٨-٢٥٩ ؛
Khader : op . cit , p33-35 .

٢- موقف الصليبيين والمماليك من اتفاقية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

أطاح المماليك بسيدهم توران شاه , ثم واصلوا المفاوضات مع لويس التاسع , وانتهت تلك المفاوضات لعقد اتفاقية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م , وفرضت هذه المعاهدة التزامات على الجانبين المملوكي والصليبي , وقد نظر الصليبيين إلى المماليك على أنهم أدخلوا بالاتفاقية , كما نظر المسلمون إلى الصليبيين على أنهم خرقوا الاتفاقية (١) وقد تضمنت ما يلي: توجب على لويس التاسع تسليم دمياط للمسلمين , والعودة إلى فرنسا , وألا يقصد سواحل المسلمين مرة ثانية (٢) , وأن يدفع المبلغ المتبق من الفدية وهو مائتي ألف ليرة ذهبية , وإطلاق سراح الأسرى المسلمين الموجودين في السجون الصليبية (٣) , بينما تعهد المسلمون بإطلاق سراح لويس التاسع , وكبار رجال حملته , والحفاظ على الأسلحة الصليبية , واللحوم المملحة ريثما يتم دفع المبلغ المتبق من الفدية (٤) .

حلف لويس التاسع الأيمان للمسلمين , ووعدهم بتطبيق الاتفاقية التي أبرمت , ثم سلم دمياط وركب سفينته مغادراً إياها (٥) , وهنا تشير المصادر الغربية أنه إثر إطلاق سراحه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م , ودخول أهالي دمياط مدينتهم قد هاجموا المرضى والجرحى الذين تركهم لويس التاسع في دمياط , ولكن لماذا ترك أولئك المرضى والجرحى ؟

لو أنهم كانوا مرضى وجرحى لأخذهم لويس التاسع على متن السفن التي أقلته مع كبار رجال حملته

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٤-١٣٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , ص ٣٦٩ ؛ باريس: ج ٤٨ , ص ١١٥١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٤ .

(٢) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٠ ؛ ابن إياس : ج ١ , ص ٢٨٢ ؛

Aziz , Philippe : histoire de la franc , Paris , 1981 , volume 3 , p21300 .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , ص ٣١٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٤٠-١٩٤١ ؛ السيوطي , جلال الدين : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة , دار إحياء الكتب العربية , ط ١, د.م. , ١٣٧٨هـ/١٩٦٨م. , ج ٢ , ص ٣٦ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٣٦-١٣٧ ؛ Stambouli : op . cit , p257-259 .

(٥) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠١ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٨ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٣٨-١٤٢ ؛ المهندس , محمود : البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر , المطبعة الأميرية , ط ١ , بولاق , ١٣١٣هـ/١٩٨٥م , ج ٤ , ص ٢٥٦ ؛

Kedar , Benjamin: the franc in the levant 11-14 centuries , Britain , 1993 , p267-273 .

من أجل مداواة جراحهم , مما يؤكد بأنه لم يترك خلفه جرحى إنما ترك حامية عسكرية لحراسة الأسطول والعتاد ريثما يدفع المبلغ المتبقي عليه من الفدية , كما أشارت تلك المصادر الأوربية إلى أن المسلمين أحرقوا لحوم الخنازير المملحة , وكسروا براميل الخمرة , وأحرقوا الأسطول الصليبي (١) .

أما المصادر الشرقية فلها وجهة نظر مختلفة تماماً عن المصادر الغربية , فقد نوهت إلى أن أهالي دمياط بعد عودتهم لدمياط كردة فعل على ما فعله الصليبيون بهم من تهجير وقتل وتدمير , فقد اشتبكوا مع الجنود الصليبيين الذين تركهم لويس التاسع في دمياط لحماية العتاد العسكري , وفي تلك اللحظة تدخل زعماء البحرية , وضربوا أولئك الناس الذين اشتبكوا مع الصليبيين , وأبعدوهم عنهم , وهذا يؤكد رفض زعماء البحرية التام لهذا العمل (٢) , ومن المحتمل أن المسلمين حطموا براميل الخمرة وأحرقوا لحوم الخنازير حيث لم يروا لها فائدة , ولكن من المستحيل إحراق الأسطول الصليبي , وبدلاً من إحراقه كان بإمكانهم أخذه كغنيمة والاستفادة منه بدلاً من إتلافه .

ما إن استقل لويس التاسع السفينة مع كبار رجال حملته إثر مغادرة شاطئ دمياط حتى أظهر سوء نيته تجاه المسلمين متناسياً العهد التي قطعها على نفسه , فما إن أبحر من دمياط وابتعد قليلاً حتى أرسل رسالة للمماليك البحرية نعتهم فيها بقله دينهم , وضعف رأيهم , ونقص عقولهم , فأما أنه اتهمهم بقله الدين بسبب غدرهم بسيدهم توران شاه , ولم يراعوا عهد والده الصالح نجم الدين أيوب الذي رباهم صغاراً , وصنع منهم أمراء وقادة , بعدما كانوا عبيداً أذلاء , وأما عن ضعف رأيهم فلأنهم سلموا قيادتهم لامرأة , بينما اتهمهم بنقص العقل لأن لويس التاسع لم يتوقع أن يطلب المماليك منه ذلك المبلغ الزهيد الذي كان أربع مائة ألف ليرة ذهبية لقاء إطلاق سراح الآلاف من الأسرى الصليبيين , وقد نوه عن ذلك قائلاً : " وحق ديني لو طلبتم مني مملكتي دفعتها إليكم , حتى أخلص " (٣) , وفي هذا إشارة واضحة إلى أن لويس التاسع ما إن أصبح حراً طليقاً حتى خرق الاتفاقية , ربما أنسته فرحته بالنجاة من الأسر الأسرى الصليبيين

, فإذا ما أخل بالاتفاقية فرما يؤدي ذلك لقتل المماليك للأسرى , ولكن بالرغم من ذلك لم يفعلوا , وهذا ما أدى لندم المماليك البحرية لأنها لم تقتل

-
- (١) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٥٠ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٥١-١١٥٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨, ص١٩٤٤-١٩٤٥ ؛ بردج : ص٢٧٢ ؛
Dagen : op . cit , p72 .
(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام , ج٢٠ , ص٥٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج٦ , ص٣٦٩ .
(٣) الحريري : الإعلام والتبيين , ص١٠٠ ؛ منتخب الزمان , ص٣٤٢ .

لويس التاسع عندما اقترح عليهم حسام الدين الهذباني قتله بعد استعادة دمياط , فعارض أيبك وشجر الدر (١) , وقد ردّ المعز أيبك على استهزاء لويس التاسع بقصيدة من نظم الشاعر المصري يحيى ابن مطروح من أهم أبياتها ما يلي :

وقل لهم إن زعموا عودةً لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
فدار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

وفي هذا تعبير بليغ , وتهديد واضح وصريح إلى لويس التاسع إذا ما أصر على نقض الاتفاقية (٢) .

قرر لويس التاسع نقض الاتفاقية بطريقة لبقة خوفاً من انتقاد الصليبيين له , فيما إذا انتقدوه , مع العلم أن شيء من هذا لم يحدث , ولكن تحسباً لذلك فإن لويس التاسع أراد أن يتحرر من اليمين الذي قطعه على نفسه للمماليك من أجل تطبيقه الاتفاقية , فعقد اجتماع سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م , حضره النائب البابوي والنبلاء الصليبيين , ورجال الدين والعلمانيين من أبناء الكيان الصليبي حيث بدأ لويس التاسع بذكر بنود الاتفاقية التي عقدها مع المماليك , وعرض على الحضور التحكيم , ومعرفة فيما إذا أخل المماليك بها , فإن أخلوا فهو يريد التحرر من اليمين الذي قطعه على نفسه , " وبعدما جرى فحص القضية ومناقشتها تماماً من قبل جميع الحضور " (٣) , قرر النائب البابوي في نهاية الاجتماع تحليل لويس التاسع من يمينه , فأصبح غير مرتبط بالاتفاقية التي عقدها مع المسلمين (٤) , ولكن في حقيقة الأمر أغمض أولئك الأعضاء أعينهم عن مساوئ لويس التاسع , وركزوا على مهاجمة المسلمين للجنود الصليبيين الذين أبقاهم لويس التاسع في دمياط , فلماذا لم يسألوه لماذا لم يدفع الفدية ؟ وهل كان صادقاً مع المماليك عندما وعدهم بألا يسيء إليهم , وألا يقصد سواحل المسلمين مرة ثانية ؟

فيما يتعلق بالفدية أشار أحد مؤرخي الغرب المعاصرين ويدعى أنتوني بروج إلى ذكاء لويس التاسع وحنكته وبعد نظره في تلخصه من دفع الفدية , بينما وجه انتقاداً لاذعاً لأهالي دمياط الذين هاجموا الجنود الصليبيين لأنهم لم يكونوا سوى مرضى وعجزة , في الوقت الذي أشاد فيه بلويس التاسع

-
- (١) الحريري : الإعلام والتبيين , ص ٩٩-١٠٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٦ , ص ٣٦٩-٣٧٠ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام , ج ٢٠ , ص ٥٢-٥٣ .
- (٢) الحريري : منتخب الزمان , ص ٣٤٢ ؛ ابن إياس : ق ١ ج ١ , ص ٢٨٢-٢٨٣ .
- (٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣ .
- (٤) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٢-١٩٥٣ .

على مماطلته عن دفع الفدية (١) , بينما راح بعض مؤرخيهم أمثال مكسيموس مونرود إلى الادعاء بأن لويس التاسع دفع الفدية كاملة (٢) وفي الحقيقة لم يماطل لويس التاسع في دفع الفدية فحسب (٣) بل أثار الفتنة بين دمشق والقاهرة , فهو لم ينتهك الاتفاقية فقط بل أشعل حرب أهلية , وليته اكتفى بعدم دفع الفدية (٤) .

أما فيما يتعلق بعدم إساءة لويس التاسع للمسلمين , وعدم مهاجمتهم , فإنه لم يترك وسيلة لضرب المسلمين إلا واتبعها حيث راح يرسل المغول لإدخالهم في دوامة الحروب الصليبية (٥) , كما حاول كسب الحشيشية , وأرسل لهم الهدايا الفاخرة لكسبهم ضد الأيوبيين , لكن الحشيشية لم تستجب لرغبته (٦) , ولم يتورع عن مهاجمة المسلمين كلما سنحت له الفرصة كحملته على قلعة الصبية وبانياس سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م (٧) .

وأما فيما يتعلق بإطلاق سراح لويس التاسع للأسرى المسلمين فقد سكت المصادر الإسلامية عن ذلك , بينما أشار صاحب ذيل روثلين إلى أنه أطلق ثلاثمائة أسير من المسلمين وأرسلهم إلى مصر (٨) , ويمكن الإشارة إلى أن لويس التاسع انتهز النزاع الأيوبي - المملوكي , فأخرج الأسرى من السجون

-
- (١) بروج : ص ٢٧٢ .
- (٢) مونرود : مج ٢ , ص ٣٣١ .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٤-١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩١ .

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام , ج ٢٠ , ص ٥٥-٦١ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦١٥-٦٢٩ ؛ جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٤٦-١٩١ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٩٧-١٢٠٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٠-١٩٥٤ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٥٤-١٥٥ ؛

Stevenson : op . cit , p329-330 .

(٥) المهندس : ج ٤ , ص ٢٥٣-٢٥٤ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٥٠٩-٥١١ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١١٠٠-١١٠١ ؛

(٦) جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٧-١٦٩ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٢٣٦-٢٣٧ ؛

Brellier : op . cit , p226-227 .

(٧) جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧-٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢١٧-٢١٩ ؛

Stevenson : op . cit , p331 .

(٨) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥١ .

المصرية دون أن يدفع ليرة واحدة لفديتهم (١) .

وعلى هذا يلاحظ أن الصليبيين لا عهد لهم ولا موثيق , وهذا ما يُذكرنا اليوم بالصهيونية التي ضللت الرأي العام العالمي بتصريحاتها , ووعودها للشعب الفلسطيني صاحب الأرض بإنشاء دولته المستقلة , فهي اعتادت في كل مؤتمر أن تنفي ما قالت في المؤتمر الذي سبقه , وإن هناك تشابه كبير بين الصهيونية ولويس التاسع من حيث المماثلة والتهرب من الحقائق , ولكن إذا ما أردنا أن نكون واقعيين فالمشكلة لا تكمن في لويس التاسع والصهيونية , إنما تكمن المشكلة في الأيوبيين والمماليك هذا في الأمس والعرب اليوم بعد أن تفرقت كلمتهم , وتشتت شملهم , وهذا في الوقت الذي يتبدل فيه المعتدي عشرات المرات حسب ما تقتضي مصلحته , وعلاوة على ذلك تدّعي الصهيونية بأنها مظلومة وبائسة , على الرغم من كل اعتداءاتها على العرب , كما أن لويس التاسع عقد اجتماعاً ليتحلل من يمينه تجاه الاتفاقية التي عقدها مع المماليك , وقد أيده رجاله , وأكدوا له بأنه هو صاحب المبادئ السامية , بينما المماليك ليسوا أهلاً للعهود .

لم يحقق لويس التاسع ما حققه من مكاسب لولا الخلاف الأيوبي - المملوكي , فهو لم ييأس من إشعال الفتنة بينهما حتى استطاع في النهاية إطلاق سراح الأسرى الصليبيين من أيدي المماليك دون أن يدفع فديتهم (٢) .

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام , ج ٢٠ , ص ٥٥-٦١ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١٢٠٧ , ج ٤٩ , ص ١٣١٠-١٣١١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٥-١٩٥٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٥٦-١٦١ ؛

Brentano : le moyen age la croisade , p296-299 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٤٢-٢١٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٤-١٩٥٤ ؛ رنسيان : ج ٣ , ص ٤٧٢-٥١٣ ؛ Edde : op . cit , p150-154 .

٣- إطلاق سراح الدفعة الأولى من الأسرى الصليبيين .

انتهز لويس التاسع حالة التوتر الأيوبي المملوكي أملاً بإخراج الأسرى الصليبيين من السجون المصرية , والحصول على المزيد من التنازلات من الأيوبيين والمماليك , فراسل المماليك , وحاول استمالتهم , ولوح لهم بالمساندة ضد تهديد الزعيم الأيوبي الناصر يوسف الثاني لهم , في الوقت الذي خشيت فيه السلطنة المملوكية من تشكيل حلف أيوبي . صليبي يقضي على دولتهم الفتية , فأرادت كسب لويس التاسع والإذعان لمطالبه , وأصبح لويس التاسع سيد الموقف في ظل الانشقاق الأيوبي المملوكي , ووجد بشكل مبدئي أن مصلحته تكمن في محالفة المماليك , ريثما يتم إطلاق سراح الأسرى الصليبيين من السجون المملوكية (١) .

أرسل الناصر يوسف الثاني إلى لويس التاسع لإقامة تحالف بينهما ضد المماليك , فلم يعطه جواباً صريحاً , لأن قضية الأسرى آنذاك كانت أهم قضية لديه , وعندما تأكد بأن بني أيوب أرادوا استجداءه (٢) , أرسل إلى المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وفداً صليبياً برئاسة حاكم حيفا جان دي فالنسين (Jean du Valencienne) حيث انطلق ذلك الوفد من عكا إلى دمياط , ووجد أمراء المماليك البحرية قد غادروا دمياط إلى القاهرة , فتابع الوفد مسيره إلى القاهرة , والتقى مع زعماء المماليك البحرية , وقدم إلى زعيمهم المعز أيك مطالب واقترحات لويس التاسع التي تتلخص بما يلي :

إذا ما أراد المعز أيك محالفة لويس التاسع ضد بني أيوب في بلاد الشام , فإن ذلك مقرون بإخراج الأسرى الصليبيين من السجون المملوكية , وإعادة العتاد العسكري الصليبي الذي بقي في دمياط , ثم وجه جان

دي فآلنسين إنذارا إلى أيك , فيما إذا لم يوافق على مطالب لويس التاسع , فإنه لن يتورع عن مخالفة الأيوبيين في بلاد الشام , وأمام ذلك التهديد استبقى السلطان المملوكي الوفد ريثما

(١) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٥٩٣-٦٢٩ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٢-١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٥-١٩٥١ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p498-500 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٩٧ ؛

Smith : op . cit , p186 .

تتم دراسة مطالب لويس التاسع (١) .

نظر أمراء المماليك البحرية وعلى رأسهم المعز أيك إلى الظروف الصعبة التي أملت بهم , حيث لم ينظر بنو أيوب في بلاد الشام بعين الرضى للانقلاب المملوكي الذي أطاح بتوران شاه , فأعلنوا العداء لهم , واستعدوا لمهاجمة مصر (٢) , كما أنفَ بعض زعماء المماليك البحرية (٣) , استلام المعز أيك سلطاناً عليهم , فقد كان أولئك الزعماء أكثر منه قوةً ومكانةً , فعمد أمراء البحرية أمام التهديد الأيوبي والمعارضة الداخلية لتعيين الأشرف موسى المعروف بأقسييس (٤) , سلطاناً على مصر , وأن يكون المعز أيك شريكاً له في الحكم , ويساعده زعماء البحرية في إدارة شؤون مصر (٥) , بينما راحت مجموعة من المماليك البحرية بزعامة ركن الدين خاص ترك وجمال الدين آقوش تراسل

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٤-١٩٤٥ ؛ زيادة : ص ٢٤٧ .

Grousset : op . cit , volume3 , p500 .

(٢) سبط ابن الجوزي : ج ٨ , ص ٧٧٩-٧٨٠ ؛ أبو شامة : الموسوعة , ج ٢٠ , ص ٣٦٦-٣٦٧ ؛ الذهبي : العبر , ج ٣ , ص ٢٥٩-٢٦٠ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٣٦٣-٣٦٧ .

(٣) زعماء البحرية الذين احتجوا على استلام أيك هم : فارس الدين أقطاي مقدم البحرية , والأمير ركن الدين الرشيد , وسنقر الرومي , وهؤلاء هم من أكابر المماليك الصالحة نسبة إلى سيدهم الصالح نجم الدين أيوب . ابن واصل : ج ٦ , ص ١٤١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٥ .

(٤) الأشرف موسى : هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن السلطان الملك الناصر يوسف الثاني بن الملك المسعود بن الكامل بن العادل الأيوبي , وقد عاش هذا الغلام عند عماته القطيبات في القاهرة , وقد عُرفن بالقطيبات نسبة لشقيقهن الملك المفضل قطب الدين أحمد , حيث بلغ الأشرف ست سنوات من العمر , بينما أشار ابن تغري بردي إلى أن عمره عشرة سنوات , وبعد أن أحضر زعماء

البحرية ذلك الصغير سلموه السلطنة , وخطبوا له على المنابر , وخرجت المراسيم موقعة باسمه واسم شريكه في الحكم المعز أيك مع العلم أن تعيينه قد تم بعد تسليم أيك بخمسة أيام في شهر جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ / شهر آب عام ١٢٥٠م . العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٥-٦٢٣ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين , ص ٢٥٣-٢٥٤ ؛ النفحة المسكية في الدولة التركية , تح : عمر تدمري , المكتبة العصرية , ط ١, صيدا وبيروت , ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م , ص ٤٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٥-٦ .

(٥) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٢٢-٦٢٣ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٩٠ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٥٦ ؛ المنصوري , بيبس : مختار الأخبار المعروف بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ , تح : عبد الحميد حميدان , الدار المصرية اللبنانية , القاهرة , ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م , ص ٩ ؛

Edde : op . cit , p151 . Holt: op . cit , p 84.

المغيث عمر سيد الكرك لتسليمه مصر (١) , فما كان من المعز أيك أمام التمرد الداخلي والخطر الخارجي إلا أن أعلن بأن مصر هي للخليفة العباسي المستعصم بالله , وهو وأقسييس يحكم مصر بالنيابة عن الخليفة العباسي (٢) .

إن الأوضاع العصيبة التي ألت بمصر والظروف الصعبة جعلت المعز أيك أكثر مرونة مع السفير الصليبي جان دي فالنسين حيث خشي من مخالفة لويس التاسع للناصر يوسف ملك دمشق , فأطلق سراح قسم من الأسرى الصليبيين من أصل اثنا عشر ألف أسير (٣) , واختلف المؤرخون حول عدد الأسرى الذين أطلق سراحهم , فأشار جوانفيل على أنهم " مائتي فارس أطلق سراحهم من الأسر إلى جانب رجال من مراتب أدنى , وجميع عظام كونت دي بريين " (٤) , وقد اكتفى جوانفيل بتحديد عدد الفرسان , ونوه صاحب تاريخ هرقل إلى أن عددهم بلغ تسع مائة وواحد وعشرون أسير (٥) , بينما كان صاحب ذيل روثلين أكثر دقة في تحديد مجموعة الأسرى التي ضمت " مقدم الاستبارية مع خمسة وعشرين فارساً من الاستبارية , وخمسة وعشرين فارساً من الداوية , وعشرة فرسان من استبارية الألمان (التيوتون) , ومائة فارس علماني , وستمائة من السجناء الآخرين من الرجال والنساء " (٦) , ويبدو أن عدد الأسرى تراوح مابين خمس مائة إلى ألف أسير .

قاد جان دي فالنسين الأسرى الصليبيين , وأرسل المعز أيك مع فالنسين سفارة مصرية , كلّفها السلطان المملوكي أن تعرض على لويس التاسع إنشاء حلف مملوكي – صليبي ضد الأيوبيين ,

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٤٢ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٤ ؛ الدوادري : ج ٨ , ص ١٤ .

(٢) أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٩٠ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٦٨-٢٦٩ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٤٥ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p498 ; Holt: op . cit , p84 .

Grousset : op . cit , volume3 , p500 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٤٥ ؛

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥٥ , ص١٧٢ .

مقتل كونت دي بريين : هو وولتر كونت يافا الذي قتل إثر معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م , وذلك بعد انتصار الصالح نجم الدين أيوب وحلفائه الخوارزمية على الجيش الصليبي _ الأيوبي حيث حُمل وولتر إلى يافا بعد أن طلب المسلمون منه تسليم مدينة يافا مقابل إخلاء سبيله , وبالفعل فقد حملوه إلى أبواب يافا , وبدلاً من تسليم المدينة طلب من أهاليها المقاومة وعدم الاستسلام , فقتله المسلمون . باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١٢١٤-١٢١٦ ؛ رنسيما : ج٣ , ص٣٩٤-٣٩٥ .

(٥) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٢ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥١ .

وساروا جميعاً , فقصدوا عكا حيث كان هناك لويس التاسع , ووصلوها في ١٩ رجب سنة ٦٤٨هـ / ١٧ تشرين الأول سنة ١٢٥٠م (١) .

بالغ المؤرخون الغربيين في وصف حالة أولئك الأسرى الذين قدموا مع جان دي فالنسين حيث وصفوهم بأنهم ارتدوا ثياباً ممزقة , وقد عانوا أصنافاً من التعذيب والآلام على أيدي المماليك حتى أن الصليبيين الذين استمعوا لحديث الأسرى جرت دموعهم وكأنها سواقي الأنهار (٢) , بينما لم تذكر المصادر الشرقية شيء من هذا القبيل أبداً , ولا يوجد لهذه المبالغة سوى تفسير واحد فمن المحتمل أن أولئك الأسرى أرادوا استعطاف لويس التاسع وحثه على الإسراع بإخراج أهلهم وذويهم من الأسرى الذين تركوهم وراءهم في السجون المصرية , وقد شجعهم على ذلك تحسن العلاقة الصليبية _ المملوكية , وبشكل خاص بعد قدوم سفارة مصرية إلى عكا .

لكن يلاحظ أن المماليك عاملوا الأسرى على أنهم بشر , بينما كان لويس التاسع في الأُمس يهدد الصالح نجم الدين أيوب , ويتوعد بأن يسوق الناس أمامه كالبحر , فمهما عانى أولئك الأسرى لن يعانون أكثر مما عاناه المسلمين على أيدي الطغاة الصليبيين , ومن يُقلب صفحات الحروب الصليبية لا يتأكد من قسوة الصليبيين فحسب بل يتأكد من انعدام الرحمة من قلوبهم تجاه المسلمين (٣) .

لم يرض لويس التاسع بذلك العدد القليل من الأسرى , وبخاصة بعد أن وصلت سفارة مملوكية لأن هذا يعني بأن المماليك هم بأُمس الحاجة إلى لويس التاسع حيث طلبت السفارة منه إنشاء تحالف مملوكي _ صليبي ضد بني أيوب في بلاد الشام , فاغتنم لويس التاسع الخلاف الأيوبي - المملوكي , وأملى شروطه على السفارة المملوكية , فأكد لها إذا ما أراد المماليك التحالف معه يتوجب عليهم إطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين , والتنازل عن المبلغ المتبق من الفدية على لويس التاسع (٤) .

عادت السفارة المملوكية إلى مصر , وبرفقتها جان دي فالنسين , وعلى ما يبدو أن السفارة

-
- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٣ ؛ يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٥٩ .
(٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٦-١٩٤٧ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٣ .
(٣) المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٣٣٤ .
(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٣-١٧٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩١ ؛ زيادة : ص ٢٤٨ .

الصليبية انتظرت طويلاً في مصر نتيجة للاضطرابات التي مرت بها مصر عشية قدوم جان دي فالنسين إليها
(١) .

ولا بد من الوقوف على أوضاع مصر لمعرفة الظروف التي مرت بها , ومدى تأثيرها على العلاقة المملوكية _ الصليبية , لقد واجه المعز أيك معارضة من قبل العربان في الصعيد المصري , فاضطر لإلقاء القبض على أمرائهم لإنهاء تمردهم (٢) , كما حاول السلطان المملوكي إشغال المصريين بنقل رفاة الصالح نجم الدين أيوب من جزيرة الروضة إلى الصالحية في القاهرة , وذلك في شهر رجب سنة ٦٤٨هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٠ م حيث أقيم العزاء وحلق المماليك رؤوسهم دليلاً على حزنهم العميق على سيدهم الراحل " وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر , وأقيمت عليه المآتم بالدفوف " (٣) , ربما استهدف المعز أيك من ذلك إظهار محبته للسلطان الراحل لعله يكسب المصريين , ويهدئ من روعهم وغضبهم تجاه انتقال السلطة من أيدي الأيوبيين إلى المماليك (٤) , كما أراد المعز أيك كسب الشعب المصري , وبخاصة أمام التهديد الأيوبي للمماليك في بلاد الشام (٥) , فقد خشي من هجوم مفاجئ على مصر من قبل الأيوبيين أو الصليبيين وربما الاثنين معاً , فاقترح الأمراء البحرية عليه هدم دمياط , لأن الصليبيين قد قصدوها أكثر من مرة فضلاً عن موقعها الحصين , فإذا ما استولى عليها الصليبيين قد تكون معقلاً لتهديد مصر برؤمتها , وبالفعل أخذ المعز أيك برأيهم , وأرسل الصناع والحجارين إلى دمياط " فأزيلت أسوارها ونُحيت آثارها , ولم يبق منها سوى الجامع " (٦) , وبنوا مدينة في الجنوب من دمياط بحيث أبعادوها عن الشاطئ , سموها المنشية ,

-
- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٤ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٧٤ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p500-502 .
(٢) المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٦ ؛ ابن إياس : ج ١ , ص ٢٨٩ .

(٣) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٤٤ .

(٤) العيني : الموسوعة , ج ٦٠٦ , ص ٦٠٦ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٥ .

(٥) ابن كثير : ج ٧ , ص ٣٠٨-٣٠٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٦-٧ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٤١٩-٤٢٠ .

(٦) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٦ .

وقد استقر أبناء دمياط فيها (١) , وكل هذا أدى إلى تأخر جان دي فالنسين في مصر .

وعلى هذا أصبح لويس التاسع سيد الموقف في ظل الحرب التي اشتعلت نيرانها بين الأيوبيين والمماليك , فنجح في تأجيج نار العداء بينهما , وأخذ يتوعد المماليك , فإما أن يرضخوا لمطالبه , وإما أنه آتٍ على رأس جيشٍ صليبي . أيوبي لتدمير مصر , مما أخاف المماليك فما لبثوا أن استجابوا لمطالبه , وأطلقوا سراح دفعة من الأسرى الصليبيين دون أن يستلموا ليرة واحدة من الفدية التي تعهد لويس التاسع بدفعها , ولم يؤد هذا التواطؤ مع لويس التاسع لكسب صداقته بل انعكس سلباً على المماليك حيث أخذ يطالبهم بالمزيد من التنازلات , ولم يكن يتجرأ على التهديد والوعيد لولا الاضطرابات الداخلية التي عاشتها مصر , فضلاً عن التهديد الأيوبي لها (٢) .

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٤٥-١٤٦ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام , ج ٢٠ , ص ٦٢ ؛ الدواداري : ج ٨ , ص ١٥ ؛ الحريري : الإعلام والتبيين , ص ١٠١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٢-١٧٩ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١١٩٧-١٢٠٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٧-١٩٥١ ؛

Setton : op . cit , volume 2 , p566-567 .

٤- معركة العباسية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م .

راح الناصر يوسف الثاني ينتظر عبثاً موافقة لويس التاسع لعله يستجيب لطلبه في إنشاء حلف أيوبي صليبي , وقد طال انتظاره , ولم يخف عنه التطور الذي طرأ على العلاقة المملوكية _ الصليبية , فخشي من مغبة الأمر , وأراد تدمير تلك العلاقة في مهدها قبل أن تتطور , وتشكل خطراً على الأيوبيين في بلاد الشام (١) , وبخاصة بعد أن أخذوا بالتمادي حيث هاجم أقطاي غزة في شهر رجب سنة ٦٤٨هـ/شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٠م , وهزم القوات الأيوبية التابعة للناصر يوسف الثاني (٢) .

نظراً لإخفاق المحاولة في إنشاء تحالف أيوبي مع لويس التاسع , وهزيمة الأيوبيين في غزة قرر الناصر يوسف الثاني مهاجمة مصر , وقد شجعه على ذلك قائد جيشه شمس الدين لؤلؤ الذي " كان يستهزئ بالعساكر المصرية ويقول : أخذها بمائتي قناع " (٣) , كما شجعه أيضاً الكتب التي وصلتته من المصريين لتسليمه مصر , ولكنه لم يدرك بأن تلك الكتب التي كانت تأتي " من الأصاغر فيظنها من الأعيان " (٤) , فحشد الناصر يوسف الثاني جيشاً من الملوك الأيوبيين في بلاد الشام (٥) , وانضم إليه مماليكه الناصرية , وممالك والده الذين عُرفوا بالعززية , ثم انطلق الجيش الأيوبي قاصداً مصر (٦) .

وصلت أنباء المسير الأيوبي نحو مصر إلى الممالك , فأخذ المعز أيبك بالاستعداد لمواجهة الموقف

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٤-١٧٣ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٨٣-١٢٨٤ ؛

Edde : op . cit , p151-153 .

(٢) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٤٣ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٦ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية , ص ٢٩ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p498-499 .

(٣) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٨ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٦٠ .

(٥) ملوك بني أيوب الذين انضموا للناصر يوسف الثاني في معركة العباسية هم : الملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم صاحب حمص (٦٤٦-٦٦٢هـ/١٢٤٨-١٢٦٣م) , والمعظم توران شاه بن صلاح الدين وأخوه نصرة الدين الذي توفي بدمشق سنة ٦٦١هـ/١٢٧١م , والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل الأيوبي , والملك الأحمدي تقي الدين عباس بن العادل , والأحمدي حسن والظاهر شادي ابنا الناصر داود بن المعظم عيسى , وغيرهم من الملوك . المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٦ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٩٠ ؛ ابن سبط : ج ١ , ص ٣٥٨ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٤٦ .

(٦) سبط ابن الجوزي : ج ٨ , ص ٧٨٠-٧٨١ ؛ ابن واصل : ج ٦ , ص ١٥٥-١٥٦ .

وبدأ بإخراج المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك ابنا الصالح عماد الدين إسماعيل من السجن , وقد كانا في السجن منذ عهد الصالح نجم الدين أيوب , وبلغ المعز أيبك في إكرامهما , وربما استهدف من ذلك تهدئة المعارضة الأيوبية في مصر , ومن المحتمل أنه أراد بث الخلاف بين الناصر يوسف الثاني والصالح إسماعيل لأن إخراج ولدي الصالح إسماعيل من السجن في ذلك الوقت بالذات أمر مثير للاستغراب , فهذا يعني بأن الصالح إسماعيل الذي سار إلى جانب الناصر يوسف الثاني ربما يكون على تواصل مع السلطان المملوكي وينضم إليه إذا ما بدأت المعركة (١) , كما أن المعز أيبك أثار دعاية مفادها بأنه قد تصالح مع الملك المغيـث عمر صاحب الكرك , علماً بأن صاحب الكرك التزم الحياد , ومن المحتمل أنه أراد إثارة مخاوف ملك دمشق من هجوم مفاجئ على جيشه من قبل صاحب الكرك , وهنا لا يتجرأ الناصر يوسف الثاني على متابعة مسيره نحو مصر (٢) ولكن تلك المناورات لم تكن مجدية حيث وصل الجيش الأيوبي إلى منطقة تدعى الكراع قريباً من العباسية (٣) , وقد عسكر فيها , بينما عسكر المماليك أمام الجيش الأيوبي في منطقة تسمى سموط , وأصبح الجيشان وجهاً لوجه (٤) .

انتظم كل من الجيشين على شكل ميمنة وقلب وميسرة (٥) وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس في العاشر من ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/ الثاني من شباط عام ١٢٥١م , اشتبك الجيشان (٦) , ثم ما لبث الجيش المملوكي أن تراجع إلى العباسية , بينما صمد المعز أيبك مع جماعة من البحرية

(١) أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٩١ ؛ ابن خلدون : ج ٥ , ص ٤١٩ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٦٩ .

(٢) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٥٨ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٧ .

(٣) العباسية : قرية مصرية تقع ما بين بلبس والصالحية , وسميت العباسية نسبة إلى العباسية ابنة أحمد ابن طولون حيث خرجت لذلك المكان لوداع ابنة أخيها قطر الندى بنت خمارويه التي زُفت عروساً إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله , وبقيت العباسية منتزه لملوك مصر , ومنهم الكامل محمد الأيوبي الذي كان يقصدها لصيد السمك والطيور , وقد أنشأ الظاهر بيبرس السلطان المملوكي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م على وادي العباسية قرية الظاهرية , وبني في وسطها جامعاً . المقرئ : أحمد : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار , تح : أحمد سيد

, دار الفرقان , لندن , ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م , مج ١ , ص ٦٢٨-٦٢٩ ؛ أبو الفداء , إسماعيل : تقويم البلدان , دار الطباعة السلطانية , باريس , ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م , ص ١٠٨ .

(٤) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٨ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٧ .

(٥) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٥٩ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٨ .

(٦) يُنظر المصور رقم (٨) , ص ٣٠٧ .

" لا يزيدون على سبعين فارساً " (١) , وتابع الجيش الأيوبي فلول المماليك إلى العباسية , وضربوا دهليزاً للناصر يوسف الثاني , بينما بقي الناصر في مكانه تحت السناجق السلطانية , وإلى جانبه المماليك العزيزية (مماليك الملك العزيز صاحب حلب والد الناصر يوسف الثاني) , وهنا أراد السلطان المملوكي أن يبحث عن مكان آمن يحتبئ فيه بعد هزيمة جيشه , ولا سيما بعد أن راح خطباء المنابر في بعض مساجد مصر يخطبون للناصر يوسف الثاني , فظنَّ الجميع بأنه لن تقوم قائمة للمماليك بعد تلك الهزيمة , وفي تلك اللحظات الحاسمة غدرت المماليك العزيزية بالناصر يوسف الثاني , ولم ترض المماليك العزيزية بهزيمة أبناء جلدتها من المماليك البحرية , فهاجمت سيدها الناصر يوسف الثاني , ونهبت أمواله , ثم انضمت للسلطان المملوكي , وأضاف ابن واصل إلى أن المماليك الناصرية أصحاب الناصر يوسف الثاني غدروا به وساندوا المعز أيك , وحملت على الناصر يوسف الثاني وأعيان الأمراء الذين معه حملة رجل واحد وأسر أيك معظم الأمراء الأيوبيين , بينما ولى ملك دمشق هارباً ميمماً وجهه نحو بلاد الشام (٢) .

لا بد من العودة إلى الجيش الأيوبي المنتصر الذي وصل العباسية , فقد انشغل الأمير جمال الدين ابن يغمور أحد قادته بنصب دهليز للناصر يوسف وباتوا ينتظرون قدومه , ولكنهم صُعقوا عندما علموا بأنه هُزم أمام قوات المعز أيك , وفرَّ هارباً إلى بلاد الشام , مما أوقعهم في حيرة من أمرهم , فإذا هاجموا القاهرة قد لا يستطيعوا دخولها مع العلم لو أنهم تابعوا مسيرهم إليها لامتلكوها حيث ثارت القاهرة على المماليك , وأخذت تحتف باسم ملك دمشق " الملك الناصر يا منصور " (٣) , وإذا ما أرادوا العودة إلى بلاد الشام , فإن قوات أيك خلفهم , وفي النهاية أجمعوا على العودة إلى بلاد الشام , وما إن أرخى الليل سدوله حتى شدوا رحالهم , وهرعوا نحو بلاد الشام حيث التقوا مع الناصر يوسف الثاني في غزة , وعادوا من حيث أتوا يجرون ذيول الخيبة , بينما دخل السلطان المملوكي القاهرة في صبيحة يوم السبت ١٢ ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ / ٤ شباط ١٢٥١م , وبفرقتة المماليك البحرية والعزيزية ,

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٥٩ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ج ٢ , ص ٧٨٠-٧٨١ ؛ ابن واصل : ج ٦ , ص ١٥٩-١٦١ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٧-٤٦٩ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٦٩-٢٧٠ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٥٨-٣٦٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٦-٨ ؛ أبو شامة : الموسوعة , ج ٢٠ , ص ٣٦٧ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٨-٦١٠ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٤٧-٣٤٨ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٧٠ .

وأُحيط بموكب مهيب , وأُستقبل استقبال الأبطال , وأمام ذلك الحشد قتل بعض الملوك الأيوبيين الذين وقعوا في الأسر , كما قتل شمس الدين لؤلؤ أحد أهم قادة الجيش لدى الناصر يوسف الثاني , ثم لاحق العناصر المناوئة له في مصر (١) .

أسفرت معركة العباسية عن النتائج التالية :

أ - أكدت تلك المعركة ضعف الخبرة القتالية لدى الناصر يوسف الثاني , فلم يَجِدْ في المسير خلف جيوشه التي وصلت العباسية بينما بقي قابلاً في كراع , فحوّل النصر إلى هزيمة .

ب - انتصار المماليك , ومقتل معظم الملوك الأيوبيين الذين اشتركوا في المعركة , التي شكلت منعطفاً تاريخياً , ونقطة تحول حاسمة ثبتت أقدام المماليك في مصر , ولم يكتفوا بذلك بل استولى أقطاي على غزة (٢) , " والساحل ونابلس إلى نهر الشريعة " (٣) .

د - إن المستفيد الأكبر في هذه الحرب هو لويس التاسع الذي راقب الأحداث عن كثب , كذلك مؤرخو الغرب آنذاك الذين رصدوا الأحداث بدقة , ولم يقم لويس التاسع نفسه بتلك الحرب بل انشغل بتحسين مدينة قيسارية , وكان على ثقة بأن كل من الأيوبيين والمماليك لا بد أن يخطبوا وده بعد أن أنهك الطرفان فضلاً عن الخسائر الكبيرة التي حلت بهم في الأرواح والأموال (٤) .

إثر دخول المعز أيلك إلى القاهرة لم يتساهل مع المتواطئين من الأيوبيين , فأعدم كل من كان يشك بميله للأيوبيين من أمراء مصر (٥) , بينما لم يستطع ضبط المماليك البحرية الذين بالغوا في الفساد والنهب , ربما استغلوا حالة الفوضى والحرب التي مرت بها مصر آنذاك (٦) ,

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٦٣-١٦٥ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٩-٦١١ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٥٩-٣٦٠ ؛ ابن الجزري : ص ٢٢٥-٢٢٦ ؛ ابن العميد : ص ٤٠-٤١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥١-

(٢) ابن واصل : ص١٥٩-١٦٧ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٨-٦١١ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٧-٣٤٩ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٤ . نهر الشريعة : هو الجزء الجنوبي من نهر الأردن والممتد من بحيرة طبرية إلى البحر الميت . المقرئزي : السلوك ، ج١ ، حاشية ص٤٧٤ .

(٤) جوفانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٧٤-١٩٧ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٥٦ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، الموسوعة ، ج٣ ، ص٤١٠ ؛

Smith : op . cit , p186 .

(٥) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦١١ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٠٠ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٨ .

(٦) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧١ ؛ ابن العميد : ص٤١ .

ثم أفرج المعز أيك عن ثلاثة آلاف مقاتل من أسرى معركة العباسية وأرسلهم إلى دمشق ، ولم يستبق لديه سوى أبناء الأمراء كوسيلة ضغط على الأيوبيين في بلاد الشام ، ولاسيما بعد أن أدرك بأن أولئك المقاتلين لا ذنب لهم ، وكانوا مجبرين على تطبيق أوامر سادتهم من ملوك البيت الأيوبي (١) .

وعلى هذا حُيِّلَ للعيان بأن الجيش الأيوبي أوشك أن ينهي الوجود المملوكي وإلى الأبد ، ولكن معركة العباسية كانت إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ ، لأنها مهدت السبيل لقيام الدولة المملوكية التي استمرت حوالي قرنين ونصف من الزمن ، بينما وَلَّى الجيش الأيوبي هارباً ، وفي مقدمة المنهزمين الناصر يوسف الثاني قائد الحشد الأيوبي ، ولم ينته النزاع الأيوبي المملوكي لأن الأيوبيين أرادوا الثأر للهزيمة التي حلت بهم بينما شعر المعز أيك بضرورة توخي الحذر تجاه الأيوبيين (٢) ، علماً أن المستفيد الأكبر من هذه الحرب هو لويس التاسع الذي أتته فرصة جديدة تخدم الوجود الصليبي في بلاد الشام (٣) .

- (١) المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٤٧١ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦١١ .
- (٢) أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٩١-٢٩٣ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ١٩٨-٢٠٢ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٥٨-٣٦١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٦-٩ ؛ ابن العميد : ص ٤٠-٤١ ؛
- Irwin : op . cit , p28-30 .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٤-١٩٢ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٥٦ ؛ ابن العبري : مختصر الدول , ص ٢٦٠ ؛
- Stevenson : op . cit , p329-330 .

٥- اتفاقية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م بين لويس التاسع والمعز أيك .

انعكس النصر الذي حققه المماليك على الأيوبيين في معركة العباسية انعكس بشكل ايجابي على مملكة عكا الثانية حيث اتبع المماليك سياسة التسامح تجاه الصليبيين , وهنا أراد لويس التاسع أن يحقق بطريقة دبلوماسية ما عجز عن تحقيقه بالقوة العسكرية , فعمل على إذكاء نار الفتنة بين الأيوبيين والمماليك , وتوصل في نهاية المطاف لعقد اتفاق مع المماليك كاد أن يحقق معظم رغباته في المشرق العربي الإسلامي . (١) .

بقيت الأوضاع متوترة بين الأيوبيين والمماليك إثر معركة العباسية , أما السفارة التي أرسلها لويس التاسع بقيادة جان دي فالنسين إلى مصر فقد بقيت تنتظر انتهاء الصراع المملوكي - الأيوبي في معركة العباسية , وترقب الأحداث لعلها تحصل على رد حاسم , وتُحقق الأهداف التي جاءت من أجلها , وبالفعل ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى عقد زعماء المماليك البحرية اجتماعاً مالوا فيه إلى مخالفة لويس التاسع , فأرسلوا مع جان دي فالنسين رسالة إلى لويس التاسع تضمنت وعوداً مغرية له إن لم يحالف دمشق حيث وعده بتسليمه بيت المقدس (٢) , وإطلاق سراح ما تبقى من الأسرى الصليبيين لديهم , والتنازل عن المبلغ المتبقي من الفدية (٣) , وتعبيراً عن حسن نية المعز أيك تجاه الصليبيين أطلق سراح دفعة ثانية من الأسرى الصليبيين بلغوا حوالي " التسعين من الفرسان الصليبيين مع ألفين ومائتين من الرجال والنساء " (٤) , كما أرسل المعز إلى لويس التاسع بعض الهدايا الثمينة مثل التحف البلورية والعطور إضافة لفيل وحمار وحشي (٥) , ويلاحظ بأن السلطان المملوكي أبدى اهتماماً زائداً بلويس التاسع أملاً في إرضائه , فلماذا أذل نفسه إلى هذه الدرجة ؟

- (١) ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣٠٩-٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٩-٦٢٩ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٥٦-١٣٠٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٠-١٩٥٤ .
- (٢) ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٢٩ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .

- (٣) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٠٨-١٣٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣-١٩٥٤ ؛
- Brentano : le moyen age la croisade , p298-299 .

- (٤) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥١ .
- (٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥١ ؛ زيادة : ص ٢٥٠ .

إن كان المعز أيلك يخشى من بني أيوب فقد أنزل بهم هزيمة نكراء في العباسية , ولكن ربما توقع هجوم آخر من قبلهم , وخاف أن يكون ذلك الهجوم بالاشتراك مع لويس التاسع , ومن المحتمل أنه رأى في جذب لويس التاسع ضرب القوتين الصليبية بالأيوبيه , وإشغال الطرفين عن دولته الفتية ريثما يشتد ساعدها .

عاد جَانْ دي فَاَلْنَسِينُ إلى لويس التاسع , ومعه الأسرى الذين أطلق سراحهم , وقد حمل عروضاً مغرية إلى سيده (١) , وفي الوقت نفسه أرسل الناصر يوسف الثاني سفارة إلى لويس التاسع سنة ٦٥٠هـ/١٢٥١م حيث كان الثاني في قيسارية , وقد عرض عليه إنشاء تحالف ضد المماليك في مصر , فلم يعط لويس التاسع السفارة رداً حاسماً , فعادت من حيث أتت (٢) , وهذا يدل على أن لويس التاسع رفض مخالفة الأيوبيين بينما رغب في مخالفة المماليك , وذلك لأسباب عديدة , وهي :

أ - أراد لويس التاسع التخلص من دفع الفدية المتبقية عليه , وإطلاق سراح الأسرى الصليبيين فضلاً عن الحصول على بيت المقدس .

ب - لم يرغب لويس التاسع في الوقوف بجانب الطرف الأيوبي الضعيف الذي لم يصمد أمام المماليك , ويتنظر عبثاً مساعدته , وقد كان بأمس الحاجة إلى حليف قوي يستفيد من قوته كالمماليك .

ج - أراد لويس التاسع مخالفة المماليك للوقوف في وجه الأيوبيين , واستغلال الخلاف بينهما لصالح المشروع الصليبي (٣) .

عندما عاد جَانْ دي فَاَلْنَسِينُ من مصر إلى قيسارية رافقته سفارة مصرية اجتمعت مع لويس التاسع في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ/شهر أيار عام ١٢٥٢م , وتوصل الطرفان إلى عقد معاهدة نصت على البنود التالية : (٤)

(١) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥١-١٩٥٣ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٧٦ .

- (٢) باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٨٨٤ .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣-١٩٥٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٠٨-١٣٠٩ .
- (٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣-١٩٥٤ ؛ يوسف : العنوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٧٧ ؛
- Setton : op . cit , volume 2 , p566-567 .

- ١ - تسليم بيت المقدس للصليبيين , وإحياء أجداد مملكة بيت المقدس الأولى (١) .
- ٢ - التعهد بقيام حملة مشتركة مملوكية - صليبية ضد الأيوبيين في بلاد الشام حيث تعهد لويس التاسع بإعداد قوة عسكرية والانتظار في يافا , بينما تعهدت السفارة المملوكية بتشكيل جيش والتمركز في غزة , ثم التقاء الطرفين في نقطة معينة من أجل مهاجمة بلاد الشام (٢) .
- ٣ - اقتسام الصليبيين والمماليك لبلاد الشام على أن تكون بلاد الشام للمماليك , بينما يأخذ الصليبيين بيت لحم والجليل ونابلس والخليل والمنطقة الواقعة غرب نهر الأردن (٣) باستثناء " غزة وجباليا وجنين الكبيرة والداروم (دير البلح) " (٤) .
- ٤ - إخلاء سبيل جميع الأسرى الصليبيين الموجودين في مصر منذ معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م حتى رحيل الحملة الصليبية عن دمياط سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م (٥) .
- ٥ - تنازل المماليك عن الفدية المتبقية لهم في ذمة لويس التاسع , والتي بقي منها مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية . (٦)
- ٦ - إعطاء الحرية للصليبيين الذين اعتنقوا الإسلام إذا ما أرادوا الارتداد إلى المسيحية أو البقاء على الدين الإسلامي , (٧) , أما الأطفال الصليبيين الذين اعتنقوا الإسلام فلا يخبرون , إنما يتوجب على المماليك إعادتهم للصليبيين (٨) .

-
- (١) ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٢٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛
- Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .
- (٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٠ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية , الموسوعة , ج ٣ , ص ٤١٠ ؛
- Villeneuve : op . cit , p202-203 .
- (٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٨ ؛
- Edde : op . cit , p153 .
- (٤) باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤ .

- (٥) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٣٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٤ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان , ص٢٩٧ .
Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .
- (٦) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٧٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٣٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٤ ؛ رنسيما : ج٣ , ص٤٧٦ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .
- (٧) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٤ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .
- (٨) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٧٣-١٧٤ ؛
Stevenson : op . cit , p230 .

٧ - إرسال وفد صليبي إلى مصر للتفتيش عن الأسرى الصليبيين الذين لم تعترف السلطنة المملوكية بوجودهم لديها , وإخراجهم من الأسر دون قيدٍ أو شرط (١) .

٨ - إنشاء علاقة صداقة بين لويس التاسع و المعز أيك (٢) , وإعلان الحرب على الناصر يوسف الثاني " على أساس أنه عدوهما المشترك والمضي بالعمل حتى تدميره " (٣) .

٩ - مدة المعاهدة خمسة عشر عاماً تبدأ منذ التوقيع عليها سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م (٤) .

وما إن تم الاتفاق على بنود المعاهدة حتى أقسم لويس التاسع وأعضاء السفارة المصرية على احترام بنودها , وعدم الإخلال بها (٥) .

أشار متى باريس إلى أن المعز أيك التقى مع لويس التاسع , وعقدا اجتماعاً لم يحدد مكانه , وقد حضر مترجمين لنقل وجهات نظر كل طرف إلى الآخر , وجرت محاورة بينهما مفادها أن لويس التاسع أظهر الحزن والأسى على ترك أمه بلانشيه في فرنسا , وهو بعيداً عنها في الشرق , ولم يحقق أهدافه التي أتى من أجلها , فاستفسر المعز أيك عن أهم هدف لديه في المشرق العربي الإسلامي , فلم يعط جواباً صريحاً , وهنا أشار المعز أيك بأن الطمع في السيطرة على بلاد العرب المسلمين هو الذي قاده إلى الحالة المأساوية ورغبته في القضاء على المسلمين , فرد لويس التاسع أن غايته ليست القضاء على المسلمين فحسب بل والأهم من ذلك إزهاق أرواحهم , وهذا يدل على الحقد الأوربي , وبخاصة من قبل رجال اللاهوت آنذاك , صحيح أن هذه وجهة نظر متى باريس لكنه في الحقيقة يمثل وجهة نظر أوربا أو على الأقل فهو يمثل رجال الدين في أوربا , بينما نوه المعز أيك له بأن قتلى المسلمين في الجنة وقتلاهم في النار , لأنهم شهداء في سبيل الدفاع عن أوطانهم وأموالهم وأعراضهم , ولا توجد مشكلة بالنسبة لهم فليخسروا الحياة الدنيا في سبيل الحصول على السعادة الأبدية , واستمرت المناقشات الدينية , فانهمرت عينا السلطان المملوكي بالدموع , ويتوقع متى باريس بأن ذلك دليل على ميّال المعز أيك

- (١) باريس : الموسوعة , ج٩ , ص١٣٤٨ ؛ Stevenson : op . cit , p330 .
- (٢) باريس : الموسوعة , ج٩ , ص١٣٠٩-١٣١٠ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .
- (٣) باريس : الموسوعة , ج٩ , ص١٣١٠ .
- (٤) باريس : الموسوعة , ج٩ , ص١٣٠٨-١٣٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على مصر , ص٢٧٨ .
- (٥) جوفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص١٧٩ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

لاعتناق المسيحية (١) ولكن شيء من هذا لم يحدث فيما بعد .

وفي نهاية الاجتماع أكد لويس التاسع للمعز " بأنه لن يعود إلى فرنسا , بل سيظل يقاتل في الأرض المقدسة بقية حياته لِئَلَّا يُرواح المسلمين " (٢) !

وفي الحقيقة يجب التحفظ تجاه هذه الرواية لأن المصادر العربية لم تتطرق لها , كما أن جوفيل مستشار لويس التاسع لم يتطرق لها , ولو أن المقابلة تمت فعلاً لَدَوْنَ جوفيل ذلك الحدث المهم , وهذا يؤدي للشك في صحة الرواية (٣) .

وعلى هذا يلاحظ بأن المقدسات أصبحت وسيلة لتحقيق الأمنيات الرخيصة دون مراعاة لمشاعر المسلمين , ولم يكتف المعز أيك والناصر يوسف الثاني بذلك بل راح كلٌ منهما يسعى لكسب صداقة لويس التاسع , وكأنَّ الطرف الذي يقف لجانبه لويس التاسع لا بد أنه منتصر لا محالة (٤) , وأخيراً حظي السلطان المملوكي بصداقة لويس التاسع , وتوصل الطرفان لعقد معاهدة استسلامية انضمامية جاءت كل بنودها لصالح الصليبيين , وتخيل السلطان المملوكي بأن هناك بند واحد لصالحه ألا وهو تشكيل قوة مشتركة مملوكية - صليبية لضرب الأيوبيين , واقتسام بلاد الشام من قبل المماليك والصليبيين , وقد تراءى إلى لويس التاسع أن تلك المعاهدة هي السبيل لإحياء أجداد مملكة بيت المقدس الأولى , وإبقاء بلاد الشام ومصر في حالة من التفرقة أملاً في اقتسام بلاد الشام مع المماليك ثم يتفرغ لضرب المماليك , ويصبح لويس التاسع سيداً على المشرق العربي الإسلامي بلا منازع (٥) .

(١) باريس : الموسوعة , ج٩ , ص١٣١١-١٣١٢ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص ١٣١٣ .

(٣) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , حاشية ص ١٣١٣ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٧٩-١٨٠ .

(٤) ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٢٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٣-١٩٥٤ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٠ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤ ؛

Stevenson : op . cit , p330 ; Edde : op . cit , p153 .

٦ - المحاولة الصليبية - المملوكية لشن هجوم على الأيوبيين .

أظهر لويس التاسع رغبةً كبيرةً في تشكيل حلف صليبي - مملوكي مستغلاً حداثة عهد السلطنة المملوكية التي كانت تسعى لتثبيت أقدامها في مصر , فرأى أن بإمكانه الاستفادة منها دون مقابل , وقد زرعت المعاهدة التي عقدها مع المماليك سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م في نفسه الأمل من أجل تشكيل حملة مشتركة مع المماليك لغزو بلاد الشام , والتخلص من خصومه الأيوبيين الذين أحاطوا بالمملكة اللاتينية من الجوانب كافة (١) , وقضوا مضاجع الصليبيين , فما تكاد مملكة عكا تقف على قدميها حتى تعصف بها الهجمات الأيوبية وتخرب كل ما بنوه , فوجد لويس التاسع أن الوقت قد حان للقضاء على بني أيوب قضاءً مبرماً (٢) .

ما إن عقد لويس التاسع المعاهدة مع المماليك حتى أعد جيشاً بلغ حوالي ألف ومائتي فارس منهم ثمانمائة فارس علماني وورهبان , والباقي من الفرسان التوركبلية (٣) , وتطبيقاً للمعاهدة سابقة الذكر أراد لويس التاسع التمرکز بقواته في يافا , ثم الانضمام إلى الجيش المملوكي الذي توجب عليه التمرکز في غزة من أجل تشكيل قوة واحدة لمهاجمة الأيوبيين , لذا انطلق لويس التاسع على رأس جيشه من قيسارية إلى يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ/ شهر أيار عام ١٢٥٢م , وعسكر في حقولها ريثما يصل الجيش المملوكي إلى غزة للبدء بتنفيذ الهجوم (٤) .

أعد المعز أيك جيشاً تجاوز عدده " ستة آلاف أو سبعة آلاف رجل مسلح " (٥) , وتمرکز بقواته في منطقة السائح (السانح) قريباً من العباسية , واختار المعز أيك ذلك المكان

(١) ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣٢١ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٠ . مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛ Stevenson : op . cit , p330

(٢) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٤١٩-٤٢٩ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٧٦-٢٩٣ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٨٠-٤٢٦ .

(٣) التوركبلية : هم الجند الفرنج المحليين المنحدرين من والدين يعتنقان دينين مختلفين , وعلى الأغلب الإسلام والمسيحية , وأهم الأعمال التي أُوكلت إليهم الاستطلاع كوزم أبناء المنطقة فهم أدري من غيرهم بشعابها . سميل : فن الحرب , ص ١٨١ .

(٤) باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤-١٨٨٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛

Stevenson : op . cit , p330 .

(٥) باريس : الموسوعة , ج ٥٥ , ص ١٨٨٥ .

بالقرب من بلاد الشام تحسباً لأي هجوم أيوبي مفاجئ (١) , وقد عقد السلطان المملوكي العزم على إرسال ذلك الجيش للانضمام إلى الجيش الصليبي أملاً في الخلاص من التهديد الأيوبي للمماليك (٢) , وبخاصة بعد أن شعر بأنه لا يمكن إرضائهم حيث توقع أن تعيينه للأشرف موسى الأيوبي شريكاً له في الحكم قد يُهدأ من روعهم , لكن ذلك لم يغير شيء في الأمر , فسارع لخلعه سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م ونقله من سدة العرش إلى السجن مع العلم أنه لم يكن سوى سلطاناً فخرياً (٣) .

لم يكن الناصر يوسف الثاني غافلاً عن المؤامرة الصليبية - المملوكية وربما علم بها عن طريق جواسيسه الذين وافوه بالتطورات الجارية على العلاقة الصليبية - المملوكية (٤) , وعندما أيقن بأن هناك هجوم مؤكد من قبل خصومه خشي مغبة الأمر , ووجد بأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع فأعد جيشاً كما أشار متى باريس أن قوامه " اثني عشر ألف مقاتل , وهو متوقع أن يكون هناك ثلاثة آلاف آخرين " (٥) سوف يلحقون به , بينما حدد جوانفيل عدد ذلك الجيش بأربعة آلاف مقاتل , وعشرة آلاف من البدو (٦) , ويرجح رأي جوانفيل لأنه كان متابعاً لتطورات ذلك التحالف الصليبي - المملوكي , وعقد عليه الآمال لتحقيق أهداف الحركة الصليبية , بينما بالغ متى باريس لأن خمسة عشر ألف مقاتل عدد كبير في ذلك الوقت , بينما حدد جوانفيل العدد بأربعة آلاف مقاتل نظامي , أما البقية فهم من البدو الذين انضموا إلى الناصر يوسف الثاني , ربما كانوا هم من السكان المحليين لفلسطين , كما أن متى باريس كان في أورة يستقصي الأنباء , أما جوانفيل فكان في قلب الحدث على الأغلب , وعنصراً فعالاً في الأحداث التي كانت تجري آنذاك , فيُرجح رأي جوانفيل .

(١) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦١٥ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٧٤ ؛ الغزي : ج ٣ , ص ١٣٠ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٦١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٠ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ، ص ٤٢٠ ؛ العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦١٦ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٧٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٨١ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

(٥) باريس : الموسوعة ، ج ٥٠ ، ص ١٨٨٤-١٨٨٥ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٠ ، ١٩٨ .

سلم الناصر يوسف الثاني قيادة الجيش الأيوبي إلى أستاذاره (١) الأمير سيف الدين بكتوت (٢) ، وانطلق ذلك الجيش ، ورابط على تل العجول قريباً من غزة (٣) ، واستهدف الناصر يوسف الثاني من إرسال قواته إلى تل العجول قطع الاتصال بين الحليفين لويس التاسع والسلطان المملوكي (٤).

انتظر لويس التاسع في يافا وصول القوات المملوكية إلى غزة لتنفيذ عملية الهجوم على بلاد الشام ، ولم يُضَيِّع وقته في الانتظار ، فانشغل في تحصين يافا (٥) ، ريثما يصل الجيش المملوكي ، ولكن بدلاً من أن يتابع الجيش المملوكي المسير من السائح إلى غزة فقد أمر المعز أيك بانسحاب قسم كبير منه لمواجهة ثورة العربان في صعيد مصر وذلك سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ، مما أدى لتأخر تحقيق حلم لويس التاسع في الهجوم على بلاد الشام (٦) .

وفي هذه الآونة عندما كان لويس التاسع في يافا ينتظر قدوم حليفه المعز أيك أرسل له السلطان المملوكي دفعة ثالثة من الأسرى الصليبيين ، وقد كان هؤلاء معظمهم من الأطفال الصليبيين الذين كانوا في سجون مصر حيث نال هؤلاء عطف ورعاية لويس التاسع (٧) .

تطبيقاً للمعاهدة المملوكية - الصليبية أرسل لويس التاسع وفد صليبي إلى مصر للبحث عن الأسرى الصليبيين وإخراجهم دون قيدٍ أو شرط ، وربما المقصود هنا بأن الصليبيين توقعوا أن هناك أسرى غير أولئك الذين اعترف المماليك بهم ، ووضع الصليبيون احتمال بأنه في أماكن خفية

(١) الأستاذاره : هو الشخص الذي يُكلف بالإشراف على بيوت السلطان من مطابخ وطعام وشراب ، كما يُعين الجاشنكير أي الشخص المسؤول عن الطعام وتذوقه قبل أن يتناوله الملك . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

(٢) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٦٨-١٧٤ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٧٨ ؛ العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦١٥ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٣٥٠-٣٥١ ؛

Edde : op . cit , p153 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٠ ؛ باريس : الموسوعة ، ج ٥٠ ، ص ١٨٨٤-١٨٨٥ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

(٥) ابن شداد : الأعلام الخطيرة , ص ٢٥٧ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٠-١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٨ .

(٦) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٧٩-٤٨٠ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٥ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٨٢ .

Villeneuve : op . cit , p202-209 ; Stevenson : op . cit , p330 .

قد وضعوا أسرى صليبيين لاستخدامهم في الضغط عليهم إذا اضطر الأمر , ولكن في الحقيقة كانوا سجون المنصورة , وهي معروفة لدى المماليك والصليبيين , ولم تكن مواقع السجون مخفية , وعلى الأغلب لم يعثر ذلك الوفد على أسرى من ذلك النوع بل كانت سجون واضحة للعيان مخصصة للأسرى الصليبيين , ولو أن ذلك الوفد عثر على مواقع خفية للسجناء لذكرتها المصادر , ولم تصمت عن ذلك (١) .

تحمس لويس التاسع للهجوم الصليبي - المملوكي على الأيوبيين , ولكن القوات المملوكية لم تف بوعدها , ولم تصل إلى غزة بسبب انشغال أيك بثورة العربان في الصعيد , فأخذ لويس التاسع بمطالبة حليفه بالإسراع في القدوم إلى غزة , فوعده الثاني بقدومه على رأس جيش مملوكي إلى غزة في القريب العاجل للإطاحة بالنظام الأيوبي في بلاد الشام (٢) , بينما عسكر الجيش الأيوبي على تل العجول , وهو على أهبة الاستعداد لخوض المعركة التي قدم من أجلها (٣) .

وبلاحظ للوهلة الأولى أن هناك معركة حاسمة ستقع لا محالة , وفي تلك اللحظات المصيرية تدخل رسول الخليفة العباسي نجم الدين البادرائي , نجح في التوصل في شهر صفر سنة ٦٥١هـ/شهر نيسان عام ١٢٥٣م لإصلاح الخلاف بين الناصر يوسف الثاني والمعز أيك , فكان ذلك الصلح حدثاً تاريخياً عظيماً في تاريخ المماليك حيث اعترف الناصر يوسف الثاني بالدولة المملوكية , وأصبحت بلاد الشام للأيوبيين , ومصر وجنوب غرب بلاد الشام للمماليك (٤) .

أصيب لويس التاسع بخيبة أمل بعد أن أخفقت محاولته هذه المرة في ضرب المماليك بالأيوبيين (٥) , وذلك بفضل جهود الخليفة العباسي المستعصم بالله ورسوله نجم الدين البادرائي , ولكن على

(١) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٤٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛

Stevenson : op . cit , p330 .

(٣) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٧٤ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦١٥ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٥٠-٣٥١ .

(٤) ابن كثير : ج١٧ , ص٣٢١ ؛ المقرئزي : السلوك, ص٤٧٩ ؛ ابن العميد : ص٤٢ ؛ ابن الوردي : ج٢ , ص٢٧٤
Edde : op . cit , p153 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩١-١٩٨ ؛ باريس : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٨٨٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة,
ص١٩٥٤ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p504-505 ; pernoud : op . cit , p234-235 .

الرغم من الصلح بين المسلمين (أيوبيين ومماليك), فقد التزم السلطان المملوكي بالمعاهدة التي عقدها مع
لويس التاسع , وتنازل له عن المبلغ المتبقي من الفدية , وأطلق سراح جميع الأسرى الصليبيين الموجودين
لديه (١) .

أما الحصول على بيت المقدس مجرد حلم أمام لويس التاسع , وهنا لابد من الإشارة إلى أن الخلاف
الأيوبي - المملوكي قد بث الأمل في نفس لويس التاسع عندما راح كلٌّ منهما يحاول استرضاءه خوفاً من
انضمامه للطرف الآخر , فحقق الكثير من المكاسب , ومن أهمها إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ,
وشجعتهم تلك المكاسب على التماهي , فحاول الإيقاع بين المسلمين لعله يتخلص من المضايقات الأيوبية
للصليبيين , ثم يقتسم بلاد الشام مع المماليك , وتصبح بيت المقدس للصليبيين , وبعد ذلك يتفرغ لويس
التاسع لضرب المماليك كي يصبح الزعيم الوحيد في المشرق العربي الإسلامي , وتغدو بلاد الشام ومصر
مستعمرة صليبية فرنجية , ولكن لم تكن آماله مطابقة للأحداث الجارية .

ومهما يكن من أمر فإن هذه المعاهدة جعلت لويس التاسع أكثر تفاؤلاً , فظن أن نهاية الأيوبيين
قد اقتربت فيما إذا عاضده المماليك , ويكون لويس التاسع قد نجح في تفرقة المسلمين , ولكن مع تدخل
ال خليفة العباسي انطفأت نار الفتنة , وأمنَ المماليك والأيوبيين بعضهم بعضاً , فانقلبت الموازين , ولم يعد
هناك استجداء للويس التاسع من قبل المسلمين بل أعلنوا الحرب عليه , مما أثار غضبه بعد أن انتظر في يافا
قراءة عام , وخرج خاسراً من تلك الجولة , فما كان منه إلا أن أعلنها حرباً شعواء على المعز أيبك حليفه
بالأمس (٢) .

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣١١ ، ١٣٤٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٨١-١٨٢ ؛ زيادة : ص٢٥١-٢٥٢ .

(٢) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٢٩ ؛ جوافيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٩٠-١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٤-١٩٥٥ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨ ؛ Stevenson : op . cit , p330-331 ; Edde : op . cit , p153.

٧- اجتماع أرسوف الصليبي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م .

بنى لويس التاسع آمالاً كبيرة على حليفه المعز أيك ، وقد اتفقا على شن هجوم مشترك ، وتوجيه ضربة قاصمة للأيوبيين ، ولكن مع تدخل الخليفة العباسي ، ومصالحة الأيوبيين والمماليك ماتت خطة لويس التاسع في مهدها ، وهرع الجيش الأيوبي يدك الحصون الصليبية ، فحمل لويس التاسع المسؤولية كاملةً للمماليك (١) ، ورأى ضرورة إرسال حملة تأديبية لحلفائه المماليك لأنهم لم يفوا بوعدهم له ، ولا يمكن تأديبهم إلا بتوجيه ضربة لهم في الصميم من خلال مهاجمة مدينة نابلس ، وتهديد بيت المقدس ، وقد اختار نابلس لأنها تشكل الخط الدفاعي الأول لبيت المقدس فضلاً عن كونها عاصمة الإقليم الجبلي الفلسطيني ، وإذا ما استولى عليها أصبحت السيطرة على بيت المقدس أمراً مضموناً (٢) ، وهنا لابد من التنويه إلى أن نابلس كانت محط خلاف بين الأيوبيين والمماليك حيث استولى عليها الناصر يوسف الثاني إثر مقتل توران شاه (٣) ، ثم استولى عليها فارس الدين أقطاي ، وأصبحت تحت سيادة المماليك (٤) ، واستمرت المناوشات بين الطرفين حول نابلس حتى أقر الخليفة العباسي في المعاهدة التي عقدها بينهما بأن تكون نابلس جزءاً من الدولة المملوكية (٥) .

أمضى لويس التاسع في يافا قرابة عام ، وبعد أن فرغ من تقوية تحصيناتها انطلق نحو صيدا ، ومراً في طريقه على أرسوف ، وحط رحاله بالقرب من قلعتها ، وفي شهر جمادى الأول سنة ٦٥١هـ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م عقد اجتماعاً في أرسوف استهدف منه عرض مشروع الحملة التي كان ينوي القيام بها ، وافتتحه مقترحاً على الحضور مهاجمة مدينة نابلس ، فحبذ الحاضرون الفكرة بالإجماع ، ولكن فرسان الداوية والاستتارية وبارونات الكيان الصليبي

(١) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤-١٨٨٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٤-١٩٥٦ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩١-٢٠٥ ؛ البيشاوي , سعيد : نابلس , في عصر الحروب الصليبية , ط١ , عمان , ١٤١١هـ / ١٩٩١م , ص١٦٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي : ق٢ ج٨ , ص٧٨٥ ؛ ابن شداد : الأعلام الخطيرة , ص٢٤٧ .

(٤) المقريري : السلوك , ج١ , ص٤٧٤ ؛ ابن شداد : الأعلام الخطيرة , ص٤٧٤ .

(٥) ابن خلدون : ج٥ , ص٤١٩ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ , ص٣٥١ .

اشتروطوا عليه ألا يتولى قيادة الجيش بنفسه , لأنه هو الأمل الوحيد للمملكة اللاتينية والغرب الأوربي في إحياء أمجاد مملكة بيت المقدس الأولى , وإذا ما أُصيب بمكروه فإن الكيان الصليبي مآله إلى الضياع , وتشبث لويس التاسع بموقفه , بينما تمسك الطرف الثاني برأيه , مما أدى لبقاء هذا المشروع مجرد فكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ (١) , وهنا لماذا استهدف لويس التاسع مهاجمة نابلس ؟ ولماذا احتج كبار رجاله أخوفاً على لويس التاسع أم أن هناك أسباباً خفية ؟

أمضى لويس التاسع بضع سنوات في الشرق يحيك المؤامرات والدسائس , فتسابق الأيوبيون والمماليك لكسب رضاه , وتوصل للاتفاق مع المماليك على إعداد حملة مشتركة ضد الأيوبيين , وكان يمكن إذا تم ذلك أن يعيش الكيان الصليبي بأمان بعيداً عن الضربات الأيوبية (٢) , ويصبح بيت المقدس بيد الصليبيين , وعندما لم يف المماليك بوعدهم قرر الانتقام منهم بعد أن تركوه ينتظرهم في يافا قرابة عام (٣) , كما أن لويس التاسع أراد الاستفادة من موقع نابلس الاستراتيجي على طريق بيت المقدس , فضلاً عن غناها بالمنتجات الزراعية (٤) .

نعم لقد أحب الصليبيون لويس التاسع , وخافوا عليه , ولكن ليست هذه المرة الأولى التي يستلم فيها قيادة حملة عسكرية , فكم من الحروب والمعارك التي خاضها منذ لحظة وصوله إلى مصر وحتى أسره , وقد كان دائماً في طليعة الجيش الصليبي , فلماذا خاف عليه الصليبيون في ذلك الوقت بالتحديد ؟ (٥) وفي حقيقة الأمر هناك أسبابٌ أخرى أدت لمعارضة البارونات للهجوم الصليبي على نابلس , وهي تخوفهم إذا ما هاجموا نابلس فإن المماليك لن يقفوا مكتوفي الأيدي , وهنا يقعون بين ناري الأيوبيين والمماليك , في الوقت الذي أعلن فيه الناصر يوسف الثاني الحرب على الصليبيين , فخاف الصليبيون من فتح جبهة ثانية هم بغنى عنها آنذاك , وتوجب عليهم مواجهة الخطر الذي شكله

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢٠٨-٢٠٩ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p507 .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٨٤-١٨٨٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٤ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩١-١٩٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية

Villeneuve : op . cit , p205-209 .

, ج ٢ , ص ١٠٩١-١٠٩٢ ؛

(٤) ابن شداد : الأعلام الخطيرة , ص ٢٩٣ ؛ البشاري : ص ١٤٨-١٤٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٦٤-٢٠٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٠-١٩٩٣ .

الناصر يوسف الثاني بشكلٍ مبدئي (١) , كما أن مهاجمة نابلس بدت أمراً متعذراً للصليبيين لأنها محاطة بالجبال الشاهقة , وهذا ما زاد في مناعتها , وربما جهل لويس التاسع معالمها الجغرافية , ويكفي الإشارة إلى أن معرفة المعالم الجغرافية سبباً أساسياً في تحقيق النصر (٢) , فجهل لويس التاسع بجغرافية مصر كان سبباً في إخفاق حملته , وفي النتيجة استطاع الصليبيون إقناع لويس التاسع بالعدول عن فكرته في الهجوم على نابلس (٣) .

دخلت العلاقة المملوكية - الصليبية إثر استيلاء لويس التاسع من حلفائه المماليك في مرحلة من الجمود حيث انشغل لويس التاسع بالهجمات الأيوبية على المواقع الصليبية (٤) بينما انشغل المعز أيك بخطر من هدد أمن واستقرار مصر , وهما ما يلي :

أ - ثورة حصن الدين ثعلب .

تذمر العربان من استلام المماليك لحكم مصر , فقاموا بحركة تمرد قادها حصن الدين ثعلب أحد زعماء العربان سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م , وقرر الاستقلال في صعيد مصر لأنه عدّ أهالي مصر أحق بالسلطة من المماليك الأرقاء , فأخذ حصن الدين بإدارة منطقة الصعيد , وشكل جيشاً لا يستهان به " بلغ عدد الفرسان إثني عشر ألف فارس , وتجاوزت عدة الرجال الإحصاء لكثرتهم " (٥) , وأرسل حصن الدين إلى الناصر يوسف الثاني للإطباق على المماليك , ولم يكن في وسع ملك دمشق الدخول في تلك المغامرة بعد هزيمته في العباسية , وإصلاح الخليفة العباسي بينه وبين المماليك (٦) .

أخذ الخطر الذي شكله حصن الدين يتنامى شيئاً فشيئاً , وتوجب على المعز أيك وضع حد لتمرّد العربان , فأعد جيشاً قوامه خمسة آلاف فارس , وأرسل على رأسه فارس الدين أقطاي الجمداري والمعز أيك الأفرم , وقد اختارهما السلطان المملوكي لعله يتخلص من زعماء البحرية وتمردهم (٧) ,

(١) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٤٠٩-١٤٢٩ ؛ البيشاوي : نابلس , ص ١٦٥-١٦٦ .

(٢) البشاري : ص ١٤٩ .

(٣) جوائفل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧٦-٢٠٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢١٠ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p507 .

(٤) جوائفل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٩٨-٢٠١ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٠٩-١٤٢٣ .

(٥) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٨٠ .

(٦) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٩-٤٨٠ ؛ العبادي ، أحمد : قيام دولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص١٣١ .

(٧) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٣٢-٤٣٣ .

وسار الجيش المملوكي نحو الصعيد سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ، والتحم الطرفان " وتبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم " (١) وانتصر الجيش المملوكي على الرغم من قلة عدته ، ويعود ذلك إلى المهارة القتالية التي امتاز بها (٢) ، وإثر هزيمة حصن الدين أخذ يطلب الأمان ، فأعطى ذلك ، وانطلت الحيلة عليه ، فقدم إلى القاهرة على رأس " ألفي فارس وستمائة راجل ، وأمر الملك المعز فنصب الأخشاب من بليس إلى القاهرة وشنق الجميع " (٣) ، أما حصن الدين فوضع في جب تحت الأرض في الإسكندرية ، وتخلص المعز أيك من خطر العربان بعد أن أنزل بهم ذلك العقاب ، فأرهبهم ومالوا إلى الهدوء رغماً عنهم ، ولم تنجح خطة السلطان المملوكي في ضرب البحرية بالعربان لأن ذلك النصر زاد في غرور أقطاي وتمرده (٤) .

ب _ تمرد فارس الدين أقطاي .

شغلت الاضطرابات الداخلية السلطان المملوكي عن الخطر الصليبي ، فلم ينته من خطر العربان حتى ظهرت عقبة جديدة تمثلت بتمرد مقدم البحرية أقطاي الذي طغى وتجبر (٥) ، ونافس المعز أيك على الحكم ، وعندما خطب ابنة المنصور محمد صاحب حماة ، طلب من المعز أن يسمح له بالإقامة مع عروسه في قلعة الجبل (قلعة القاهرة) التي كانت مقرراً للسلطان (٦) ، فسأيره السلطان ، واتفق مع فرقة المماليك التي سماها باسمه فعرفت بالمعزية على التخلص منه ، فأظهر المعز له بأن المعزية غير راضية بالاقطاعات التي منحها إياها ، وهي تنوي المسير إلى الناصر يوسف الثاني للانضمام إليه ، وطلب من أقطاي أن يصلح بينه وبين المعزية ، وبالفعل دخل أقطاي قاعة العواميد في قلعة الجبل ، وقد اختصت هذه القاعة بالحاجات المنزلية للسلطان ، فأمر أيك بإغلاق باب القلعة ، وفي تلك اللحظة هاجمه ثلاثة

(١) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٨٠ .

(٢) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٣٢ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٩ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٨٠ .

(٤) ابن خلدون : ج٥, ص٤٣٢-٤٣٣ ؛ المقرئزي : السلوك , ج١ , ص٤٨٠-٤٨١ ؛ المنصوري : زبدة الفكرة , ص١٦ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص٢١٩ .

(٥) ابن كثير : ج١٧ , ص٣٢٣ ؛ أبو شامة : الموسوعة , ج٢٠ , ص٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٦٣٢ .

(٦) المقرئزي : السلوك , ج١ , ص٤٨١ ؛ اليافعي : ج٤ , ص٩٩ ؛ Edde : op . cit , p157 .

فرسان من المماليك المعزية (١) , فقتلوه في شهر شعبان سنة ٦٥٢هـ/شهر أيلول عام ١٢٥٤م (٢) , ولما عرف أصحابه بمقتله تجمعوا حول القلعة , وقد بلغوا حوالي سبعمائة فارس وتزعمهم بيبرس البندقداري , وانتظروا من المعز أيبك أن يفتح باب القلعة " فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمى بها المعز إليهم , فسقط في أيديهم وتفرقوا بأجمعهم " (٣) , وقصدوا الباب الشرقي للقاهرة وعُرف بباب القراطين فوجدوه مُغلَقاً , فأضرموا النار فيه , فعرف بالباب المحروق منذ ذلك الوقت , ثم انطلقوا نحو بلاد الشام (٤) , وقد هاجمت البحرية في طريقها المواقع الصليبية في بلاد الشام , وعلى ما يبدو أن الهجوم كان على شكل غارة قامت بهجوم سريع , فحصلت على الغنائم ثم تابعت مسيرها نحو دمشق , ولم يكن في وسع لويس التاسع مهاجمة المماليك رداً على غارات البحرية , لأن البحرية بطبيعة الحال كانت متمردة على السلطان المملوكي (٥) كما أنه لم يرغب بملاحقتها إثر الغارات التي قامت بها , لأنه كان في حالة حرب مع ملك دمشق (٦) , وبذلك تخلص المعز أيبك من مضايقات المماليك البحرية التي سببت له المتاعب كما أثارت الاضطرابات للصليبيين , وتابعت البحرية سيرها إلى دمشق , وإثر ذلك دخلت العلاقة المملوكية _ الصليبية في حالة من الجمود , فلم يعد هناك رغبة ملوكية في كسب لويس التاسع , ولا يمكن للمعز أيبك أن يعلن العداء له لأنه في حالة توطيد لدولته , ولا تسمح له إمكاناته سوى في إعادة الهدوء والاستقرار للسلطنة المملوكية (٧) .

وهكذا انقسم المسلمون , مما أدى لبقاء لويس التاسع في الشرق لعله يثأر للهزائم التي حلت به على أيدي المماليك (٨) , وأسفرت الحرب التي أشعلها لويس التاسع عن اصطدام

(١) قتلة أقطاي هم : سيف الدين قطز وبهادر وسنجر الغنمي . أبو الفداء , المختصر , ج٢ , ص٢٩٧ .

(٢) ابن واصل : ج٦ , ص١٧٨ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص٢١٩-٢٢٠ ؛ العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٦٣١-٦٣٢ .

(٣) المقرئزي : السلوك , ج١ , ص٤٨٣ .

(٤) العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٦٣٢ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص٢٢٠ .

(٥) ابن العميد : ص ٤٢ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٦٣ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٠-٢١١ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٧٧-٤٧٨ .

(٧) ابن كثير : ج ١٧ , ص ٣٢١-٣٢٣ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٦٣ ؛

(٨) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٣٣-١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٢-١٩٥٤ ؛

Brentano : le moyen age la croisade , p296-299.

الأيوبيين والمماليك (١) , مما شجع لويس التاسع على الاتفاق مع المعز أيك على شن هجوم مشترك على الأيوبيين واقتسام بلاد الشام (٢) , وقبل البدء بالهجوم تدخلت الخلافة العباسية وحلّ الوثام بين الأيوبيين والمماليك (٣) , فضاعت آمال لويس التاسع , وأخفقت محاولته في تفرقة صفوف المسلمين , فَحَمَلَ المسؤولية للمماليك , وقرر مهاجمتهم , لكنه ما لبث أن تراجع خوفاً من وقوع الكيان الصليبي بين شقي رحي أيوية _ مملوكية (٤) .

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٧-٨ .

(١) ابن سباط : ج ١ , ص ٣٥٨-٣٥٩ ؛

- (٢) ابن كثير : ج ١٧ ، ص ٣٢١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٥٤ ؛
Villeneuve : op . cit , p205-207 .
- (٣) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٧٨-٤٧٩ ؛ الدواداري : ج ٨ ، ص ٢٢-٢٣ ؛
Mayer : op . cit , p264-265 .
- (٤) جوائفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٠-٢٠٥ ؛ باريس : الموسوعة ، ج ٥٠ ، ص ١٨٨٤-١٨٨٥ .

- الفصل الرابع -

علاقة لويس التاسع مع الأيوبيين

١- موقف الأيوبيين من مقتل توران شاه .

٢- مراسلات الناصر يوسف الثاني للويس التاسع .

٣- موقف أوروبا من إنقاذ لويس التاسع .

٤- الصلح الأيوبي - المملوكي وانقلاب الموازين .

٥- الهجوم الأيوبي على المعقل الصليبية .

٦- الهجوم الصليبي على بانياس .

٧- هزيمة الصليبيين في الصبيبة .

٨- عودة لويس التاسع إلى فرنسا .

١- موقف الأيوبيين من مقتل توران شاه .

أنفَ ملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام الخضوع للدولة المملوكية الجديدة , ومن الطبيعي أن يقفوا موقف العداء منها , وقد كانت وراء مقتل السلطان الأيوبي توران شاه , وإطلاق سراح غريمه لويس التاسع , فاشتعلت نار الثورة الأيوبية ضد السلطنة المملوكية , وهذا ما زرع الأمل في نفس لويس التاسع , وشجعه على البقاء في مملكة عكا , وأتاح له فرصة ذهبية لتحقيق جزءاً من طموحاته , وبشكل خاص بعد أن التمس الأيوبيين مساعدته ضد المماليك , فأخذ بزيادة حدة الجفاء بين القاهرة ودمشق , وخطط لمشاريع صليبية جديدة مستغلاً الخلاف المملوكي مع العروش الأيوبية الصغيرة , ولكن بني أيوب ما لبثوا أن اعترفوا بشرعية الدولة المملوكية في مصر من أجل ضرب الوجود الصليبي في بلاد الشام في الوقت الذي ازداد فيه نشاط لويس التاسع وخطره على المسلمين , لكن ما لبثت أن هدأت حدة التوتر الأيوبي - المملوكي , فيئس لويس التاسع من تحقيق نصرٍ حاسم على المسلمين (١) .

انقسم المسلمون على أنفسهم وأعلنت بلاد الشام العداء الصريح للمماليك , ورفض الأيوبيون الدخول في طاعة ممالكهم , لأنهم عدوا أنفسهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم بسبب انحذارهم من سلالة صلاح الدين الأيوبي , وعندما أرسلت شجر الدر وفداً مملوكياً إلى دمشق سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م لأخذ يمين الولاء والطاعة للسلطانة الجديدة من نائب توران شاه على دمشق جمال الدين بن يغمور (٢) احتج أمراء القيمرية (٣) في دمشق , ورفضوا طلب الوفد , وأرسلوا إلى الناصر يوسف الثاني صاحب

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام , ج ٢٠ , ص ٥٤-٦٥ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٤٦-٣٧٦ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٥١-٢٠١ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٤-١٩٥٥ ؛

Stevenson : op . cit , p229-231 .

(٢) ابن يغمور : هو جمال الدين موسى بن يغمور , وقد عينه الصالح نجم الدين أيوب نائباً عنه في مصر , ثم استنابه على دمشق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م , وعُزل عن نيابة دمشق بعد استيلاء الناصر يوسف الثاني عليها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م , وعندما استلم الظاهر بيبرس السلطنة عينه (أستاداره) , وفارق الحياة عن عمر ناهز أربعة وستون عاماً وذلك في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م . المقرئزي : السلوك , ج ١ ,

ص ٥٤١ ؛ الصفدي ، خليل : تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، تح : إحسان خلوصي وزهير حميدان ، دار البشائر ، ط ٢ ، دمشق ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، ص ٤٤٦ .

(٣) القيصرية : طائفة من الأكراد الذين خدموا لدى الأيوبيين والمماليك ، ويُنسبون لقلعة قيصر الواقعة ما بين خلاط والموصل ، وقد لمعوا إثر وفاة الصالح نجم الدين أيوب ، ورفضوا الخضوع للمماليك ، فسلموا دمشق للناصر صاحب حلب سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م . الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٢٠ ، ص ٥٨ ؛ العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٠٣ ؛ ابن تغري بردي ، يوسف : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تح : أحمد نجاتي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م ، ج ١ ، حاشية ، ص ١٠ .

حلب لتسليمه دمشق (١) ، وهذا لا يعني بأن القيصرية هم الوحيدون عارضوا الخضوع للمماليك فحسب بل الملوك الأيوبيين بشكل عام رفضوا الولاء لمماليكهم ، وذلك لأسباب عديدة أهمها ما يلي :

أ _ أنف الملوك الأيوبيين الخضوع للمماليك ، ونظروا لهم نظرة ازدراء لأنهم رقيق (٢) .

ب _ غَدَرِ المماليك بسيدهم توران شاه ، وقَتله بطريقة مؤلمة ، واستلامهم الحكم بدلاً عنه (٣) .

ج _ إطلاق المماليك سراح لويس التاسع ، ومجيئه إلى بلاد الشام وتقويته المملكة اللاتينية ، فضلاً عن إثارته المشاكل للأيوبيين في بلاد الشام (٤) .

كل هذه الأسباب أدت لعدم اعتراف الملوك الأيوبيين للتغيير الذي حصل في مصر ، فأعلنوا الحرب على المماليك ، وأهم حركاتهم ضد المماليك ما يلي :

١ - حركة المغيث فتح الدين عمر : ما إن سمع بدر الدين الصوابي الصالحي نائب توران شاه على الكرك والشوبك بمقتل السلطان الأيوبي حتى أخرج المغيث فتح الدين من سجنه في الكرك (٥) ، وسلّمه قيادة الكرك والشوبك (٦) ، وإثر ذلك راسله بعض الأمراء البحرية الرافضين لاستلام المعز أيك للسلطنة من أجل تسليمه مصر ، وذلك في شهر جمادى الثاني سنة ٦٤٨هـ / شهر أيلول عام ١٢٥٠م ، ولكن على ما يبدو أنه كان إنسان واقعي ، وربما شعر أن هناك من هو أكثر منه كفاءة لذلك الأمر كالمملك الناصر صاحب حلب ، فلم يدخل فتح الدين عمر تلك المغامرة (٧) ،

(١) العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٠٢-٦٠٤ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٣٣٤-٣٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٨-٢٨٩ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٨٦-١٠٨٧ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p496 .

(٢) ابن إياس : ج ١ ، ص ٢٨٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤-٦ ؛

Mayer : op . cit , p265 .

thorau : op . cit , p38-39 .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ص ٢٩١ ؛ ابن خلدون : ج ٥ ، ص ٤١٨-٤١٩ ؛

(٤) بارييس : الموسوعة ، ج ٤٩ ، ص ١٢٨٣ ؛ مونرود : مج ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٥) فتح الدين عمر : هو الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل سيف الدين أبي بكر بن الكامل , عاش في مصر عند عماته , وعندما وصل توران شاه إلى مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م شعر بازدياد شعبية المغيث فألقى القبض عليه , وإثر مقتل توران شاه أخرجه بدر الدين الصوابي من سجنه , واستلم الكرك والشوبك , وبقي سيداً عليهما حتى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م حيث اتهمه الظاهر بيبرس بمراصلة المغول , فاستدعاه إلى مصر وقتله . ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٧ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٧٠٩ .

(٦) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٩ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٠٣ ؛ ابن العميد : ص ٣٩ .

(٧) المقرئ أحمد : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٤ ؛ أبو شامة : الموسوعة , ج ٢٠ , ص ٣٦٧ ؛ الدواداري : ج ٨ , ص ١٤ .

بينما كان ملك حلب أكثر جرأة منه .

٢- حركة الملك الناصر يوسف الثاني: راسلت القيمرية الملك الناصر يوسف الثاني صاحب حلب لتسليمه دمشق , فأعد جيشاً وسار من حلب إلى دمشق , وقد فتحت له القيمرية باب الجابية في يوم الاثنين في العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/الثاني عشر من شهر تموز عام ١٢٥٠م , فدخل دمشق وخلع على أهلها وأحسن إليهم (١) , بينما " اعتقل نائب دمشق جمال الدين ابن يغمور ثم أخرجه بعد قليل من الاعتقال وأحسن إليه " (٢) , وهذا إن دل على شيء يدل على أن ابن يغمور كان متردداً في تسليم دمشق للملك الناصر , ربما ليعرف ما ستجلبه عنه الأمور إثر الفوضى التي عاشتها بلاد الشام ومصر آنذاك , وبعد أن استولى الملك الناصر على دمشق انطلق جنوباً لمد نفوذه , فوجد صعوبة حيث " عصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة مديدة ثم سلمت جميعها إليه " (٣) , بينما استلم الملك السعيد عثمان (٤) قلعة الصبيبة من نواب الصالح نجم الدين أيوب (٥) .

وصلت أنباء الحركات الأيوبية والتغيرات التي طرأت إلى المماليك , فسارع المعز أيك لملاحقة القيمرية في مصر , وألقى القبض على رجالها الموالين للناصر يوسف الثاني (٦) , وعمت بلاد الشام ومصر فوضى عارمة , وتأزمت العلاقة بين الطرفين لكن الناصر يوسف الثاني أرسل قوة عسكرية إلى غزة , وفاجأ المعز أيك الأيوبيين في غزة , فهزم الجيش الأيوبي في شهر رجب سنة ٦٤٨هـ/تشرين الأول عام ١٢٥٠م , ثم عادت القوة الأيوبية أدراجها إلى دمشق (٧) .

(١) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٢-٤٦٣ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٤٤ ؛ ابن العميد : ص ٣٩-٤٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٦ ؛

Edde : op . cit , p150-151 .

(٢) ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ١٩٨ .

(٣) أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٩ ؛ والمعنى ذاته عند ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٨ .

(٤) الملك السعيد : هو السعيد بن الملك العزيز عثمان بن العادل , كان حاكماً على قلعة الصبية بالقرب من بانياس , وقد تنازل عنها للصالح أيوب مقابل اقطاع منحه إياه في مصر , وإثر مقتل توران شاه استولى على قلعة الصبية مرة ثانية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م, ولما قَدِمَ التتار إلى دمشق انضم إليهم , ومات سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . ابن واصل : ج٦, ص ٤١١ .

(٥) ابن واصل : ج٦, ص ١٣٦ .

(٦) العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص ٦٠٤ .

(٧) ابن واصل : ج٦ , ص ١٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج٢ , ص ٢٩٠ ؛ ابن سباط : ج١ , ص ٣٧٥ .

هكذا احتدم النزاع بين الأيوبيين والمماليك , فقد عدَّ المماليك أنفسهم أصحاب الفضل في تدمير الحملة الصليبية السابعة , بينما رفض الأيوبيون الاعتراف بهم لأنهم كانوا رقيقاً لدى السادة الأيوبيين , والسلطة الشرعية كانت بأيديهم , كما استاء بنو أيوب من المماليك الذين لم يتخلصوا من لويس التاسع وأطلقوا سراحه , فأخذ بإحاطة المؤامرات ضد المسلمين (١) , وأصبح في بلاد الشام ومصر قوتان متنازعتان احتدم الصراع بينهما في الوقت الذي كان فيه لويس التاسع متابعاً لأخبار ذلك الشقاق , مما أنعش آماله في تعويض ما خسره في مصر بل راح يعمل على تقوية المواقع الصليبية في المملكة اللاتينية (٢) , وراقب الأمور عن كثب , إذ أن وجود لويس التاسع قريباً من مسرح النزاع جعل كل من الأيوبيين والمماليك يسعى لكسبه أملاً في أن يتفوق كل منهما على الآخر , بينما استهدف لويس التاسع أن يحرز نصراً مُزدوجاً على حساب الطرفين (٣) .

(١) المقرئزي : السلوك, ج ١ , ص ٤٦٠-٤٦٦ ؛ العيني : الموسوعة, ج ٦٠ , ص ٦٠٢-٦٥٨ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي , ص ٩-٥ ؛ ابن إياس : ق ١ ج ١ , ص ٢٨٤-٢٩١ ؛

The Cambridge history of islam , volume 1 , p209-211 .

(٢) يُنظر المصور رقم (٩) , ٣٠٨ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٥١-١٧٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٤٤-١٩٥٠ . مونرود :

مج ٢ , ص ٣٣١-٣٣٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٤٦-١٤٨ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p496-500 .

٢- مراسلة الناصر يوسف الثاني للويس التاسع .

استولى الناصر يوسف الثاني صاحب حلب على دمشق , وأصبح سيداً على معظم بلاد الشام , وأخذ يتطلع إلى مصر لعله يكون الزعيم الأيوبي الوحيد بلا منازع (١) , ولم يجد حرجاً في محاولة كسب أعدائه الصليبيين ضد المماليك , لتحقيق ما كان يصبو إليه في الوقت الذي كان فيه لويس التاسع مُحبطاً نتيجة للخسائر التي حلت بحملته الصليبية , وما إن لاحت له الفرصة حتى ارتفعت معنوياته , وازداد تصميمه على متابعة مسيرته لتحقيق غاياته في المشرق العربي الإسلامي (٢) .

خشي الناصر يوسف الثاني من القوة المملوكية التي سادت مصر , فأراد القضاء عليها قبل أن يشتد ساعدها (٣) , فرغب في استقطاب لويس التاسع إلى جانبه ضد المماليك , فما كاد لويس التاسع يستقر في عكا سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م حتى أرسل له رسالة ودية شاكياً فيها من المماليك الذين قتلوا السلطان الأيوبي , واستولوا على حكم مصر , ثم عَرَض عليه تسليمه بيت المقدس مقابل الدخول معه في حلف ضد المماليك (٤) , ولكن هل وافق لويس التاسع على محالفة الناصر يوسف الثاني ؟

لقد تراءى للناصر يوسف استغلال العداء بين لويس التاسع والمماليك وإنشاء صداقة مع لويس التاسع , وبذلك يمكن تحقيق أمني الطرفين فيثأر لويس التاسع للعار الذي لحق به على أيدي المماليك , ويحصل على بيت المقدس , بينما يتخلص ملك دمشق من الدولة المملوكية في مهدها قبل أن تبتلع المناطق المجاورة لها وبخاصة بلاد الشام , إذ تلاقى في هذه الحالة مصالح الفريقين , وأصبح الخلاص من المماليك هدفاً لهما .

(١) أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٩ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٥٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٦ ؛

Stevenson: op . cit , p329 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٩٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٠ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p496-501 .

(٣) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٨-٤١٩ ؛ الصفدي ، خليل : نزهة المالك والملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك ، تح

عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا وبيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ص١٤٥ ؛ الدويهي : تاريخ

الأزمنة ، ج٢ ، ص١٢٤ . Mayer : op . cit , p265-266.

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٦٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٩٧ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p501 ; Setton : op . cit , volume 2 , p566-567.

إن لويس التاسع وضع بيت المقدس كأحد أهدافه في بلاد الشام ، ولكن من المستحيل أن يتحالف مع الأيوبيين ، ويدعمهم بجيش لمهاجمة المماليك ، لأن لويس التاسع استهدف تحقيق أهدافه بطريقة دبلوماسية هذه المرة ، فلا يمكن أن يغامر بدعم الأيوبيين بعد اضمحلال قوتهم ، والأفضل له محالفة المماليك لأنهم الأقوى ، وإذا ما وضع لويس التاسع بيت المقدس في كفة يتوجب عليه وضع الأسرى في الكفة الثانية ، فالحصول على بيت المقدس مرهون بخسارة الأسرى ، وبذلك يكون قد أباد رجال حملته الصليبية مقابل الحصول على بيت المقدس ، وإذا ما خسر اثنا عشر ألف أسير فإن أوروبا لن ترحم استهتاره لأنه ضحى قبل ذلك بثمان وثلاثين ألف مقاتل في مصر .

التجأ لويس التاسع إلى الحيلة ، ووجه إنذارا إلى المماليك ، فإما أن يستجيبوا لمطالبه أو سيحالف الأيوبيين ضدهم (١) ، وإثر وصول رسالة ملك دمشق إلى لويس التاسع أرسل الملك الفرنسي الراهب إيف البريتوني الناطق باللغتين الفرنسية والعربية على رأس سفارة إلى دمشق (٢) ، وقد سارت السفارة الصليبية إلى دمشق ، والتقت مع الناصر يوسف الثاني ، وأشارت له بأن لويس التاسع من المحتمل أن يدخل في حلف معه ضد المماليك إذا لم يستجب المماليك لمطالبه في إخراج الأسرى الصليبيين ، وتركت السفارة باب المفاوضات مفتوحاً ، وعاش ملك دمشق على الأمل ، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على ذكاء لويس التاسع في التعامل مع خصومه ، وعندما سمع المعز أيك بأن سفارة صليبية قد زارت دمشق سارع أيك لإرضاء لويس التاسع ، خوفاً من تحالفه مع الأيوبيين (٣) .

وبينما كان لويس التاسع مقيماً في يافا (٦٥٠-٦٥١هـ/١٢٥٢-١٢٥٣) وجه له الناصر يوسف

الثاني دعوة لزيارة بيت المقدس (٤) ، وذلك إما رغبةً منه في كسب لويس التاسع أو ربما أنه

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٧٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٣ ؛ زكار

: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، الموسوعة، ج٣ ، ص٤٠٦-٤٠٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٦٤ ؛ حبشي , حسن : الشرق العربي بين شقي رحى , دار الفكر , د.م , د.ت , ص١٢١ ؛ بدور , كمال : مملكة حلب الأيوبية ٥٨٩-٦٥٨هـ/١١٩٣-١٢٦٠م , رسالة ماجستير غير منشورة , جامعة دمشق , ١٤١٨هـ/١٩٩٨م , ص١٦٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٧٢ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٣٣ ؛ رنسيما : ج٢ ص٤٧٦ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١٠٩٠-١٠٩١ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p501-502 ; Edde : op . cit , p151-153 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٢ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص٣٢٣-٣٢٤ .

سمع عن رغبة لويس التاسع في زيارة بيت المقدس , فعلى الرغم من حالة الحرب بينهما فإنه وجه النداء إلى عدوه من أجل زيارة بيت المقدس عندما علم برغبته في زيارة المقدسات , وإذا ما تم الافتراض جـداً أن بيت المقدس كان تحت سيادة لويس التاسع , فهل يمكن أن يسمح للناصر يوسف بزيارة بيت المقدس؟

لن يكون لويس التاسع أفضل ممن سبقه من الملوك الصليبيين ولا حتى أقل قسوة وعدوان منهم , مما يدل على حقدٍ صليبيٍّ دفين لا مبرر له سوى الرغبة في السيطرة وقهر الآخرين , فلم يمنع المسلمون أحداً من زيارة المقدسات بغض النظر عن هويته , ولكن الغرب الأوربي اتخذ من المقدسات ذريعة للسيطرة على المسلمين بل وإزالتهم من الوجود , ومما يؤكد ذلك الاجتماع الذي عقده لويس التاسع .

إثر الدعوة التي وصلت إلى لويس التاسع من ملك دمشق لزيارة بيت المقدس , عقد اجتماعاً لتحديد موقفه , وأكد جوانفيل في نهاية الاجتماع أنهم قرروا أن "ما من واحد أشار عليه بالذهاب " (١) , وأشار جوانفيل إلى سبب ذلك الرفض أنه لا يليق بلويس التاسع , وهو حامل صليب الحروب المقدسة أن يزور بيت المقدس لأنه تحت سيادة المسلمين , وإذا ما قام بذلك فإن الصليبيين من بعده لن يفكروا في السيطرة على القدس , وسيسيرون على خطى لويس التاسع , ويكتفوا بالحج إلى تلك المدينة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء القتال للسيطرة عليه (٢) , وأثناء انعقاد الاجتماع استشهد أحد الحضور بحادثة تعود إلى الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م , عندما اقتربت قوات الحملة من بيت المقدس , ولاحق معالمها , أخذ أحد الفرسان ينادي على الملك الانكليزي ريشارد قلب الأسد طالباً منه النظر إلى بيت المقدس , ولكنه رفض حتى النظر إلى القدس طالما أنها بأيدي المسلمين , وهو غير قادر على أخذها منهم , ولم يكن ريشارد كذلك فحسب بل أصبح مضرب المثل لدى المسلمين في الخوف والرعب , فإذا ما بكى طفل كانت أمه تخوفه بريشارد قائلة له : (قد أتاك ريشارد) , وعلى لويس التاسع أن يكون كريشارد رمزاً لنشر الخوف والإرهاب , و في نهاية الاجتماع وافق لويس التاسع على رغبة كبار رجاله , ورفض الدعوة التي وجهها له ملك دمشق (٣) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٢ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٢-٢٠٣ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٢٣٨ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣٢٣-٣٢٤ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٢-٢٠٣ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣٢٤ .

عندما رأى الصليبيون سعي الناصر يوسف الثاني الحثيث لكسب لويس التاسع كثرت تعدياتهم على المسلمين , وقد روى جوانفيل في سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م إلى أن أحد أمراء دمشق ولم يذكر اسمه , ربما كان أحد أمراء الاقطاع , أراد جني محصول القمح في أحد الحقول القريبة من يافا , ومعه مجموعة من الفلاحين , فهاجمتهم مجموعة من الصليبيين منهم جوانفيل فقتلوا اثنين من الفلاحين بينما يتباهى جوانفيل بقوة الفارس الصليبي الذي سدد برمحه إلى الأمير فاخترق الرمح أضلاعه , وانكسر في جسده لشدة الضربة , فعاد الفلاحون من حيث أتوا وقد حملوا جثة أميرهم بدلاً من حمل غلال القمح (١) , ومن المحتمل أن الأراضي التي استغلها الأمير الدمشقي لم تخضع لنظام المناصفات , فأراد الصليبيون إثارة الشغب ومهاجمة الفلاحين وقتلهم , وذلك لإجبارهم على ترضية الصليبيين وإعطاءهم جزءاً من الغلال بشكل سنوي حتى يسمحوا لهم باستغلال الأرض .

استاء الناصر يوسف الثاني من تعديات الصليبيين , ومن نوايا لويس التاسع الذي لم يعطيه وعداً بقبول أو رفض محالفته , ولكنه لم يعلن له العداء بشكل صريح إنما أثار الاضطرابات للصليبيين بطريقة سرية حيث شجع التركمان على مهاجمة المناطق الصليبية , وبخاصة أنطاكية القريبة منهم , فأصبحت هدفاً لهجماتهم سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م , وكان الناصر يوسف الثاني وراء تلك الغارات (٢) .

وعلى هذا فإن الانشقاق المملوكي - الأيوبي أدى لانتعاش لويس التاسع , وبخاصة عندما تسابق الناصر يوسف الثاني والمعز أيبك في كسب صداقته , ولكن يتوجب الإدراك أن المحتل لن يكون صديقاً حميماً مهما طال الزمان , علماً أن الخلاف بين الشام ومصر لم يكن سوى خلاف بين الناصر وأيبك , فالأول أراد زيادة أملاكه , بينما أراد الثاني إثبات وجوده , ولم يكن لأبناء الشام ومصر في ذلك الصراع لا ناقة ولا جمل , وقد أظهر لويس التاسع براعة سياسية عندما لم يعط للناصر يوسف رداً حاسماً حول محالفته , فهرع المعز أيبك لإطلاق سراح الأسرى الصليبيين دون مقابل , كما عمل على توسيع هوة الخلاف بينهما , ريثما تصله النجدات الأوربية كي يتخلص من خصومه الأيوبيين والمماليك (٣) .

- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص ١٩١ .
(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٣٠٩-١٣١٠ .
(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص ١٦٢-١٩٩ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٥٦-١٣١٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٥٠-١٩٥٤ ؛ . Brellier : op . cit , p227-228 ; Edde : op . cit , p151-154 .

٣- موقف أوروبا من إنقاذ لويس التاسع .

بقي لويس التاسع يتخبط في مملكة عكا , ووجد صعوبة بالغة في العودة إلى فرنسا لعل مرور الزمن كفيل أن يمحي من أذهان الشعب الأوربي ذكريات الهزائم الأليمة التي حلت به , كما أخذ يعمل ما في وسعه للنهوض بالكيان الصليبي , ريثما تصل حملة صليبية جديدة وقد تأملَ خيراً إثر عودة النبلاء الفرنسيين إلى أوروبا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ليشرحوا للشعب الأوربي المآسي التي تعرضوا لها على ضفاف النيل (١) , وتباينت مواقف الدول الأوربية حول إعداد حملة صليبية جديدة , وبشكل عام امتازت مواقفها بالفقر وعدم وجود رغبة صادقة بإعداد حملة صليبية جديدة , ومن أهم تلك الدول الأوربية (٢) :

أ - **إيطاليا** : ساءت أوضاع البابا أنوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢هـ/١٢٤٢-١٢٥٤م) إثر الصراعات التي دخلها مع الإمبراطور الألماني فردريك الثاني, فانشغل البابا في مواجهته (٣) , وأخذ يجمع الأموال من أجل التصدي لأطماع فردريك الثاني في إيطاليا (٤) , وقد وصل آنذاك ألفونسو كونت بواتيه وشارل كونت آنجو وبروفانس (أخوي لويس التاسع) إلى البابا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وطلبوا منه الدعوة لإعداد حملة صليبية جديدة وإنقاذ لويس التاسع , ولكن البابا كان " عنيداً متشبثاً , وبناءً عليه غادر الكونتان بقسوة , ومع كلمات نابية " (٥) , ويلاحظ بأن الكنيسة الرومانية فقدت هيبتها آنذاك إثر انشغال البابا ورجال الدين بالمناصب الدينية ومصالحهم الخاصة , واتخذوا من الحرمان الكنسي وسيلة لمواجهة خصومهم , فتدهورت أوضاع الكنيسة , واستاء الشعب منها , ومن حبها لجمع الأموال حتى باتت الكنيسة بحاجة إلى إصلاح , فنشأت حركات الهرطقة التي وقفت في وجه الكنيسة ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص ١٦١-١٦٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٨-١٩٥٠ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p493-500 .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٦١-١٢٠٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٢-١٩٩٣ .

(٣) فابري : الموسوعة, ج ٣٨ , ص ١١٧٠ ؛ رفعت وحسونه : ص ١٨١ ؛

Didier , Jean : les homes et leur histoire , larousse ,volume 5 , p58 .

(٤) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٥٩-١١٦٠ .

(٥) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٧٩ .

وانحراف رجال الدين, وهذا ما شغل البابا في مواجهة الاضطرابات (١) , وقد عبّر عن ذلك متى باريس بقوله : إن " البلاط الروماني الذي يُفترض أن يكون نبع العدالة كلها , صدرت عنه آثام لم يُذكر مثلها " (٢) , ولم يكن البابا مستعداً لإرسال حملة صليبية جديدة لإنقاذ لويس التاسع , بسبب الأوضاع السيئة التي عاشتها إيطاليا , فاكتمل بتوجيه نداء إلى ملوك أوروبا لمساعدة لويس التاسع مادياً وعسكرياً(٣) .

ب - ألمانيا : استاء البابا أنوسنت الرابع من الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني هوهنشاوفن الذي كان طامعاً بأملكه في إيطاليا (٤) , فطرده البابا من رحمة الكنيسة وحرمه كنسياً (٥) , ولم يرض البابا أن يحلله من الحرمان على الرغم من وساطة أخوي لويس التاسع ألفونسو كونت بواتيه وشارل كونت أنجو وبروفانس (٦) , وفي سنة ١٢٤٨هـ/١٢٥٠م أصيب فريدريك الثاني بمرض متعذر , وفارق الحياة في العام نفسه , واستلم من بعده ابنه كونراد الرابع (٦٤٨-٦٥٢هـ/١٢٥٠-١٢٥٤م) (٧) , وعلى ما يبدو أن كونراد الرابع لم يكن أهلاً للمسؤولية , فأهمل شؤون إمبراطوريته , وانشغل بملذاته الشخصية , مما أدى لاستياء شعبي ضد سياسته , فضلاً عن خلافه مع البابا على المناطق الحدودية , فحرمه البابا كنسياً , وأراد تسليم عرش ألمانيا إلى وليم كونت هولندا (٨) , وهذا ما أدى لاستيلاء كونراد الرابع على شمال إيطاليا وصقلية (٩) , فأعلن البابا الحروب الصليبية سنة ١٢٥٠هـ/١٢٥٢م , ولكن هذه المرة ليس ضد المسلمين إنما ضد كونراد الرابع , ووعد البابا المشاركين في هذه الحرب " بمكافأة مجزية وهي الغفران من جميع ذنوبهم , وكان هذا أعظم مما مُنح

(١) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٥٩-١١٨٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص١٢٣-١٢٤ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٦٦ .

(٣) مونرود : مج٢ , ص٣٣٤ .

Stevenson : op . cit , p290 .

(٤) رفعت وحسونه : ص١٤٥-١٤٦ ؛

Gebhart : op . cit , p206-207 .

(٥) فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص١١٧٠ ؛

(٦) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٧٨ .

(٧) المقرئزي : السلوك , ج١ , ص٤٧٢ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١١٨٠-١١٩٧ ؛

Brellier : op . cit , p266 .

(٨) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٢-١٩٩٣ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٣٤-٣٣٥ .

(٩) زيتون , عادل : تاريخ العصور الوسطى الأوربية , مطبعة الروضة , دمشق , ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م , ص٢٧٧ .

من أجل الحج إلى الأرض المقدسة " (١) , فوقف كونراد عاجزاً عن درء الخطر البابوي , وبشكل خاص إثر تمرد حكام المقاطعات الألمانية الراغبين بالاستقلال بمقاطعاتهم , وكل ما تقدم يؤكد بأن كونراد الرابع لا يملك المؤهلات الكافية لإنقاذ لويس التاسع وسط ظروف غاية في الصعوبة عاشتها ألمانيا آنذاك (٢) .

ج - انكلترا : لم تقتصر الجولة التي قام بها ألفونسو كونت بواتيه وكونت بروفانس على زيارة البابا وألمانيا بل شملت انكلترا من أجل حث ملكها هنري الثالث (٦١٣-٦٧١هـ / ١٢١٦-١٢٧٢م) على إنقاذ لويس التاسع في الأرض المقدسة , وقد قطع لهما هنري عهداً على نفسه بأنه سيسعى لإصلاح الخلاف بين فردريك الثاني والبابا أنوسنت الرابع , لإرسال حملة صليبية باسم أوربة , ولكن فردريك الثاني وافته المنية قبل أن يتم الصلح بينه وبين البابا (٣) , ولم يكتثر هنري الثالث بأمر لويس التاسع , فطالبه البابا سنة ١٢٥١هـ / ١٢٥٣م في الإسراع بدعم لويس التاسع , والسماح للمتطوعين من أبناء مملكته في المسير إلى الأراضي المقدسة (٤) , فعاهد هنري الثالث البابا على حمل الصليب للدفاع عن مملكة عكا (٥) , واستغرب الشعب الانكليزي من حماس ملكهم بل " صُعب عليهم تصديق بأن الملك قد حمل الصليب إلا لغرض واحد هو أن يتمكن بهذه الوسائط من تجريد المملكة من ثرواتها " (٦) , وما لبث أن فرض الضرائب على الناس , فأدركوا جشعه وطمعه في زيادة أملاكه (٧) , وسرعان ما كشفوا نواياه حيث أعطى البابا أنوسنت الرابع مبلغاً مالياً ضخماً , لإعفائه من العهد الذي قطعه على نفسه في المسير إلى الأراضي المقدسة , ولم يكتف بذلك بل فرض حراسة على سواحل بلاده لمنع رعاياه من المسير إلى مملكة عكا (٨) , وبقي هنري الثالث في صراع مع رجال دولته بسبب حُبه لتكديس

(١) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٢٥٨ .

(٢) فالتين , فاين : تاريخ الألمان تر : حيدر أحمد , دار الأجدية , ط١ , دمشق , ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م , ص٧١ .

(٣) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١١٧٩-١١٩٧ .

Brellier : op . cit , p226-227 .

(٤) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٢٧٣ ؛

(٥) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٢٧٣ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٣ ؛ رنسيان : ج٣ , ص٤٨٠ .

(٦) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٢٨٣ .

(٧) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٢٨٣ .

(٨) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص١٢٦ .

الثروات , وهذا مامنه من المسير لإنقاذ لويس التاسع (١) .

د - اسبانيا : لم تشارك اسبانيا تلك المشاركة الفعالة في الحروب الصليبية , ولكن عندما سمع ملك قشتالة فرديناند الثالث (٦١٤-٦٤٨هـ/١٢١٧-١٢٥٠م) بالهزائم التي حلت بالحملة الصليبية السابعة على أيدي المسلمين , قرر المسير إلى المشرق العربي الإسلامي من أجل الثأر لتلك الحملة الصليبية, مع العلم أن حرب الاسترداد الاسبانية ضد المسلمين كانت على أشدها (٢) , فأرسل فرديناند الثالث إلى ملك انكلترا هنري الثالث سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م لإعداد حملة صليبية مشتركة , ولكن المنية عاجلته قبل إرسالها , وإثر وفاته انشغل الإسبان بمتابعة حربهم ضد المسلمين , ولم يطرأ أي تقدم على مسألة إنقاذ الكيان الصليبي (٣) .

هـ - فرنسا : خيم على فرنسا حزنٌ عميق إثر النوازل التي حلت بالحملة الصليبية السابعة (٤) , فظهرت حركة شعبية سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م عُرفت بصليبية الرعاة (crusade of the pastoureaux) قادها رجل هنغاري الأصل أطلق على نفسه سيد هنغاريا (٥), وادعى بأن السيدة مريم العذراء كلفته بجمع الرعاة لإنقاذ الأراضي المقدسة , وذلك لأن الرعاة أكثر بساطة وتواضع من الفرسان الذين انغمسوا في المعاصي حسب اعتقاده , وسرعان ما انتشرت حركته في أنحاء فرنسا , وانهاالت عليهم التبرعات بعد أن اعتقدوا أن " الرب غالباً ما يختار الأجزاء الضعيفة في العالم ليخزي بها الأجزاء الأقوى " (٦) , كما تلقوا دعماً كبيراً من نائبة لويس التاسع السيدة بلانشيه (٧) , وبلغ عددهم أكثر من مائة ألف رجل , وقد اتخذوا من صورة الحمل الوديع شعاراً لهم , ولكن ما لبث أن انضم إلى أولئك الرعاة جموعٌ غفيرة

Wrong : op . cit , p79 .

(١) باريس : الموسوعة, ج٤٩, ص١٣٥٣ ؛

(٢) باريس : الموسوعة , ج٤٨, ص١١٥٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص١٢٦ .

(٣) باريس : الموسوعة , ج٤٩, ص١٢٢٨-١٢٢٩ ؛ مونود : مج٢, ص٣٣٥ .

(٤) باريس : الموسوعة , ج٤٨, ص١١٥٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨, ص١٩٤٨ .

(٥) اتخذ سيد هنغاريا على ما يبدو أسماء عديدة فضاع اسمه الحقيقي , فَعُرِفَ بـيعقوب وروجيه وجاك . يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص١٢٧ .

(٦) باريس : الموسوعة , ج٤٩, ص١٢٤٥ .

(٧) باريس : الموسوعة , ج٤٩, ص١٢٤٤-١٢٤٥ ؛ رنسيان : ج٣, ص٤٨٠-٤٨١ ؛

Lamy : op . cit , p40-41 .

من اللصوص والمنفيين والمحرومين كنسياً (١) , ومما يلفت الانتباه إلى أن هذه الحركة لم تكن سوى ثورة على رجال الدين في فرنسا , لأن زعيم الحركة سرعان ما تحول عن هدفه في إنقاذ لويس إلى مهاجمة رجال الدين الذين وصفهم بصيادي المال (٢), وقد ألقى موعظة في مدينة أورلين (Orli) الفرنسية على الرغم من رفض أسقف المدينة لتلك الموعظة حتى أن أسقف المدينة هدد رجال الدين في مدينته بالحرمان الكنسي إذا ما حضروا الموعظة , وذلك خوفاً من المظاهرات والاضطرابات بين الطرفين , ولكن الكثير من رجال الدين لم يكتروا بتهديد الأسقف , وبالفعل ما إن بدأ سيد هنغاريا زعيم الحركة يتحدث حتى أظهر استخفافاً كبيراً برجال الدين , كما وجه لهم الشتائم , فأتى أحد رجال الدين ورد عليه بالطريقة نفسها , ثم ما لبث أن قدم أحد أتباع سيد هنغاريا , وضرب ذلك الرجل بفأس , فشطر رأسه قسمين , وعلى إثر ذلك هاجم الرعاة أثرياء المدينة وبخاصة رجال الدين منهم , فنهبوا أموالهم (٣) , ووصلت أنباء الاضطرابات إلى بلانشيه , فقررت حرمان الرعاة كنسياً , وأكدت ضرورة الخلاص من أثرهم , وتابع الرعاة مسيرهم إلى مدينة بورجي (Borger) الفرنسية , وقد تقدم أحد جزاري المدينة , وضرب سيد هنغاريا بفأس , فراح رأسه يتدحرج على الأرض , وتفرق أتباعه , فاستلم أحد الرعاة قيادة الحركة , ولكن سرعان ما ألقى القبض عليه , ووضع في زنزانه , فاستلم شخص ثالث القيادة , وأراد الهرب مع أتباعه إلى انكلترا , ولكنه لقي حتفه في إحدى الغابات , وتلاشت جموع الرعاة , وعادوا فحملوا الصليب بدلاً من صورة الحمل , وانتهى أمرهم (٤) .

وعلى هذا يلاحظ بأن زعماء أوربة لم يكونوا متحمسين لإرسال حملة صليبية من أجل إنقاذ لويس التاسع , لأنهم قد انشغلوا في صراعاتهم ومشاكلهم الداخلية , وربما أدركوا صعوبة السيطرة على المشرق العربي الإسلامي (٥) , وعندما أيقن لويس التاسع بأن أوربا لن ترسل حملة صليبية جديدة , اعتمد على إمكانات الكيان الصليبي في تقويته بوجه التحديات المملوكية والأيوبية (٦).

(١) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٤٦-١٢٤٧ ؛ زابورف : ص ٣١٥ .

(٢) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٤٦-١٢٤٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ١٢٧-١٢٩ .

(٣) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٤٧-١٢٤٨ ؛ زابورف : ص ٣١٥-٣١٦ .

(٤) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٤٩-١٢٥٢ .

(٥) باريس : الموسوعة , ج ٤٨ , ص ١١٧٨-١١٧٩ ؛ ج ٤٩ , ص ١٢٥٨-١٣٥٣ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٢-١٩٩٣ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٦٢-١٨٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٨-١٩٥٤ ؛

Stevenson : op . cit , p329-332 .

٤- الصلح الأيوبي - المملوكي وانقلاب الموازين .

بذل الناصر يوسف الثاني جهداً كبيراً لكسب لويس التاسع , وأغراه بالكثير من التنازلات على الرغم من أن أوروبا تركته وحيداً في مملكة عكا , ولكن الناصر يوسف الثاني ما لبث أن أدرك الخطر الذي شكله لويس التاسع على المسلمين (١) , ويعود الفضل في ذلك إلى الخليفة العباسي الذي شعر بضرورة توحيد المسلمين لمواجهة الطامعين بتفتيت وحدة المشرق العربي الإسلامي والسيطرة عليه (٢) .

ازداد الخلاف الأيوبي - المملوكي , وكان للملك الفرنسي دور كبير في إذكاء جذوة النزاع الذي لم ينته باصطدام الطرفين في معركة العباسية (٣) , بل وضع المعز أيك ولويس التاسع خطة لمهاجمة الأيوبيين في بلاد الشام (٤) , واستعداداً لتنفيذ الخطة انطلق لويس التاسع إلى يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ/شهر أيار عام ١٢٥٢م , وعسكر مع جنوده فيها (٥) , وانتظر لويس التاسع قدوم القوات المملوكية لمهاجمة الأيوبيين , بينما حشد الناصر يوسف الثاني قواته في غزة للتصدي للمعز أيك ولويس التاسع (٦) , في الوقت الذي أثار فيه المغول حالة من الرعب (٧) .

أوشكت الحرب أن تبدأ بين الناصر يوسف الثاني والحلف المملوكي - الصليبي , ولكن الخليفة العباسي المستعصم بالله أنقذ الموقف كما أدرك ملك دمشق بأن إزالة الدولة المملوكية أمراً مستحيلاً , ولاسيما إثر الهزيمة التي حلت بالجيوش الأيوبية في معركة العباسية , في الوقت الذي وجد بأن

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٦٤ ؛ مونرود : مج ٢ , ص٣٣٣-٣٣٩ ؛

Stevenson : op . cit , p329-330 .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام , ج٢٠ , ص٦٧ ؛ العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٦٢٥ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج٢ , ص٢٩٣ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص٢١٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٦٤-١٩٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٠-١٩٥٤ ؛

Smith : op . cit , p186 .

Edde : op . cit , p153-154 .

(٤) ابن كثير : ج١٧ , ص٣٢١ ؛

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٤ .

(٦) ابن واصل : ج٦ , ص١٦٨ ؛ الدواداري : ج٨ , ص٢٢-٢٣ ؛ ابن سباط : ج١ , ص٣٦١ .

(٧) سبط ابن الجوزي : ج٢ , ص٧٨٧ ؛ القلقشندي , أحمد : مآثر الإنافة في معالم الخلافة , تح : عبد الستار فراج , الكويت ,

١٣٨٤هـ/١٩٦٤م , ج٢ , ص٨٩-٩٠ ؛ الديار بكري , حسين : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس , دار شعبان , بيروت , ج٢ ,

ص٣٧٢ .

الاستيلاء على مصر مغامرة غير مضمونة ، ربما تُكلفه خسارة مملكته ، فكان الصلح خير وسيلة للحفاظ على الممالك الأيوبية في بلاد الشام ، بينما سئم المماليك من النزاع مع الأيوبيين ، فضلاً عن التنازلات التي قدموها للويس التاسع ، مما أدى لإثارة مشاعر المسلمين ضدهم ، فآثروا قبول وساطة الخليفة العباسي لمواجهة المشاكل الداخلية التي واجهتهم (١) .

تردد رسول الخليفة العباسي نجم الدين البادرائي بين الناصر يوسف الثاني و المعز أيك ، وبفضل مساعيه استطاع التوفيق بينهما في شهر صفر سنة ٦٥١هـ/شهر نيسان عام ١٢٥٣م ، وتقرر الصلح بينهما ، ومن أهم بنوده :

أ - اعتراف الناصر يوسف الثاني بالدولة المملوكية ، وسيادتها على مصر وجنوب غرب بلاد الشام بما في ذلك نابلس وبيت المقدس وغزة (٢) .

ب - اعتراف المعز أيك بالسيادة الأيوبية على ما تبقى من بلاد الشام (٣) .

ج - إفراج المعز أيك عن أسرى معركة العباسية من أبناء الأمراء الأيوبيين الذين أبقاهم لديه في السجن بعد أن أطلق سراح الأسرى إثر المعركة ، واحتفظ بأبناء الأمراء فقط (٤) .

خاب أمل لويس التاسع إثر الصلح الأيوبي - المملوكي ، وبدأ له أن الاستيلاء على بيت المقدس أصبح حلمًا صعب المنال بل ما إن اطمأن الناصر يوسف الثاني للمماليك حتى أعلنها حرباً شعواء على الصليبيين ، وأمر القوات الأيوبية التي رابطت في غزة بمهاجمة المواقع الصليبية ، فبدأت بالهجوم على مدينة يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٥١هـ/شهر أيار عام ١٢٥٣م (٥) ، وحدد جوزيف يوسف عدد القوات الأيوبية التي هاجمت يافا حوالي ٢٠ ألف جندي نظامي

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٢٠ ، ص ٥٩-٦٧ ؛ ابن العميد : ص ٤٠-٤٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٨٥ .

(٢) ابن خلدون : ج ٥ ، ص ٤٣٢ ؛ العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٢٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٩٢ .

(٣) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٧٥ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٣٥١ ؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٤) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٧٥ ؛ ابن كثير : ج ١٧ ، ص ٣٢١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ ؛ المنهل الصافي ، ص ١٠ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٨ ؛ باريس : ج ٤٩ ، ص ١٤٢٣ ؛ رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٧٧-٤٧٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢٠٠ .

و ١٠ آلاف من البدو (١) , بينما أشار Grousset إلى أن الجيش النظامي ٢٤ ألف و ١٨ ألف من البدو (٢) , وهذه الأعداد مبالغ فيها لأن جوانفيل أعطى رقماً مقبولاً وهو " ثلاثة آلاف من (الجنود) المسلمين وعشرة آلاف من البدو " (٣) , ومن المحتمل أن هؤلاء البدو هم من أهالي المدن الفلسطينية الناقمين على الصليبيين , وقد انطلق الجيش الأيوبي من غزة , واتجه نحو الشمال , وعلى ما يبدو أن لويس التاسع علم بتحريك ذلك الجيش , ربما عن طريق جواسيسه , وقد كان مقيماً في يافا آنذاك , وقبل وصول الجيش الأيوبي بالقرب من يافا أمر لويس التاسع بإرسال فرقة استطلاعية لمراقبة تحركات خصومهم , كما كلف مقدم فرقة رماة سهام الزنبورك سيمون دي مونتيلارد بمهمة حراسة المعسكر الصليبي الموجود في يافا , وأشار جوانفيل إلى أن عدد فرسان هذه الفرقة حوالي مائة وثمانين مقاتل , بينما نوه جوزيف يوسف إلى أن عددهم بلغ مائتي وثمانين مقاتل , وبالفعل بقيت الحراسة مستمرة ثلاثة أيام بلياليها , ولكن الغريب في الأمر أن فرقة الحراسة قد تم تطويقها من قبل الجيش الأيوبي , ومن المحتمل أن أولئك الحراس لم ينتشروا على أطراف المعسكر الصليبي إنما اجتمعوا في مكان واحد توقعوا مرور القوات الأيوبية منه , مما أدى لتطويقهم , كما أن فرقة الاستطلاع كانت بعيدة عن الحدث , وإلا كانت أنذرت فرقة الحراسة قبل أن يتم تطويقها من قبل الجيش الأيوبي , وما إن تم تطويق فرقة الحراسة حتى وصل أحد الجنود إلى لويس التاسع يطلب منه النجدة , وقد كان لويس التاسع مشغولاً بسماع القداس , فأرسل جوانفيل على رأس " أربعمئة أو خمسمئة من الرجال الصليبيين " (٤) , لفك الحصار عن فرقة الحراسة , وما إن بدأت المناوشات حتى شعر الجيش الأيوبي أنه بين نارين وهما قوات جوانفيل من الخلف وفرقة الحراسة من الأمام , وهنا فكّ الجيش الأيوبي الحصار عن فرقة الحراسة , وتراجع إلى ربوة قريبة من المعسكر الصليبي حيث رابط على تلك الربوة بقية الجيش الأيوبي , مما يدل على أن القائد الأيوبي أبقى قسم من قواته على الربوة أما القسم الآخر هاجم فرقة الحراسة , ولو أن الجيش الأيوبي بأكمله هاجم فرقة الحراسة لأبادهها , وربما أبقى القائد الأيوبي قسم من قواته على الربوة للتدخل إذا ما اقتضت الضرورة , فضلاً عن مراقبتها لتحركات الصليبيين ,

(١) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٢) Grousset : op . cit , volume 3 , p505-506 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٨ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٩ .

وعندما أصبح الجيش الأيوبي بأكمله في أعلى الربوة , قرر الهجوم (١) .

أما لويس التاسع فأنزل إلى ساحة القتال فرقتين عسكريتين إحداهما قادها جوانفيل , والأخرى سيمون دي مونتبليارد , واحتفظ لويس التاسع ببقية الجنود جانباً , ونشبت المعركة في شهر ربيع الأول سنة ٦٥١هـ/شهر أيار سنة ١٢٥٣م , وعندما تغلبت القوات الأيوبية على الجيش الصليبي أنزل لويس التاسع حوالي مائة وعشرين مقاتل , فرجحت كفة الصليبيين , وأخذت القوات الأيوبية بالتراجع , فنزلت قوات أيوبية إضافية من أعلى الربوة , وقاتلت بشكلٍ مُذهل , وهنا تدخل النائب البابوي وبارونات مدينة يافا , وأخذوا يلومون لويس التاسع عندما رأوا بأن الجيش الأيوبي يفوق القوة الصليبية , فنصحوه بسحب قواته , وبالفعل ما لبث أن أمر قواته بالتراجع والتحصن داخل أسوار يافا , ولم يلحق بها الجيش الأيوبي (٢) , وانتهت معركة يافا , وأسفرت عن النتائج التالية :

أ — فقدَ لويس التاسع الأمل في الحصول على بيت المقدس بعد أن خسر صداقة الناصر يوسف الثاني , فقد كان بالأمر يستعجدي لويس التاسع , ويَعِدُهُ ببيت المقدس , لكنه ما لبث أن انقلب بشكلٍ فجائي عندما أدرك نواياه في ضرب القوتين الأيوبيه بالملوكية للحفاظ على الكيان الصليبي(٣) .

ب — انتصار الجيش الأيوبي على الصليبيين في معركة يافا , ولم يرغب القائد الأيوبي بمتابعة فلول الجيش الصليبي الذي ولى منهزماً , وتحصن داخل أسوار يافا (٤) , لأن يافا كانت حصينة بفضل جهود لويس التاسع , ولا يمكن للجيش الأيوبي الذي لم يحمل سوى الأسلحة الخفيفة أن يخترق أسوارها المنيعة, فأسوارها كفيلة بحمايتها , فضلاً عن الضربات التي يمكن أن يتلقاها فيما إذا حاصر المدينة (٥).

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٨-١٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢٠٠-٢٠١ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p505-506 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٨-١٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢٠١-٢٠٢ ؛ بدور : ص١٧٥ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p505-506 ; villeneuve : op . cit , p215-217 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٧٢-١٩٨ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٣ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية , الموسوعة , ج٣ , ص٤٠٩-٤١١ ؛

Stevenson : op .cit , p330-331 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٩ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٤٠٩ ؛ Edde : op . cit , p153-154 .

(٥) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٣ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان , ص٢٥٠ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١٠٩٣ ؛ Kedar: the franc , p274 .

ج - تراجع القوات الصليبية ، وهزيمتها أمام الجيش الأيوبي ، وقد صمدت في بداية المعركة لأن وجود لويس التاسع إلى جانبها أعطاهم دافع معنوي ، ولكنها عندما شعرت بأنها أوشكت على الخسارة أمر لويس التاسع بانسحابها من المعركة (١) ، وعلل جوانفيل بأن الجيش الأيوبي لم يتابع القوات الصليبية المتراجعة " لأنهم كانوا يعانون مع خيولهم من الجوع في غزة ، حيث أمضوا هناك حوالي سنة " (٢) ، وعلى ما يبدو أن جوانفيل ، لم يعترف بالهزيمة إنما اكتفى بالإشارة إلى أن القوات الأيوبية لم تكن مستعدة لمتابعة القتال ، علماً أن الصليبيين قد تركوا الجيش الأيوبي في أرض المعركة ، وعادوا ليحتموا داخل أسوار يافا .

وهكذا نجحت مساعي الخليفة العباسي في إطفاء جذوة الخلاف بين الأيوبيين والمماليك أملاً في التصدي لأكبر خطرين هددوا المشرق العربي الإسلامي ألا وهما الخطر الصليبي والخطر المغولي ، فانتهت حالة التوتر بينهما ، ولم يجد الناصر يوسف الثاني بداً من الاعتراف بشرعية السلطنة المملوكية في مصر ، وما إن عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي حتى انقلبت الموازين (٣) ، وتلاشت أحلام لويس التاسع بعد أن تسابق المماليك والأيوبيين في خطب ودّه وطلب رضاه ، ولكنهم انقلبوا عليه عندما بدأ الناصر يوسف الثاني بشن هجوم على الصليبيين في يافا ، ولم يمنع القوات الأيوبية من الارتداد عن يافا سوى الأسوار والحصون القوية التي أنشأها لويس التاسع لها ، ولم تكتف القوات الأيوبية بذلك بل واصلت هجماتها وتتابع مسلسل الهزائم الصليبية (٤) .

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٩ ؛ حبشي : ص ١٢٨ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p505-506 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٩٩ .

(٣) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٦٢-١٧٥ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٧٦-٤٧٩ ؛ ابن خلدون : ج ٥ ، ص ٤١٩ ؛ العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٠٨-٦٠٩ ؛ ابن الوردي : ج ٢ ، ص ٢٧٠-٢٧٤ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ١٧٢-١٩٨ ؛ باريس : الموسوعة ، ج ٤٩ ، ص ١٣٠٨-١٤٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٥٣-١٩٥٥ ؛ مونود : مج ٢ ، ص ٣٣٣-٣٣٩ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p501-506 ؛ Brellier : op . cit , p226-227.

٥ - الهجوم الأيوبي على المعقل الصليبي .

هاجم الجيش الأيوبي مدينة يافا , وفوجئ بالقوة العسكرية الصليبية التي تصدت له , وعلى الرغم من ذلك أحرز نصراً عليها , ولكنه لم يتجرأ على اقتحام أسوار يافا حيث وجدها حصينة منيعة وصعبة المنال (١), فتركها وانطلق نحو الشمال قاصداً عكا وما يجاورها من المواقع الصليبية , لعله يظفر بالسيطرة على عاصمة الكيان الصليبي أو على الأقل زعزعة الأمن الصليبي أملاً بالخلاص من وجوده, وإثر الهجوم على يافا تابع ذلك الجيش مسيره , وهاجم عكا ثم صيدا (٢) .

أ - مهاجمة الجيش الأيوبي لمدينة عكا .

انطلق الجيش الأيوبي من يافا قاصداً عكا , وقد دمر في طريقه حصن الداوك (تل الداعوق) وتل الكرادنة (خربة الكرادني) (٣) , ولم تشر المصادر الجغرافية أو التاريخية لهذين الموقعين , وهما حصنان بالقرب من عكا , والحصن أشبه بالقلعة , ولكنه يمتاز بصغر حجمه وضآلة أهميته (٤) , وإثر تدمير الحصنين أصبح الجيش الأيوبي يدق أبواب عكا , وقد كان قائد الحامية الصليبية في عكا آنذاك يُوحنا الثالث دي إبلين كونت أرسوف , فأرسل قائد الجيش الأيوبي إنذاراً إليه , وتضمن الإنذار تهديد يُوحنا الثالث بدفع مبلغ خمسين ألف بيزنطة , وإلا فإن الجيش الأيوبي سوف يدمر المزارع والحقول المحيطة بمدينة عكا فرد عليه (٥) , " بأنه لن يعطيهم ولا بيزنطة واحدة " (٦) , مما أدى لزحف الأيوبيين حتى غدوا على مقربة من أسوار عكا , بينما خرج يُوحنا الثالث دي إبلين على رأس الحامية الصليبية من عكا , وتمركز مع قواته على جبل القديس يُوحنا بجانب مقبرة القديس نيقولا, واستهدف حماية الحقول والبساتين , كما تقدمت من عكا فرقة المشاة التابعة للملك الفرنسي لويس التاسع , وقد بدت مدججة

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٨-١٩٩ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩, ص١٤٢٣ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p506 .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٣ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ ؛ Edde : op . cit , p154 .

(٣) ابن الجزري : ص٢٣٢ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٤٠٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٣ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p506 .

(٤) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢٠٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٩٩-٢٠٠ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١٠٩٣ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على

بلاد الشام , ص٢٠٣-٢٠٤ ؛ حومد : ج٢ , ص٣٠٤ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص٢٠٠ .

بالرمح والقسي ، وما إن وصلت حتى شرعت في مناوشة الجيش الأيوبي ، ومن الملاحظ أن فرقة المشاة خرجت من عكا دون أن تتلقى الأوامر من يُوحنا الثالث الذي رأى ضرورة بقاء تلك الفرقة داخل عكا للدفاع عنها ، وبخاصة أنها تألفت من المشاة بينما كان الجيش الأيوبي من الفرسان ، وفي هذه الحالة من الصعب أن يصمد المشاة أمام الفرسان ، فأراد يُوحنا الثالث إبقاء فرقة المشاة داخل أسوار عكا كي يتولى مع فرسانه مواجهة الفرسان الأيوبيين ، وأرسل يُوحنا الثالث أحد فرسانه ويدعى جيانون (Gianone) الجنوي الأصل لإبلاغ أوامره إلى فرقة المشاة ، وبالفعل أوصل أوامره ، وفي طريق عودته رأى أحد الفرسان المسلمين فدعاه جيانون إلى المبارزة متكلماً معه باللغة العربية ، فرد عليه الثاني بأنه يسره ذلك ، وتظاهر جيانون بأنه انطلق لمنازلة الفارس المسلم ، لكنه ما لبث أن انحرف نحو مجموعة صغيرة من المسلمين تألفت من ثمانية أفراد ، وقفت لتشهد المبارزة ، فاخترق المجموعة برمح الطويل ، فأردى أحد فرسانها قتيلاً ، فهاجمه بقية فرسان المجموعة ، وهنا أسرع عائداً إلى الجيش الصليبي ، وقبل وصوله أدركه أحد فرسان المجموعة ، فضربه بدبوس على خوذته الفولاذية ، ورد عليه جيانون بضربة سيف على رأسه أطاحت بعمامته وسط الحقل ، ثم اندفع نحوه فارس مسلم أراد توجيه ضربة رمح له بين كتفيه ، فضرب الرمح بسيفه وطار من يد خصمه ، وكانت تلك المغامرات والمشاهد المثيرة التي قام بها جيانون على مرأى القائد الصليبي وجنوده ، والنساء الصليبيات اللواتي وقفن خلف أسوار عكا (١) ، وإثر تلك المناوشات الفردية التي قد يشوبها شيء من المبالغة لم يصطدم الجيش الأيوبي مع الصليبيين بعد أن عاد المشاة إلى داخل عكا للدفاع عنها بينما بقي فرسانهم وجهاً لوجه مع الجيش الأيوبي ، وهنا فَضَلَ قائد الجيش الأيوبي عدم الاصطدام معهم (٢) ، بعد أن رأى أسوار عكا القوية فقط كفيلة بتأمين حماية الصليبيين الموجودين بداخلها ، ويعود الفضل في حصانتها إلى لويس التاسع الذي جعلها على درجة عالية من الحصانة والقوة تحسباً لأي هجوم إسلامي كهذا ، وأمام متانة أسوار عكا ، واستعداد الجيش الصليبي للدفاع عنها انسحب الجيش الأيوبي

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٠٠-٢٠١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢٠٤-٢٠٥ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p506 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٠٠-٢٠١ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p506 .

لعله يجد غنيمةً أسهل من عكا (١) .

ب - مدهامة الجيش الأيوبي لمدينة صيدا .

استعصت الكثير من المواقع الصليبية على الجيش الأيوبي لحصانتها ومتانة أسوارها , ولكن ذلك الجيش لم ييأس , فاتجه نحو صيدا (٢) , وتوقع لويس التاسع بأن الجيش الأيوبي سيهاجم صيدا بما أنها في طريقه إلى دمشق , كما أنها ضعيفة التحصين , وقد كان لويس التاسع في يافا , فأسرع في إرسال قوة عسكرية صغيرة رافقت البنائين والحجارين إلى صيدا من أجل زيادة تحصينها , وتقوية استحكاماتها العسكرية , ومن المحتمل أن ذلك الجيش علم بذلك , وعرف بأن صيدا ضعيفة التحصين مقارنة مع المدن الأخرى التي هي تحت سيطرة الصليبيين , والتي هاجمها قبل صيدا , وهذا ما أدى لانطلاق الجيش الأيوبي نحو صيدا , وقد وصلها في شهر ربيع الثاني سنة ٦٥١هـ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م (٣) .

اقتحم الجيش الأيوبي صيدا في الوقت الذي انشغل فيه العمال والبنائين في إعمار أسوارها , فسارع سيمون دي مونتبيليارد الذي كان رئيس فرقة القسي العقارة في صيدا وقائد للقوات الصليبية التابع للويس التاسع بالانسحاب إلى قلعة صيدا الحصينة حيث أحاطت بها المياه من معظم جوانبها , لعل تلك القلعة تؤمن لهم الحماية بعد أن أدرك بأنه غير قادر على مواجهة جيش أيوبي بتلك القوة , وعلى ما يبدو لم تتسع القلعة لسكان صيدا , فضاعت بالفارين إليها من الصليبيين , وعندما هاجمها الجيش الأيوبي لم يجد مقاومة تذكر , لأن معظم الصليبيين تحصنوا في القلعة (٤) , وعلى الرغم من تحصنهم داخل القلعة ذهب ضحية الهجوم الأيوبي كما حدد جوانفيل : بأنهم " قد قتلوا ما يزيد على ألفين ثم غادروا المدينة " (٥) , أما صاحب تاريخ هرقل فأشار إلى أن الأيوبيين " قتلوا ثمانمائة أو أكثر من الناس

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠١-٢٢٢ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ . ص ١٤٠٩-١٤٢٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٢-١٩٩٣ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٨-٣٣٩ ؛ حبشي : ص ١٢٨ ؛

Edde : op . cit , p154 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٩-٢٠١ ؛ الدبس : ج ٦ , ص ٢٤٨ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩٣-١٠٩٤ ؛ حبشي : ص ١٢٨ ؛

(٣) villeneuve : op . cit , p218-220 ; Edde : op . cit , p154 .

جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٠٦-٢٠٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠١ ؛ ابن الجزري : ص ٢٣٢ . رنسيما : ج ٣ , ص ٤٧٨ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p506-507 ; Tible : op . cit , p173 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠١ .

وحملوا أربعمائة أو أكثر أسرى وبنائين وسواهم " (١) , ويُرجح رأي جوانفيل لأن صاحب تاريخ هرقل غير متأكد من العدد الصحيح للقتلى لأنه حدد الرقم ثمانمائة أو أكثر , وهذا يؤكد عدم تأكده من العدد

الحقيقي للقتلى , ولكن هرقل أضاف فكرة جديدة بتحديد عدد الأسرى , وهذا ما لم يذكره جوانفيل ,
بينما عبّر مكسيموس مونرود عن كثرة عدد القتلى عندما نوه بأن أرض صيدا كانت مليئة بأجساد أولئك
المساكين (٢) , لكن ما الذي أجبر أولئك المساكين على غزو بلاد المسلمين ؟

لم يُجبرهم سوى الطمع وحب السيطرة على الآخرين , وقد توقعوا بأنهم سينالوا من المسلمين دون أن يتجرأ
أحد على مجابتههم , ولكنهم أدركوا وتأكدوا بأن الطريق أمامهم مليئة بالصعاب , ولا ينتظرهم سوى الموت
على أيدي الفرسان المسلمين .

وعندما علم لويس التاسع بما حلّ في صيدا كان وقع النبأ عليه قاسياً , فغضب لذلك الأمر , وتمنى
للبارونات لو أنه استطاع تعويض الخسائر التي حلت بهم , ثم عقد العزم على إعادة تحصين صيدا خوفاً من
هجوم إسلامي آخر قد يؤدي لسقوطها بأيديهم , وبالفعل قصد صيدا في شهر جمادى الأولى سنة
٦٥١هـ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م لتخفيف آلامها , وتقوية دفاعاتها العسكرية (٣) .

وهكذا لم تذهب جهود لويس التاسع سُدى , فقد كانت التحصينات التي أنشأها بمثابة درعٍ واقٍ
أدى لتأمين الحماية للمعاقل الصليبية , فلم يستطع الجيش الأيوبي أن ينال من المدن الحصينة كيافا وعكا
وغيرها من المدن , وقد وقف عاجزاً أمام أسوارها لا حول ولا قوة له , بينما اجتاحت صيدا التي لم ينته
تحصينها بعد , وكادت أن تسقط مدينة صيدا , ولكن القلعة الحصينة فيها كانت ملاذاً للفارين , مما أطال
في عمرها (٤) , وهنا سارع لويس التاسع بالتوجه إلى صيدا ليرى الكارثة التي حلت بها لعله يستطيع مداواة
جراحها , والثأر للقتلى والأسرى (٥) .

(١) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٣-١٩٩٤ .

(٢) مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٩ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ . عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ ,
ص١٠٩٤ ؛ Stevenson : op . cit , p331 . Grousset : op . cit , volume3 , p506-507 ;

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠١-٢٠٩ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص١٠٩٣-١٠٩٤ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p505-507 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠١-٢٠٧ ؛ حومد : ج ٢ , ص٣٠٤-٣٠٥ ؛

Edde : op . cit , p154 ; Tibl : op . cit , p173 .

٦- الهجوم الصليبي على بانياس .

أغار الجيش الأيوبي على المواقع الصليبية فدك أسوارها وألحق بها أضراراً بالغة في الأرواح والأموال (١) , فقررَ لويس التاسع الماضي في أعمال التحصين التي كان قد بدأ بها منذ وصوله إلى مملكة عكا لتأمين حماية الصليبيين (٢) , كما أراد أن يُرد على الأيوبيين رداً عنيفاً , فقرر مهاجمتهم في عقر دارهم كي يضع حداً لتعدياتهم المتكررة على الكيان الصليبي , فسار على رأس جيشه الصليبي من يافا قاصداً صيدا , وقبل أن يصل إليها نزل في صور التي كان يحكمها فيليب دي مُونتيغورث آنذاك , وفي صور عقد اجتماعاً حضره كبار رجال دولته, مقترحاً إرسال حملة عسكرية لمهاجمة مدينة بانياس , ووافق الجميع على اقتراحه لسببين وهما (٣) :

أ — إن بانياس كانت من أملاك الملك الأيوبي السعيد عثمان بن العادل حتى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م , ثم جرّده منها الناصر يوسف الثاني صاحب دمشق (٤) , وقد وافق الصليبيون على مهاجمتها (٥) , لأنها من أملاك الناصر يوسف الثاني الذي وجه ضربات قاسية للكيان الصليبي (٦) .

ب- توقع الصليبيون أن الاستيلاء على بانياس أمراً سهلاً لأنها مُحاطة بالمدن والقلاع التي سيطر الصليبيون عليها مثل قلعتي شقيف أرنون وشقيف تيرون , وحصني هُونين وتِينين , ومدينتي صفد والناصر (٧).

ج- رغب الصليبيون بمهاجمة بانياس لأنهم إذا ما استولوا عليها أصبح من السهل عليهم السيطرة على دمشق , كما أنها امتازت بموقعها التجاري فقد عُرفت بانياس لديهم باسم قيسارية (٨) ,

(١) ابن الجزري : ص ٢٣٢ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٤٠٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٩٣ ؛

Villeneuve : op . cit , p215-220 ; Stevenson : op . cit , p330-331 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠١-٢٠٢ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٨-٣٣٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٢-٢٠٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢٠٨-٢١٣ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p506-507 .

(٤) ابن شداد : الأعلام الخطيرة , ص ١٤٢-١٤٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٩٩-٢٠٧ .

(٦) ابن الجزري : ص ٢٣٢ .

(٧) أبو الفداء : تقويم البلدان , ص ٢٤٥-٢٤٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢١٦ .

(٨) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧ .

والقيسارية مجموعة حوانيت في الأسواق , وهذا يدل بأن بانياس اشتهرت بكثرة أسواقها فأطلق الصليبيون عليها قيسارية (١) .

انقسم الجيش الصليبي إثر الاجتماع الذي عُقد في صور إلى قسمين : القسم الأول وقد ضم ثلة قليلة من الجيش انطلق على رأسها لويس التاسع قصدت صيدا , أما القسم الثاني فتألف من غالبية الجيش الصليبي الذي قرر مهاجمة بانياس (٢) , وقد عَهِدَ لويس التاسع إلى العديد من القادة للإشراف على الجيش (٣) , ثم سار الجيش الصليبي مع بزوغ الفجر , وقد تم تنظيمه إلى المقدمة التي شكلتها منظمة الداوية , أما الميمنة فشكلتها الاستبارية , وشكل صليبي مملكة عكا الميسرة , بينما شكلت القوات الفرنسية وفرسان التيوتون قلب الجيش .

وضع الصليبيون خطة لاقتحام بانياس قامت على تكليف المقدمة بالتمهيد للهجوم , ثم تقوم الميمنة والميسرة بشن هجومين متباعدين من نقطتين مختلفين لعل أحد الهجومين يؤدي لاختراق أسوارها , مما يساعد على تدفق بقية الجيش إلى المدينة , كما أنهم استهدفوا من القيام بهجومين في آن واحد وفتح أكثر من جبهة على المدافعين من أبناء بانياس , بينما كانت مهمة القلب منع التواصل بين بانياس وقلعة الصبيبة وتحقيق هدفين : الأول منع وصول الإمدادات من الصبيبة , أما الثاني فقد أرادوا نصب كمين للفارين من أبناء بانياس نحو الصبيبة (٤) , المجاورة لها , وإذا ما نجحت الخطة واستولوا على بانياس , تابع الجيش الصليبي بأكمله شن هجوم عام على قلعة الصبيبة (٥) .

(١) المقرزي , أحمد : خطط المقرزي , تح : أحمد سيد , مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي , لندن , ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م , مج ٣ , ص ٢٩٦ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507 .

(٣) قادة الحملة الصليبية على بانياس هم : فيليب مُونتيغورث صاحب صور الذي قاد صليبي بلاد الشام , وتزعم وليم شاتنوف فرسان الاستبارية , وعلى رأس الداوية توماس بيرار , أما القوات الفرنسية فقادها يُوحنا كونت أيو والمارشال الفرنسي جايل دي برن والفارس جيفري سارجين وجوانفيل , وانضم فرسان التيوتون إلى القوات الفرنسية . جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢١٤-٢١٩ .

(٤) قلعة الصبيبة : تقع إلى الشرق من بانياس , وتُعد من القلاع المنيعه , وكانت ملاذاً لأهالي بانياس فيما إذا تعرضوا لأي هجوم معادي . أبو الفداء : تقويم البلدان , ص ٢٤٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢١٤-٢١٧ .

Grousset : op . cit , volume 3 , p207-208 ; Edde : op . cit , p154 .

ويلاحظ بالرغم من اهتمام جوانفيل الكبير بأحداث الحملة على بانياس إلا أنه لم يحدد تاريخها , ولكن بما أن الجيش الأيوبي هاجم صيدا في شهر ربيع الثاني سنة ٦٥١هـ / حزيران عام ١٢٥٣م , فيُرجح أن

تاريخ الهجوم الصليبي على بانياس بعد هذا التاريخ بشهر أو شهرين كحد أقصى لأن الرد الصليبي جاء بشكل مباشر , فما إن سمع لويس التاسع بأبناء الهجوم الأيوبي على صيدا حتى سارع في المسير من يافا إلى صور , ومن صور أرسل حملته على بانياس (١) .

زحفت القوات الصليبية نحو بانياس وفقاً للخطة المرسومة وبدأت مقدمة الجيش بالتمهيد للهجوم , ثم تابع القلب الذي ضم القوات الفرنسية محاولة اقتحام أسوار بانياس , فتصدى لهم المسلمون , لكن جوافيل قاد مجموعة من الفرسان وتصدى للمسلمين وأرغموهم على التراجع (٢) , وبعد ذلك انطلق جوافيل مع فرسانه من أجل التمرکز على الطريق الواصل بين بانياس وقلعة الصبيبة , ولكن ذلك الطريق امتاز بوعورته الشديدة " وبصعوبة بالغة كان يمكن للفرس الاحتفاظ بحوافره على الأرض دون السقوط " (٣) , فضلاً عن الأعداد الكبيرة من الجنود المسلمين الذين انتشروا في قمة الجرف الصخري الواصل بين بانياس وقلعة الصبيبة (٤) , وهنا نجحت الميمنة والميسرة الصليبية في اختراق أسوار بانياس , ويُرجح أن أسوارها لم تكن متماسكة حتى استطاع الفرسان الصليبيين تهديمها واختراقها , والدليل على ذلك , فقد استطاع الفرسان القيام بهذه المهمة مع العلم أن اجتياز الأسوار من اختصاص المشاة المُرَوِّدين بالمجانيق والكباش , ولكن أسوار بانياس كانت مُتداعية وغير متينة , مما أدى لاقتحامها من قبل الفرسان الصليبيين الذين توغلوا إلى داخل المدينة (٥) , عندها ضعفت مقاومة المسلمين هربوا إلى قلعة الصبيبة للتحصن بها , ولم تستطع قوات قلب الجيش الصليبي والتي كُلفت بنصب كمين لأبناء بانياس الفارين من مدينتهم إلى الصبيبة (٦) أن تقوم بأداء مهمتها , وذلك لسببين وهما :

أ — إن المهمة التي أُوكلت لقلب الجيش الصليبي القيام بنصب كمين للمسلمين الفارين من بانياس إلى الصبيبة فقط , بينما لم يتقيد القلب بالأوامر , وراح يُهاجم أسوار المدينة , ولم يبقَ منهم سوى جوافيل

(١) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠١-٢٠٧ .

(٢) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢١٧-٢١٨ .

(٣) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٨ .

(٤) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٢٢٥ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٥) جوافيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٨ ؛ Edde : op . cit , p154 ; Stevenson : op . cit , p331 .

(٦) الدبس : ج٦ , ص٢٤٨ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١٠٩٤ .

مع مجموعة من الفرسان للقيام بتلك المهمة , فلم يُنجزوا مهمتهم على أكمل وجه .

ب - إن طبيعة الطريق الذي سلكه المسلمين من بانياس نحو الصبيبة كان جُرفاً صخرياً وعراً , ولا يمكن للفرسان الصليبيين الذين لحقوا بهم القتال في ذلك المكان , فكان من الأفضل لو وضعوا مجموعة من المشاة لأن الخيول غير قادرة على الحركة بحرية على ذلك الجرف , بينما كان الفارين من المسلمين مُعظمهم من المشاة , مما مكّنهم من المناورة بشكل أكبر من أجل مُتابعة سيرهم إلى الصبيبة (١) .

وجدير بالذكر أن جوانفيل ومجموعة الفرسان الذين كانوا تحت قيادته لم يستطيعوا التصدي للمسلمين الهاربين نحو الصبيبة فحسب بل وقعوا في حُطَر , وكادوا أن يهلكوا لولا وصول مجموعة من فرسان منظمة التوتون في الوقت المناسب (٢) , وهنا أخذ جوانفيل بإثارة الحماس الديني لدى الفرسان الصليبيين , فاستطاعوا هزيمة المسلمين الذين لاذوا بالفرار إلى قلعة الصبيبة (٣) .

وعلى هذا لم يستطع أبناء بانياس التصدي للجيش الصليبي , فوقع بانياس في براثن الصليبيين , لأن أسوارها لم تكن كما يجب أن تكون عليه من القوة , فتداعت أمام أضعف الضربات الصليبية لها (٤) , كما يعود نجاح الصليبيين في الاستيلاء على بانياس إلى تطبيق الخطة الصليبية بحذافيرها إلى حدٍ ما , باستثناء قلب الجيش الصليبي الذي لم يتقيد بها , ولم يقوم بمهمته في القضاء على الفارين من المسلمين (٥) , فوجد المسلمون في قلعة الصبيبة مكاناً آمناً وحصيناً لحمايتهم (٦) , وإعادة تنظيم أنفسهم , ويمكن الإشارة إلى أن الجيش الصليبي التزم بالخطة , فنجحوا في الاستيلاء على بانياس , ولكن القلب لم يتقيد بها , فوقع الصليبيون في ورطة عندما هاجموا قلعة الصبيبة (٧) .

Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧-٢٠٨ ؛

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(٣) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ٢٣١ .

(٤) الدبس : ج ٦ , ص ٢٤٨ ؛ حبشي : ص ١٢٨-١٢٩ ؛

Stevenson : op . cit , p 330-331 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧-٢٠٨ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٦) أبو الفداء : تقويم البلدان , ص ٢٤٩ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩٤ ؛

Edde : op . cit , p154 .

(٧) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧-٢٠٩ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p507-509 .

٧- هزيمة الصليبيين في الصبيبة .

ما إن استولى الجيش الصليبي على بانياس حتى تابع المسير إلى قلعة الصببية (١) ، وأخذ يرنو بنظره إلى تلك القلعة الرابضة في أعالي شعاب أحد جبال لبنان الشرقية والذي عُرف بالحرمون قديماً أما حديثاً فعُرف بجبل الشيخ (٢) ، بينما أطلق عليه أبو الفداء جبل الثلج لأن الثلج قد غطى قمة الجبل صيفاً وشتاءً ، تلك القلعة عُرفت بقلعة الصببية ، وقد جثمت في أعالي الشعاب الجبلية (٣) ، وقد كانت الخطة الصليبية تقوم على مسير الجيش الصليبي بأكمله نحوها ، ولكن فرسان منظمة التيوتون لم يتقيدوا بالخطة ، وسارعوا بمفردهم لاقتحام قلعة الصببية .

فرَّ أهالي بانياس تاركين مدينتهم للجيش الصليبي الذي نهب المدينة ودمرها ، ثم قرر الجيش الصليبي الالتحاق بالفرسان التيوتون الذين سبقوا الجيش في مطاردة فلول أبناء بانياس الفارين نحو الصببية ، بينما انشغل بقية الجيش بتمشيط المنطقة (٤) ، وقد خشي جوانفيل من مغبة الأمر وخاف على فرسان التيوتون من المسلمين ، فأخذ يناديهم : " أيها السادة إنكم تبتعدون عن الصواب بما تقومون به ، فنحن في موقع أمرنا باحتلاله ، وأنتم تتجاوزون الآن أوامركم " (٥) ، ولم يستطع كونت أيو قائد قوات القلب كبح جماح التيوتون ، ولم يقدر أن يضع حداً لتهورهم على الرغم من أن التيوتون كانوا جزءاً من قوات القلب ، وجدَّ فرسان التيوتون في المسير حتى وصلوا مشارف قلعة الصببية غير مبالين بالعواقب ، وعندما نظروا إلى أسفل الجرف الصخري المحيط بالقلعة أدركوا أنهم وحيدون في المعركة لأن الجيش الصليبي بأكمله كان لا يزال في بانياس ويحتاج إلى وقتٍ وجهدٍ كبير حتى يصل إليهم فشعروا بالخطأ الفادح الذي ارتكبوه ، فقفلوا راجعين ،

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٠٨ ؛

Stevenson : op . cit , p331 ; Edde :op . cit , p154 .

(٢) فينر : ص ٥٢ .

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٩ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٠٥-٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢١٨-٢١٩ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٠٩ .

لكنهم فوجئوا بأبناء بانياس الذين استردوا شجاعتهم ونظموا أنفسهم وخرجوا من الصببية هم وأبناء الصببية ، وأحاطوا بالتيوتون ، وكان المسلمين مشاة لأن الخيل عديمة الفائدة على ذلك الجرف الصخري ، وأخذ المسلمون يرموهم بالرماح كما رشقوهم بالسهم ، فأسرع التيوتون مهولين نحو الورا حيث الجيش الصليبي

(١) , وعندما شاهد الصليبيون ذلك الموقف " بدؤوا يشعرون بالخوف وتنهار عزائمهم " (٢) , وشعر جوانفيل بتخاذل الجنود الفرنسيين الذين كانوا برفقته , فهددهم بالطرد من جيش لويس التاسع إذا ما تراجعوا عن المسير نحو الصبيبة وإنقاذ التيوتون (٣) , وعلى ما يبدو أن المجموعة التي رافقت جوانفيل كانت من المشاة , وكان هو الوحيد الذي امتطى جواداً , فأشار له جنود تلك المجموعة أن ذلك ليس عدلاً , لأنه إذا ما داهمهم الخطر فبإمكانه النجاة بنفسه بما أنه يركب حصاناً , فترجل جوانفيل , وسلم حصانه إلى فرسان الداوية الذين ساروا خلف مجموعتهم , ثم جدوا في المسير نحو الأعلى لإنقاذ التيوتون (٤) .

بدأت المناوشات بين جنود جوانفيل والمسلمين على ذلك الجرف الصخري , فأتى سهم أصاب جين دي اسكوت أحد جنود جوانفيل الذي سقط ميتاً على الأرض , وهنا أراد عمه هُوغو دي اسكوت (Hok du escot) حمل جثته , وطلب من جوانفيل مساعدته في ذلك , فرفض الثاني مساعدته لأن هُوغو كان أحد الفرسان الذين انضموا إلى التيوتون , وساروا إلى الصبيبة دون أن يتلقوا الأوامر من أحد , مما أوقع الجيش الصليبي في أزمة , وسعى جوانفيل ورجاله لكسر طوق الحصار الذي فرضه المسلمون عليهم , بينما لا يزال بقية الجيش الصليبي في بانياس , وعندما وصلتهم أنباء الخطر المحدث بالتيوتون ورجال جوانفيل , توسل حاكم حيفا جان دي فالنسيين

(Jan du Valencienne) لقادة الجيش الصليبي للإسراع بإنقاذهم , فأرسلوا أولفر دي تيرم (Oliver du Terme) أحد الفرسان الفرنسيين وقد قاد الجنود الفرنسيين , بينما بقي صليبي مملكة عكا في بانياس تحسباً لأي هجوم طارئ , ووصل أولفر إلى أرض المعركة , ورأى

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٨-٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢١٨-٢١٩ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٩ .

Grousset : op . cit , volume 3 , p508 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٩ ؛

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص ٢١٩ .

خطورة الموقف أمام الأعداد الكبيرة من المسلمين التي خرجت من الصبيبة لمواجهة العدوان , فاقتراح على جوانفيل خطة للنجاة (١) , قامت على عدم متابعة الجيش الفرنجي النزول إلى بانياس لأن المسلمين كانوا يتعقبونهم , فأرادوا إيهاهم المسلمين أنهم أرادوا الالتفاف عليهم من خلف الجبل كي يهاجموا قلعة الصبيبة في الوقت الذي أشعل فيه الصليبيون النيران في حقول القمح , فانطلت الحيلة على المسلمين ظناً منهم أن

الفرنج سيهاجمون قلعتهم من الخلف كما أُجبروا على التراجع بعد أن شاهدوا النيران الملتهبة تلتهم حقولهم , فهرعوا لإطفاء الحرائق , بينما استطاع الجيش الصليبي بأكمله الفرار نحو صيدا تاركاً بانياس والصبيبة للالتحاق بلويس التاسع (٢) , وبذلك نزلت هزيمة نكراء بالجيش الصليبي أمام قلعة الصبيبة , ومن الأسباب التي أدت لهزيمتهم :

أ - إن العامل الجغرافي والموقع الحصين لقلعة الصبيبة (٣) أعاق تقدم الصليبيين من بانياس إلى الصبيبة حيث سلكوا جرفاً صخرياً وعراً لا يمكن للفرسان أو المشاة المسير عليه إلا بِشَقِّ الأنفس , والمسير في طريق كهذا أشبه بالانتحار (٤) .

ب - إن غياب لويس التاسع عن ساحة المعركة أثر على سير الأحداث , وبخاصة مع تعدد القادة , فلم يُعين لويس التاسع قائداً عاماً للجيش إثر مسيره إلى صيدا , إنما سلم قيادة الجيش لعدد من القادة , مما أدى لانعدام القرار الموحد , والتعاون بين وحدات الجيش الصليبي (٥) .

ج - عدم تقيّد قوات قلب الجيش الصليبي بالأوامر , وقد قاد كونت أيو تلك القوات حيث تم تكليفه بالقضاء على المسلمين الفارين من بانياس نحو الصبيبة , بينما راحت قوات القلب , وانقسمت إلى قسمين قاد القسم الأول كونت أيو وهاجم بانياس , أما القسم الثاني من قواته والذي مثله الثيوتون فقد أخذوا بمطاردة فلول المسلمين حتى وصلوا مشارف قلعة الصبيبة ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٩-٢١٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢١٩-٢٢٠ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p508-509 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢١٠-٢١١ ؛ الدبس : ج٦ , ص٢٤٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٢٢٥ ؛ حسين

عبد الوهاب : جماعة الثيوتون , ص٢٦٥ ؛

Edde : op . cit , p154 .

Grousset : op . cit , volume 3 , p508 .

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان , ص٢٤٩ ؛ فينر : ص٥٢ ؛

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٩ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٢٢٥ .

Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص١٧٥-١٧٦ ؛

وهنا قوات القلب بأكملها لم تتقيد بالخطة أبداً (١) .

د - لم يستكين أبناء بانياس الذين فروا نحو الصبيبة , فأعادوا تنظيم أنفسهم بالاتفاق مع أهالي الصبيبة , وشنوا هجوماً موحداً على الصليبيين , كما أنهم اعتادوا المسير على تلك المنحدرات المليئة بالصخور

والحجارة , ولا غرابة في ذلك فهم قد وُلدوا على تلك البقاع , وعاشوا عليها فكانوا أقدر على التعامل مع أرضهم من غيرهم (٢) .

وصلت فلول الصليبيين إلى صيدا تجر ذيول الخيئة حيث كان لويس التاسع قد اندهل بما فعله الجيش الأيوبي بأهالي صيدا حيث تناثرت جثث القتلى هنا وهناك في أرجاء المدينة (٣) , فلم يكثر أمام تلك المصيبة بالهزيمة التي حلت بجيشه في الصبية , فأخذ لويس التاسع والنائب البابوي في البحث عن بقعة لدفن الموتى , ثم حفروا مقبرة جماعية لجميع القتلى , وأظهر الكثير من الجنود الصليبيين اشمئزازاً من مناظر الجثث , فترجل لويس التاسع من على حصانه " وحمل بذاته بعض الجثث المتهرئة وذات الرائحة النتنة إلى الحفرة الكبيرة " (٤) , فحذا حذوه بقية الصليبيين مع أنهم اضطروا لسد أنوفهم تفادياً للرائحة المنبعثة من الجثث باستثناء لويس التاسع الذي أظهر الحزن والأسى على أولئك القتلى , وقد استغرقت عملية الدفن خمسة أيام , ثم أقاموا الصلاة الجنائزية على مقبرتهم (٥) , وإثر دفن موتى صيدا شرع لويس التاسع بإعادة ترميم أسوار صيدا كي تكون قوية منيعة إذا ما هاجمها المسلمون (٦) .

وعلى هذا فقد أخطأ لويس التاسع خطأ فادحاً عندما ترك الجيش الصليبي يُهاجم قلعة الصبية دون تعيينه قائد محدد لذلك الهجوم , وهذا ما أدى لعدم انصياع كونت أيو للخطوة الموضوعة ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٠٧-٢٠٩ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون , ص ٢٦٥ .

(٢) الدبس : ج ٦ , ص ٢٤٨ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩٤ . Edde : op . cit , p154 .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٩ ؛

Villeneuve : op . cit , p218-220 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢١١ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢١١ ؛ الدبس : ج ٦ , ص ٢٤٨ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٣٩ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢١١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١٠٩٤ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p509 ; Tible : op . cit , p173 .

كما تسرع فرسان التيوتون في مهاجمة الصبية , مما أوقع الصليبيين في خطر (١) , وإن هذا التهور أشبه بما حصل مع روبرت كونت أرتوا الذي ارتكب حماقة كبرى عندما اجتاز مع طليعة الجيش الصليبي أشموم طنح , ثم أصر على مهاجمة مدينة المنصورة دون أن يأخذ موافقة أخيه لويس التاسع في الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي لم يعبر فرع أشموم طنح بعد , مما أوقعهم في كمين داخل أسوار المنصورة لم ينج منه إلا

القليل , وكان في مقدمة القتلى رُوبرت كونت أرتوا (٢) , أما هنا فإن حماس فرسان التيوتون في مهاجمة قلعة الصببية أدى لإرباك الجيش الصليبي الذي لم يعد قادراً على الاستيلاء على الصببية فحسب بل خسر مدينة بانياس بعد أن دخلها , ولأذ بالفرار إلى صيدا لدفن الجثث التي سببها الهجوم الأيوبي عليها , وبدلاً من أن يثاروا لأولئك القتلى حلت بهم هزيمة نكراء , وبذلك توالى الخسائر الصليبية أمام العرب المسلمين (٣) .

-
- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٠٧-٢١٠ ؛ الدبس : ج٦ , ص٢٤٨ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون , ص٢٦٤ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .
- (٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٢٥-١٩٢٧ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩١-١٩٩٢ ؛
عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١٠٦٩ ؛
- Villeneuve : op . cit , p123-125 ؛ Dagen : op . cit , p72 .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢١٠-٢١١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام , ص٢١٩-٢٢١ .

٨- عودة لويس التاسع إلى فرنسا .

بينما كان لويس التاسع منشغلاً في تحصين مدينة صيدا , وصله نبأ وفاة والدته بلانشيه التي نابت عنه في تدبير المملكة الفرنسية , فانزوى حزناً , ورأى بأنه لا يوجد من يضاهيها في الجلوس على عرش فرنسا , فخشي من حدوث القلاقل والاضطرابات في المملكة الفرنسية (١) , في الوقت الذي اشتعلت فيه الحروب

مع الأيوبيين , وساءت أوضاع الصليبيين إثر الضربات القاسية التي نزلت بهم على أيدي الأيوبيين (٢) , وهذا ما جعل لويس التاسع في حيرة من أمره حول البقاء في مملكة عكا أو العودة إلى فرنسا (٣) .

شعرت الملكة الفرنسية بدنو أجلها , فلبست لباس الحجاج الأبيض , ووضعت فوقه التاج الملكي , واستعدت للرحيل عن الدنيا , وطلبت من الحاشية الملكية أن يدفنها في دير للراهبات كانت قد أشرفت بلانشيه على تأسيسه (٤) , وفي شهر رمضان سنة ٦٥٠هـ/شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٢م توفيت بلانشيه , وشيَّعت فرنسا ملكتها الراحلة وسط أجواء الحزن والأسى (٥) , وغدت فرنسا إثر موت بلانشيه مسرحاً للفوضى حيث تولى مقاليد الحكم ابنها شارل كونت أنجو , ولم يتمكن أخيه ألفونسو من مشاركته في الإدارة بسبب مرضه (٦) , وظهرت مطامع انكلترا وألمانيا في الأملاك الفرنسية سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٣م , وهذا ما أدى إلى صراعات دامية تطلبت وجود لويس التاسع لإنقاذها (٧) .

لم يصل نبأ وفاة بلانشيه إلى لويس التاسع حتى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ,

-
- (١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢١٧-٢١٨ . مونرود : مج٢ , ص٣٣٩ ؛ الدبس : ج٦ , ص٢٤٨-٢٤٩ .
- Aziz : op . cit , p21300 . Villemeuve : op . cit , p220-223 ;
- (٢) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٤٠٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ .
- (٣) رنسيما : ج٣ , ص٤٨٣ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص٣٣٣ .
- (٤) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٣٦٢-١٢٦٣ .
- (٥) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢١٧ ؛ فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص١١٧٢ ؛
- Grousset : op . cit , volume 3 , p531 .
- (٦) يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص٣٣٢ .
- (٧) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٤٤٥-١٤٥٥ ؛ رنسيما : ج٣ , ص٤٨٣ .

حيث كان في مدينة صيدا (١) , تأثر لويس التاسع وزوجته مارغريث بشكل كبير , وأظهر حزناً عميقاً , فأتى جوانفيل يواسي سيده , وألقى عليه المواعظ , وطلب منه ألا يُظهر الأسى كي لا يفرح خصومه المسلمين وأن يتجاوز محنته , ويتابع تحصين صيدا , وبالفعل كان ذلك حيث تابع لويس التاسع أعماله في صيدا (٢) , ولكن بفقدان الملكة الفرنسية أصبح موقف لويس التاسع حرجاً حول مشكلة البقاء في الشرق أو العودة إلى فرنسا , وهذا ما يُذكر بالظروف التي رافقت قدومه إلى عكا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حيث عقد اجتماعات عديدة حتى قرر في نهايتها البقاء في المملكة اللاتينية , ولكنه كان مطمئناً لأن والدته

بلانشيه كانت قادرة على إدارة البلاد أثناء غيابه , أما الآن بوفاتها لم يعد هناك من ينوب عنها أو يسد الفراغ الذي تركته (٣) , فأرسل لويس التاسع خلف النائب البابوي الموجود في عكا , وطلب منه إقامة الصلاة والدعاء إلى الله لعله يهديه إلى اختيار الصواب , ثم عقد لويس التاسع اجتماعاً في صيدا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م لمعرفة موقف بارونات الكيان الصليبي من بقاءه هناك أو عودته إلى فرنسا , وفي الاجتماع توجه البارونات بالشكر الجزيل للملك الفرنسي على جهوده في تحصين المواقع الصليبية وإعادة الأمن والاستقرار إليها , ثم نصحوه بالاستعداد للعودة إلى فرنسا من أجل مواجهة الدول الأوربية الطامعة في بلاده , ولم يَسْعُهُ إلا الموافقة على اقتراحهم , ومن المرجح أن جوانفيل لم يحضر ذلك الاجتماع لأن لويس التاسع قد كَلَفَهُ بمرافقة زوجته مارغريت إلى صور , وإثر عودة جوانفيل أخبره النائب البابوي بأن لويس التاسع قرر العودة إلى وطنه , وقد أظهر النائب البابوي حزناً عميقاً على ذلك , وانهمرت عيناه بالدموع حزناً على فراق لويس التاسع ورجاله المخلصين , وقد حَبَذَ جوانفيل فكرة العودة لأن رأييه من رأي سيده لويس التاسع (٤) .

بعد أن قرر لويس التاسع الرحيل غادر صيدا في شهر محرم سنة ٦٥٢هـ/شهر شباط عام ١٢٥٤م قاصداً صور حيث اصطحب زوجته مارغريت وابنه يُوحنا الحزين الذي ولد في دمياط , وابنته بلانشيه

(١) الدبس : ج ٦ , ص ٢٤٨ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣٣٢-٣٣٤ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢١٧-٢٢٠ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٢٠-١٥٦ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٤٧-١٩٥٥ ؛ مونود : مج ٢ , ص ٣٣٢-٣٤٠ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٢٠-٢٢٢ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص ٣٣٤-٣٣٧ .

التي ولدت في عكا , ثم تابع سيره إلى مدينة عكا (١) , وفي عكا ترك لويس التاسع جيفري دي سارجين (Gefry du sargin) أحد فرسانه على رأس قوة عسكرية , وزوده بالمال للدفاع عن الكيان الصليبي (٢) , ثم أعدَ لويس التاسع السفن اللازمة التي بلغت ثلاث عشرة سفينة , وفي مساء عيد القديس مرقس ودّعَ لويس التاسع ورجال حملته صليبي مملكة عكا بحزن عميق , وكأنهم شعروا بأن ذلك الوداع هو الوداع الأخير لهم , وانتهت حملة لويس التاسع , وأبحر مع زوجته ومن تبقى من رجال حملته في ١٦ ربيع الثاني سنة ٦٥٢هـ/الموافق ٢٥ نيسان من عام ١٢٥٤م مُيمماً وجهه شطر الغرب الأوربي (٣) .

سار الأسطول الفرنسي وفي الطريق حَيَمَ ضبابٌ كثيفٌ ، مما أدى لاصطدام السفينة الملكية بإحدى الصخور ، فأخذ الماء يتسرب إليها ، وقد كان على متنها لويس التاسع ، مع ثمانمائة من رجاله ، فاقترح كبار البحارة على لويس التاسع ترك السفينة ، وتوزيع ركابها على السفن الأخرى ، ولكنه رفض الفكرة ، وأصلح بالتعاون معهم الخلل في السفينة ، ثم تابعوا المسير ، وواجهتهم رياحٌ عاتية أجبرتهم على النزول في قبرص ، فتزودوا منها بالطعام والشراب ، وتابعوا رحلتهم (٤) ، ولم تنته الصعاب التي واجهتهم حيث قامت إحدى الراهبات اللواتي قُمنَ بخدمة مارغريت زوجة لويس التاسع بترك المنشقة قريباً من الموقد الناري ، الذي كانت فيه شمعة تحترق ، مما أدى لاحتراق المنشقة ، وأخذ الدخان يتصاعد ، وعندما استيقظت مارغريت أخذت تصرخ ، فقام بعض الرجال الذين هزلوا لبروا ما حدث ، وحمل أحدهم المنشقة ورمها في البحر ، ثم أطفئوا الحريق قبل أن يمتد في بقية أنحاء السفينة (٥) ، وبعد حوالي شهرين وصل لويس التاسع ورجال حملته الصليبية عائدين إلى وطنهم ، وقد حطوا رحالهم في ميناء هير (Hiere) الفرنسي في شهر جمادى الأول سنة ٦٥٢هـ/شهر تموز عام ١٢٥٤م ،

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٥٥ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص ٣٣٨ .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٥٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٩٤ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p531 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٢٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٥٥ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق

Villeneuve : op . cit , p240 .

، ص ٣٣٨-٣٣٩ ؛

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٢٢-٢٢٨ ؛ مونود : مج ٢ ، ص ٣٤٠ ؛

Villeneuve : op . cit , p240-242 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٣١ .

وذلك بعد ست سنوات ذاقوا خلالها ويلات الحرب (١) ، ولكنهم نسوا ما لاقوه من آلام عندما رأوا الحشود الهائلة من الرجال والنساء والأطفال قد خرجوا في موكبٍ مهيب لاستقبالهم بالأهازيج الوطنية والترانيم الدينية (٢) .

وعلى هذا فإن وفاة بلانشيه أجبرت لويس التاسع على مغادرة مملكة عكا عائداً إلى فرنسا على رأس بقية رجال حملته الصليبية السابعة (٣) ، وقد أسفرت حملته التي دامت ست سنوات عن نتائج عديدة أهمها :

- اتخذ لويس التاسع من المقدسات ستاراً أخفى خلفه مآربه في السيطرة على المشرق العربي الإسلامي ، فضحى بقوة بشرية هائلة كانت مصر وبلاد الشام مقبرة لها .

- برز لويس التاسع كناشط سياسي , فلم يكتف بإرسال السفراء إلى الحكام المسلمين فحسب بل أراد إيجاد تحالف صليبي - مغولي - أرمني للإطباق على المسلمين والقضاء عليهم .
- حقق لويس التاسع خلال مدة زمنية وحيزة ما لم يستطع أسلافه تحقيقه خلال عشرات السنين , فقد قضى على الانقسامات والخلافات في أوساط الكيان الصليبي , كما أنجز تحصينات تميزت بقدرات دفاعية عظيمة , وهذا دليل على ذكاء لويس التاسع الذي حول الهزيمة إلى نصر من خلال تلك الإنجازات التي حققها .
- اتصف لويس التاسع بالدهاء والمكر حيث سلك سبيلاً لتفتيت وحدة المسلمين , ونجح إلى حدٍ ما في مسعاه , ولكنهم ما إن أدركوا حقيقته حتى تلافوا خلافتهم التي لم تكن سوى نزاع بين حاكمين , وهما الناصر يوسف الثاني و المعز أيك , وليست بين شعبي بلاد الشام ومصر .
- أخفق لويس التاسع في الحفاظ على الكيان الصليبي في قلب المشرق العربي الإسلامي , وذلك بسبب تنامي قوة الأيوبيين والمماليك , اللذين أرادا القضاء على الكيان الصليبي مهما كلف الثمن .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص٢٣٢-٢٣٤ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٤٠-٣٤١ ؛ رنسيما : ج٣ , ص٤٨٣ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق , ص٣٣٩ ؛

Villeneuve : op . cit , p249 ; pernoud : op . cit , p237 .

- (٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص٢٣٥ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٤٦٨ .
- (٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص٢١٧-٢٢٠ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ فابري : الموسوعة, ج٣٨ , ص١١٧٢ .

- ضاعت أحلام لويس التاسع في استمرار الخلاف الأيوبي - المملوكي , وما إن تدخلت الخلافة العباسية , وأصلحت بينهما حتى راح الجيش الأيوبي يُهاجم المعاقل الصليبية , ولم يحميها سوى الحصون المنيعه التي أنشأها لويس التاسع , علماً أن تلك الحماية كانت مؤقتة .
- عاش لويس التاسع في مملكة عكا على أمل وصول حملة صليبية جديدة لعلها تثار لهزائم الحملة الصليبية السابعة , ولكن الشعب الأوربي لم يكن مستعداً للمسير إلى حتفه إثر سماعه بالويلات التي حَلَّت بالصليبيين .

وهكذا عَمِلَ لويس التاسع على تدعيم مركز الصليبيين في الشرق , وله فضل كبير في إطالة عمر مملكة عكا اللاتينية (١) , ولكن ما إن أنهى مهمته في الشرق حتى ترك الكيان الصليبي يواجه مصيره أمام قوى المسلمين التي أرادت اقتلاع ذلك الكيان من جذوره , فأصبح زواله قاب قوسين أو أدنى (٢) .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥, ص١٧٢-٢٠٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٣-١٩٥٤ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٣٠٨-١٣٤٨ ؛
Pernoud : op . cit , p235-236 .
(٢) ابن خلدون : ج٥ , ص٤٣٨-٤٧٧ ؛ الغزي : ج٣ , ص١٣٨-١٣٩ ؛ اليماني : ص٥٣٠-٣٤٥ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية , ص٥٣-٦٥ ؛
Brellier : op . cit , p233 .

— الفصل الخامس —

أوضاع بلاد الشام ومصر إثر رحيل لويس التاسع
سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م .

١- حرب القديس سابا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م .

٢- النزاع الأيوبي - المملوكي .

٣- أوضاع لويس التاسع في فرنسا .

١- حرب القديس سابا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م .

غادر لويس التاسع مملكة عكا عائداً إلى فرنسا , وقد كان أمله أن تستفيد المملكة اللاتينية من انقسام المسلمين, أو على الأقل المحافظة على المكاسب التي حققها خلال مدة إقامته في مملكة عكا , ريثما تصلها النجدة الأوربية , وفي الحقيقة ترك رحيل لويس التاسع فراغاً كبيراً , ولم يوجد من يسد ذلك الفراغ ولم تبرز شخصية قوية كشخصية قادرة على إدارة شؤون المملكة اللاتينية حيث أخذت كل فئة صليبية تبحث عن مصالحها الخاصة , فانقسم الصليبيون على أنفسهم , واندلعت الحرب الأهلية دون أن يضعوا في

حسابهم الخطر المحدق الذي شكلته عليهم السلطنة المملوكية التي وُلدت حديثاً على ضفاف النيل , وبرزت كقوة عسكرية أرادت القضاء على بقايا الكيان الصليبي (١) .

إثر الهجمات التي شنها ملك دمشق الناصر يوسف الثاني على المواقع الصليبية استطاع نائب لويس التاسع جيفري دي سارجين وقادة المنظمات العسكرية الصليبية التوصل لإقامة سلام بين الأيوبيين والصليبيين , وعقدوا هدنة لمدة عشر سنوات وعدة أشهر (٢) .

أمن الصليبيون جانب الأيوبيين ليستمروا في أعمالهم العدوانية ضد المماليك , فهم لم يهادنوا الأيوبيين إلا من أجل الاستفادة من وقوفهم على الحياد كي يتفرغوا لضرب المماليك , وبالفعل فقد أعد جيفري دي سارجين نائب لويس التاسع ويوحنا دي إبلين سيد يافا والمنظمات الصليبية قوة عسكرية , " ثم بعثوا الكشافة للدخول إلى أراضي المسلمين ليكتشفوا أين يمكنهم جمع أغني المنهوبات " (٣) , وإثر عودة مجموعة الاستطلاع أغارت القوة الصليبية على أملاك المماليك في بلاد الشام سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م , وقد انفرد صاحب ذيل روثلين من المصادر العربية والأجنبية بذكر هذه

-
- (١) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٤٦٧-١٦٢٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٥-١٩٦٠ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٤-١٩٩٦ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١١٠٣ ؛ Brellier : op . cit , p227-229 ; setton : op . cit , volume 2 , p566-576 ;
- (٢) ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ٢١٨ ؛ حدد ابن دقماق مدة الهدنة بعشر سنوات وست شهور , وقد وافقه الرأي ابن سباط في كتابه: صدق الأخبار , ج ١ , ص ٣٦٧ ؛ أما المقرئ في كتاب السلوك , ص ٤٨٥ فحدد مدة الهدنة بعشر سنوات وستة أشهر , وأربعين يوماً ؛ بينما أشار باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٥٤١ إلى أن مدة الهدنة عشر سنوات فقط ؛ وحدد صاحب ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٦ , أن مدة الهدنة عشر سنوات وعشر أشهر وعشرة أيام .
- (٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٥٦ .

الرواية , وأشار إلى أن القوة الصليبية سارت تحت جنح الظلام , وهاجمت القرى الممتدة بين غزة وعسقلان (١) , ثم عادت وقد حَمَلَتْ " أربعمائة من الأسرى دون أن يحسبوا عدد القتلى , والذين كانوا ثمانمائة أو أكثر , وقد حصلوا على عشرة آلاف رأس من الحيوانات الصغيرة , وعلى ما لا يقل عن ألف من رؤوس الحيوانات الكبيرة , كان معظمها من الثيران والجمال " (٢) , وما إن علم السلطان المملوكي المعز أيبك بأبناء تلك الغارة الصليبية حتى وجه أوامره إلى نائبه في بيت المقدس بتأديب الصليبيين , فأعد قوة عسكرية كبرى , وهاجم مدينة يافا سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م , فتحصن الصليبيون داخل أسوار يافا , ووقف الجيش المملوكي عاجزاً أمام أسوارها , وهنا أرسل القائد المملوكي قسم من جيشه لمهاجمة المناطق الصليبية المجاورة ليافا لعله يجبر الصليبيين على الخروج من يافا , فنهبوا تلك المناطق , وأسروا حوالي مائة رجل من

الصلبيين , وساقوا أمامهم أربعين ألف رأس من المواشي , وبالرغم من ذلك لم يخرج الصليبيون من مدينة يافا حيث بقوا قابعين فيها , وأعاد المماليك الكرة ثانية وهاجموا يافا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م , فتحصن الصليبيون كعادتهم داخل أسوارها , ولكن هذه المرة باغتوا الجيش المملوكي المحاصر للمدينة , وقتلوا الكثير منه , ومن ضمن القتلى النائب المملوكي في بيت المقدس , فلاذ الجيش المملوكي بالفرار إثر مقتل قائده , ولم يكن المعز أيك مستعداً لمتابعة القتال ضد الصليبيين إثر تجدد الخلاف بينه وبين الأيوبيين , وبدلاً من اغتنام الصليبيين لذلك الخلاف وقعوا هم أنفسهم في حروبٍ أهليةٍ مدمرة (٣) .

لقد سيطرت الجمهوريات الإيطالية على تجارة الكيان الصليبي من خلال جالياتها التي استقرت في موانئ الساحل الشرقي لبحر الشام (البحر المتوسط) , واشتد التنافس بين تلك الجمهوريات من أجل فرض الهيمنة التجارية , وقد كان في مدينة عكا حياً خاصاً بجنوه , وآخر خاصاً بالبندقية , وحدث أن اختلفا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م حول دير بُني منذ قديم الزمان على تلة مرتفعة عُرف بدير القديس سابا (st saba) , وعلى ما يبدو ليس الهدف من الخلاف

-
- (١) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٦ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٢٩٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١١٠٤ ؛ رنسيان : ج٣ , ص٤٨٥ ؛ Grousset : op . cit , volume 3, p532-533
- (٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٦ .
- (٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج٥٨ , ص١٩٥٧-١٩٥٩ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٢٩٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ص١١٠٤ .

هو ملكية الدير بل لأن الدير يُشرف على ميناء عكا , وبينما كانت المحادثات جارية بين الطرفين لإنهاء النزاع هاجم أبناء جنوه دير القديس سابا , واستولوا عليه , فاحتج أبناء البندقية على ذلك , وهذا ما أدى لمهاجمة جنوه وبيزا لحي البندقية , وأخذوا البنادق على حين غرة , واستولوا على جميع سفنهم (١) , واستغل فيليب مونتيغفورت حاكم صور هزيمة البندقية , فسارع لطرد البنادق من صور لأنه استاء من أطماعهم فيها بعد أن كانوا قد استولوا على ثلث مدينة صور (٢) .

بدأ كل جانب في البحث عن حلفاء ومؤيدين له في ذلك الصراع , وسرعان ما انخرط جميع صليبي الشرق فيه , وقد أظهر قنصل البندقية في عكا ماركو جويستاني (Marco Jwestane) براعة سياسية في كسب معظم قوى الكيان الصليبي حيث استطاع إثارة قلق يوحنا الثالث دي إبلين حاكم أرسوف من أن صور تنوي الاستقلال عن مملكة عكا بمساعدة جنوه , كما استمال كونت يافا يوحنا دي إبلين — ابن عم يوحنا سيد أرسوف — الذي لم يكن على علاقة طيبة مع جنوه بعد أن حاول أحد أفراد جنوه اغتياله ,

أما بيزا فأظهر لها ماركو جويستاني أن جنوه لا تبحث سوى عن مصالحها , ولا يمكن الاطمئنان إليها أو الثقة بها , فتخلت بيزا عن جنوه , كما ساندت مرسيليا البندقيّة لأنها لم تكن على علاقة طيبة مع جنوه , وانقسمت المنظمات الصليبية حسب ما اقتضته مصالحها حيث أيدت الداوية والتوتون جمهورية البندقيّة , بينما ساندت الاستبارية جمهورية جنوه , كما انضم إلى جنوه حاكم جيل هنري امبرياكو (Henry Emperiaco) لأنه ذو أصول جنوية , وبذلك تحدى هنري امبرياكو أوامر سيده بوهيند السادس أمير أنطاكية وكونتية طرابلس الذي أراد منه التزام الحياد , فاضطر بوهيند السادس أمام إعلان هنري امبرياكو العداء له إلى مساندة البندقيّة , وبذلك انقسمت قوى اللاتين , وتحولت إلى حلفين كلٌّ منها أراد أن ينال من الآخر (٣) .

وأمام تأزم الموقف انطلق بعض عقلاء الصليبيين إلى بوهيند السادس للتدخل من أجل إنهاء الفتنة ,

(١) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٦ ؛ رنسيان : ج ٣ , ص ٤٨٦-٤٨٨ ؛ ريلي سميث : ص ١٨٣-١٨٤ ؛ Mayer : op . cit , p273 ; Setton : op . cit , volume 2 , p568 ;

(٢) عاشور : الحركة الصليبية , ج ٢ , ص ١١٠٧ ؛ عطية : ص ٣٩٧ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p537-538 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٦٠ ؛ رنسيان : ج ٣ , ص ٤٨٨-٤٨٩ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التوتون , ص ٢٧٨-٢٧٩ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p534-538 .

وبناءً على تلك الدعوة وصل بوهيند السادس إلى عكا في شهر صفر سنة ٦٥٥هـ/شهر شباط عام ١٢٥٧م , وقد اصطحب معه أخته بليسانس أرملة هنري الأول ملك قبرص وابنها هيو الثاني ملك قبرص (١) , وعندما وصل عكا عقد اجتماعاً لكبار رجال الكيان الصليبي , وطلب منهم إعلان ولائهم لهيو لوزجنان وأمه الوصية عليه باعتبار أن هيو وريث مملكة عكا الذي يلي كونرادين بن كونراد بن فردريك الثاني , وذلك لأن كونرادين لم يأت إلى الشرق , وفي هذه الحالة يؤول العرش إلى أقرب أقاربه , وقد وافق جميع الحضور على طلبه باستثناء جنوه ومقدم الاستبارية وليم شاتونيف بحجة أنه لا يجوز اتخاذ قرار كهذا في غياب كونرادين , وهذا ما أدى لاستياء بوهيند السادس , فعين الأمير يوحنا الثالث دي إبلين صاحب أرسوف نائباً عن هيو في سيادة مملكة عكا , " واستأجر على حسابه الخاص ثمانمائة من الجنود الفرنسيين كانوا موجودين في البلاد لدعمه لمدة سنة , وأمر الأمير يوحنا الثالث إبلين أن يتولى بقدر ما يستطيع مضايقة الاستبارية وجماعة الجنوبية " (٢) , وكل من يساندهما , ويلاحظ أن بوهيند السادس لم يأت إلى عكا لإنهاء

الفتنة إنما استهدف تحقيق مصالح خاصة بابن أخته هيو الثاني , وبذلك فضّل بُوهيند السادس المصلحة الشخصية على المصلحة العامة للصليبيين بدلاً من العمل على تهدئة الأوضاع , وصَبَّ الزيت على النار , وأشعل الفتنة , ثم قفل بُوهيند السادس راجعاً إلى إمارته , بينما أبحرت أخته بليسانس وابنها هيو الثاني إلى قبرص (٣) .

اندلعت الحرب الأهلية إثر رحيل بُوهيند السادس حيث هاجمت البُنْدُقيّة وحلفائها الأسطول الجنوبي سنة ١٢٥٦هـ/١٢٥٨م , وقد قاد ذلك الهجوم أمير البحرية البندقي لورانزو تيبولو (Loranzo Tiepolo) , فَحَطَّم سلسلة ميناء عكا التي حمت مدخل المرسى , ودمر الكثير من السفن الجنوبية , ولم يكتفوا بالمعارك البحرية بل اشتعلت معركة برية داخل مدينة عكا تقاذف فيها الطرفان ضربات المجانيق النارية والحجرية (٤), وذكر صاحب ذيل روثلين " أن جميع أبراج عكا تقريباً

(١) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٦ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج٢ , ص١١٠٨ ؛

Grousset : op . cit , vlume3 , p541-542 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٦١ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٦٠-١٩٦١ ؛ رنسيما : ج٣ , ص٤٩٠-٤٩١ ؛

Setton : op . cit , volume 2 , p569-571 ; pernoud : op . cit , p243 .

(٤) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل, الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٦ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص٦٠ .

وبيوتها قد دُمرت , وذلك باستثناء البيوت الدينية , ومات في هذه الحرب عشرون ألفاً من هذا الجانب وذاك " (١) , بينما اكتفى هرقل بالإشارة إلى أسرى وقتلى الجنوبية بقوله : " وقع بالأسر أو تعرض للقتل في هذا الصراع ألف وسبعمائة رجل من الجنوبية " (٢) , ولا يوجد أدنى شك إلى أن تلك الحروب قد دمرت الكثير من أبنية وتحصينات عكا , ولكن يُلاحظ إذا كانت خسارة جنوه ألف وسبعمائة رجل , وهي الطرف الخاسر في المعركة فإن خسارة البُنْدُقيّة هي أقل بكثير بما أنها الطرف المنتصر , وبذلك نستنتج أن خسارة الطرفين لا تبلغ العدد الكبير الذي حدده صاحب تاريخ هرقل بعشرين ألف قتيل .

استولت البُنْدُقيّة على دير القديس سابا , ولم يبق أي وجود للجنوبيين في عكا حيث هرب من بقي حياً منهم إلى حليفهم فيليب مُونتيفورث صاحب صور , وسيطرت البُنْدُقيّة وأعوانها على عكا بينما انحصر أبناء جنوه في صور (٣) .

والجدير بالذكر أن البابا الكسندر الرابع (٦٥٢-٦٦٠هـ/١٢٥٤-١٢٦١م) أرسل نائبه الراهب الدومنيكاني توماس لنتينو (Tomas Lenteno) إلى مملكة عكا سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م لإصلاح ما أفسدته الحروب الأهلية بين الصليبيين (٤) .

وفي تلك الأثناء كان يُوحنا الثالث دي إبلين حاكم أرسوف نائب مملكة عكا قد فارق الحياة , فَقَدِمَتْ الملكة بليسانس وعينت جيفري دي سارجين نائباً عن ابنها هيو الثاني ملكاً على عكا (٥) ,

(١) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٦٢ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٧ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٧ ؛ عطية : ص٣٣٩ ؛ غروسيه : ص٣٣٩ .

Setton : op . cit , volume 2 , p558-559 .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة, ج٥٨ , ص١٩٩٧ ؛ عطية : ص٣٣٩ .

Brellier : op . cit , p229 .

(٥) وصاية العرش : توفيت بليسانس سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م , واستقال جيفري سارجين في العام التالي بسبب إصابته بجرح خطير سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م , وذلك إثر هجوم شنه المماليك على عكا , وتطلب الأمر تعيين وصي على العرش القبرصي وسيداً على عكا , فتقدمت آنذاك إيزابيلا لوزجنان أخت ملك قبرص السابق هنري الأول لوزجنان وكانت قد تزوجت من هنري شقيق بُوهيند الخامس بريين أمير أنطاكية , وطالبت بالوصاية على ابن أخيها هيو ملك قبرص , فرفضت المحكمة العليا في قبرص طلبها وعينت ابنها هيو بريين وصياً على ابن خاله هيو لوزجنان في قبرص , لأن هيو آنذاك أكبر الأمراء الذين يجري فيهم الدم الملكي , بينما أقرت =

فأصبح جيفري نائباً لهيو الثاني كما أنه نائب للملك الفرنسي لويس التاسع في مملكة عكا (١) , وقد تعاون النائب البابوي توماس لنتينو وجيفري دي سارجين لإنهاء الخلاف القائم بين الصليبيين , وتوصلا سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م لعقد اتفاق نص على أن تكون صور مقرأً لأبناء جنوه بينما تكون عكا مقرأً لأبناء البندقية وبيزا (٢) .

وهكذا انخرط الصليبيون في حروبٍ مدمرةٍ , ونسوا المقدسات التي أتوا من أجلها , هذا إن كانوا قد قدموا من أجل المقدسات , لأن واقع الحال لا يشير إلى ذلك حيث جرّتهم المصالح الاقتصادية إلى حروبٍ طاحنةٍ , وكل ذلك من أجل الاستيلاء على ميناء عكا التجاري الذي كان أهم ميناء على الساحل الشامي , وقد أدت الحروب لتخريب كل ما بناه لويس التاسع , فكم بذل لويس التاسع من الوقت والجهد والمال حتى استطاع تحصين المعقل الصليبية ! ولكن أمام الأطماع الصليبية في زيادة الثروات تهاوت أسوار وحصون عكا , وغدت خراباً , وذهب الآلاف ضحايا تلك الحروب الغاشمة , وأصبح من الصعب اندمال الجراح

التي سببتها حرب القديس سابا (٣) ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، هل كان المسلمون أفضل حالاً من الصليبيين ؟

وهل استغلوا تلك الصراعات لتحرير بلادهم من الصليبيين ؟

= المحكمة العليا في عكا نيابة إيزابيلا على مملكة عكا ، فتركت إيزابيلا زوجها هنري يدير شؤون عكا ، ثم انطلقت إلى قبرص لمشاركة ابنها هيو في إدارة شؤونها، لكنها ما لبثت أن توفيت سنة ١٢٦٣هـ/١٢٦٤م ، وبموثها أصبح هيو لوزنجان القبرصي ملكاً لقبرص وبيت المقدس تحت وصاية ابن عمته هيو بريين ، وبقي هيو متنقلاً بين قبرص وعكا ، وكان إذا تواجد في قبرص سلم عكا لجيفري سارجين الذي عاد من جديد لمتابعة عمله الإداري في إدارة عكا . رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٩٧-٥٤٥ ؛ غروسيه : ج ٣ ، ص ١١٣ ؛ عطية : ص ٢٩٤ .

Grousset : op . cit , volume 3 , p617-618 ; Mont , John : feudal monarchy in Jerusalem , Amrica , 1932, p74-75 .

Grousset : op . cit , volume3 , p558-559 . (١) رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٩٣ ؛

(٢) رنسيما : ج ٣ ، ص ٤٩٣ ؛ اليوسف ، عبد القادر : علاقات بين الشرق والغرب ، المكتبة العصرية ، بيروت وصيدا ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص ٢١١ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٥٣-١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٩٩٣-١٩٩٧ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p534-549 ; Stevenson : op . cit , p331-332 .

٢- النزاع الأيوبي - المملوكي .

لم يغتتم المسلمون الفرصة التي لاحت لهم إثر دخول الصليبيين في حروبٍ مدمرةٍ (١) ، لأنهم هم أنفسهم دخلوا في نزاعٍ مريرٍ ، وأوشكوا أن يدخلوا في حروب أهلية في الوقت الذي كان فيه الخطر الصليبي جاثماً على صدورهم (٢) فأظهر فارس الدين أقطاي غروراً كبيراً ، ورغبة في استلام عرش السلطنة المملوكية ، فتخلص منه المعز أيك سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، وهنا خشيت حاشية أقطاي من البحرية على نفسها ، فهربت إلى بلاد الشام ، ووصلت مجموعة من البحرية إلى الملك المغيث عمر سيد الكرك ، وتابعت مجموعة أخرى المسير إلى الملك الناصر يوسف الثاني صاحب دمشق وحلب ، بينما سارت مجموعة أخرى إلى سلطان سلاجقة الروم (٣) علاء الدين كيقباز (٤) ، وشجع المماليك البحرية الناصر يوسف الثاني على غزو مصر (٥) ، كما أن المماليك العزيمية راسلوه من مصر سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، ووعدوه بقتل المعز أيك

, وتسليمه مصر بشرط أن يعطيهم مساحات واسعة من الاقطاعات (٦) , ولم تشر المصادر إلى موقف الناصر يوسف الثاني من مراسلة المماليك العزيرية له, لأنهم غدروا به في معركة العباسية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م , وتخلوا عنه في أحلك الظروف , وانضموا إلى المعز أيك , وهذا ما أدى لعدم ثقته بهم (٧) , كما أن المعز أيك كشف مؤامرة

-
- (١) مجهول : ذيل روثلين , الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٦٠-١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل, الموسوعة, ج ٥٨ , ص ١٩٩٦ .
- (٢) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٤٨ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية , ص ٣٥-٣٦ ؛ ابن طولون , محمد : إعلام الوري بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى , تح : عبد العظيم خطاب , مطبعة عين شمس , القاهرة , ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م , ص ٧ .
- (٣) المقرئزي : السلوك, ج ١ , ص ٤٨٣-٤٨٤ ؛ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار , تح : أحمد سيد , مؤسسة الفرقان , لندن , ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م , مج ٤ , ص ١٩٦ , الدواداري : ج ٨ , ص ٢٦ .
- (٤) علاء الدين كيقباز : توفي غياث الدين كيقباز سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م , فاستلم من بعده أبنائه عز الدين وركن الدين وعلاء الدين , وكان أكبرهم علاء الدين , ويُعد هو السيد الفعلي لسلاجقة الروم , وكان الخطر المغولي أكبر خطر هدد كيانه , وقد فارق الحياة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م فاستلم حكم السلاجقة أخويه عز الدين وركن الدين من بعده . العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٣٦-٦٦١ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٩٧ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٩٧ .
- (٥) ابن العميد : ص ٤٢ ؛ ابن خلدون : ج ٥ , ص ٤٣٣ .
- (٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ٣٠-٣١ ؛
- (٧) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٦١ .
- Edde : op . cit , p156-158 .

المماليك العزيرية , فقبض على قسم منهم , بينما فر البقية منهم , وتشتت شمل المماليك العزيرية (١) .

خشي المعز أيك من إثارة المماليك البحرية للمشاكل حيث توقع هجوماً مشتركاً من قبل البحرية والناصر يوسف الثاني , فأرسل للناصر يوسف وحذره من البحرية , كما أرسل إلى علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم قائلاً له : " البحرية قوم منحيس أطراف , لا يقفون عند الأيمان , ولا يرجعون إلى من هو أكبر منهم , وإن استأمنتهم خانوا , وإن استحلقتهم كذبوا , وإن وثقت بهم غدروا " (٢), وفي الحقيقة لا مصلحة لعلاء الدين كيقباز في غزو مصر , ويُرجح أن المعز أيك خشي من تحالف سلجوقي - شامي مع البحرية وتهديد مصر , وبخاصة إثر زواج الناصر يوسف الثاني من خاتون ابنة علاء الدين كيقباز , ولكن علاء الدين لم يدخل تلك المغامرة لأنه لا ناقة له في تلك الحرب ولا جمل (٣) , بينما أعد الناصر يوسف الثاني جيشاً, وأرسله برفقة البحرية إلى مصر سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م , ولم تشر المصادر إلى ذهاب

الناصر يوسف الثاني على رأس الجيش , كما لم تذكر المصادر اسم القائد الأيوبي الذي قاده , وقد سارت البحرية والجيش الأيوبي , وعسكروا على تل العجول (٤) .

ما إن علم المعز أيك نبأ الحشد الأيوبي على تل العجول حتى أعد قوة عسكرية , وأرسلها لمواجهة الموقف , عسكرت في العباسية بالقرب من الجيش الأيوبي , وأصبحت المواجهة قاب قوسين أو أدنى , وأوشكت الحرب أن تبدأ , لكن نجم الدين البادرائي رسول الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م , تدخل وتقرر الصلح بينهما (٥) على أن تكون بلاد الشام للناصر يوسف , وتكون مصر للمعز أيك , بشرط أن يتعهد الناصر يوسف الثاني أن " لا يأوي عنده أحداً من البحرية , فمضوا إلى المغيث بالكرك " (٦) , وهنا عادت القوات الأيوبية إلى دمشق , وقفلت القوات المملوكية راجعة إلى مصر (٧) .

(١) ابن واصل : ج٦ , ص ١٨١ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٤١ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٦٠ .

(٢) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٨٥ .

(٣) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٨٠ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٩٨ .

(٤) الدواداري : ج ٨ , ص ٢٨-٢٩ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ٢٢٦ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٧٨ .

(٥) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٨١ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية , ص ٣٨ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ٢٢٦ ؛

Edde : op . cit , p156 .

(٦) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٨٩ .

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة , ج ٧ , ص ١١-١٢ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٤٣٤ .

لم ينته التنافس بين الناصر يوسف الثاني والمعز أيك حيث أرسل الأول سفيره كمال الدين المؤرخ المعروف بابن العديم إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م من أجل الحصول على خلعه لسيده الناصر يوسف الثاني , كما أرسل المعز أيك رسوله شمس الدين سنقر الأقرع إلى الخليفة للحصول على خلعة لسيده , وقد سعى سنقر الأقرع " في تعطيل وصول خلعة الخليفة إلى الملك الناصر " (١) , وبالفعل فقد أرسل الخليفة خلعة إلى السلطان المملوكي , وامتنع عن إرسال خلعة للناصر يوسف حيث اكتفى بإرسال سكيناً كبيرة له بدلاً من الخلعة , ووعد أنه يُرسل له خلعة في السنة القادمة (٢) , ومن المرجح أن الخليفة امتنع عن إرسال خلعة للناصر يوسف الثاني لعله يجد من رغبته في الاستيلاء على مصر أملاً بتهدة حالة التوتر بين بلاد الشام ومصر في الوقت الذي لاح فيه الخطر المغولي القادم من الشرق , فضلاً عن الخطر الصليبي القابع في بلاد الشام .

ساءت العلاقة بين المعز أيك وزوجته شجر الدر , وعلى ما يبدو أنه أراد إرضاءها فطلق زوجته الثانية أم علي , وعلى الرغم من ذلك كانت دائماً تُمن عليه بأنه لولاها لما وصل إلى السلطة (٣), فعزم على الزواج , وأرسل يخطب ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (٤) , وعندما علمت شجر الدر بذلك أرسلت هدية إلى الناصر يوسف الثاني , وأخبرته بأنها عازمت على التخلص من زوجها , والزواج منه , وتسليمه مصر , وما عليه إلا أن يُعد جيشاً وينطلق نحو مصر , لكن الناصر يوسف الثاني لم يقتنع بتلك الفكرة , ربما توقع أن هناك مؤامرة أحاطتها شجر الدر مع زوجها للخلاص منه , ومَدِّ النفوذ المملوكي على بلاد الشام , (٥) , وعندما يئست شجر الدر من قدوم الناصر يوسف الثاني ,

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٨٩ .

(٢) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٨٩ ؛ الغزي : ج ٣ , ص ١٣٠-١٣١ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٩ , ص ٣٦١-٣٦٢ ؛ برجوي , سعيد : الحروب الصليبية في المشرق , دار الآفاق الجديدة , ط ١ , بيروت , ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م , ص ٥٨٢ .

(٣) ابن إلياس : ج ١ , ص ٢٩٣ .

(٤) بدر الدين لؤلؤ : هو بدر الدين الأتابكي الملقب بالملك الرحيم , كان مملوكاً لنور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل , وإثر وفاة نور الدين سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م ترك ولداً صغيراً , وأصبح بدر الدين لؤلؤ أتابكاً له , وبعد مدة وجيزة استقل بدر الدين بحكم الموصل , وقد امتاز بشجاعته وحسن تدبيره , وفي سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م , فارق الحياة عن عمرٍ ناهز الثمانين عاماً. ابن واصل : ج ٦ , ص ٢٤٥-٢٤٦ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٥١٠ ؛ الحنبلي , أحمد : شذرات الذهب , تح : عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط , دار ابن كثير , ط ١ , دمشق وبيروت , ١٤١٢هـ / ١٩٩١م , ج ٧ , ص ٤٩٩-٥٠٠ .

(٥) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٩٣ ؛ عاشور , سعيد : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك , دار النهضة , بيروت , ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م , ص ١٦٤ .

قررت التخلص من أيك , وتآمرت مع عدد من الخدم الموجودين لديها في قلعة الجبل على قتله , وأخذت تنتظر الفرصة المناسبة , وكان أيك قد اعتاد أن يلعب بالكرة كل يوم ثلاثاء , وقد عاد في يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ / ٩ نيسان من عام ١٢٥٧م حيث كان مُرهقاً من اللعب , ودخل ليستحم , فدخل وراءه الخدم الذين اتفقت معهم شجر الدر وقتلوه (١) , وهنا أشاعت شجر الدر أنه مات فجأة , ولكن مماليكه المعزية لم يُصدقوها لأنهم تركوه سليماً , فأخذوا بتعذيب الخدم , وأجبروهم على الاعتراف بجريمتهم (٢) , وسرعان ما شاع خبر مقتله , فأراد المماليك المعزية قتل شجر الدر , ولكن المماليك الصالحية (مماليك الصالح نجم الدين أيوب) قاموا بحمايتها , وكادت أن تحدث فتنة , ولكن المماليك المعزية تركوا مسألة الانتقام للمعز أيك حتى مجيء الوقت المناسب , واتفقت كلمة الجميع على تسليم السلطنة لنور الدين علي ابن أيك بلقب السلطان المنصور , وكان عمره خمس عشر سنة , وما إن استلم السلطنة حتى

أمر بصلب الخدم الذين قتلوا والده (٣) ، أما شجر الدر فقد حملها نور الدين علي إلى أمه في يوم السبت ١١ من شهر ربيع الثاني سنة ٦٥٥هـ/ ٢٩ نيسان من عام ١٢٥٧م ، " فضر بها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت " (٤) ، ثم ألقوها من على سور القلعة ، فكان مصيرها القتل كما قتلت زوجها ، وبقيت جثتها في العراء حتى واراها التراب بعض العامة من الناس (٥).

(١) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٩٤-١٩٥ ؛ العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٥٨-٦٥٩ ؛ الحنبلي : شذرات الذهب ، مج ٧ ، ص ٤٦٢ ؛ السيوطي ، جلال الدين : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٦٥ ؛ القيسراني ، إبراهيم : النور الائح والدر الصادح ، تح : عمر تدمري ، دار الارشاد ، ط ١ ، طرابلس ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص ٥٦ ؛ المقرئ ، أحمد : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أحمد سيد ، دار الفرقان ، لندن ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ج ٣ ، ص ٧٦٨ ؛ المنصوري : زبدة الفكرة ، ص ٢٤ ؛ Stevenson : op . cit , p332 .

(٢) العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٥٩ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص ٢٣١-٢٣٢ .
(٣) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٩٦-١٩٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ ؛ المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٩-١٠ ؛ Th Cambridge history of islame , volume1a , p210 .
(٤) المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٤ ؛ والمعنى ذاته لدى القدسي ، مجد الدين : دول الإسلام الشريفة البهية ، تح : صبحي ليبس ، وأورليش هارمان ، دار الريجاني ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ، ص ٢٨ .
(٥) ابن واصل : ج ٦ ، ص ٢٠١ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص ٢٣٢ ؛ ابن إياس : ج ١ ، ص ٢٩٤-٢٩٥ ؛ Edde : op . cit , p160 .

لم يكد المنصور نور الدين علي يستلم السلطنة المملوكية حتى اعترضت سبيله الصعاب حيث أظهر سيد الكرك المغيث فتح الدين عمر رغبته في الاستيلاء على مصر ، وذلك بتشجيع من المماليك البحرية الذين هربوا من مصر ، وانطلقوا إلى مملكة الكرك ، ربما استغل ملك الكرك حداثة سن السلطان المملوكي الجديد ، مما زاد في أطماعه في مد نفوذه على مصر ، فانطلق المغيث فتح الدين عمر على رأس جيش ، وقد اصطحبه البحرية ، وقصد مصر سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، والتقوا مع القوات المملوكية في الصالحية (١) في معركة ضارية ، أبلى فيها ملك الكرك وقواته بلاءً حسناً ، بينما أظهر المماليك فيها قوةً وثباتاً ، مما أدى لهزيمة جيش الكرك والبحرية بعد أن تركوا ذخائرهم وأثقالهم غنيمةً للمماليك ، وعاد من نجا منهم إلى الكرك ، وأخفق المغيث عمر في السيطرة على مصر (٢) .

ويلاحظ أن حالة النزاع الأيوبي - المملوكي لم تكن تهدأ حتى تثور من جديد ، فلم يكف المملوك الأيوبيون عن محاولة ضم مصر للسلطنة الأيوبية ، ولكن تلك المحاولات باءت جميعها بالإخفاق ، لأن المماليك أصبحوا قوةً لا يستهان بها في مصر ، و لا يمكن تجاهلها ، وتوجب على ملوك بني أيوب

الاعتراف بها شاؤوا أم أبوا , ولا يمكن أن نُغفل دور المماليك البحرية الذين هربوا من مصر , والتجؤوا إلى بلاد الشام , فهم كانوا طرفاً أساسياً في تلك الحروب لأنهم أوهمو الملوك الأيوبيين بسهولة الاستيلاء على مصر , فانقاد الملوك الأيوبيين وراء تلك الأوهام التي لم يجنوا منها سوى الهزائم المريرة , وأيقنوا مؤخراً بأن مصر من الصعب أن تعود لدائرة السيادة الأيوبية (٣) , ومع ظهور الخطر المغولي (٤) ,

(١) الصالحية : بلدة مصرية قديمة مُحاطة بأشجار النخيل , تقع إلى الشرق من بلبس , وقد بُنيت في عهد الصالح نجم الدين أيوب لتكون مقراً لجنده . البستاني, بطرس : دائرة المعارف , دار المعرفة , بيروت , د.م , د . ت , مج ١ , ص ٦٨٩-٦٩٠ .
(٢) ابن دقماق : نزهة الأنام , ص ٢٣١-٢٣٣ ؛ الدواداري : ج ٨ , ص ٣٠ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٧٧ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية , ص ٣٩-٤٠ ؛ النويري : ج ٢٩ , ص ٤٣٤-٤٣٥ ؛ غوانمة , يوسف : إمارة الكرك الأيوبية , دار الفكر , ط ٢ , عمان , ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م , ص ٢٩٧-٢٩٩ ؛
Edde : op . cit , p152-160 .

(٣) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٧٩-٢١٢ ؛ ابن الوردي : ج ٢ , ص ٢٧٤-٢٨٢ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٧ , ص ٣٥١-٣٦٦ .
(٤) نتيجة لجهود لويس التاسع وهيثوم الأول دمر هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م , كما عاث فساداً في حلب , بينما عين الأشرف موسى صاحب حمص نائباً له على حمص لأنه لم يقف بوجهه , وفي عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أنزل الممالك هزيمة ساحقة بالمغول , وردوهم على أعقابهم . اليونيني, موسى : ذيل مرآة الزمان , دار الكتاب الإسلامي , ط ٢ , القاهرة , ١٤١٣هـ/١٩٩٢م , مج ١ , ص ٣٩٧ ؛ ابن واصل : ج ٦ , ص ٢٧٠-٢٩١ ؛ الحنبلي , مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل , دار الجليل , بيروت , ١٣٩٧هـ/١٩٧٣م , ج ٢ , ص ١٠ ؛ الأرمني : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٣٢ .

قام نائب السلطنة سيف الدين قطز وألقى القبض على السلطان نور الدين علي (١) , واعتقله بقلعة الجبل , وأعلن نفسه سلطاناً بدلاً منه سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م (٢) , وعيّن قطز علم الدين سنجر الحلبي نائباً عنه على دمشق , وبقي المنصور محمد ملكاً على حماة , كما أقر صاحب حمص الأشرف موسى في مملكته , وعيّن الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سيداً على حلب (٣) , ثم اعتلى بيبرس عرش السلطنة المملوكية إثر قتله سيف الدين قطز سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م , وتلقب بالظاهر , وأراد بيبرس توحيد بلاد الشام ومصر من أجل الوقوف بوجه الأخطار المحدقة (٤) , ولكن علم الدين سنجر سيد دمشق رفض الولاء لبيبرس إثر سماعه بمقتل قطز , وأعلن نفسه سلطاناً للأيوبيين , ولقب نفسه بالمجاهد علم الدين , بينما ثارت بقايا المماليك العززية والناصرية في حلب ضد الملك السعيد علاء الدين لؤلؤ , وعينوا حسام الدين لاجين الجوكندار ملكاً على حلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م , وقد كان حسام الدين موالياً لبيبرس على عكس المجاهد علم الدين , ولم يتوان بيبرس في القضاء على المجاهد علم الدين , فأرسل جيشاً بقيادة علاء الدين البندقداري إلى دمشق سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م حيث اقتاد صاحب دمشق

أسيراً إلى مصر , واستلم دمشق بدلاً عنه (٥) , كما عمِلَ بيبرس على إحياء الخلافة العباسية , فأتى بشخص يدعى أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله , ولقبه بالمستنصر بالله , وعينه خليفة للمسلمين في شهر رجب سنة ٦٥٩هـ/شهر حزيران عام ١٢٦١م ,

(١) سيف الدين قطز : هو محمود بن ممدود ابن أخت علاء الدين تكش المعروف بمحمد خوارزم شاه , وإثر الزحف المغولي غرباً , وتدمير الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م , أصبح قطز عبداً مملوكياً , ثم تدرب في جيش الصالح نجم الدين أيوب , واستلم نيابة السلطنة في عهد نور الدين علي , وفي سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م أصبح سلطاناً للمماليك , واشتهر بالتقوى والورع والصلاح , وانتهت حياته على يد بيبرس سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . الذهبي : العبر , ج ٣ , ص ٢٤٧ ؛ الحنبلي : شذرات الذهب , ص ٥٠٧-٥٢٠ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٢٤٧ .

(٢) ابن خلدون : ج ٥ , ص ٤٣٦ ؛ اليماني : ص ٥٦٣ ؛ ابن إياس : ق ١ ج ١ , ص ٣٠١-٣٠٣ .

(٣) المنصوري : مختار الأخبار , ص ١١ ؛ زبدة الفكرة , ص ٥٢ .

(٤) ابن واصل : ج ٦ , ص ٢٩٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة , ج ٢ , ص ٣٩ ؛ ابن دقماق : الجواهر الثمين , ص ٢٦٩-٢٧٠ . الملطي , عبد الباسط : نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين , تح : محمد كمال الدين علي , ط ١ , دار الثقافة الدينية , القاهرة , ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م , ص ٧٣-٧٥ ؛ سرهنك , إسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار , المطبعة الأميرية , بولاق , ١٣١٤هـ/١٨٩٦م , ص ١٦٦-١٦٧ ؛

Breliier : op . cit , p230-233 .

(٥) اليونيني : مج ١ , ص ٣٧٣-٣٧٤ ؛ المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٥٢١-٥٢٢ .

وهنا اكتسب بيبرس صفة الشرعية (١) .

ثم وصلت أنباء إلى بيبرس تؤكد بأن الملك المغيث سيد الكرك قد راسل المغول , وحثهم على غزو بلاد الشام ومصر , وذلك بسبب استيائه من استيلاء بيبرس على الأملاك الأيوبية في بلاد الشام , مما أدى لمسير بيبرس على رأس جيشٍ إلى الكرك حيث ألقى القبض عليه , وأخرج له الرسائل التي تبادلها مع المغول , ثم أرسله إلى قلعة الجبل ليلقى حتفه هناك سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م , وسلم الكرك للمعز أيدير الأستادار , وبذلك تخلص من تأمر المغيث مع المغول (٢) .

وعلى هذا انتهى النزاع الأيوبي — المملوكي , وعادت الوحدة بين بلاد الشام ومصر تحت السيادة المملوكية بعد أن ضُعفت السلطنة الأيوبية , وأصبح المماليك قوةً كبرى , لها وزنها الاستراتيجي في المنطقة , وقد سخروا تلك القوة في مواجهة الأعداء الذين تربصوا بالمسلمين , ولا سيما الصليبيين (٣) .

-
- (١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٠-٣٢١ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٥-٥٢٦ ؛ عاشور : مصر والشام ، ص ١٧٤-١٧٥ .
- (٢) المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٨٢-٤٨٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٧-٣٢٩ ؛ ابن عبد الظاهر ، محيي الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تح : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م ، ص ١٥٠-١٦٥ ؛ غوانمة : ص ٣١٧-٣٢٥ ؛ Thorau : op . cit , p134-135 .
- (٣) ابن تغري بردي : مورد اللطافة ، ص ١٤٩-١٥٠ ؛ المكى ، عبد الملك : سمط النجوم العوالي ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، د.ت ، ج ٤ ، ص ١٧-١٨ ؛ Irwin : op . cit , p30-32 .

٣- أوضاع لويس التاسع في فرنسا .

رحل لويس التاسع من مملكة عكا إلى المملكة الفرنسية ، فوجد الفساد قد استشرى فيها فضلاً عن تحرشات هنري الثالث ملك إنكلترا بها ، فرأى أن من أهم واجباته أن يجعل من فرنسا قوة كبرى قادرة على دعم المشروع الصليبي (١) ، ويمكن الإشارة إلى أن لويس التاسع خلال إقامته في فرنسا ما بين حملتيه الصليبيتين الأولى والثانية قد ركّز اهتمامه على جانبين وهما :

أ- الإصلاح الداخلي : تحول لويس التاسع في فرنسا ، وتفقد أحوال رعيته ، فانشغل بمساعدة الفقراء والمحتاجين ، وأنهى النزاعات القائمة بين رجال الدين ، وتسامح مع العصاة المحرومين كنسياً ، فسمح لهم بالتحلل من الحرمان بعد مرور سنة ويوم من حرمانهم ، وكثّر الساعات الطويلة للعبادة ، وتكشف في مأكله وملبسه ، واهتم بكيفي البصر ، فأنشأ مقراً لهم في مدينة باريس ، وقَدَّم لهم مستلزمات الحياة كافة (٢) ، كما اهتم بالمعوقين ، وأمر بتقديم وجبات الطعام لهم ، وعيّن لهم الرواتب ، واعتنى بالمسنين والعجزة ، وأنشأ الكثير من المباني العمرانية ، فبنى المشافي والكنائس والأديرة في أنحاء فرنسا كافة (٣) ، وحصّن قلاع

نورماندي , وشحنها بالعتاد والرجال (٤) , ونتيجة للفساد الذي انتشر في فرنسا قَسَمَ لويس التاسع الأعمال الحكومية إلى ثلاثة أقسام : أشرف القسم الأول على السياسة الخارجية , أما القسم الثاني فاختص بالأمور الداخلية والمالية , بينما اهتم القسم الثالث الذي مثله البرلمان بالإشراف على القضاء (٥) ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٣٣-٢٤٥ ؛ باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٤٦٨-١٤٦٩ ؛ المهندس : ج٣ ,

Miquel : op . cit , p51-52 .

ص٢٥٤ ؛ الخوري : ص١٢-١٣ ؛

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٣٩-٢٤٧ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٤٢-٣٤٤ ؛ حاطوم , نور الدين : تاريخ العصر الوسيط في أوربة , دار الفكر , دمشق , ١٤١٣هـ/١٩٩٣م , ج٢ , ص٧٨-٨٠ ؛

Davies , Norman : Euroup a history , new york , 1977 , p355-357 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٥٦-٢٥٨ ؛ ديورانت : ج١٥ , ص٢٣٠ ؛

Villeneuve : op . cit , p257-263 .

(٤) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٦٥٣ .

(٥) حسونة ورفعت : ص١١٦ .

ويلاحظ أن السلطة التشريعية هي مهمة البرلمان , أما هنا فإن التشريع كان من نصيب لويس التاسع الذي وضع تشريعات جديدة , ومن أهمها :

١- يتوجب على جميع موظفي الدولة أداء القسم على الإخلاص في أعمالهم , وعدم التمييز بين غني أو فقير (١) .

٢- عدم اللعب بالنرد , أو بأي نوع من أنواع الميسر , ويُمنع الصناع من صناعة طاولات النرد .

٣- يلتزم القضاة باستدعاء الشهود , وتقليب القضية على وجوها كافة لكي لا يكون هناك ظلم لأي طرف من الأطراف المتخاصمة (٢) .

٤- لا يجوز للإقطاعيين القيام بحروب شخصية من أجل مصالحهم الخاصة (٣) .

٥- يتوجب على رجال الدولة عدم اختلاس الأموال أو قبول الرشوة أو الهدية .

٦- تحريم الغش والخداع والسرقة , وخرق القوانين .

٧- عدم بيع المناصب , ويستلمها الأجداد في الحفاظ على المصلحة العامة .

٨- عدم تصدير المنتجات الفرنسية التي تُعد غذاءً رئيسياً للفرنسيين وبخاصة القمح .

٩- لا يُحاسب الموظف الجديد إن أخطأ وذلك طيلة أربعين يوم من مباشرته للعمل , إنما يحاسب الموظف المدرب له .

١٠- يجب أن يتمتع موظفو الدولة بأخلاقٍ عاليةٍ , وألا يقتربوا الذنوب والآثام , لأنهم قدوة الشعب الفرنسي (٤) .

ويلاحظ أن لويس التاسع اهتم بنشر العدل بين أبناء شعبه , وإنصاف المظلومين (٥) , ونشر القيم السامية بينهم لأنها كفيلة بالإصلاح , والنهوض بأوضاع فرنسا , وقد كان لويس التاسع قدوتهم في النزاهة والأمانة أملاً في أن يسيروا على خطاه , فأحبه الجميع , وسارت أوضاع فرنسا نحو الأفضل وسادها الهدوء والاستقرار على الصعيد الداخلي , كما تحسنت علاقاتها الخارجية ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٤٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٥٠-٢٥٣ ; حاطوم : ص٨٠ .

(٣) الخوري : ص١٣ ; ديورانت : ج١٥ , ص٢٣٠ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٤٩-٢٥٣ .

(٥) يُنظر الشكل رقم (٧) , ص٣١٦ .

فسادها هدوءاً نسبياً (١) .

ب- السياسة الخارجية : اختلفت السياسة الفرنسية مع دول الجوار , وذلك حسب ما اقتضته مصالحها , فكان لويس التاسع مرناً بشكل كبير لإنهاء الخلافات بين فرنسا وإنكلترا . - - إنهاء

الأزمة الفرنسية مع إنكلترا : تجنب لويس التاسع الحروب مع جارتها إنكلترا حيث أرسل لملك إنكلترا هنري الثالث من أجل حل النزاع على المناطق المتنازع عليها (٢) , فقدم هنري الثالث وعقيلته اليانور (٣) إلى فرنسا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م , وقد كان باستقبالهم لويس التاسع وزوجته مارغريت , كما خرج أبناء باريس حاملين أغصان الورد , مصحوبين بالأدوات الموسيقية (٤) , ويُرجح أنه كانت هناك محادثات جانبية بين الملكين لم يطلع عليها أحد , وقد تضمنت مناقشة النزاع القائم على المناطق المتنازع عليها بينهما , ولم يتوصل الطرفان لحل الأزمة (٥) , مما أدى لإرسال هنري الثالث سفارة إلى لويس التاسع سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م , وكان الهدف منها مطالبة لويس التاسع بإعادة الممتلكات التي استولى عليها الفرنسيون من إنكلترا , فأظهر لويس التاسع مرونة في موقفه , بينما رفض مستشارو لويس التاسع الاعتراف بأية ممتلكات لهم , فعادت السفارة إلى إنكلترا , وعندما لمس هنري الثالث أن هناك مرونة من قبل لويس التاسع أرسل له سفارة ثانية في العام نفسه ,

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٥٥-٢٥٨ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٤٢-٣٤٤ ؛ حاطوم : ص ٧٨-٨١ . فشر , ه . أ . ل : تاريخ أوروبا العصور الوسطى , تر : السيد الباز العربي ومحمد زيادة وإبراهيم العدوي , دار المعارف , ط ٣ , مصر , ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م , ص ٢٨٦-٢٨٨ ؛

Villemeuve : op . cit , p257-262 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٤٣ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٦٧٨ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥١٣ ؛

Davies : op . cit , p357 .

(٣) أنجب كونت بروفانس ريموند برينغار الرابع (Rayymond Brengar 4) (٥٩٥-٦٤٣ هـ / ١١٩٨-١٢٤٥ م) أربع فتيات من زوجته بياتريس سافوي (Biatres Safwa) , فتزوجت مارغريت من لويس التاسع , واليانور (Elianor) من هنري الثالث ملك إنكلترا , وسكاكنا (Scakna) من ريشارد كورنول (Rechard Cornel) سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م , وغدت الصغيرة بياتريس (Biatris) وريثة أبيها في بروفانس , وتزوجت من شارل كونت آنجو (Charl cont anjo) فجعلت منه كونت بروفانس (Brofans) . مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٣٢٢-٥١٣ .

(٤) باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٤٩٢-١٤٩٨ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٤٣ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥١٢ .

لكنها لم تكن أفضل حظاً من سابقتها حيث قابلها مستشارو لويس بالكلمات القاسية والتهديد (١) , وبالرغم من ذلك لم ييأس هنري الثالث , فأرسل وفداً إلى لويس التاسع سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م , ولم يُصرح ذلك الوفد بنتيجة المفاوضات التي دارت بين الطرفين حيث بقيت طي الكتمان (٢) , ويُرجح أنه كانت هناك تطورات جديدة أراد لويس التاسع أن تبقى سرية خوفاً من إثارة مستشاريه , وإثر المحادثات التي استمرت بين الطرفين توصلوا لعقد معاهدة باريس سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م , التي تضمنت المعاهدة البنود التالية :

١- بقاء دوقية نورماندي (Normandy) وكونتية آنجو (Ango) تحت سيادة فرنسا .

٢- تنازل لويس التاسع عن عسكوني (Asconey) لهنري الثالث (٣) .

٣- يتوجب على ملك إنكلترا دفع مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة تورونية للملك الفرنسي (٤) .

أغضبت هذه المعاهدة مستشاري لويس التاسع بسبب تخليه عن عسكوني لإنكلترا , ولكنه أكد لهم أنها من حقهم , وذلك هو الحل الوحيد لإنهاء النزاع بين الطرفين (٥) , ومن المحتمل أن لويس التاسع أراد إنهاء حالة النزاع مع إنكلترا أملاً في جرّها إلى مشروع جديد من مشاريعه في الحروب الصليبية , وإثر المعاهدة ساد السلام بين إنكلترا وفرنسا , وانتهت حالة التوتر بينهما (٦) .

- امتداد النفوذ الفرنسي نحو إيطاليا : أنهى لويس التاسع النزاع الفرنسي مع إنكلترا , ولكن استجابته لرغبات البابا أدت لتأجيج الصراع الفرنسي مع خلفاء فردريك الثاني هوهنشتاوفن , وإثر وفاة كونراد الرابع

ابن فردريك الثاني سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م الذي حل مكانه على العرش الألماني ابنه كُونرادين (Conradine) الذي كان طفلاً صغيراً (٧) ,

-
- (١) باريس : الموسوعة , ج٤٩ , ص١٦٧٨-١٦٨٨ .
(٢) باريس : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٧٧٨ .
(٣) ريشنغر : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٧٨٧-١٧٨٨ ؛ المهندس : ج٣ , ص٢٥٤ . حاطوم : ص٨٢ ؛ زيتون : العصور الوسطى , ص٣١٠-٣١١ .
(٤) ريشنغر : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٧٨٧ .
(٥) جوائيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٤٤ .
(٦) ريشنغر : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٧٨٧-١٧٨٨ ؛ حاطوم : ص٨٢ ؛ زيتون : العصور الوسطى , ص٣١١ .
(٧) رنسيما : ج٣ , ص٤٩٩ ؛ زيتون : العصور الوسطى , ص٢٧٧ ؛ Smith : op . cit , p198-199 .

برز آنذاك مانفريد ابن فردريك الثاني (Manefred du Fredrik 2) الذي طمع في عزل كُونرادين , كما أعلن الحرب على البابويه حيث هَزَمَ الجيش البابوي في أبوليا (Abolia) سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م , بينما كان البابا أنوسنت الرابع (Anosent 4) على فراش الموت , وعندما اعتلى العرش البابوي الكسندر الرابع (Alecsander 4) هزمه مانفريد في أبوليا سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م , وإثر ذلك الانتصار عَزَلَ مانفريد ابن أخيه كُونرادين عن عرش ألمانيا والصقليتين (مملكتي نابولي وصقلية) , وذلك سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م (١) , ولم يكن البابا راضياً عن ازدياد نفوذ ما نفريد , فرغب بتدخل فرنسا لعلها تضع حداً لتمادي مانفريد (٢) , فعرض البابا أوربان الرابع (Orban 4) عرش الصقليتين على لويس التاسع , فرفض استلامه بينما سمح لأخيه شارل كونت آنجو وبروفانس باستلامه , ودون شك كان لويس التاسع مستاءً من مانفريد المتمرد على البابوية , ومع أن البابا أوربان الرابع توفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م فقد أتم البابا كليمنت الرابع الاتفاق مع شارل على تسليمه عرش الصقليتين (٣) , وفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م اخترق شارل إيطاليا على رأس جيشٍ جرار , حاملين الصليب ضد مانفريد المتمرد على البابا (٤) , واستعد مانفريد لمواجهة شارل , والتقى الطرفان سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م في معركة بِنْفِنْتُو (Benvento) جنوب إيطاليا حيث دارت معركة طاحنة, أسفرت عن مقتل مانفريد , وتمزيق جيشه , وأصبح شارل آنجو سيداً على الصقليتين (٥) , وهنا تطلع كُونرادين حفيد فردريك الثاني لاستعادة حقوقه في سيادة الصقليتين , ولقي تأييداً من قبل اللومبارديين والتوسكانيين , وعندما وصل إلى روما استقبله أهلها استقبالاً مهيباً , فأعد

جيشاً والتقى مع شارل آنجو قريباً من ضفاف نهر سَالْتُو (Salto) , ودارت معركة بين الطرفين سنة ١٢٦٧هـ/١٢٦٨م حيث وقع كونرادين أسيراً فيها ,

-
- (١) زيتون : العصور الوسطى , ص ٢٧٧-٢٧٨ ؛ ديورانت : ج ١٥ , ص ٢٩٨ .
(٢) باريس : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٧٥٨-١٧٥٩ ؛ فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٤-١١٧٥ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥١٢-٥١٤ ؛
Michelet : op . cit , p206 .
(٣) مجهول : تاريخ هرقل , الموسوعة , ج ٥٨ , ص ١٩٩٩ ؛ المهندس : ج ٣ , ص ٢٥٤ ؛ ديورانت : ج ١٥ , ص ٢٩٨ .
(٤) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٢٢ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥١٥ ؛
Didier : op . cit , p58 .
(٥) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٥ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥١٧-٥١٨ .

" فجري إعدامه بناءً على أمر الملك شارل , مع عدد من النبلاء من أسرته " (١) , وأُرعِبَ أهالي نابولي وصقلية عندما رأوا ملكهم الجديد شارل قد أعدَمَ زعماء أسرة هوهنشاوفن الملكية , وبذلك امتد النفوذ الفرنسي على الصقليتين , وأضحى شارل سيداً للصقليتين بلا منازع (٢) .
وهكذا انشغل لويس التاسع بالنزاعات الأوربية , وكان متابعاً للمآسي التي حلت بالكيان الصليبي , وحالة التدهور التي عاشها الصليبيون (٣) ,

-
- (١) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٢ .
(٢) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٥ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥٣٢-٥٣٨ ؛ زيتون : العصور الوسطى , ص ٢٨١-٢٨٣ ؛
Smith : op . cit , p198-200 .
(٣) تدهور الكيان الصليبي : جرد بيبرس جيشاً , وقصد عكا سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م , ومَرَّ في الناصرة , فنصب المجانيق على كنيسة دمرها , ثم أرسل الأمير بدر الدين الأيدمرى إلى عكا , فأغار بجيشه على المدينة , ونهب المناطق المجاورة لها , كما هاجم قيسارية في شهر جمادى الأولى سنة ٦٦٣هـ/شهر شباط من عام ١٢٦٤م , واستولى عليها , ثم أمر بدمها , وتابع بيبرس مسيره إلى أرسوف , وانتزعها من الصليبيين في شهر جمادى الآخر سنة ٦٦٣هـ/شهر آذار عام ١٢٦٤م , وبدأ بحصار صفد في ٨ رمضان سنة ٦٦٤هـ/١٣ حزيران عام ١٢٦٦م , وقتل رجالها عن بكرة أبيهم , وقد نظر المسلمون إلى هَيْثُومَ الأول ولويس التاسع على أنهما وراء مجيء المغول إلى العراق وبلاد الشام , فأراد بيبرس غزو الأرمن في عقر دارهم , وفي شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ/ آب عام ١٢٦٦م أعدَّ السلطان المملوكي جيشاً من أبناء بلاد الشام ومصر , وسلم قيادته للأمير المملوكي قلاوون وملك حماة المنصور محمد , ووصلوا سويس عاصمة أرمينية الصغرى , وجعلوا عاليها سافلها , لم يترك بيبرس للصليبيين فرصةً للراحة , وقد عاشت يافا مرحلة من الاستقرار في عهد يُوحَنَّا إبلين الذي فارق الحياة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م , فاستلم سيادتها ابنه جاي إبلين , ولم يستطع الصمود بوجه بيبرس الذي هاجمها في شهر جمادى الآخر سنة

٦٦٦هـ/شباط عام ١٢٦٨م , فأصيب صليبيو يافا بالهلع , وما إن أعطاهم الأمان حتى انطلقوا إلى عكا , ومع بداية شهر رمضان سنة ٦٦٦هـ/أيار عام ١٢٦٨م سقطت إمارة أنطاكية أول إمارة أقامها الصليبيون بعد مائة وإحدى وسبعين سنة من نشوئها , وبقيت قبرص الأمل الوحيد للصليبيين بما أنها بعيدة عن الضربات المملوكية , وحدث أن توفي هيو الثاني لوزنجان ملك قبرص الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م , فخلفه على العرش القبرصي ابن عمته هيو بريين الوصي عليه , ثم ما لبث أن تم تنويجه ملكاً على مملكتي قبرص وعكا باسم هيو الثالث سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م , وبذلك توحدت المملكتان الصليبيتان , ولجأ هيو الثالث إلى الدبلوماسية لتأمين حماية الصليبيين , فسارع لالتماس الصلح مع بيبرس , وأرسل له سفارة لعقد هدنة معه , لكن السفارة لم تحقق هدفها , وبذلك تحاوت المعادل الصليبية , وهدم بيبرس كل ما بناه لويس التاسع . الرشيدى , محمد: تفريج الكروب في تدبير الحروب , تح : عارف عبد الغني , دار كنان , دمشق , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م, ص ٢٩-٩٥ . النويري , أحمد : نهاية الأرب في فنون الأدب , تح: محمد شعيرة ومحمد زيادة , مركز تحقيق التراث, ١٤١٠هـ/١٩٩٠م , ج ٣٠ , ص ٨١ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية , ص ٥٣-٥٤ ؛ مختار الأخبار , ص ٣٦ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٣٣٢-٣٣٣ . =

اقتصر لويس التاسع على إرسال المساعدات المادية للكيان الصليبي حيث أرسل المعونات بشكلٍ دائم , وبخاصة إلى قوات التجريدة الفرنسية التي كان يتزعمها جيفري دي سارجين (١) , وقد حان الوقت المناسب لتقديم الدعم العسكري للصليبيين إثر إنهاء لويس التاسع للنزاع المبرر بين فرنسا وإنكلترا حيث ساد السلام بينهما , كما شجع أخاه شارل في التوغل إلى الصقليتين , لإنهاء تمرد أسرة هوهنشاوفن الألمانية على البابوية أملاً في إعداد حملة صليبية أوربية جديدة , لعله يستطيع إنقاذ مملكة عكا قبل أن تسقط بأيدي المسلمين (٢) .

= المقريري : السلوك , ق ٢ ج ١ , ص ٥٥١-٥٥٢ ؛ الذهبي : العبر , ج ٣ , ص ٢٧٣ ؛ ابن خلدون : ج ٥ , ص ٤٤٥ ؛ ابن الشحنة , محمد : الدر المنتخب في مملكة حلب , دار عالم التراث , دمشق , ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م , ص ٢٢٠ ؛ ابن عبد الظاهر : ص ٣٣٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبية , ج ٣ , ص ١١٥٠ ؛ رنسيما : ج ٣ , ٥٥٦-٥٦١ . Murray , Alan : Jerusalem from Clermont to the crusades , Brepols , 1998 , p131 ; Setton : op . cit , volume 2 , p572-575 ; Michaud : op . cit , volume 4 . p500-512 .

(١) كريستوفر : الموسوعة , ج ٨٣ , ص ١١٥ ؛ رنسيما : ج ٣ , ص ٤٩٩ ؛ بردج : ص ٢٧٣ .

(٢) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٧٨٧-١٨٤٢ ؛ مجهول : مجموع هافنيسيس , الموسوعة , ج ١٠ , ص ٥١٢-٥٣٧ ؛ زيتون : العصور الوسطى , ص ٢٨٠-٣١١ ؛ Davies : op . cit , p357-359 .

- الفصل السادس -

حملة لويس التاسع على تونس سنة ٦٦٨-٦٦٩ هـ / ١٢٧٠م

١- إعداد الحملة الصليبية .

٢- أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الصليبية .

٣- مسار الحملة الصليبية وموقف المستنصر الحفصي منها .

٤- سقوط قرطاجة في قبضة الصليبيين .

٥- تفشي الأمراض في صفوف المعسكر الصليبي .

٦- وفاة لويس التاسع سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م .

٧- معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين .

٨- نهاية الحملة الصليبية الثامنة .

١- إعداد الحملة الصليبية .

بقي العمل الصليبي يراود خيال لويس التاسع , وازداد حماساً مع تداعي وانهيار معظم المعازل الصليبية تحت وطأة ضربات المملوكية , وكان أول من أخذته الحمية من ملوك أوربا لويس التاسع, فأدرك ضرورة إمداد الكيان الصليبي (١) , وتناسى العهد الذي قطعه على نفسه للمسلمين بعدم مهاجمة بلادهم إثر إطلاق سراحه منذ سبعة عشرة سنة , سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م (٢) , والمثير للانتباه أن هذه الحملة لم تتجه إلى بلاد الشام أو مصر كما اعتادت الحملات الصليبية السابقة إنما انطلقت إلى تونس التي تبعد مسافات شاسعة عن القدس (٣) .

تجاه الوضع المؤلم الذي عاشته مملكة عكا وجه البابا كليمنت الرابع النداء إلى ملوك أوربا سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م , وحثهم على إنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين , وصوّر لهم أعمال العنف والتدمير التي حلت بالصليبيين على أيدي المماليك , ولكن أوربا لم تُبَدِّ ذلك الحماس الكبير لتلك الحملة (٤) , والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا حَقَّتْ رغبة الأوربيين بالاشتراك في الحروب الصليبية ؟

لقد وجدت الشعوب الأوربية أنها بددت مواردها الاقتصادية وأموالها في مشروعٍ خاسرٍ , ويمكن من خلال تلك الموارد تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والداخلية بدلاً من هدرها , لأنها أدركت أن قضية استعادة القبر المقدس ليست سوى ذريعة من أجل مَدِّ نفوذ أوربا إلى المشرق العربي الإسلامي وحتى مغربه , ولكنها أيقنت أن احتلاله ليس أمراً سهلاً لأن مملكة عكا قد وصلت مرحلة الشيخوخة مع تقادم السنين , واقتربت نهايتها , ولم يَخَفَ على الأوربيين تفاني المسلمين في الدفاع عن

(١) العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٣٧-٨٠٥ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٢٦٠-٢٦١ ؛ فابري : الموسوعة ، ج ٣٨ ، ص ١٧٢-١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج ٥٠ ، ص ١٨٤٠-١٨٤١ ؛

Michaud : op . cit , volume 4 , p512-516 .

(٢) ابن واصل : ج ٦ ، ص ١٣٣-١٣٤ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٠ ؛ المطوي ، محمد : السلطنة الحفصية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٩٨ .

(٣) ابن كثير : ج ١٧ ، ص ١٧٣-٤٩٢ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٢٧١-٣٥٥ ؛

Gabrieli : op . cit , p266-285 ; Labrune and Toutain : op . cit , p34-35.

(٤) مونود : مج ٢ ، ص ٣٤٦-٣٤٧ ؛ عامر : ، ص ٨٦ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p647- 649 .

أنفسهم وأوطانهم ، وهذا ما أدى لإصابتهم بالفتور تجاه الحروب الصليبية باستثناء المتطرفين من بعض ملوك أوروبا أمثال لويس التاسع ، وقد اضطر القليل من الأوربيين أن يخذوا حذو قادتهم لإرضائهم وليس حباً بالعمل الصليبي .

إثر نداء البابا ملوك أوروبا من أجل إنقاذ الكيان الصليبي سارع لويس التاسع الذي كان من أكثر المتحمسين لغزو البلاد العربية الإسلامية (١) ، وعقد اجتماعاً للتخطيط لمشروع حملة صليبية جديدة في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ / ٢٤ آذار عام ١٢٦٧م ، دعا إليه كبار بارونات فرنسا ، كما أرسل إلى جوانفيل الذي اعتذر بسبب مرضه الشديد ، فَوَجَّهَ إليه دعوة ثانية ، وأشار له إلى أن هناك أطباء مهرة في باريس إذا ما أراد أن يتعالج ، فاضطر جوانفيل أمام إصرار لويس التاسع لحضور الاجتماع (٢) ، وقد ألقى لويس التاسع في ذلك الاجتماع خطاباً حماسياً بيّن من خلاله الحالة المأساوية التي آلت إليها أوضاع مملكة عكا ، كما دعاهم إلى حمل السلاح لإنقاذ الكيان الصليبي ، ثم بادر لويس التاسع بحمل الصليب المقدس (٣) ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة ، وهم فيليب (Philips) ، وبيتر (petro) ، ويوحنا الحزين (jean Tristan) ، والكثير من النبلاء (٤) ، وأشار جوانفيل إلى أنه قد جلس أمامه أثناء الاجتماع اثنان من النبلاء حيث قال أحدهما للآخر :

" إذا لم نتناول الصليب ، ونأخذه نحن أنفسنا سوف نفقد حظوة الملك ورضاه ، وإذا ما أخذناه سوف نفقد عطف الرب ورضاه ، لأننا وقتها سوف نأخذه لا من أجل الرب ، بل خوفاً من غضب الملك وعدم رضاه " (٥) .

من هنا يلاحظ أن النبلاء الفرنسيين لم يكن لديهم نية صادقة في حمل الصليب والمشاركة في الحملة الصليبية , لكنهم شعروا إذا ما رفضوا المسير على خطأ ملكهم في حمل الصليب , فإنهم سوف يفقدون مكائنتهم لديه بل إن مشاركتهم ليست من أجل الاستيلاء على المقدسات إنما خوفاً من غضب

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٠-٢٦١ ؛ برجوي : ص ٦٢١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٠ ؛ الكنائي , مصطفى : حملة لويس التاسع الصليبية على تونس , دار المعارف , الإسكندرية , د.ت , ص ١٤١-١٤٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٠-٢٦١ ؛ مونود : مج ٢ , ص ٣٤٧-٣٤٨ ؛ عامر : ص ٨٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦١ ؛ الكنائي : ص ١٤٢ ؛ . Brellier : op . cit , p234-235 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦١ .

لويس التاسع , وإذا ما غضب منهم , ربما يُجردهم من اقطاعهم , وهذا ما أجبرهم على حمل الصليب , وتأييد لويس التاسع في حملته الصليبية .

ما إن انتهى الاجتماع حتى بادر لويس التاسع بمراسلة ملوك أوروبا لحثهم على المشاركة في الحملة الصليبية التي ينوي إعدادها , فأرسل له البابا كليمنت الرابع مباركاً جهوده , كما وجه النداء إلى الكنائس الأوروبية من أجل تسخير ثرواتها لمساعدة لويس التاسع في إعداد الحملة (١) , وقد اقتضى إعداد الحملة زهاء سنتين (٦٦٥-٦٦٨ هـ / ١٢٦٧-١٢٦٩ م) بذل لويس التاسع خلالها جهوداً كبيرة لإعداد حملته , فأرسل إلى ادوار بن هنري الثالث (Edwar du Henrey3) ملك إنكلترا , فسارع ادوار في المجيء إلى فرنسا حيث أظهر له لويس التاسع رغبته في اصطحابه إلى الأراضي المقدسة , ولكن ادوار اعتذر بسبب ضعف إمكانياته المادية , فوعده لويس التاسع بإقراضه ثلاثين ألف ليرة ذهبية مقابل رهن موارد مقاطعة غسكوني (Asconey) , ولقي ذلك الاقتراح القبول من قبل ادوار , وعاد إلى إنكلترا لأخذ موافقة والده هنري الثالث الذي أخذ ينوح ويكي , وذلك لسببين وهما :

أ- خشي هنري الثالث على ولده من تلك المغامرة , فالطريق محفوفة بالمخاطر , وقد لا يعود ادوار لوالده سالماً .

ب- جرت حروبٌ دامية بين فرنسا وإنكلترا على غسكوني ضحت إنكلترا فيها بالكثير من جنودها حتى تنازلت لها فرنسا عنها , وإن رهن موارد غسكوني قد يؤدي لاستيلاء فرنسا عليها مرة ثانية .

ومع ذلك اضطر هنري الثالث للموافقة على مضي ادوار على المشاركة في الحملة الصليبية (٢) , وبينما كانت التسيقات جارية في أوروقة على قدمٍ وساق من أجل إعداد مستلزمات الحملة أرسل

الصلبيون إلى البابا وفداً طالبه في الإسراع بإنقاذ مملكة عكا (٣) , كما أخبره الوفد أن أنطاكية قد سقطت بيد بيبرس , والهجمات على الصليبيين كانت مستمرة (٤) ,

(١) ابن خلدون, عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر, تح : خليل شحادة , مراجعة : سهيل زكار , دار الفكر , ط٢, بيروت, ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م , ج٦ , ص٤٢٦ ؛ كريستوفر : الموسوعة , ج٨٣ , ص١١٠ ؛

الموسوعة , ج٥٠ , ص١٧٨٧-١٨٤٢ .

Setton : op . cit , volume2 , p578-579 .

(٣) الكناني : ص١٤٦-١٤٧ ؛

(٤) ابن كثير : ج١٧ , ص٤٧٦-٤٧٨ ؛ ابن خلدون : ج٥ , ص٤٤٥-٤٤٧ ؛ الغزي : ج٣ , ص١٣٨ .

وفي خضم تلك الأحداث فارق البابا كليمنت الرابع (klement4) الحياة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م, وبقي العرش البابوي شاغراً (*) مدة ثلاثة أعوام وشهرين وعشرة أيام (١) .

لم يكن لموت البابا كليمنت الرابع ذلك الأثر الكبير على إعداد الحملة لأن لويس التاسع كان أكثر حماساً لذلك المشروع من البابوية ذاتها , ونتيجةً لجهوده شارك في الحملة عدد كبير من النبلاء الأوربيين , وهم :

ادوار ابن هنري الثالث (Edwar du Henrey3) , وقد صحبته زوجته اليانور (Elianor) , وعدد من بارونات إنكلترا (٢) , " ومعه ألفي رجل " (٣) , بينما شارك من الجانب الفرنسي شارل كونت آنجو (Charl cont Anjo) ملك الصقليتين (٤) , وأخوه ألفونسو كونت بواتيه (Alphonso cont Boitey) , وأخوه إيسوفي كونت فلاندر (Esofey cont flandar) وثيوبالد كونت نافار (Thiobald cont Navar) ويوحنا كونت بريتاني (Jean cont Britaner) (٥) , فضلاً عن النساء الفرنسيات الشهيرات مثل أوسفور أميرة بواتيه (Esofey prinses Boiter) وتولوزو (Touloz) زوجة ألفونسو كونت بواتيه , وجين أميرة شامبانيا (Jeane prinses Chambania) , وغيرهن من الأميرات والنبيلات (٦) .

(*) لم يتم انتخاب بابا جديد بسبب تأخير شارل آنجو ملك الصقليتين لذلك , حيث تعاون مع بعض رجال الدين لإبقاء الكرسي البابوي شاغراً , ربما أن شارل كان طامعاً في السيطرة على أملاك البابوية في إيطاليا , وفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م تم انتخاب ثيوبالد

بلاسنزا (Thiobald placenza) للعرش البابوي باسم غريغوري العاشر (Gregorey 10) (٦٧١-٦٧٥هـ/١٢٧٢-١٢٧٦م) . ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠, ص ١٨٤٢-١٨٥١ ؛ رنسيما : ج ٣, ص ٥٠١-٥٨٠ ؛
setton : op . cit , volume2 , p583-587 .

(١) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠, ص ١٨٤٢-١٨٤٣ .

(٢) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠, ص ١٨٤١ ؛ دي كانسي , جوزيف وابن هنري الثالث أنجو , ادوار : رسائل صليبية من الأرض المقدسة , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دمشق , ١٤١٩هـ/١٩٩٩م , ج ٣٥, ص ٣٦٠ ؛
Villeneuve : op . cit , p267 .

(٣) الأرمي : الموسوعة , ج ٣٥, ص ٣٥٠ .

(٤) ابن سباط : ج ١, ص ٤٢٩ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠, ص ١٨٤٦ ؛ Smith : op . cit , p201 .

(٥) ابن خلدون : ج ٥, ص ٤٢٦ ؛ ابن عبد الظاهر : ص ٣٧٠ ؛ فابري : الموسوعة , ج ٣٨, ص ١١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠, ص ١٨٤٤ ؛ عامر : ص ٩٧-٩٨ ؛
Michaud : volume4 , p518 .

(٦) مونود : مج ٢, ص ٣٤٨ ؛ الكناي : ص ١٧٩ .

أصبحت الحملة الصليبية الثامنة على أهبة الاستعداد , ولكن المثير للانتباه أنها لم تقصد مملكة عكا إنما قررت المسير نحو شمال أفريقيا , وهذه أول حملة صليبية تنطلق إلى تونس (١) .
وعلى هذا فبفضل جهود لويس التاسع أعدت أوربا حملة صليبية ثامنة , معظم المشاركين فيها من الفرنسيين (٢) , وقرر لويس التاسع الانطلاق نحو تونس تحديداً بإيحاء من أخيه شارل أنجو , أملاً بفرض الهيمنة الفرنسية على أفريقيا , وإذا ما استولى على شمال أفريقيا فيمكنه متابعة المسير إلى بيت القدس (٣) , وهذا ما يُذكر بحملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م التي حملت أدوات الفلاحة من أجل زراعة أراضي مصر إذا ما استولوا عليها (٤) , وهذا يعني أن الهدف الأول لحملة لويس التاسع هذه هدف استعماري , أما الهدف الثاني فهو ديني , فقد غدت تونس في نظر لويس التاسع هي الطريق المؤدي لبيت المقدس .

أكد بيير دوبوا بأن لويس التاسع قد عدّ تونس بوابة بيت المقدس من خلال قوله :

" أما بشأن فكرة العبور من خلال إسبانيا , والانتقال منها عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة , ومنها إلى تونس أو عبر أي جزء من بلاد المغرب , فإني أؤثر عدم الوقوف عندها , فإنه انطلاقاً مما قلناه , ونقوله , وما يمكن أن نقوله , إن هذه الطريق غير مناسبة , وغير صالحة للسفر نحو الأرض المقدسة , وبالتالي إلى احتلالها , خصوصاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها " (٥) , وهنا أشار بيير دوبوا إلى أن لويس التاسع سلك طريقاً محفوفاً بالمخاطر , بسبب امتداد الصحارى بشكل شبه متصل من تونس حتى

بلاد الشام , فضلاً عن القوى الإسلامية التي استقرت على طول ذلك الطريق , وقد كان بإمكان لويس التاسع المسير بجرأاً إلى الأراضي المقدسة بدلاً من اختياره ذلك الطريق البري .

(١) سانوتو : الموسوعة , ج٣٦ , ص١٩ ؛ فابري : الموسوعة , ج٣٨ , ص١١٧٣ ؛

Mayer : op . cit , p282-283 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٦٠-٢٦٢ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٨٤٤-١٨٤٥ .

(٣) رنسيمان : ج٣ , ص٥٠١ ؛ villeneuve : op . cit , p265-266 .

(٤) باريس : الموسوعة , ج٤٨ , ص١٠٩٣ .

(٥) دوبوا : الموسوعة , ج٣٦ , ص١١١ .

٢- أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الصليبية .

حكم بنو حفص تونس منذ سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م إثر ضعف الموحيدين في المغرب العربي , وعُرفوا بالحفصيين نسبة لمؤسس الأسرة عمر أبو حفص بن يحيى الهنتاني من قبيلة المصامدة أكبر قبائل المغرب العربي , ويُنسبون إلى قريش من بني عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) , وأول من تلقب من سلاطين بني حفص بأمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الذي تلقب بالمستنصر بالله (٢) , بعد أن استلم حكم تونس سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م (٣) , وقد امتدت حدود دولته من طرابلس الغرب شرقاً حتى أقصى بجاية غرباً (٤) , وامتدت جنوباً إلى صحراء ورقلة الواقعة في الجزائر (٥), وبعد أن تبين امتداد تونس لا بد من الوقوف على أوضاعها قبيل مهاجمتها من قبل الحملة الصليبية , والتركيز على الأوضاع التي كانت سبباً أساسياً في جذب الصليبيين نحو تونس وهي :

أولاً : أسباب غير مباشرة .

أ- حدث أن اختلف اللحياني (٦) مع تجار فرنسيين حيث أقرضوه مبلغ ثلاثمائة دينار , وعندما احتكموا

(١) العيني : الموسوعة , ج٦٠ , ص٦٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج٢ , ص٢٩٤ ؛ الزركشي , محمد : تاريخ الدولتين الموحديّة

والحفصية , الدار التونسية , ط١ , ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م , ص١٤٩ .

(٢) المستنصر الحفصي : هو سلطان تونس محمد بن أبي زكريا يُكنى أبا عبد الله ، بويغ سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، اهتم بالعمارة والأدب والشعر، وساد عهده البذخ والترف ، توفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م . الصفدي ، خليل : الوافي بالوفيات ، تح : محمد محمود وإبراهيم سليمان ، دار فرانز شتاينر ، ط٢ ، فيسبا دن ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ج ٥ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، تح : قسطنطين زريق ، منشورات الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٣٦٢هـ/١٩٤٢م ، ج ٧ ، ص ٧٩ ؛ عبد الوهاب حسين ، حسن : خلاصة تاريخ تونس ، الدار التونسية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص ١٢٩-١٣٠ .

(٣) ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٣٥٥ ؛ السراج : مج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٤) بجاية : مدينة عظيمة تقع شرق الجزائر حيث تمتد على ضفة البحر ، وتتكون من جرف صخري شاهق ، ويعمل أهلها بالتجارة والملاحة . الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٠٣ ؛ المشترك وضعاً والمفترق صقلاً ، دار عالم الكتب ، ط٢ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ١٠١ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٢٣ ؛ ابن الشماخ ، محمد : الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح : الظاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس الغرب ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ص ٦٠-٦٨ ؛ الغنيمي ، عبد الفتاح : موسوعة تاريخ المغرب العربي (بني حفص وبني زيان وبني مرين) ، مكتبة مدبولي ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ج ٥ ، ص ٤٢ .

(٦) اللحياني : هو محمد الحفصي عم المستنصر ، وقد أخذ للمستنصر البيعة من الناس إثر وفاة يحيى والد المستنصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، ولكن اللحياني تغير فيما بعد على ابن أخيه . مقديش ، محمود : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تح : علي زواوي ومحمود محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، مج ١ ، ص ٥٥١-٥٥٢ .

إلى السلطان التونسي المستنصر ، حَكَمَ لصالح عمه اللحياني ، فانطلق التجار الفرنسيون وشكوا المستنصر للملك الفرنسي (١) .

في الحقيقة لا يعد هذا سبباً وجيهاً في إرسال حملة صليبية إلى تونس من أجل مبلغ بسيط كهذا ، والصليبيون في عكا أصبحوا بين المطرقة والسندان ، وقد انتظروا وصول الحملة الصليبية إليهم بفارغ الصبر .
ب- كان المستنصر جالساً مع رجاله ذات مرة ، فجرى ذكر لويس التاسع ، فأشار المستنصر لرجاله أن لويس التاسع هو طاغية قد هاجم مصر ، ولكنه هُزم ووقع أسيراً بأيدي المصريين ، ثم أطلقوا سراحه ، فعلم لويس التاسع أن المستنصر يتهمه بأنه طاغية (٢) .

ج- وصول شائعات لمسامع لويس التاسع إلى أن المستنصر راغب بالتنصر ، ربما عن طريق الراهب الفرنسي ريموند مارتن (Raymond Martin) (٣) الذي كان على علاقة حسنة مع لويس التاسع والمستنصر ، ومن المحتمل أن ريموند بيّن للويس التاسع أن تنصر المستنصر لا يعني تنصر أبناء تونس ، وإلا لما انطلق لويس التاسع على رأس قوة عسكرية كبرى إلى تونس ، كما أن لويس التاسع اصطحب ذلك الجيش لأنه وضع في مخيلته أنه سيتابع المسير من تونس إلى مصر وبلاد الشام ليثأر من المماليك (٤) .

د- شجع شارل آنجو ملك الصقليتين أخاه لويس التاسع على غزو تونس والاستيلاء عليها ، ثم متابعة المسير شرقاً للسيطرة على مصر وبلاد الشام (٥) ، ويلاحظ أن شارل كان طامعاً

(١) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٦ ؛ ابن الشماخ : ص ٦٩-٧٠ .

(٢) ابن الشماخ : ص ٧٠ ؛ السراج , محمد : الحلل السندسية في الأخبار التونسية , تح : محمد الهيلة , دار الغرب الإسلامي , ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م , مج ٢ , ص ١٥٢ .

(٣) ريموند مارتن : أحد الرهبان الفرنسيين الناشطين في نشر الديانة المسيحية في تونس , كما أنه تولى تدريس الرهبان فيها , وقد ارتبط مع المستنصر بعلاقة صداقه , وبالوقت نفسه كان على علاقة وثيقة مع لويس التاسع . حسين , ممدوح : الحروب الصليبية في شمال أفريقيا ٦٦٨-٧٩٢هـ/١٢٧٠-١٢٩٠م , دار عمار , ط ١ , عمان , ١٤١٩هـ/١٩٩٨م , ص ٢٧٣ , (كتاب إلكتروني) . (٤) مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٣ ؛ الكناي : ص ١٠١ ؛ حسين : الحروب الصليبية , ص ٢٧٣ ؛

Villeneuve : op . cit , p265-266 ; Kedar : op . cit , p166-167 .

(٥) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٣ ؛ المهندس : ج ٤ , ص ٢٥٦ ؛

Brentano : les croisades : op . cit , p111 .

في مد نفوذه على أفريقيا من خلال تونس حيث الأراضي الزراعية الخصبة وبخاصة زراعة القمح , فضلاً عن امتلاكها أعداداً كبيرة من قطعان الأبقار والأغنام (١) , وبذلك أظهر شارل وأخوه لويس التاسع طموحاً في الاستفادة من قوات الحملة الصليبية في السيطرة على أفريقيا , ثم متابعة المسير نحو بيت المقدس , وفي هذا دليل واضح على أن لويس التاسع أولى مشروع السيطرة على أفريقيا جهداً أكبر من الاستيلاء على بيت المقدس , وإلا لما اتجه إلى تونس ليدد قواته فيها .
ثانياً : الأسباب المباشرة .

أ- تمرد أبناء الأسرة الحاكمة :

- تمرد عمي المستنصر : ما إن اعتلى المستنصر عرش تونس حتى تأمر عليه عمه إسحاق أبو إبراهيم المعروف بالمجدور بسبب إصابته بمرض الجدري , وأخوه محمد اللحياني , وذلك لطول لحيته , ودبر إبراهيم المجدور مؤامرة أدت لمبايعة محمد اللحياني بالسلطنة بدلاً من المستنصر , سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م , وأكد العيني أن إبراهيم المجدور " بايع محمد اللحياني على كُرهٍ منه لذلك " (٢) , ونستشف مما قاله العيني أن اللحياني لم يكن راغباً بالسيادة , وإنما إبراهيم المجدور ألح عليه ورغبه بالسلطنة بل وورطه في ذلك , وعندما علم المستنصر بما جرى , تظاهر بالتقرب من عميه , وأظهر لهما الرغبة في الصلح , وبالفعل استدرج المجدور واللحياني وقتلهما (٣) .

- حركة أبو إسحاق إبراهيم : انتهى المستنصر من اللحياني والمجدور فظهر أخوه إبراهيم أبو إسحاق على ساحة المعارضة السياسية سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م حيث أثار الاضطرابات والقلق في البلاد بحجة سوء أخلاق أخيه المستنصر , وكانت أخبار إبراهيم تصل إلى المستنصر , فأمر بمراقبة تحركاته ,

(١) القرماني : مج ٢ , ص ٤٣٥ ؛ الفاسي , الحسن : وصف أفريقيا , ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر , دار الغرب الإسلامي , ط ٢ , بيروت , ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م , ص ٦٢ .

(٢) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٣٨ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٠٢-٤٠٣ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٩٥ ؛ ابن شداد , عز الدين محمد : تاريخ الملك الظاهر , دار فرانز شتاينر , فيسبا دن , ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م , ص ١٨٨-١٩١ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٥٥ ؛ ابن أبي الضياف , أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان , تح: وزارة الشؤون الثقافية , تونس , ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م , ص ١٦٠ .

وما إن شعر إبراهيم أنه تحت المراقبة حتى هرب إلى قابس (١) , ولقي تأييداً كبيراً " واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب " (٢) , فألقى المستنصر القبض على أبناء إبراهيم , وألقى بهم في السجن , فاضطر إبراهيم لتهدئة أوضاع الأعراب خوفاً على أبنائه من المستنصر , ثم التجأ إلى الأندلس وأقام في غرناطة (٣) , حيث أخذ يتحين الفرصة المناسبة للعودة إلى تونس (٤) .

ب- ثورات القبائل : لم تهدأ حالة التوتر بين المستنصر والقبائل التونسية حتى تثور من جديد (٥) , وذلك بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها المستنصر على الاقطاعات التي كانت بيد شيوخ القبائل , مما أدى لإثارة الاضطرابات من قبل البدو (٦) , وقد خرج المستنصر سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م على رأس جيش , وهاجم قبيلة الدواودة , فهربوا إلى جنوب تونس , ولم يطمئن المستنصر لها , فكلف عامل بجاية عبّاداً أبا هلال باستلطف كبار رجال قبيلة الدواودة لتوثيق الصلح معهم , وذلك سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م , ولكن المستنصر غدر بهم " وضربت أعناقهم , ونُصبت أشلاؤهم " (٧) , ثم أرسل الجيش التونسي لمهاجمة أحياء قبيلة الدواودة في جنوب تونس حيث نهبوها (٨) , أما قبيلة

(١) قابس : أتت تسميتها من الاقتباس , وقابس مدينة بحرية حصينة تقع شرقي تونس , يجري فيها وادي يسقي بساتينها , فتمتاز بجمال طبيعتها , كما تشتهر بتربية دودة القز للحصول على الحرير . الحموي : معجم البلدان , ج ٤ , ص ٣٢٨-٣٢٩ ؛ الحميري : ص ٤٥٠ .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٠٥ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٠٥-٤٠٦ ؛ ابن الشماخ : ص ٦٤ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية ، ص ١٧٩-١٨٠ ؛ مؤنس ، حسين : تاريخ المغرب (دول المرابطين والموحدين والحفصيين) دار العصر الحديث ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٤) أقام إبراهيم أبو إسحاق لدى ملك غرناطة محمد بن الأحمر ، وقد أرسل المستنصر لملك غرناطة طالباً منه تسليمه إبراهيم ، لكن الثاني لم يستجيب لمطالبه ، وبقي إبراهيم في غرناطة حتى توفي أخيه المستنصر سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م حيث استلم من بعده ابنه يحيى الذي امتاز بسوء الخلق ، فقدم عمه إبراهيم إلى تونس ، وسأله أبنائها ، واستلم السلطنة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م . ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٦٠ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ ، ص ٣٥٥ ؛ السراج : مج ٢ ، ص ١٥٤ ؛ الزركشي : ص ١٥٠ .

(٥) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٠٢-٤٢٣ .

(٦) أبو دياك ، صالح : النظام المالي عند الحفصيين ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢١-٢٢ ، دمشق ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص ٩٤-٩٧ .

(٧) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٣ .

(٨) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٣-٤٢٤ ؛ ابن الشماخ : ص ٩٨ ؛ السراج : مج ٢ ، ص ١٤٧ ؛ برنشفيلك ، روبرت : تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، تر : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ج ١ ، ص ٧٩-٨٠ .

زناته التونسية المعارضة للمستنصر فقد حرّض القبائل الموالية له ضدها ، فكسرت شوكتها ، وبذلك انتهج المستنصر سياسة تأليب القبائل ، واستأصل شأفة القبائل المعارضة له (١) .

إن الناظر للأوضاع السياسية عشية قدوم الحملة الصليبية يلاحظ أن المستنصر كان في حالة نزاع مع أقاربه على السلطة فضلاً عن الصراع مع القبائل ، وهذا كافٍ لتشجيع لويس التاسع لمهاجمة تونس ، ربما أن لويس التاسع توقع أنه سيحدث معه في تونس كما حدث في بلاد الشام إثر وصوله إليها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حيث راح كلٌّ من الأيوبيين والمماليك يعمل على استمالته إلى جانبهم (٢) ، ويُتَملَّ توقع أنه فيما إذا قدّم إلى تونس فإنه سيلقى ترحيباً من القبائل التونسية المعارضة التي تمثلت بتمرد أبناء الأسرة الحاكمة وثورات القبائل ، مما يُسهل عليه الاستيلاء على تونس .

ج- الرخاء الاقتصادي : امتلكت تونس موقعاً استراتيجياً على البحر المتوسط ، مما أدى لازدهارها

اقتصادياً حيث نشطت فيها الزراعة وبخاصة في عهد المستنصر الذي " اغترس فيها من كل فاكهة من

أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب " (٣) ، وغيرها من الأشجار والحبوب (٤) ، كما

ازدهرت الصناعة فيها كصناعة الحرير والعطور والأخشاب والأواني المنزلية (٥) ، وأسهم المستنصر بتشجيع

الصناعة ، " فبنى المصانع والهياكل العظيمة " (٦) ، ونشطت الحركة التجارية ، وازدهرت الأسواق ، وتوافد

التجار إلى تونس من كل حدبٍ وصوب (٧) ، ورافق ذلك التطور الاقتصادي ازدهار عمراني وثقافي ،

وعاش أبناء تونس في حالة من الرخاء ورغد العيش (٨) , وهذا الازدهار الاقتصادي لتونس جعل منها محط أنظار الطامعين أمثال لويس التاسع الذي قرر توجيه حملته إلى تونس بدلاً من بيت المقدس .

(١) ابن خلدون : ج٦ , ص ٤٢٤ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية , ص ١٨٤-١٨٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ١٧٢-١٩٠ ؛ باريس : الموسوعة , ج ٤٩ , ص ١٢٨٣-١٣٤٨ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٠٤ .

Villeneuve : op . cit , p271 .

(٤) ابن أبي الضياف : ص ١٦١ ؛ القرماني : مج ٢ , ص ٤٣٥ ؛

(٥) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٠٣-٤٠٥ ؛ الفاسي : ص ٧٤-٧٥ .

(٦) ابن أبي الضياف : ص ١٦١ .

(٧) الفاسي : ص ٧٤-٧٥ ؛ عامر : ص ٦٥ .

(٨) ابن شداد : الملك الظاهر , ص ١٨٨-١٨٩ ؛ ابن أبي الضياف : ص ١٦١ ؛ السراج : ص ١٤٦-١٥٠ .

د - توتر علاقة المستنصر مع جنوه وصقلية : اقتضت العلاقة التونسية مع أوروبا على إقامة العلاقات التجارية حيث نشط التبادل التجاري بين تونس والجمهوريات الإيطالية مثل جنوه وبيزا والبندقية , وأقامت تلك الجاليات فنادق ومراكز تجارية لها في ضواحي مدينة تونس (١) , وانفرد اليوناني بذكر خبر مفاده أن أبناء جنوه قد سَكُّوا نُقُوداً تونسية مزورة على غرار النقود التونسية (٢) , وقد اكتشف تجار تونس خداع الجنويين بعد أن انتشرت عملتهم المزورة في أرجاء تونس , وعندما علم المستنصر أمر بجمع الأموال الجنوية المزورة , كما سجن أولئك الجنويين الذين كانوا وراء تزوير النقود , مما أدى لسوء العلاقة التجارية بين جنوه وتونس (٣) , كما توترت العلاقة بين شارل آنجو ملك الصقليتين والمستنصر بسبب إيواء الثاني لبعض الصقليين المتمردين على شارل (٤) , ويلاحظ أن العلاقة بين المستنصر وأوروبا كان يشوبها التوتر بسبب خلافه مع شارل آنجو والجنوية .

وعلى هذا يمكن القول أن أوضاع تونس عشية قدوم الحملة الصليبية كانت مُشجعة للغزو الفرنسي لتونس حيث ظهرت الكثير من حركات التمرد ضد المستنصر , ولكن بذكائه قضى على تلك الحركات في مهدها , ربما أن لويس التاسع توقع قيام حركات تمرد جديدة في تونس تسانده في حملته (٥) , كما لا يمكن إغفال حالة الغنى التي عاشتها تونس , وهذا ما أنعش آمال الفرنسيين الطامعين في زيادة ثرواتهم , وكل ما تقدم قد شجع لويس التاسع على مهاجمة تونس (٦) .

- (١) الفاسي : ص ٧٤ ؛ برنشفيك : ج ١ ، ص ٨٣-٨٤ .
- (٢) استخدمت تونس في عهد المستنصر الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، والفولس النحاسية . أبو دياك : ص ١٠٠ .
- (٣) اليونيني : مج ١ ، ص ٤٥٤-٤٥٥ .
- (٤) المطوي : السلطنة الحفصية ، ص ١٩٩ ؛ برنشفيك : ج ١ ، ص ٨٥ ؛ Villeneuve : op . cit , p265-266 .
- (٥) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٠٠-٤٢٤ ؛ ابن الوردي : ج ٢ ، ص ٢٧٥-٢٧٦ ؛ ابن شداد : الملك الظاهر ، ص ١٨٨-١٩١ ؛ السراج : مج ٢ ، ص ١٤٧ ؛ ابن الشماخ : ص ٦٤-٦٨ .
- (٦) العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص ٦٣٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج ١ ، ص ١٦١-١٦٢ ؛ Velleneuve : op . cit , p267-269 .

٣- مسير الحملة الصليبية وموقف المستنصر الحفصي منها .

تجمع الصليبيون في مينائي إيچ مُورْتِز (Iage Mortes) ومَرْسِيلِيا (Marsilia) الفرنسيين , وانتظروا ساعة الرحيل , بينما سارع لويس التاسع للاتفاق مع جنوه لنقل الحملة , ثم عهد بالحكم في فرنسا إلى رئيس دير القديس دَنيس مَتى فاندُوم (Mathew Vandome) , والكونت سيمون كونت نيزل (Simon cont Nesle) , ثم ودع أهله الوداع الأخير , وحمل الصليب , وانطلق إلى إيچ مُورْتِز حيث وصلت السفن الجنوية التي كانت قد تأخرت عن الموعد المحدد لها , ثم حَمَلُوا أمتعتهم ومستلزماتهم , واستقلوا السفن , وأبحرت الحملة نحو جزيرة سردينية (١) , في يوم الأربعاء ١٠ من ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/٢ حزيران عام ١٢٧٠م , وأشار ابن خلدون إلى أن عدد سفنهم بلغ " ثلاثمائة بين كبار وصغار " (٢) , بينما ذكر ابن أبي الزرع " نزل الافرنسيس في مراكب لا تحصى " (٣) , وعلى ما يبدو أنه لم يعرف كم عدد السفن , وعَبَّرَ عنها بقوله : أنها لا تعد ولا تحصى دليلاً على كثرتها , وأما اليونيني فذكر أن " عدة مراكبهم أربعمئة مركب " (٤) , وبشكل عام فقد تراوح عدد سفن الحملة ما بين ثلاثمائة وأربعمئة مركب , أما عدد جنود الحملة الصليبية فقد بالغ ابن أبي الزرع بعددهم فكانوا على حد زعمه " أربعين ألف فارس ومائة ألف راجل " (٥) , وهذا عددٌ مبالغٌ فيه , بينما اتفق ابن خلدون والمقريري على أن عددهم بلغ " ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل " (٦) , وهذا عددٌ مقبول , وأقرب للحقيقة من

العدد الذي أشار له ابن أبي الزرع , علماً أن عدد مقاتلي حملة لويس التاسع الأولى على مصر كان أكبر بكثير حيث وصلوا إلى "خمسين ألف مقاتل" (٧) , وهذا ما يؤكد ضعف الروح الصليبية لدى الأوربيين بشكل عام والفرنسيين بشكل خاص .

(١) حسين : الحروب الصليبية , ص ٢٨٣-٢٨٥ ؛ برنشفيك : ج ١ , ص ٨٦-٨٧ ؛

Smith : op . cit , p200-201 ; Villeneuve : op . cit , p267-268 .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧ .

(٣) ابن أبي الزرع , علي : الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس , د.م , د.ت , ص ٣٨ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان , مج ١ , ص ٤٥٥ .

(٥) ابن أبي الزرع : ص ٣٨ .

(٦) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦١ ؛ ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧ .

(٧) أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٤ .

أبحرت الحملة الصليبية (١) , ووصلت إلى مرفأ كالياري (Caliari) في جزيرة سَردينية , في صباح يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/٩ حزيران عام ١٢٧٠م (٢) , واستقبلهم أهالي سردينية بفتور حيث كانت الجزيرة تحت سيادة جمهورية بيزا الإيطالية التي تعيش حالة من المنافسة التجارية مع جمهورية جنوة صاحبة الأسطول الذي نقل الحملة (٣) .

عقد لويس التاسع في مرفأ كالياري اجتماعاً لباروناته , وقد توقع مصطفى الكناني وميخائيل زابوروف أنه استهدف من ذلك الاجتماع تحديد وُجهة الحملة (٤) , ولكن إذا ما تم الافتراض جديلاً أن لويس التاسع لم يكن قد حدد اتجاه الحملة بعد , وأراد في كالياري تحديدها , فلماذا انطلقت الحملة نحو سردينية ؟

إن انطلاق الحملة نحو سردينية دليل على أن لويس التاسع قد قرر مُسبقاً المسير إلى تونس , وإلا لما اتجه إلى سردينية , وإذا ما تمت العوده للوراء قليلاً يُلاحظ أن حملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م قد سارت من مينائي إييج مُورْتَز ومَرسيليا إلى قبرص ثم إلى مصر (٥) , ولو أنه لم يحدد هدف الحملة لم يأت إلى سردينية القريبة من تونس , وإن لم يكن ما تقدم كافياً للتأكيد على أن لويس التاسع منذ انطلاقه من فرنسا قد قصد تونس فهناك دليلٌ آخر , فالمستنصر الحفصي كان على علم بأن لويس التاسع سيُهاجم تونس قبل مسير الحملة من فرنسا , فأرسل سفارةً تونسيةً إلى لويس التاسع ,

وصلت إلى فرنسا وحملت "ثمانين ألف دينار" (٦) ، حيث سلمت السفارة ذلك المبلغ إلى لويس التاسع لاسترضائه مقابل ألا يهاجم تونس " فأخذ المال من أيديهم ، وأخبرهم أن غزوه لأراضيهم " (٧) . وبذلك يلاحظ أن لويس التاسع قد جرّد السفارة التونسية من الأموال ، وأخبرها بأنه سينطلق لغزو

(١) يُنظر المصور رقم (١٠) ، ٣٠٩ .

(٢) عامر : ص ١٠٧-١٠٨ .

(٣) حسين : الحروب الصليبية ، ص ٢٨٦ ؛ برنشفيك : ص ٨٧ .

(٤) الكنائي : ص ١٩٣ ؛ زابوروف : ص ٣٢١ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٥٥-٥٨ ؛ فابري : الموسوعة ، ج ٣٨ ، ص ١١٧٣ ؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ج ٢ ، ص ١٢١ ؛ smith : op . cit , p184-185 .

(٦) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٦ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

(٧) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٦ ؛ والمعنى ذاته لدى المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

تونس ، وهنا من المؤكد أن اجتماع كالياري كان الهدف منه وضع خطة حربية لاقتحام تونس .

وفي كالياري اعتذر شارل آنجو من أخيه لويس التاسع عن متابعة المسير معه إلى تونس حيث أراد العودة إلى مملكته ، بسبب حدوث اضطرابات داخلية في مملكته أجبرته على الرجوع إليها ، ووعد لويس التاسع أنه سيتبعه لاحقاً ، كما وعده ادوار بن هنري الثالث أيضاً (١) ، ثم استأنفت الحملة الصليبية سيرها من سردينية نحو تونس ، ووصلت الشاطئ الأفريقي في يوم الخميس ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ / ١٨ حزيران عام ١٢٧٠م (٢) .

توجب على المستنصر الحفصي تحصين المواقع الهامة في تونس وبخاصة الشواطئ ، كما أمر بتقوية الاستحكامات العسكرية للمناطق التي يُخشى مهاجمتها من قبل الحملة الصليبية (٣) ، كما قام بتخزين الحبوب تجنباً لأزمة غذائية قد تحدث في تونس (٤) ، وسعى لتوفير وشراء الأسلحة اللازمة (٥) ، ولم يكتفِ المستنصر بإعداد العدة بل أرسل يستنفر المسلمين داخل تونس وخارجها وحضّهم على الجهاد مستشهداً بالآية القرآنية الكريمة " انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون " (٦) ، فَقَدِمَتْ إليه الجيوش والمتطوعون من شتى النواحي (٧) ، حيث أتى الكثير من شيوخ قبائل المغرب العربي على رأس المتطوعين من أبناء قبائلهم (٨) ،

(١) عامر : ص ١٠٩ ؛ برنشفيك : ص ٨٩-٩٠ .

- (٢) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٧ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦١ .
- ابن أبي دينار ، محمد : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس ، الدار التونسية ، ط ١ ، ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م ، ص ١٢٨ .
- السراج : مج ٢ ، ص ١٥١ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢ .
- (٣) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٦ ؛ سرهنك ، إسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار ، المطبعة الأميرية ، ط ١ ، بولاق ، ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م ، ج ١ ، ص ٤١٤ .
- (٤) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٦ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية ، ص ٢٠٣ .
- (٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ .
- (٦) سورة التوبة : الآية رقم ٤٢ .
- (٧) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٨ .
- (٨) من أشهر القبائل التي وقفت إلى جانب المستنصر هي قبيلة هواة وسديكش والموحدين وولهاصة وزناتة وزيان وصنهاجة وسرطة وترجة وتوجين ومداسة ورزقة ، وغيرها من القبائل . ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٨ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ١٢٥ ؛ عامر : ص ١٤٢ .

ووصلت المساعدات العسكرية والمادية من يعقوب بن عبد الحق سيد بني مرين في مراكش (١) ، كما قدم متطوعون من الأندلس (٢) ، ولم يستنفر المستنصر عرب المغرب فحسب بل أرسل سفارةً إلى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م ، وقد حملت السفارة هدية كانت عبارة عن عدد من الخيول الأصيلة ، فقام بيبرس بتوزيعها على رجاله ، ثم أرسل بيبرس للمستنصر مُشجعاً إياه على الصمود بوجه الصليبيين (٣) ، وقد وجه بيبرس رسالة إلى أبناء المغرب العربي بأكمله حثهم فيها على التصدي للغزاة الطامعين ، وطلب من برقة في ليبيا مؤازرة المستنصر ، كما أعد جيشاً مملوكياً لإرساله إلى تونس فيما إذا اقتضت الضرورة (٤) .

وبذلك اجتمعت أعداد هائلة من الجيوش والمتطوعين على الرغم من الذكر آنفاً أن المستنصر كان قاسياً في القضاء على القبائل التونسية المتمردة ، ولكن أمام العدو الخارجي تناسوا خلافاتهم ، وتكاتفوا للوقوف في وجه الخطر الصليبي ، واحتاجت تلك القوات لقائدٍ ذكيٍّ شجاع يُحسن تنظيمها ، وإغراق الحملة الصليبية قبل اقتحامها لتونس .

عقد المستنصر اجتماعاً حربياً لوضع خطة من أجل مواجهة الحملة الصليبية ، وحضر الاجتماع مستشاروه ، وكبار رجال دولته ، وشيوخ القبائل ، وشخصياتٍ أخرى قَدِمَتْ من الأندلس والمغرب العربي ، وقد بَيَّنَّ المستنصر للحضور ما أخبره به جواسيسه من أن الحملة الصليبية في طريقها إلى تونس ، وطلب المستنصر من الحضور إبداء آرائهم في كيفية التصدي لذلك الحظر ، وقد انقسم الأعضاء المجتمعين إلى قسمين لكلٍ منهما رأيٌ مختلف عن الآخر ، وهما : (٥)

الرأي الأول : مثل هذا الرأي غالبية الحضور عدا رجال الأندلس , وأشاروا بقتال الصليبيين , وعدم السماح لهم بالنزول على الشاطئ " حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء , فيضطرون إلى الإقلاع " (٦) ,

(١) الناصري , أحمد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى , تح : جعفر الناصري ومحمد الناصري , الدار البيضاء , ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م , ص ٢٨-٢٩ .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧ ؛ حسين : الحروب الصليبية , ص ٢٩٨ .

(٣) المقرئزي : السلوك , ق ٢ ج ١ , ص ٦٠١ ؛ عامر : ص ١٣٥-١٣٦ ؛

Villeneuve : op . cit , p287 ; Michaud : op . cit , volume4 , p519 .

(٤) ابن عبد الظاهر : ص ٣٧٣-٣٧٤ ؛ Michaud : op . cit , volume4 , p519 .

(٥) اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧ .

(٦) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧ .

لبلادهم , لكن هناك مأخذ على هذا الرأي , فبإمكان الصليبيين الحصول على التموين والمستلزمات المطلوبة بما أن البحر مفتوح من وراء الأسطول أي من جهة الشمال (١), ويلاحظ إذا ما انتظروا نفاذ المؤونة لدى الصليبيين حتى يعودوا إلى بلادهم , فهذه مسألة قد تطول , ويُحتمل أن يباغتوا إحدى المناطق الضعيفة على الشواطئ , ويتوغلوا من خلالها إلى تونس أو غيرها من مناطق المغرب العربي .

الرأي الثاني : وتبنى هذا الرأي رجال الأندلس (٢) , وقد اقترحوا السماح للصليبيين بالنزول على الشاطئ التونسي في مرسى الحضرة , ثم محاصرتهم والقضاء عليهم (٣) .

وهناك مأخذ على هذا الرأي , فإذا دارت رحى المعركة على أرض تونس فإن هذا سيؤدي لتدمير البنى التحتية للمنطقة التي ستدور عليها المعركة من خلال إحراق المزروعات وتخريب المرسى , ويُحتمل أن يتم الاستيلاء على السفن التونسية الراسية في الشاطئ التونسي .

أيد المستنصر الرأي الثاني , وقرر السماح للصليبيين بالهبوط على الشاطئ (٤) .

وهذا دليل واضح على وهن وضعف حماس المستنصر في المواجهة , ويجب ملاحظة هذا منذ أن أرسل مبلغ ثمانون ألف دينار إلى فرنسا لإرضاء لويس التاسع لعله يمتنع عن مهاجمة تونس (٥) .

لقد كان بإمكانه بهذا المبلغ إعداد أسطول ضخم , وغزو لويس التاسع في عقر داره , أو على الأقل مهاجمة الأسطول الفرنسي في عرض البحر , وتدميره كي يكون لويس التاسع وأمثاله عبرة لكل من تُسول له نفسه الاعتداء على تونس , أو غيرها من بلاد العرب المسلمين .

وعلى هذا ما إن وصلت أنباء مسير الحملة الصليبية من سردينية نحو تونس (٦) ، حتى أعلن المستنصر الحفصي الجهاد ، فوصلته النجدات من كل فج عميق ، وآزره المشرق والمغرب العربي الإسلامي ، وسارع أبناء تونس خفافاً وثقالاً ، واستعدوا جميعاً للمواجهة المرتقبة (٧) .

(١) حسين : الحروب الصليبية ، ص ٣٠٠ .

(٢) اليونيني : مج ١ ، ص ٤٥٥ .

(٣) اليونيني : ص ٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٧ ؛ عامر : ص ١١٥ ؛ الكناي : ص ٢٠٧ .

(٤) اليونيني : ص ٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٧ .

(٥) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦١ ؛ Michaud : op . cit , volume4 , p518-519 .

(٦) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٧ ؛ برنشفيك : ج ١ ، ص ٨٧-٩٠ ؛ smith : op . cit , p200-201 .

(٧) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٨ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ١٢٥ ؛ ابن عبد الظاهر : ص ٣٧٤ ؛

Michaud : op . cit , volume4 , p159 .

٤ - سقوط قرطاجة في قبضة الصليبيين .

وصلت الأساطيل الصليبية شواطئ قرطاجة (قرطاجنة) (١) يوم الخميس ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ / ١٨ تموز عام ١٢٧٠م ، وحُيِّل للصليبيين أن المستنصر الحفصي بانتظارهم ليسلمهم تونس ، دون أن يضربوا ضربة سيفٍ واحدة ، ثم يتابعوا المسير بجيشهم لضرب المماليك في مصر وبلاد الشام ، ولكنهم فوجئوا عندما رأوا المسلمين قد أشهروا الأسلحة بوجوههم ، وكانوا على أهبة الاستعداد للمواجهة ، فضلاً عن التحصينات القوية التي تميزت بها شواطئهم (٢) ، فأدركوا عدم وجود أية دلائل تشير إلى أن المستنصر راغبٌ بالتنصر واعتناق الديانة المسيحية (٣) .

اتهم مُونروذُ المستنصر بأنه مُحْتال وعديم الأمانة لأنه وعد لويس التاسع بالتنصر لكنه نكث بوعده (٤) .

في الحقيقة لا يوجد أي مصدر إسلامي يشير إلى أن المستنصر قدّم أية وعود للملك الفرنسي بأنه يريد اعتناق المسيحية ، ويُحتمل أن معلومات مضللة وصلت إلى لويس التاسع لتشجيعه على غزو تونس بحجة أن المستنصر راغب باعتناق المسيحية ، ولكن إذا ما تنصر أصبح مُرتدّاً ، والمُرتد يُقتل شرعاً ، فهل يُعقل أن يرتد المستنصر عن دينه ، وقد اتخذ لقب أمير المؤمنين سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م ، وعدّ نفسه ليس

ملك على تونس فحسب إنما خليفة المسلمين , وهذا ما يؤكد أن المعلومات التي وصلت إلى لويس التاسع بشأن تنصر المستنصر لم تكن موثوقة (٥) , وقد حَمَلَ برنشفيك المسؤولية في إيصال تلك

(١) قرطاجة : مدينة قديمة , وميناء على الشاطئ التونسي , وتعد من أجمل المدن الأفريقية , وأتقنها بناءً , وتمتاز بكثرة خيراتها , وخصوبة تربتها , وجمال طبيعتها , فضلاً عن روعة أبنيتها , ومن أهم عماراتها الأسوار القديمة التي أحاطت بها , وأعمدتها الرخامية الملونة المزينة بالرسوم , ودار الطباطر أي المسرح , كما نُظمت فيها المجاري المائية بدقة بالغة , وبقيت قرطاجة خراباً منذ دمرها الرومان حتى فتحها موسى بن نصير سنة ٩٤هـ / ٧١٢م حيث تم أعمار جزء يسير منها عُرف بالمعلقة , وقد استقر بها بنو زياد . الحموي : معجم البلدان , ج ٤ , ص ٣٦٧-٣٦٨ ; القرماني : مج ٢ , ص ٤٣٥ ; مقديش : نزهة الأنظار , مج ١ , ص ١٢٠-١٢١ ; السراج , محمد : الحلل السندسية في الأخبار التونسية , تح : محمد الهيلة , الدار التونسية , ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م , ق ١ ج ١ , ص ٥٤١-٥٤٦ .
(٢) اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٥ ; ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧-٤٢٨ ; المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦١-٤٦٢ ; ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٤ .

Villeneuve : op . cit , p265-266 .

(٣) مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٢-٣٥٣ ;

(٤) مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٣ .

(٥) ابن أبي دينار : ص ١٢٨ ; ابن أبي الضياف : مج ١ , ص ١٦٠ ; السراج : مج ٢ , ص ١٤٧ .

المعلومات إلى الرهبان الفرنسيين والدومنيكان حيث ازداد أولئك الرهبان حماساً لنشر المسيحية في أفريقيا , وإذا ما استولى لويس التاسع على تونس أصبح بإمكانهم ممارسة أعمال التنصير بحرية في أفريقيا , وعلى ما يبدو أن تونس هي بوابة أفريقيا , وبذلك يكون الرهبان هم من خدعوا لويس التاسع وليس المستنصر (١) , وعلى كل حال فقد اقتربت ساعة المواجهة بين المسلمين والصليبيين .

أفسح المسلمون المجال للصليبيين للنزول على شاطئ قرطاجة حسب الخطة الموضوعة للإحاطة بهم , والقضاء عليهم , وسرعان ما توغلوا فيها , واستولوا عليها في ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ / ١٨ تموز عام ١٢٧٠م (٢) , ويلاحظ أن خطة المستنصر لم تُنفذ , فأين الأعداد الهائلة من الجنود والمتطوعين؟ ولماذا لم يحاصروا الصليبيين إثر نزولهم حسب الخطة الموضوعة ؟

سلم المستنصر قيادة الجيش والمتطوعين لعدد من القادة هم : " إسماعيل بن أبي كلداسن , وعيسى ابن داود , ويحيى بن أبي بكر , ويحيى بن صالح , وأبو هلال عياد صاحب بجاية , ومحمد بن عبو , وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح , ويحيى بن أبي بكر " (٣) , باشر أولئك القادة بمحاصرة الصليبيين (٤) , وعلى ما يبدو لم يستطيعوا حصارهم , لأن عدد الصليبيين كان كبيراً جداً حيث بلغ " ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل " (٥) , ولم تنجح عملية الحصار , كما أن المستنصر ذاته كان بعيداً عن ساحة المعركة , ومن المفروض أن يكون على رأس الجيش لأن غيابه أدى لسوء إدارة عملية الحصار , حيث " التزم

السلطان (المستنصر) القعود بإيوانه مع بطانته وأهل اختصاصه " (٦) , أما المقريري فاتهم المستنصر بأنه " كان مستخفياً " (٧) .

وُرجح أن المستنصر لم يكن مُختفياً إنما بقي بعيداً عن الخطر , ولم يباشر القتال بنفسه , واكتفى بتوكيل القيادة لمجموعة من الفرسان , ولكن تواكل المستنصر لا يعني تحاذل المسلمين من أبناء تونس

(١) برنشفيك : ج ١ , ص ٨٨-٨٩ .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ ; المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٤٦١ ; المهندس : ج ٣ , ص ٢٥٦ ; مونرود : مج ٢ , ص ٦٥٦ .

Villeneuve : op . cit , p283 ; smith : op . cit , p201 .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ ; ابن فضل الله العمري , أحمد : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار , تح : حمزة عباس , المجمع الثقافي , أبو ظبي , ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م , ج ٤ , ص ١٣٨ .

(٤) ابن فضل الله العمري , ج ٤ , ص ١٣٨ ; ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ .

(٥) المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٤٦١ .

(٦) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ .

(٧) المقريري : السلوك , ق ١ ج ١ , ص ٦٠١ .

والمغرب العربي والأندلس حيث هبوا جميعاً لمواجهة العدوان الصليبي .

توغل الصليبيون في قرطاجة , ولم تمنعهم الاشتباكات مع المسلمين من التوغل فيها (١) , واستعصى حصن المعلقة عليهم , لأنه أكثر حصانة من غيره , كما أنه هو الوحيد المأهول بالسكان من قرطاجة (٢) , فحاصروه , وأشار برنشفيك إلى أن الصليبيين اقتحموا الحصن , وطرده لويس التاسع أبناء المعلقة من حصنهم واستولى عليه (٣) , بينما أكد ممدوح حسين إلى أن أبناء المعلقة اشتبكوا مع طليعة الجيش الصليبي , وكانوا حوالي مائتي مقاتل , ولكن ما لبثوا أن تراجعوا , وتحصنوا داخل حصن المعلقة , فتسلق الصليبيون الأسوار , وتكاثروا على المسلمين في حصن المعلقة , فاقتفوا في الأقباء والسراديب , فلم يجرؤ الصليبيون على الدخول في الأقباء , فأمرهم لويس التاسع بإضرام النيران فيها , فاحترق من احترق , واختنق من اختنق بالدخان , وأصبحت رائحة الجثث تملأ المكان (٤) .

ويلاحظ أن برنشفيك حاول إظهار لويس التاسع بمظهر الملك الرحيم الذي اكتفى بطرد أبناء المعلقة , بينما أكد اليونيني ما قاله ممدوح حسين , فأشار إلى أن الصليبيين " قصدوا المعلقة وقتلوا من أهلها سبعين رجلاً , وأخذوا منبرها , وبعثوا به إلى بلادهم " (٥) , وكل هذا يؤكد مدى شراسة ومطامع الصليبيين .

غدت قرطاجة برمتها تحت سيادة لويس التاسع , بسبب جهل المستنصر في شؤون الحرب والسياسة (٦) , وكما استولى لويس التاسع على دمياط منذ تسعة عشر عاماً سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بسبب عدم ثبات القائد فخر الدين بن حمويه , وأمراء بني كنانة , بينما أبعد المرض الصالح نجم الدين أيوب عن ساحة المعركة (٧) , كذلك هنا فقد ابتعد المستنصر عن ساحة الوغى , ربما خوفاً على حياته

(١) ابن أبي الزرع : ص ٣٨ ؛ المنصوري زبدة الفكرة , ص ١٢٥ . اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٥ ؛

Brentano : le moyen age la croisade , p300-301 .

(٢) مقديش : مج ١ , ص ١٢٠-١٢١ .

(٣) برنشفيك : ج ١ , ص ٩٠ .

(٤) حسين : الحروب الصليبية , ص ٢٩٦-٢٩٧ .

(٥) اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٥ .

(٦) اليونيني : ص ٤٥٥ ؛ ابن فضل الله العمري : ج ٤ , ص ١٣٨ ؛

(٧) ابن واصل : ج ٦ , ص ٧٣-٧٥ ؛ العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٥٧٥-٥٨١ ؛ أبو الفداء : المختصر , ج ٢ , ص ٢٨٤-٢٨٥ .

حيث " كان ملازماً لبابه ألف فارس من الشجعان " (١) , وهذا ما أدى لخسارة قرطاجة , واستيلاء لويس التاسع عليها (٢) .

أحاط المسلمون بأسوار قرطاجة المتداعية , ويلاحظ أن المستنصر قد حصّن الواجهة البحرية لقرطاجة أما الواجهة الداخلية لها فبقيت تحصيناتها القديمة كما هي , ومن خلال الأسوار المتهدمة أخذ المسلمون يتصيدون الجنود الصليبيين (٣) , ويلاحظ أن الهجمات كانت شديدة جداً عليهم من خلال تشبيه مونرود للجنود المسلمين أنهم كانوا يزأرون كالوحوش الضارية (٤) , فأمر لويس التاسع بإصلاح أسوار قرطاجة تفادياً لهجمات الفدائيين , فاستحضروا الأخشاب والطوب ورموا الأسوار المتداعية (٥) , كما حفروا خندقاً أحاط بالمدينة , وهذا ما زاد في مناعتها وحصانتها (٦) , ومن خلف أسوار قرطاجة أرسل بعض قادة الصليبيين إلى المستنصر يطلبون مبارزته , فرفض المبارزة لأنهم مجرد قادة صغار وليسوا ملوكاً حيث نظر لهم نظرة استصغار , وعدّ نفسه أمير المؤمنين وسلطانهم , ولا يمكن أن يتنازل لمستوى أولئك القادة الصغار (٧) , وعندما رأى قرطاجة أصبحت تحت سيطرة الصليبيين , وأخذوا بتهديده من خلف الأسوار " ندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها , أو دفاعهم عن نزالها " (٨) .

لقد أدرك المستنصر آنذاك أنه لم يأخذ بالأسباب الوقائية كاملة ، وتمنى لو حُرب قرطاجة لأن الصليبيين تحصنوا بداخلها ، ورموا المسلمين من خلف أسوارها ، كما أيقن المستنصر بأن خطته التي قامت على السماح للصليبيين بالنزول إلى البر كانت خطةً هزيلةً لأن الصليبيين تغلبوا على المسلمين ، وتحصنوا في المدينة ، وأصبح القضاء عليهم أمراً صعباً ، ومن الأفضل لو أنه فكَّر في خوض معركةٍ حاسمةٍ معهم قبل أن يطؤوا شواطئ تونس .

-
- (١) ابن الشماخ : ص ٧٣ .
(٢) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٨ ؛ المقرئ : السلوك ، ق ١ ج ١ ، ص ٦٠١ .
(٣) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج ١ ، ص ١٦٢ ؛ Villeneuve : op . cit , p290-291 .
(٤) مونود : مج ٢ ، ص ٣٥٤ .
(٥) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج ١ ، ص ١٦٢ .
(٦) اليونيني : مج ١ ، ص ٤٥٦ ؛ سرهنك : ج ١ ، ص ٤١٤ .
(٧) اليونيني : ص ٤٥٥-٤٥٦ .
(٨) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٨ .

تحصن الصليبيون داخل قرطاجة وذكر كل من سامية عامر وممدوح حسين إلى أنه وصل إلى الصليبيين ثلاثة نفر من المسلمين ادعوا أنهم راغبون بالتنصر ، فرحبَ بهم لويس التاسع ، واقتصرت سامية عامر بالإشارة إلى أن أولئك نفر هم جواسيس للمسلمين (١) ، بينما استطرد ممدوح حسين ، وأشار إلى أنهم وعدوا لويس التاسع بجلب عدد كبير من المسلمين الراغبين باعتناق المسيحية ، وبالفعل عادوا على رأس مائة فارس ، ولكن أولئك الفرسان استلوا أسلحتهم من تحت أرديتهم ، وهاجموا المعسكر الصليبي ، وقتلوا عدداً كبيراً من جنوده ثم هربوا ، أما نفر الثلاثة فقد وعدوا لويس التاسع بأنهم هذه المرة سيأتون بألفين من المسلمين الراغبين بالتنصر ، ولكنهم ذهبوا ولم يعودوا (٢) ، أيُعقل أن يكون لويس التاسع ساذجاً لهذه الدرجة ؟

فالصليبيون داخل قرطاجة وصل عددهم إلى ستة وثلاثين ألف مقاتل (٣) ، فكيف سمحوا للمائة فارس بالخروج سالمين من قرطاجة ؟
وإذا ما تم الافتراض جدلاً أنهم استطاعوا الهرب فهل صدَّق لويس التاسع الفرسان الثلاثة الذين غدروا به في المرة الأولى ؟

وتركهم سالمين كي يعودوا له بألفي مسلم راغب بالتنصر !

فيجب أخذ هذه الرواية بحذر شديد , ويُرجح كما أشارت سامية عامر على أن النفر الثلاث كانوا مجرد جواسيس , وليسوا مغامرين كما صورهم ممدوح حسين .

انتظر الصليبيون داخل قرطاجة ريثما يصل شارل كونت آنجو من أجل متابعة الزحف على بقية أنحاء تونس (٤) , ولكن شارل أرسل رسالة إلى لويس التاسع حملها سفيره أولفَر دي تيرْم (Olivier du terme) ووصل إلى لويس التاسع ٨ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ/ ٢٩ تموز عام ١٢٧٠م , وتضمنت اعتذار شارل عن التأخر في المسير لتونس , ووعد لويس التاسع أنه لن يتأخر كثيراً ريثما يقوم بإنهاء بعض المشاكل الداخلية في مملكته , ولكن الحصار كان قد أضى الصليبيين ,

(١) عامر : ص ١٤٢ .

(٢) حسين : الحروب الصليبية , ص ٣٠٤ .

Michaud : op . cit , volume4 , p519 .

(٣) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٦١ ؛

(٤) مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٤ ؛ الحريري سيد , علي : الأخبار السنية في الحروب الصليبية , المطبعة العمومية بمصر , ط ١ ,

١٣١٧هـ/ ١٨٩٩ , ص ٢٧٠ .

وشارل يتقاعس عن اللحاق بهم (١) , في الوقت الذي خرج فيه " الصُّلحاء والفُقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد " (٢) , حيث اشتدت هجمات المسلمين على الصليبيين (٣) , ومن أشدها ذلك الهجوم عبر البحيرة المجاورة لقرطاجة , من جهة الجنوب حيث توقع الصليبيون أن الأسوار من جهة البحيرة لا داعي لترميمها , فتركوها دون تحصين , فتسلل المسلمون عبر تلك البحيرة ليلاً , وأخذوا الصليبيين على حين غرة , وكبدوهم خسائر كبيرة , ثم عادوا بما غنموه منهم (٤) , وقد نبّه ذلك الهجوم الصليبيين لخطورة تلك الناحية , فقاموا " بحراسة البحيرة , وبعثوا فيها الشواني بالرماة , ومنعوا الطريق إليهم " (٥) , وغدت تلك البحيرة تحت حراسة صليبية مشددة تحسباً لأي هجوم مفاجئ .

وهكذا أخفقت خطة المستنصر في حصر الحملة الصليبية على الشاطئ التونسي , والقضاء عليها , وكان من الأفضل تدميرها وإغراقها قبل أن تطأ شواطئ تونس (٦) , لأنها توغلت في قرطاجة وثبتت أقدامها فيها , وزادت من استحکاماتها العسكرية , فأصبحت منيعاً أمام هجمات المسلمين , وأصبح الاستيلاء على تونس أمراً محتملاً (٧) .

(١) برنشفيك : ج ١ , ص ٩٠ ؛ الكناي : ص ٢١٢ .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ .

(٣) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٢ ؛ ابن أبي الضياف : ج ١ , ص ١٦٢ ؛

Villeneuve : op . cit , p290-291 .

(٤) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ ؛ حسين : الحروب الصليبية , ص ٣٠٥ .

(٥) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ .

(٦) اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧-٤٢٨ .

(٧) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : ص ١٦٢ ؛ مونود : مج ١ , ص ٣٥٤ .

٥- تفشي الأمراض في صفوف المعسكر الصليبي .

أحكم المسلمون حصار قرطاجة , واستمرت المناوشات بين المسلمين والصليبيين , وخشي المسلمون من وصول شارل آنجو على رأس قوةٍ جديدةٍ , مما يعرض تونس برمتها للخطر , لكن انتشار الأمراض والأوبئة بين أفراد الجيش الصليبي , أدت لارتفاع معنويات المسلمين , وازدادوا ثباتاً في مواجهة أعدائهم (١) .

شدد المسلمون الحصار البري والبحري على قرطاجة , فانقطعت الإمدادات عن الصليبيين داخلها , فاعتمدوا في غذائهم على اللحوم المجففة المملحة , وما تبقى لديهم من أغذية , مما انعكس سلباً على أوضاعهم الصحية نتيجةً لسوء التغذية فضلاً عن نقص المياه لديهم (٢) , كما نصب المسلمون المجانيق , ورموا الصليبيين بالرمال والغبار , وبخاصة مع هبوب الرياح الجنوبية , فكانت ضربات الكثبان الرملية أشبه بالعواصف الرملية التي أثارت مشاكل في الرؤية للصليبيين وقصّت مضاجعهم (٣) , ولا يخفى علينا المناخ البحري حيث الرطوبة العالية التي سادت المعسكر الصليبي فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة وبخاصة في شهر

ذي القعدة / شهر تموز حيث حرارة الشمس الملتهبة (٤) , مما أدى لتغيّر المناخ على الصليبيين الذين اعتادوا على مناخ فرنسا المعتدل واللطيف , مما زاد في سوء أحوالهم الصحية للصليبيين (٥) .

كل ما تقدم أدى لتفشي الأمراض بين الجنود الصليبيين , وأما عن نوعيتها فقد اكتفت المصادر الإسلامية بالإشارة إلى إصابة الصليبيين بالوباء دون تحديد نوعيته , فذكر ابن واصل عن الجيش

-
- (١) اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٥-٤٥٦ ؛ ابن أبي الضياف : مج ١ , ص ١٦٢ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ ؛
smith : op . cit , p200-201 .
- (٢) مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٤ ؛ عامر : ص ١٥٤-١٦١ .
- (٣) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦-١٨٤٧ ؛ مونرود : : مج ٢ , ص ٣٥٥ .
- (٤) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٧ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛ السراج : مج ٢ , ص ١٥١ ؛
Brellier : op . cit , p237-238 .
- (٥) مونرود : : مج ٢ , ص ٣٥٤ ؛ عامر : ص ١٦٢ .

الصليبي " أوقع الله تعالى في عسكره وباءً عظيماً " (١) , أما ابن الشماخ فقال : " وأرسل الله عليهم وباء أمارت كثيراً منهم " (٢) , بينما أضاف ابن أبي الضياف فكرةً جديدةً حيث ذكر أنه " فشى في المملكة الوباء وانتشر بجند الفرنسيين " (٣) , هذا يعني أن تونس عمها الوباء ثم انتقل ذلك الوباء إلى الصليبيين , وهنا لابد من الوقوف موقف الحذر تجاه هذه المقولة لأن ابن أبي الضياف انفرد عن المصادر الإسلامية والأوربية في الإشارة إلى انتشار الوباء في تونس , بينما لم تذكر بقية المصادر شيئاً من هذا , ويُحتمل أن إصابات قليلة أصابت أبناء تونس , فلم تشر إليها المصادر الأخرى , ولم تأخذها بعين الاعتبار , أما عن المصادر الأوربية وتحديد ماهية المرض الذي أصاب الصليبيين فقد ذكر ريشنغر " كان المرض الذي انتشر في منطقة الساحل , قد أحدث اضطراباً عظيماً في أواسط الجيش الصليبي في تونس " (٤) , وكان فيلكس فابري أكثر وضوحاً من سابقه حيث بيّن نوعية المرض بقوله : " حل طاعون كبير بالجيش الصليبي " (٥) , وأضاف جوانفيل إلى أن أكبر أبناء لويس التاسع أُصيب بالمرض حيث " تمدد ابنه الأكبر فيليب بسبب حمى رباعية " (٦) , وهناك مصدر حديث وافق جوانفيل الرأي بقوله : " اعتزى كثيرين منهم داء الدوستاريا والأمراض والحمى الخبيثة " (٧) , ويُرجح أن كل الأمراض والأوبئة سابقة الذكر قد أصابت الصليبيين , نتيجة لسوء التغذية , ونقص المياه , فضلاً عن المناخ الحار الذي لم يعتد عليه الصليبيون , هذا

إن لم يكن هنالك الكثير من الحشرات التي انتشرت في أرجاء المعسكر الصليبي , مما أدى لتفشي الأمراض بين الصليبيين .

عصف الوباء بالجيش الصليبي , فأودى بحياة الكثير منهم (٨) , ومن أهم الضحايا يُوحنا الحزين (Jean Tristan) ابن لويس التاسع الذي وُلد على ثرى دمياط , وفارق الحياة على أطلال قرطاجة في ١٤ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ/٣ آب عام ١٢٧٠م , وأصيب لويس التاسع بحزنٍ

(١) ابن واصل : ج ٦ , ص ١٣٥ .

(٢) ابن الشماخ : ص ٧٢ .

(٣) ابن أبي الضياف : مج ١ , ص ١٦٢ .

(٤) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ .

(٥) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٣ .

(٦) جوفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٢ .

(٧) مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٤ .

(٨) دويوا : الموسوعة , ج ٣٦ , ص ١١٢ ؛ ابن أبي دينار : ص ١٢٨ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢ . Miquel : op . cit , p52 .

شديد (١) , ولحق بيُوحنا الحزين النائب البابوي رُودلفُ ألبانو (Rodolph Albano) في ١٨ ذي الحجة ٦٦٨هـ / ٧ آب ١٢٧٠م , وهُوغ كونت لامارش (Huge de La marchi) , وبُشارد كونت فِندوم (Bochard cont Vendome) , وغيرهم من كبار رجال الحملة الصليبية (٢) , ولم توضح المصادر والمراجع الإسلامية أو الأوربية عدد ضحايا الوباء الذي اجتاح المعسكر الصليبي , إنما اكتفت بالإشارة إلى أن أعداد الموتى كانت كبيرة جداً (٣) , وذكر مونرود أنه لكثرة الموتى لم يعد بإمكان الصليبيين دفن موتاهم , فأخذوا برميهم في الخندق الذي حفروه حول قرطاجة حتى امتلأ الخندق بالجثث (٤) .

استغل المسلمون الحالة المأساوية التي آلت إليها أوضاع الصليبيين , فكتفوا غاراتهم البرية والبحرية عليهم , ولم يكن لويس التاسع آنذاك قد أصيب بالمرض , فتصدى مع جنوده للمسلمين , وفي مساء يوم الثلاثاء ١٦ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ/ ٥ آب عام ١٢٧٠م زحف المسلمون بقيادة يحيى بن صالح أحد قادة المستنصر الحفصي وباغتوا الصليبيين بعد حلول الظلام (٥) , ودمروا الكثير من التحصينات , وقتلوا " من النصارى زهاء خمسمائة " (٦) , ولكن سرعان ما جمع لويس التاسع جنوده , وتصدى للهجوم الذي شنه يحيى بن صالح وأجبر المسلمين على التراجع , وتكبد الطرفان خسائر بشرية كبيرة (٧) , وفي تلك الآونة "

ابثلي المسلمون بتونس , وظنوا الظنون , وأثمَّ السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان (٨) " (٩) , ولكن هل حقاً أراد المستنصر الهرب إلى القيروان ؟

(١) دوبا : الموسوعة , ج٣٦ , ص١١٢ ; ريشنغر : الموسوعة , ج٥٠ , ص١٨٤٦ ; مونرود : مج٢ , ص٣٥٥ ; برنشفيك : ص٩٠ ; Mayer : op . cit , p282 ; smith : op . cit , p201 .

(٢) دوبا : الموسوعة , ج٣٦ , ص١١٢ ; مونرود : مج٢ , ص٣٥٥ ; حسين : الحروب الصليبية , ص٣٠٩ . Villeneuve : op . cit , p298-299 ; Michaud : op . cit , volme4 , p520 .

(٣) دوبا : الموسوعة , ج٣٦ , ص١١٢ ; ابن أبي دينار : ص١٢٨ ; ابن الشماخ : ص٧٢ ; ابن السراج : مج٢ , ص١٥١ ; Villeneuve : op . cit , p296-297 .

(٤) مونرود : مج٢ , ص٣٥٥ .

(٥) ابن خلدون : ج٦ , ص٤٢٨ ; عامر : ص١٥٤-١٥٧ .

(٦) ابن خلدون : ج٦ , ص٤٢٨-٤٢٩ .

(٧) ابن خلدون : ج٦ , ص٤٢٨-٤٢٩ ; ابن أبي دينار : ص١٢٨ ; برنشفيك : ج١ , ص٩٠-٩٢ .

(٨) القيروان : مدينة قديمة , بناها عقبة بن نافع شمال غرب مدينة صفاقس , وتعد القيروان من أعظم مدن المغرب العربي , وأكثرها بشراً , وتمتاز بموقعها الاستراتيجي , وازدهارها التجاري , ويتصف أهلها بالوفاء , واجتناب المحارم والفن , الحميري: ص٤٨٦ ; البغدادي : ج٣ , ص١١٣٩ .

(٩) ابن خلدون : ج٦ , ص٤٢٨-٤٢٩ .

إذا ما هرب المستنصر إلى القيروان فتلك جريمة كبرى لأن الصليبيين مُحاصرين داخل قرطاجة , وإذا ما خرجوا منها اتسعت دائرة العمليات العسكرية , وأصبح من المستحيل السيطرة عليهم , وإذا ما غادر المستنصر إلى القيروان فلا بد أن يلحق به الجنود والمتطوعون , وهذا سيفسح المجال أمام الصليبيين في نقل مسرح عملياتهم العسكرية إلى جنوب تونس , وقد وجهت سامية عامر اتهاماً للمستنصر بالتنصل من المسؤولية والبحث عن مصلحته الشخصية وتأمين حماية نفسه , لأنه أراد الانتقال إلى القيروان (١) , ولكن ابن خلدون برأ المستنصر , وأكد أنه مجرد اتهام للمستنصر , ربما أنه فكر بالانتقال إلى القيروان , لكنه لم ينتقل إليها , لأن الصليبيين على الرغم من كثرتهم آنذاك كانوا في حالة يُرثى لها بعد أن داهمهم الأمراض والأوبئة فضلاً عن غارات المسلمين عليهم , ولا يوجد خطر حقيقي يجعل المستنصر يترك ساحة المعركة , ويهرب للقيروان .

وعلى هذا وقف الصليبيون والمسلمون وجهاً لوجه , ولم يتغلب أحدهم على الآخر بل لم تحدث معركة حاسمة بين الطرفين , ولا يمكن تجاهل صمود المسلمين بوجه أعدائهم , ولكن ما إن عصفت الوباء بالجيش الصليبي حتى غيّر مجرى الأحداث , وأودت الأمراض بحياة الكثير من القادة والجنود الصليبيين (٢) , وهذا ما يشبه ما حل بحملة لويس التاسع الأولى على مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حيث أصيبت بالأمراض أيضاً

, ومنها الرُعاف وداء الإسقربوط وهو انتفاخ اللثة وخروجها من الفم بسبب اعتمادهم على الأغذية المجففة , كما أصيبوا بالدوسنتاريا , ومنهم لويس التاسع نفسه , وكذلك بسبب شربهم من مياه النيل الملوثة بالجثث التي رموها في نهر النيل (٣) , وهذا ما يشبه كثيراً ما حصل مع لويس التاسع في تونس , فغدت تونس مقبرةً للكثير من الجنود الصليبيين , أما من تبقى منهم فقد أصيب بالإحباط حتى لويس التاسع ذاته غرق في همومه وأحزانه , وبدت عليه علامات المرض (٤) .

(١) عامر : ص ١٥٧-١٥٨ .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨-٤٢٩ ؛ ابن أبي دينار : ص ١٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج ١ , ص ١٦٢ ؛ السراج : مج ٢ , ص ١٥١ ؛

Villeneuve : op . cit , p290-293 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ج ١١٢-١١٣ .

(٤) دوبوا : الموسوعة , ج ٣٦ , ص ١١٢ ؛ فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ ؛

Michaud : op . cit , volume 4 , p519 .

٦- وفاة لويس التاسع سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م .

استبد الوباء بالجيش الصليبي وراح ضحيته الكثير من الجنود الصليبيين , ومنهم يُوحنا الحزين فلذة كبد لويس التاسع , فحزن على فقدانه , واعتكف في خيمته , لكن ما لبث أن وقع لويس التاسع نفسه فريسة المرض , فلزم فراشه , وشعر أن منيته قد اقتربت (١) .

وجه لويس التاسع لابنه فيليب وولي عهده وصيته التي رسم من خلالها النهج الذي توجب على فيليب المسير عليه , وقد أوصاه بمحبة الله , والاستقامة , والابتعاد عن الآثام والمعاصي , والتحلي بالصبر والثبات , والعطف على الفقراء والمكوبين , والتواضع , والابتعاد عن الغرور والكبرياء , وعدم إعطاء أسرارهِ إلا لمن يثق بهم , والحزم مع المجرمين والهرطقة , والعدل في معاملة الرعية , والتراجع عن الخطأ , وكسب الشعب , والسعي لإصلاح الأوضاع الداخلية , وسد الثغرات خوفاً من ازدياد تلك الثغرات التي قد تكون سبباً في تدخل بارونات فرنسا في شؤون الحكم , كما أوصاه بالتقرب من رجال الدين وإكرامهم , وتعيين الشرفاء والمستقيمين في المناصب الدينية والدنيوية , والمساعدة لحل الأزمات في مهدها قبل أن تكبر ويصبح

القضاء عليها أمراً صعباً , وتعيين نواب مستقيمين , وألا يتعامل مع المجرمين والمخادعين والكذابين , والابتعاد عن الإسراف والتبذير بحيث لا يُميز نفسه عن شعبه في مأكلي أو ملبسٍ أو مسكنٍ , وألا يُحمِل الرعية أكثر من طاقتها , ويُحسن اختيار الأصدقاء والحاشية , وأخيراً أوصاه بترتيل القداسات على روح والده بعد موته , وقد أصغى فيليب لوصايا والده بينما دونها لويس التاسع بخط يده , ليحتفظ بها فيليب , ويتذكرها دائماً (٢) .

اشتد المرض على لويس التاسع , واستبدت به الآلام , " وأثناء مرضه لم يتوقف عن الشناء على اسم الرب " (٣) , وقد اجتمع حوله رجال الدين يمسخونه بالزيت المقدس (٤) , ويرتلون معاً القداسات (٥) , وبقي قلب لويس التاسع مُعلقاً بجيشه المرابط على ثرى تونس , فكان يدعو إلى الله أن يشفيه

Villeneuve : op . cit , p296-302 .

(١) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ ؛

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٢-٢٦٦ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٦-٣٥٩ .

(٣) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ .

(٤) يُنظر الشكل رقم (٨) , ص ٣١٧ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٦ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٩ .

من مرضه ليتابع أعماله العسكرية ضد المسلمين , حيث كان يتضرع إلى الله عز وجل قائلاً : " أيها الرب كن الحامي لشعبك والوصي عليه " (١) , تعددت الروايات حول سبب مرض لويس التاسع , وهي على الشكل التالي :

الرواية الأولى : أشارت هذه الرواية إلى أن لويس التاسع " أصابه سهم غُرب في بعض المواقف فأماته " (٢) , ولم تحدد هذه الرواية المعركة التي أصيب بها لويس التاسع , ربما أنه أصيب بسهم أدى لمرضه , وهذا أمرٌ محتمل .

الرواية الثانية : نوهت هذه الرواية إلى أن المستنصر الحفصي أرسل سيفاً مسموماً هدية إلى لويس التاسع , وقد حملة سليمان الدلاصي , وقيل حملة سليمان بن حزم أحد رجال المستنصر حيث أوصل ذلك الشخص السيف إلى لويس التاسع , وقَدَّمهُ له (٣) , وعلى ما يبدو أن هذا السيف ينتقل السم منه إلى حامله عن طريق اللمس , فحملة لويس التاسع , وسرى السم في جسده , ومات مسموماً , وأيضاً هذه الرواية مُحتملة .

الرواية الثالثة : أكدت أن لويس التاسع أصيب بالوباء الذي أودى بحياته (٤) , وقد حدد جوانفيل نوع المرض الذي أصاب لويس التاسع بقوله : " سقط ضحية حمى تيفية " (٥) وفي الحقيقة منذ قدم لويس

التاسع إلى تونس كان ضعيفاً هزياً ، يُستنتج هذا من خلال قول جوانفيل : أن لويس التاسع " كان ضعيفاً جداً من الناحية الجسدية إلى حد أنه لم يكن بإمكانه تحمل وضعه في عربة مجرورة أو امتطاء فرس , وفي الحقيقة كان ضعيفاً إلى حد أنه تركني أحمله بين ذراعي من بيت كونت دي أوكسير (Auxerre) إلى حيث ذهبت إلى وداعه إلى دير الفرنسيسكان " (٦) , فكم كان لويس التاسع هزياً من الناحية الجسدية حتى حمله جوانفيل بين ذراعيه أثناء وداعه له قبل مجيئه إلى تونس ,

(١) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ ؛ والمعنى ذاته لدى ابن الشماخ : ص ٧٢ . السراج : مج ٢ , ص ١٥١ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛ ابن أبي دينار : ص ١٢٨ ؛ السراج : ص ١٥١ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٢-٢٦٧ ؛ دوبا : الموسوعة , ج ٣٦ , ص ١١٢ ؛ فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٣ ؛

ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ ؛ ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ ؛ المقرئ : السلوك , ج ٢ , ص ٥٠٢ ؛

Villeneuve : op . cit , p302-303 ; Miquel : op . cit , p52 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٢ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٢ .

فهذا الضعف الجسدي أدى لضعف مناعته ومقاومته للمرض , وعندما عصف الوباء بالجيش الصليبي أصيب لويس التاسع , واستسلم للمرض , وبقي ممدداً على فراشه , وهذه الرواية محتملة أكثر من الروايتين السابقتين , وقد أكدت عليها المصادر العربية والأوربية , بينما اقتصرتا الروايتين الأولى والثانية على المصادر العربية .

وعندما شعر أنه يحتضر وأزفت ساعة الرحيل عن الدنيا توجه لطلب الشفاعة والعون من القديس ديس (st dions) الذي اعتاد أن يستغيث به أثناء المحن والشدائد (١) , ثم أخذ لويس التاسع يرنو بنظره إلى السماء , وهو ممددٌ على فراشه , ووضع يديه على صدره على شكل صليب , ولم يُمهله المرض طويلاً , فلفظ أنفاسه الأخيرة , وسلم روحه إلى بارئها في الساعة الثالثة من يوم الاثنين ٦ محرم سنة ٦٦٩هـ / ٢٥ آب عام ١٢٧٠م (٢) .

سارع الصليبيون في تشييع ملكهم إلى مثواه الأخير (*) , وأصيب الجيش الصليبي باليأس إثر وفاة ملكه , وحزنت فرنسا على فقدان ملكها , " وقد وُضعت عظامه في نعش , وحُمِلت إلى فرنسا " (٣) , والمثير للانتباه أن جوانفيل أشار إلى أن عظام لويس التاسع قد وُضعت في التابوت , ولم يقل جثته أو جثمانه , ونوه ممدوح حسين (٤) , لوضع لويس التاسع في ماء مغلي ممزوج بالخمير حيث فُصل اللحم عن

العظم , ووضعوا عظامه في تابوت ولحمه في تابوت آخر , وقد تكون هذه الرواية صحيحة , وإلا لما أشار جوانفيل إلى أن عظام لويس التاسع وُضعت في النعش , ويُحتمل أن لحمه قد دُفن في قرطاجة , لأن نقلها إلى فرنسا سيؤذي لتعفنهما بينما نقلوا عظامه فقط إلى فرنسا .

شيعت فرنسا ملكها الراحل إلى مثواه الأخير , ودفنوه في كنيسة القديس دِنْسْ بناءً على طلبٍ

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٦٧ ؛ عامر : ص١٦٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٦٧ ؛ سانوتو : الموسوعة , ج٣٦ , ص١٩ ؛ مونرود : مج٢ , ص٣٦٠-٣٦١ .
mayer : op . cit , p282 ; Stevenson : op . cit , p343 .

(*) أنشد آنذاك الشاعر التونسي أحمد بن إسماعيل الزيات متوعداً لويس , وقد صدق في قوله عندما قال :

يافرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبراً وطواشيك مُنكر ونكير

المقريري : السلوك , ج١ , ص٤٦٢ ؛ ابن أبي دينار : ص١٢٩ ؛ السراج : مج٢ , ص١٥١ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج٣٥ , ص٢٦٧ .

(٤) حسين : الحروب الصليبية , ص٣١٥ .

مُسَبِّق من قبله (١) , بينما أدى كبار رجال الحملة الصليبية الثامنة في تونس يمين الولاء والطاعة لملكهم الجديد فيليب الابن البكر للويس التاسع حيث تم تعيينه ملكاً على فرنسا باسم فيليب الثالث (٢٦٩-٦٨٤هـ/١٢٧٠-١٢٧٥م) (٢) .

من المؤكد أن الصليبيين كتموا خبر وفاة لويس التاسع عن المسلمين خوفاً من استغلال الظروف والقيام بهجوم مفاجئ ضدهم , لأنه لم يحصل أي تقدم في الموقف التونسي حيث استمرت المضايقات والمناوشات كما كانت قبل وفاة لويس التاسع , ولم يطرأ أي جديد في أسلوب القتال الذي اتبعه المسلمون ضد أعدائهم (٣) .

وعلى هذا حفرَ لويس التاسع قبره بيده , وقادته أطماعه إلى حتفه , ولم يحقق ما كان يرنو إليه من مدِّ النفوذ الفرنسي على أفريقيا , واستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين , وقد نظر مؤرخو الشرق للملك الفرنسي على أنه رمز للعدوان الفرنسي , وتقاذفوه بالشتائم حيث أشار العيني بقوله : " ومات الفرنسي لعنه الله " (٤) , وقال ابن فضل الله العمري : " فقصمه الله " (٥) , وقال آخرون : أصبح طاغيتهم ميتاً حتف أنفه (٦) , بينما نظر مؤرخو الغرب إلى لويس التاسع على أنه رمز الشجاعة والبطولة والتقى والورع (٧) , وعدَّ جوانفيل ومونرود أن الحزن على لويس التاسع واجبٌ وطنيٌّ لأنه بنى فرنسا , وقاد

حملتين صليبيتين ضد المسلمين , وكان مضرب المثل في الإخلاص لشعبه (٨) , ولكن لويس التاسع أخطأ الهدف عندما توقع أن تونس هي مفتاح بيت المقدس لأنها كانت مقبرة له , وللكتير من جنود حملته الصليبية , أما من تبقى منهم فقد بقوا حائرين بل ومحاصرين داخل أسوار قرطاجة .

Kedar: crusade , p166 .

(١) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٧ ؛

(٢) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٦١ .

Brellier : op . cit , p238 ; collier's encyclopedia : p280 .

(٣) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦-١٨٤٧ .

(٤) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٣٨ .

(٥) ابن فضل الله العمري : ج ٢٧ , ص ٣٥٥ .

(٦) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛ السراج : مج ٢ , ص ١٥١ .

(٧) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ .

(٨) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٧ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٦١ .

٧- معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين .

فقد الصليبيون ملكهم لويس التاسع , وانشغلوا بذكر مآثره في الوقت الذي أضناهم فيه الحصار , وأفناهم الوباء (١) , وفجأة سمعوا أصوات أبواق وطبول الحرب تعلو مدوية على شاطئ قرطاجة , وإذا بشارل كونت أنجو ملك الصقليتين قد قاد أسطولاً ضخماً وأتى لإنقاذهم (٢) , ولكنه قدم بعد فوات الأوان حيث كان لويس التاسع قد فارق الحياة , فانهمرت عيناه بالدموع , لكنه سرعان ما تمالك نفسه حفاظاً على الروح المعنوية للجند , وقرر إعداد الترتيبات اللازمة لمتابعة الحرب (٣) .

وصلت أنباء إلى الصليبيين بقدوم نجادات لمؤازرتهم حيث كان ادوار بن هنري الثالث ملك إنكلترا قد وعد لويس التاسع بمساندته في حملته الصليبية , فسار على رأس ألفي مقاتل (٤) , وعندما وصل ادوار وجد لويس التاسع قد فارق الحياة منذ بضعة أيام وارتاع ادوار للحالة المأساوية التي وصلت إليها أوضاع الصليبيين المحاصرين داخل قرطاجة , فأبدى رغبة كبيرة في استمرار المواجهة مع المسلمين (٥) .

شنَّ الصليبيون هجوماً برياً وبحرياً على المسلمين في ١٥ محرم سنة ٦٦٩هـ / ٤ أيلول عام ١٢٧٠م (٦) فتصدى لهم المسلمون وحدث " قتالاً شديداً قُتل فيه من الفريقين عالم عظيم , وكاد المسلمون أن يُغلبوا " (٧) ,

لم يتغلب أي طرف على الآخر لأن الصليبيين تحصنوا داخل قرطاجة بينما فرض المسلمون عليهم حصاراً شديداً , فظهرت بوادر للصلح بينهما ,

-
- (١) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ ؛ المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٢ ؛ جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٢-٢٦٧ ؛
Brentano : le moyen age la croisade , p300 -301 .
(٢) فابري : الموسوعة , ج ٣٨ , ص ١١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٦١ ؛ Villeneuve :
: op . cit , p296-297 .
(٣) مونرود : : مج ٢ , ص ٣٦١-٣٦٢ ؛ حسين : الحروب الصليبية , ص ٣٦١ .
(٤) الأرمني : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٥٠ .
(٥) رنسيمان : ج ٣ , ص ٥٧٤ ؛ عامر : ص ١٧٦-١٧٧ ؛
Villeneuve : op . cit , p287-288 .
(٦) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦-١٨٤٧ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٦٣ .
(٧) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٤٦٢ ؛ والمعنى ذاته لدى ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨-٤٢٩ .

واختلفت المصادر حول من بادر أولاً في الصلح , فأشار ابن أبي الضياف بقوله : " دعاهم المستنصر إلى الصلح فأجابوا " (١) , وقد وافقه مونرود (٢) , بينما أشارت غالبية المصادر إلى أن الصليبيين هم من طلب الصلح , فقال ابن خلدون : " كان أمرهم راجعاً إلى العجلة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤونة حركتهم , وترجع بقومها , فأسعفها السلطان " (٣) , والمقصود بالعجلة على ما يبدو إيزابيلا زوجة الملك الفرنسي فيليب (٤) , حيث راسلت المستنصر وطلبت الصلح , فحَبَذ الثاني الفكرة , وأيد ابن خلدون كل من اليوناني (٥) , وابن أبي دينار (٦) , وابن الشماع (٧) , وغيرهم , ويُرجح أن الصليبيين هم من بادر بطلب الصلح لأن أوضاع المسلمين كانت أفضل من أوضاعهم , وبخاصة إثر الوباء الذي حلَّ بهم , وبالأحرى فقد رغب الطرفان بالصلح وإنهاء حالة الحرب , لأن كلا منهما كانت له ظروفه الخاصة , فعلى الجانب الصليبي يلاحظ ما يلي :

أ- عانى الصليبيون من شدة الحصار البري وأحياناً البحري , وهذا ما أدى لسوء أوضاعهم وإصابتهم بسوء التغذية .

ب- انتشار الوباء في صفوف الجيش الصليبي فراح ضحيته الكثير من الجنود والقادة .

- ج- إن وفاة لويس التاسع أدت لإصابة الجيش الصليبي بالإحباط , وبخاصة أنهم اعتادوا على إخلاصه , واستقامته , وكياسته في معاملتهم , فكان لهم أشبه بالأب الحنون .
- د- تعرض الصليبيون لضرباتٍ موجعةٍ من قبل المسلمين , ولو أنها لم تكن حاسمة , ولكن بشكلٍ عام استطاعوا قَضَّ مضاجعهم , ولم يتركوهم يعرفوا الراحة والطمأنينة (٨) .
- أما ظروف المسلمين التي أجبرتهم على الرغبة في الصلح فهي :

(١) ابن أبي الضياف : مج ١ , ص ١٦٢ .

(٢) مونرود : مج ٢ , ص ٣٦٢ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ .

(٤) حسين : الحروب الصليبية , ص ٣٢١ .

(٥) اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٦ .

(٦) ابن أبي دينار : ص ١٢٨ .

(٧) ابن الشماخ : ص ٧٢ .

(٨) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٨-٤٢٩ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦-١٨٤٧ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٥٣-٣٦٣ ؛

Villeneuve : op . cit , p290-297 .

أ- لم يكن المستنصر رجل حرب بمعنى الكلمة, ولم يمتلك ذلك الحماس في شن هجومٍ كاسحٍ لاقتلاع الصليبيين من جذورهم , ولكن هذا لا يعني ضعف عزيمة أبناء تونس والمتطوعين من بلاد العرب المسلمين (١) .

ب- خشي المسلمون من كسر الصليبيين للحصار , ومهاجمة تونس والاستيلاء عليها (٢) , وبخاصة إثر مجيء نجدات جديدة للصليبيين تمثلت بشارل آنجو وادوار بن هنري الثالث ملك إنكلترا (٣) .

ج- كان معظم المتطوعين من البدو الذين شاركوا في مواجهة الحملة الصليبية , وقد اضطروا مع اقتراب فصل الشتاء للعودة إلى ديارهم لتأمين الأعلاف اللازمة لمواشيهم (٤) .

وبشكلٍ عام الظروف الصعبة التي عاشها الصليبيون والمسلمون أدت إلى رغبة الطرفين بعقد صلح وإنهاء حالة الحرب , فأرسل المستنصر من طرفه عدداً من الفقهاء (٥) لمفاوضة الصليبيين على شروط الصلح , بينما مثَّلَ الصليبيين شارل كونت آنجو وابن أخيه فيليب , وادوار بن هنري الثالث , وتوصل الطرفان لعقد معاهدة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ/ ٥ تشرين الثاني عام ١٢٧٠م وقد تضمنت البنود التالية: (٦)

- يدفع المستنصر غرامة مالية قدرها خمسمائة وخمسة وعشرون ألف ليرة ذهبية فرنسية , وذلك تعويضاً للصليبيين عن نفقات حملتهم (٧) , ويشترط أن تدفع أقساطاً (٨) .
- يتوجب على المستنصر دفع مبلغ مالي بشكل سنوي لشارل آنجو ملك الصقليتين (٩) ,

-
- (١) المقريري : السلوك , ج ١ , ص ٦٠٢ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٣ ؛ Villeneuve : op . cit , p289 .
- (٢) ابن الشماخ : ص ٧٢ .
- (٣) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٦-١٨٤٨ ؛ Michaud : op . cit , volume4 , p520-527 .
- (٤) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ .
- (٥) الفقهاء الذين فاضوا الصليبيين هم : " القاضي بن زيتون , وحضر أبو الحسن علي بن عمرو , وأحمد بن النعمان وزيان بن محمد بن عبد القوي أمير بني توجين " . ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ .
- (٦) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ ؛ برنشفيك : ج ١ , ص ٩٣ ؛ حسين : الحروب الصليبية , ص ٣٢٢ .
- (٧) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ ؛ ابن عبد الظاهر : ص ٣٧٤ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٧ ؛ حسين : الحروب الصليبية , ص ٣٤١ ؛ Michaud : op . cit , volume 4 , p523 .
- (٨) ابن أبي الضياف : مج ١ , ص ١٦٢ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية , ص ٢١٠ .
- (٩) اليونيني : مج ١ , ص ٤٥٦ ؛ ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٧ ؛ Villeneuve : op . cit , p309 .

- مقابل تعهد الثاني بحماية شواطئ تونس من القراصنة الأوربيين (١) .
- السماح للمبشرين المسيحيين بنشر الديانة المسيحية في تونس , والاعتراف بحقوقهم في بناء كنائسهم وأديرتهم على أرض تونس (٢) .
 - يتم إطلاق سراح الأسرى المسلمين والصليبيين (٣) .
 - يتعهد الصليبيون بالانسحاب من قرطاج (٤) , " من غير تعرض لجهة من جهات المسلمين " (٥) , أي ألا يقصدوا بلاد العرب المسلمين مرة ثانية .
 - مدة المعاهدة خمسة عشر عاماً (٦) .

إن من يتأمل هذه المعاهدة يلاحظ أن معظم بنودها جاءت لصالح الصليبيين بل كانت مُحفزة جداً بحق المسلمين , ولكن الكنايني عذّر المستنصر بحجة أن الظروف المالية الصعبة والنفقات الباهظة للمستنصر في مواجهة الصليبيين قد أجبرته على الصلح , وعقد معاهدة كهذه (٧) , ولكن في الحقيقة إن المستنصر بدلاً من أن يسعى لحل أزيمته المالية رتب على تونس غرامة مالية كبيرة تمثلت بتعويض الصليبيين عن نفقات حملتهم , كما أنه ألزم أبناء مملكته بدفع مبلغ مالي سنوياً لشارل آنجو , وبذلك حمل أبناء تونس ضرائب

جديدة إرضاء للصليبيين , وبالفعل كما قال المقرئزي للمستنصر " مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين " (٨) , وذلك بسبب جهله بأمور السياسة , وتخاذله لأنه بدلاً من مواجهة المعتدين فقد كافأهم على عدوانهم , ودفع لهم الأموال , فجاءت بنود المعاهدة لصالح الصليبيين بالرغم من أن أوضاع أبناء تونس كانت أفضل بكثير من أوضاع الصليبيين بعد أن فقدوا ملكهم , واستبدت بهم الأمراض والحن .

(١) عامر : ص ١٨٧ .

(٢) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٧ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٦٢-٣٦٣ ؛ برنشفيك : ج ١ , ص ٩٣ ؛

Villeneuve : op . cit , p39 .

(٣) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٧ ؛ عامر : ص ١٨٦ .

Lewis Archibald : op . cit , p147 .

(٤) ابن أبي الضياف : ص ١٦٢ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛

(٥) ابن أبي دينار : ص ١٢٨ ؛ والمعنى ذاته لدى السراج : مج ٢ , ص ١٥١ .

(٦) ابن أبي دينار : ص ١٢٩ ؛ مونرود : مج ٢ , ص ٣٦٢ .

(٧) الكناي : ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٨) المقرئزي : السلوك , ج ١ , ص ٦٠١ .

وهكذا فقد عقد المستنصر مع الصليبيين صلحاً جائراً , لعدم رغبته بمتابعة القتال , وقد كان بإمكانه المثابرة في التصدي لهم , وإغراقهم في البحر المتوسط (١) , كما تصدى المماليك لحملة لويس التاسع الأولى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م , وأغرقوها في نهر النيل , وأجبروها على الاستسلام , وفرضوا عليها غرامة مالية كبيرة (٢) , أما هنا فقد كان العكس حيث سعى المستنصر لكسب رضا الصليبيين لإجلاتهم عن تونس , علماً أنه لم يكن بحاجة لعقد صلح جائر كهذا (٣) .

-
- (١) ابن أبي الضياف : مج ١ ، ص ١٦٢ ؛ ابن الشماخ : ص ٧٢-٧٣ .
(٢) ابن الجزري : ص ٢١٧-٢٢١ ؛ جوافيل : الموسوعة ، ج ٣٥ ، ص ٧٨-١٤٦ .
(٣) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٤٢٩ ؛ ابن عبد الظاهر : ص ٣٧٤ .
Villeneuve : op . cit , p309-311 .

٨- نهاية الحملة الصليبية الثامنة .

ما إن عُقدت المعاهدة بين المسلمين والصليبيين حتى فكَّ المسلمون الحصار عن قرطاجة ، وسارع التجار في المجيء ببضائعهم إلى قرطاجة حيث باعوا واشتروا مع الصليبيين متناسين الحروب التي خاضوها ضد بعضهم البعض ، ولكن هذا لا يتعلق سوى بالتجار الذين كان همهم الأساسي مصالحهم التجارية (١) .

فرض المستنصر الضرائب على أبناء تونس لتأمين الأموال اللازمة من أجل تسديدها للصليبيين ، ولم يجد معارضةً من قبل شعبه بعد أن أقنعهم بضرورة تأمين الأموال لدفع الصليبيين عن تونس (٢) ، وقد فرح الصليبيون بما حصلوا عليه من أموال ، واستعدوا للرحيل عن تونس وتركوا " في قرطاجة تسعين منجنيقاً " (٣) ، ولكن لماذا تركوا تلك المجانيق ولم يأخذوها ؟

ربما أن تلك المجانيق كانت مُحطمة وغير صالحة للاستعمال ، ويُحتمل أنه لم تكن هناك سفن كافية لحمل الجنود وأمتعتهم ، فاضطروا لترك تلك المجانيق في قرطاجة .

أقلعت الحملة الصليبية من شواطئ قرطاج في يوم الجمعة ٤ ربيع الثاني سنة ٦٦٩هـ/ ٢١ تشرين الثاني عام ١٢٧٠م بعد أن أمضت في تونس حوالي أربعة أشهر وعشرة أيام (٤) , وإثر رحيل الصليبيين أمر المستنصر " بتخريب قرطاج , وأن يؤتى بنيانها من القواعد " (٥) , فعدت قرطاج مجرد أطلال , وحُجة المستنصر في تدميرها هو خوفه من أن يقصدها الأوربيون مرةً ثانيةً , ويتخذوا منها حصناً من أجل مهاجمة تونس , وهذا يشبه ما حدث في دمياط إثر رحيل حملة لويس التاسع الأولى عن مصر سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حيث قام المماليك بتدميرها خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها مرة أخرى (٦) .

(١) ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛ السراج : مج ٢ , ص ١٥١ .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ .

(٤) ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛ السراج : ص ١٥١ ؛ الكناي : ص ٢٥٩ .

(٥) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ .

(٦) الدواداري : ج ٨ , ص ١٥ ؛ ابن سباط : ج ١ , ص ٣٥٧ ؛ ابن إياس : ج ١ , ص ٢٨١-٢٨٢ .

سارت بقايا الحملة الصليبية الثامنة نحو صقلية , وفي الطريق هبت عاصفة قوية أشار لها ابن خلدون بقوله : " أصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب , وهلك الكثير منهم " (١) , ولم يحدد عدد الرجال الذين غرقوا في البحر حيث اكتفى بالتنويه إلى كثرتهم , وقد وافق ابن خلدون في رأيه كل من ابن الشماخ والسراج في قولهما : " أرسل الله عليهم ريحاً أهلك كثيراً منهم " (٢) , بينما حدد مونرود عدد الغرقى بأربعة آلاف شخص (٣) , وأضاف ريشنغر معلومة جديدة حيث لم تكن هناك خسائر بشرية لدى الصليبيين فحسب بل غرقت الأموال التي أخذوها من المستنصر إضافة للكثير من الأسلحة والذخائر (٤) , ووصلت بقايا الحملة الصليبية إلى صقلية في حالة يرثى لها , فاستقر شارل آنجو في مملكته أما فيليب الثالث ففقد رجال حملته عائداً إلى فرنسا , وقضى ادوآز بن هنري الثالث فصل الشتاء في صقلية , وبقي فيها حتى ٢٦ رمضان سنة ٦٦٩هـ/ ٩ أيار عام ١٢٧١م , ثم قرر الرحيل إلى مملكة عكا لإنقاذها من هجمات المماليك (٥) .

وصلت حملة ادوآز إلى قبرص , ومنها إلى عكا حيث أقسم ادوآز على الوصول إلى عكا قائلاً : " سوف ندخل إلى عكا حتى وإن كانت روحي ستفارق جسدي " (٦) , ويلاحظ مدى حماس ادوآز , ولكنه تناسى العهد الذي قطعه على نفسه للمستنصر أثناء المعاهدة التي عقدها معه سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م حيث

تضمن أحد بنودها على عدم " التعرض لجهة من جهات المسلمين " (٧)، وبذلك لم يتقيد ادوآز بالعهد في العودة إلى بلاده , وعدم مهاجمة العرب والمسلمين , وبذلك فقد سار ادوآز على خطا حليفه لويس التاسع الذي هُزم في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م " وحلف أن لا يطأ بعدها أرض الإسلام " (٨) , فلم يتقيد أيضاً بذلك الميثاق .

لأنه أمضى أربع سنوات في مملكة عكا حاك خلالها المؤامرات للنيل من العرب المسلمين ,

(١) ابن خلدون : ج ٦ , ص ٤٢٩ .

(٢) ابن الشماخ : ص ٧٢ ؛ السراج : مج ٢ , ص ١٥١-١٥٢ .

(٣) مونرود : مج ٢ , ص ٣٦٤ .

(٤) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٧ .

(٥) عامر : ص ١٨٩ ؛

Michaud : op . cit , volume 4 , p527 ; Villeneuve : op . cit , p309 .

(٦) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٨ ؛ والمعنى ذاته لدى دي كانسي وادوار : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٦١ .

(٧) ابن الشماخ : ص ٧٢ .

(٨) السراج : ص ١٥٢ .

ولم يكتف بهذا بل هاجم تونس سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م , وهذا يؤكد أن زعماء أوربا أمثال ادوآز و لويس التاسع لا عهود لهم ولا موثاق .

ارتاع ادوآز للحالة المأساوية التي آلت إليها أوضاع الصليبيين في مملكة عكا إثر هجمات المماليك , وسقوط الكثير من المعاقل الصليبية , وقبيل قدوم ادوآز كانت قد سقطت قلعة الحصن (حصن الأكراد) التي عُدت من أقوى القلاع الصليبية وأكثرها مناعة (١) , فرأى ادوآز ضرورة الاستعانة بالمغول لأنه تلميذ لويس التاسع , فأرسل سفارةً إلى الخان المغولي أبغا في بلاد فارس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م حيث طلب منه النجدة ضد المسلمين (٢) , وقد استجاب أبغا لطلبه لأنه كان ناقماً على بيبرس الذي دعم بركة خان زعيم القبائل الذهبية المغولية بعد اعتناقها للإسلام ضد أبغا (٣) , فقد أرسل قوة مغولية " عدة عشرة آلاف فارس " (٤) , هاجمت شمال بلاد الشام , وقامت بأعمال السلب والنهب , فتصدى لها بيبرس بجيشه عند بلدة البيرة , وأنزل بها هزيمةً نكراء بعد أن تركت آلتها القتالية غنيمةً للمسلمين , ولم تستطع تلك القوة المغولية التواصل مع حليفها ادوآز , فعادت من حيث أتت (٥) .

ضاعت أحلام ادوآز بمساعدة المغول , كما ضاعت آمال لويس التاسع من قبله , فأغار على حصن

قاقون المملوكي (٦) , وألحق به أضراراً بالغة (٧) , وأسر مجموعة من رجاله , فلحق به

- (١) المنصوري : زبدة الفكر ، ص ١٢٧-١٣٤ ؛ ابن سباط : ج ١ ، ص ٤٣٠-٤٣٢ ؛
Michaud : op . cit , volume4 , p526-527 .
- (٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٥٨ ؛ رنسيما : ج ٣ ، ص ٥٧٦ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p659 .
- (٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٣٥-٣٤١ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .
- (٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٠ .
- (٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٣٧-٣٣٨ ؛ ابن الوردي : ج ٢ ، ص ٣١٦ ؛ ابن سباط : ج ١ ، ص ٤٣٤ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p668 .
- (٦) قاقون : أحد حصون فلسطين ، ويقع قرب الرملة ، وهو من أعمال قيسارية . الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ؛ البغدادي : ج ٣ ، ص ١٠٥٩ .
- (٧) الدواداري : ج ٨ ، ص ١٦٥-١٦٦ ؛ المنصوري : زبدة الفكر ، ص ١٣٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج ٨٣ ، ص ٤٣ ؛
Smith : op . cit , p202 .

المسلمون من المناطق المجاورة للحصن ، وفكوا أسرى المسلمين من أيديهم بعد أن لازم ادواؤ ورجاله بالفرار إلى عكا (١) ، وإثر هزيمته ، أخذ يطالب ببيرس بالمهادنة ، وبالفعل توصلوا لعقد هدنة سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م " مدتها عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات " (٢) ، ثم تعرض ادواؤ لمحاولة اغتيال كادت أن تؤدي بحياته ، وذكر سمباط إلى أحد عبيد ادواؤ قد نفذ العملية (٣) ، أما ريشنغر فحدد اسم منفذ العملية وهو عبد العظيم أحد أفراد الحشيشية ، وقد أصيب ادواؤ بطعني خنجر ، فهاجم أتباع ادواؤ عبد العظيم ، وقتلوه وعلقوا جثته على أسوار عكا (٤) ، وهنا ويُحتمل الوجهان بالنسبة لمنفذ عملية الاغتيال فرما أن أحد عبيد ادواؤ أعطاه أحد أمراء المسلمين مبلغاً من المال للتخلص من ادواؤ خوفاً من عودته إلى أوربة والمجيء على رأس حملة صليبية جديدة ، وقد يكون عبد العظيم أحد عناصر الحشيشية هو من أراد اغتيال ادواؤ حيث اعتادت الحشيشية على تنفيذ الاغتيالات ضد قادة الصليبيين .

ووجد ادواؤ أن بقاءه في عكا دون فائدة أمام قوة المسلمين وتهاوي المعقل الصليبية ، وما إن شعر بتحسن حالته الصحية حتى قاد رجال حملته الصليبية ، وأبحروا عائدين إلى إنكلترا سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م (٥) .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثامنة ، ولكن هل انتهت الحروب الصليبية بانتهائها ؟
لا ولن تنتهي الحروب الصليبية ، ولم تكن الحملة الصليبية الثامنة هي آخرها لأن الغرب الأوربي كان ولا زال وسيبقى يحيك المؤامرات بالاتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية للنيل من العرب المسلمين فيتوجب

الحذر من تلك المخططات , والوقوف سداً منيعاً وصبغاً واحداً بوجه التحديات والمخططات الصهيونية – الأمريكية – الأوروبية .

-
- (١) الدواداري : ج ٨ , ص ١٦٥-١٦٦ .
(٢) المنصوري : مختار الأخبار , ص ٤٨ . ابن سباط : ج ١ , ص ٤٣٣ .
(٣) سمباط : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٥١ .
(٤) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٩-١٨٥٠ ؛ والمعنى ذاته لدى دي كانسي وادوار : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٦١ .
(٥) ريشنغر : الموسوعة , ج ٥٠ , ص ١٨٤٩-١٨٥٣ ؛ دي كانسي وادوار : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٣٦١ ؛
Smith : op . cit , p200-202 .

وعلى هذا فقد أسفرت الحملة الصليبية الثامنة عن النتائج التالية :

- هزيمة لويس التاسع في تونس , وادوار في بلاد الشام , وانتصار المسلمين .
- أثبت أبناء تونس جدارتهم في مواجهة الصليبيين بعد أن اتحد معهم العرب المسلمين من بلاد الشام حتى الأندلس , وذلك على الرغم من تقاعس سلطانهم المستنصر الحفصي .
- لم يحقق لويس التاسع حلمه في الاستيلاء على بيت المقدس بل كانت نهايته على روابي تونس , وقد عده المسلمون رمزاً للعدوان والإحتلال , بينما أشار جوافيل (١) , إلى أنه بعد مرور سبع سنوات على وفاة لويس التاسع أقر البابا يوحنا الحادي والعشرين رفع لويس التاسع لمرتبة القديسين , فبقي للفرنسيين مثلاً يُحتذى به .
- ساندت عوامل الطبيعة المسلمين بشكل كبير حيث أدت الحرارة المرتفعة والمناخ البحري الرطب لانتشار الأمراض في صفوف الصليبيين , كما أن العاصفة البحرية التي ضربت الحملة إثر رحيلها عن تونس أغرقت الكثير من رجالها .
- لم يفرح الصليبيون بالأموال التي دفعها إليهم المستنصر لأنها غرقت في قعر البحر المتوسط , وذهبت هباءً منثوراً , وهذه النهاية الحتمية لكل قوى الشر والعدوان .

(٣) جوانفيل : الموسوعة , ج ٣٥ , ص ٢٦٨ .

الخاتمة .

أعلن لويس التاسع الحرب على المسلمين , وبذل كل ما وسعه للقضاء عليهم , والاستيلاء على أرضهم , متخذاً من الدين ستاراً لتحقيق أهدافٍ دينيةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ واستعمارية , فجّر فرنسا إلى حروبٍ طاحنةٍ لم تجن منها سوى اليأس والمرارة , بينما حقق مكاسب كبيرة للصليبيين خلال مدةٍ زمنيةٍ وجيزةٍ لم يحقق مثلها من سبقه من الملوك الصليبيين على مدار عشرات السنين , ومن خلال إسقاط الضوء على تلك الحقبة الزمنية تم التوصل إلى نتائج كثيرة يمكن الإشارة إلى أهمها , وهي على الشكل الآتي :

- لم يُفلح لويس التاسع في هجومه على مصر على الرغم من القوة العسكرية الكبرى التي أتى على رأسها , ولكنه أخطأ الطريق عندما اقتحمها عبر دلتا النيل حيث الفروع النهرية وقنوات الري فضلاً عن السبخات , مما أعاق تقدمهم , كما أن رُوِيتُ كونت أرتوا لم يتقيد بأوامر أخيه لويس التاسع , في الوقت الذي تكاتف فيه أبناء بلاد الشام ومصر , وأثبتوا جدارتهم في التصدي لقوات الحملة الصليبية السابعة , فدمروها , وابتلعهم أرض مصر ونيلها , ولم ينبج منهم سوى الأسرى , وأصبحوا عبرةً للمُعتبرين .

- قرر لويس التاسع البقاء في مملكة عكا لعله يثأر للهزائم التي حلت بجيشه , فسعى لتقوية الكيان الصليبي حيث وقفت إمارة أنطاكية على شفا جرفٍ بسبب هجمات التركمان عليها , وكادوا يجعلوها أثراً بعد عين , ولكن عناية لويس التاسع ودعّمه ساعداها على تجاوز المحن , وهذا ما أطل في عمر الصليبيين

بأنطاكية , كما فاق لويس التاسع معاصريه بما امتاز به من رغبةٍ في إصلاح أوضاع الصليبيين , فحول الهزيمة إلى نصر عندما أزال الجفاء بين عرشَي أنطاكية وأرمينية الصغرى , مما مهد الطريق أمام هَيْثُوم الأول ملك أرمينية في كسب المغول , فأخذ منهم ميثاقاً لتدمير الخلافة العباسية , ولم يستطع لويس التاسع إنهاء النزاع المذهبي في قبرص بين العنصرين اليوناني الأرثوذكسي واللاتيني الكاثوليكي , لأنه هيهات أن يتفق المواطن الأصلي مع المحتل , وبخاصة بعد أن شكل اللاتين طبقة السادة , وتحول المواطنون الأصليون إلى مزارعين وصغار كسبه.

- تعامل لويس التاسع بذكاء مع رُسل الحشيشية , فغض النظر عن تهديدهم له , وتبادل الهدايا مع شيخ الجبل , فكسب صداقته , وبذلك أَمَّن الحماية لقادة الصليبيين من اغتياالات الحشيشية طيلة

بقائه في مملكة عكا , وعندما خشي من القوة المغولية الغاشمة , أراد كسبها , وإدخالها دائرة الحروب الصليبية, وقد أذل نفسه من أجل تلك الغاية على الرغم من نظرة المغول الفوقية والمتعالية , مستهدفاً جعل العرب المسلمين بين فكي كماشة وهما المغول والصليبيين , ويتحمل لويس التاسع وملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول مسؤولية الهجوم المغولي على بلاد العرب المسلمين .

- أظهر لويس التاسع ذكاءً خارقاً في إدارة الكيان الصليبي فقامت المنظمات الرهبانية الصليبية بدور بارزٍ تحت قيادته , وتميزت بالطاعة العمياء لأوامره , وكان لها دور متميز في مملكة عكا بل كانت بمثابة العمود الفقري للكيان الصليبي , وهذا بفضل لويس التاسع الذي أحسن توجيهها ,

كما أنه لم يكن راضياً عن علاقة الجمهوريات الإيطالية التجارية مع المسلمين , ولكنه لم يحاول الاصطدام معها لأنها كانت صلة الوصل بين أوربة والصليبيين , كما وفرت للكيان الصليبي معظم مستلزماته الاقتصادية .

- أخذ لويس التاسع بأسباب القوة فجهز الجيش الصليبي بترسانة عسكرية لا يستهان بها , كما شغل معظم وقته في أعمال التحصين , فأنتج نماذجاً من الاستحكامات العسكرية التي تمتعت بقدرات دفاعية هائلة , وقد توهم لويس التاسع أن حصونه وأسواره مانعتهم من المسلمين , كما يتوهم الآن الكيان الصهيوني بتحسيناته , ولكن كما زال الكيان الصليبي سيزول الكيان الصهيوني إن شاء الله , وسيُهزم الغزاة , ويندحر الظلم والعدوان .

- استطاع لويس التاسع التغلب على بعض الصعاب التي اعترضت سبيله , فتعامل بحنكة مع نقص العنصر البشري , وأغدق الأموال على من ينضم تحت لوائه , فقصده الكثير من المرتزقة , كما كان بإمكانه إعلان النفير العام إذا ما اقتضت الضرورة , وعند ذلك كانت تحب المملكة اللاتينية بأكملها للمواجهة , وقد تطلبت مشاريع لويس التاسع في مملكة عكا مبالغ مالية طائلة , وهذا ما أدى لاهتمامه بتطوير الجانب الاقتصادي , فطور الزراعة , وشجع الصناعة والتجارة فضلاً عن الدعم البابوي والفرنسي مما أدى لتقوية الاقتصاد الصليبي .

- توصل المماليك و لويس التاسع لعقد اتفاقية سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م , فتقيد المماليك ببنود الاتفاقية , وأطلقوا سراح لويس التاسع وكبار رجال مملكته , بينما تحرب لويس التاسع من دفع الفدية , وأعلن تحلله من الاتفاقية , وهذا ما أكد أن لويس التاسع أشبه بالصهيونية اليوم فهما لا عهود لهما ولا موثيق , ولم يكتف لويس التاسع بذلك بل أصبح سيد الموقف في ظل الحرب بين الأيوبيين والمماليك , وقد نجح في تأجيج نار العداء بينهما , ثم أخذ يتوعد المماليك بالهجوم على رأس جيش صليبي - أيوبي لتدمير مصر إن لم يرضخوا لمطالبه , فسارعوا للتواطؤ معه , بل اشتبكوا مع الأيوبيين في معركة العباسية سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م وقد ثبتت تلك المعركة أقدام المماليك في مصر , ثم ظهرت منافسة حادة بين المعز أيك والناصر يوسف الثاني , وحاول كل منهما جذب لويس التاسع إلى جانبه , وحظي المعز أيك بصداقة لويس التاسع فترأى له أنه سيعيد أجماد مملكة بيت المقدس الأولى , ولكن كان ذلك مجرد حلم لا أكثر.

- راح لويس التاسع يعمل على زيادة حدة التوتر بين الناصر يوسف الثاني و المعز أيك لضرب القوتين مع بعضهما البعض أملاً في الحفاظ على الكيان الصليبي , بينما استهدف الناصر يوسف الثاني زيادة أملاكه , أما المعز أيك فأراد إثبات وجوده علماً أن ذلك الصراع بين حاكمين , وليس بين شعبين لأن أبناء بلاد الشام ومصر لا ناقة لهم ولا جمل في تلك الصراعات , وقد نجحت مساعي الخليفة العباسي المستعصم بالله في إطفاء جذوة الخلاف بين الأيوبيين والمماليك , سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م , فتلاشت أحلام لويس التاسع بتفرقة المسلمين بعد اعتراف الأيوبيين بشرعية المماليك , وعندها أعلن الناصر يوسف الثاني الحرب على الصليبيين , فصمدت يافا وعكا بسبب الأسوار

القوية التي أحاطها بها لويس التاسع بينما حلت هزيمة ساحقةً بالصلبيين في صيدا , وذلك لأن لويس التاسع لم يكن قد أكمل تحصينها بعد .

- القائد بمثابة القلب من الجسد فقد أخطأ لويس التاسع خطأً فادحاً عندما ترك قواته تهاجم بانياس والصبية دون أن يقودها بنفسه لأن الخطة الموضوعة لم تُنفذ بحذافيرها حيث سمحوا للمسلمين الفارين من بانياس بالهروب إلى الصبية , وفي الصبية أعاد المسلمون تنظيم أنفسهم فلاذ الصليبيون بالفرار إلى صيدا حيث لحقوا بملكهم لويس التاسع , وإثر وفاة بلانشيه والدته لويس التاسع , غادر عكا عائداً إلى فرنسا سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م بعد أن أخفق في السيطرة على بيت المقدس , ولكن للملك الفرنسي فضل كبير في تقوية الكيان الصليبي بل وكان سبباً في إطالة عمر ذلك الكيان أمام ازدياد قوة المسلمين .

- عاد لويس التاسع إلى فرنسا , وكان أمله كبير بمحافضة الصليبيين على المكاسب التي حققها خلال مدة إقامته في الشرق , ولكن رحيله ترك فراغاً كبيراً , وقد جرّت المصالح الاقتصادية الصليبيين إلى حروبٍ مدمرةٍ عُرفت بـ (حرب القديس سابا) أدت لتخريب أسوار عكا , وراح الكثير من الصليبيين ضحية تلك الحرب التي سببت للصليبيين جرحاً عميقاً من الصعب اندماله , ولم يستغل المسلمون ما أصاب أعدائهم حيث تجدد النزاع بين الأيوبيين والمماليك , فتدخلت الخلافة العباسية من جديد سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م وأنهت ذلك النزاع , وقد أدرك الأيوبيون أن المماليك أصبحوا قوة لا يستهان بها ولا يمكن تجاهلها , فتوجب عليهم الاعتراف بها شاؤوا أم أبوا , وأيقنوا مؤخراً بأن مصر من المستحيل أن تعود لدائرة السيادة الأيوبية .

- اهتم لويس التاسع بالأوضاع الداخلية لفرنسا , فنشر فيها العدل و سادها الأمان و الاطمئنان كما امتد النفوذ الفرنسي على الصقليتين بتشجيع من البابا الكسندر الرابع الذي كان ناقماً على أسرة هوهنشتاوفن الألمانية , وقد أعدَّ شارل أنجو جيشاً , واخترق إيطاليا , واستولى على الصقليتين سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م و قتل مانفريد هوهنشتاوفن بن فردريك الثاني , وأعدم كونرادين حفيد فردريك الثاني , و أضحى شارل سيّدا للصقليتين بلا منازع .

- بقي العمل الصليبي يراود خيال لويس التاسع وقد شجعه أخوه شارل آنجو على غزو تونس متذرعاً بأنها هي المفتاح لبيت المقدس ، و لكن هذا الطريق طويلٌ جداً لا يؤكد سوى أن لويس التاسع و أخاه استهدفا للسيطرة على ثروات أفريقيا ، وتونس هي المفتاح لثروات أفريقيا بأكملها ، وقد استغل لويس التاسع الاضطرابات الداخلية التي عاشتها تونس آنذاك ، و الأهم من ذلك حالة الرفاهية و الغنى التي عاشتها تونس آنذاك .

- ما إن أعلن المستنصر الجهاد حتى قدمت إليه المساعدات و النجدة من بلاد العرب المسلمين كافة ، وذلك من مصر حتى الأندلس ، فتجمعت لديه أعداد هائلة من المتطوعين ، ولم ينقصها سوى قائداً ذكياً يُحسن توجيهها الوجهة الصحيحة ، وقد قرر المستنصر السماح للصليبيين النزول على الشاطئ ، ثم محاصرتهم والقضاء عليهم لأنهم استولوا على قرطاجة وتحصنوا بداخلها ، وكان من الأفضل لو هاجم الفرنسيين في عقر دارهم ، وجعلهم عبرة لكل قوى الظلم و العدوان التي تفكر في الاعتداء على المسلمين ، وعندما وقف المسلمون والصليبيون وجها لوجه ، ولم يستطع أحدهما التغلب على الآخر أتت عوامل الطبيعة مساعدة للمسلمين كالحرارة الشديدة التي لم يعتد عليها الجنود الفرنسيون فضلاً عن الرطوبة ، ووجود الحشرات ، مما أدى إلى إصابة الجيش الصليبي بالوباء في قرطاجة .

- لقد ظنَّ لويس التاسع أن تونس هي مفتاح بيت المقدس ، و لكنه أخطأ الهدف لأنها غدت مقبرةً للويس التاسع وجنود حملته الصليبية ، ووقع في شر أعماله حيث قادت أطماعه إلى حتفه ، فلم يُحول تونس إلى مستعمرة فرنسية كما أنه لم يسيطر على بيت المقدس ، ومات على روابي تونس ، وبقي قبره رمزاً للظلم والعدوان ، وإثر ذلك توصل المستنصر مع الصليبيين لعقد صلحٍ جائرٍ فكافأ الصليبيين على عدوانهم على تونس ودفع لهم تكاليف حملتهم ، وضرائب سنوية مدى حياته ، وبذلك حمل أبناء مملكته غرامة مالية باهظة وكل هذا يؤكد أنه ليس رجلاً للحرب ولا حتى للسلم .

- غادرت الحملة الصليبية تونس وعادت إلى فرنسا ولكن ادوآز بن هنري الثالث ملك إنكلترا (إنجلترا) قد أقسم على السيطرة على بيت المقدس ، فنقل مسرح العمليات العسكرية من تونس إلى

بلاد الشام , وسار على خطا حليفه لويس التاسع في إيجاد تحالف صليبي - مغولي , ولكن إثر اتحاد بلاد الشام ومصر تحت سيادة بيبرس أصيب ادوارٌ بخيبة أمل بل عاد إلى إنكلترا يداوي جراحه إثر تعرضه لمحاولة اغتيال .

ما أكثر العبر وما أحوج الأمة العربية والإسلامية إلى الاعتبار , فتاريخها مليءٌ بالدروس والعبر , نعم لقد هُزمَ لويس التاسع وكانت مصر وبلاد الشام وتونس مقبرةً له ولجنوده , وبالرغم من ذلك لم تنته الأطماع الفرنسية وما كان يحلم به لويس التاسع حققه أحفاده , فاستولى نابليون بونابرت على مصر , كما سيطر الجنرال غورو على بلاد الشام , وغدا المغرب العربي تحت السيادة الفرنسية , ولكن أبناء العروبة والإسلام لم يهنوا ولم يحزنوا فهبوا بوجه الغزاة , ودحروا أعداءهم , واستعادوا حريتهم واستقلالهم , وفي الحقيقة لم تعد هناك أطماع فرنسية فحسب بل أصبحت مؤامرة أوربية - أمريكية - صهيونية , وقد أعلنوا الحرب جميعاً على العرب والمسلمين واستهدفوا وطننا العربي برمته , ففي الأمس اتخذ لويس التاسع من الدين ستاراً لتحقيق أطماعه أما اليوم فقد هاجم الاستعمار الحديث وطننا العربي تحت ستار الإرهاب حيناً , ونشر الديمقراطية أحياناً , وبذلك افترسوا بلداننا العربية واحدةً تلو الأخرى , فهم استفادوا من دروس التاريخ وتجارب لويس التاسع في إحاكة المؤامرات وتفرقة الصفوف , وهنا يتوجب علينا أن نهمل من دروس التاريخ وعبره , وننفذ عنا غبار السنين , ونعي المؤامرات التي تُحاك ضد أمتنا , لأنه لن يبنى وطننا سوى سواعد أبنائه , فقد تغيب شمس العروبة خلف الغيوم , ولكن ستبقى هذه الأمة شامخةً عزيزةً أبيةً بإذن الله رغم كل المؤامرات والتحديات .

– الملاحق .

١ – المراسلات والأشعار

٢ – الخرائط

٣ – الصور

٤ – قائمة المصادر

– المصادر الخطية

– المصادر المطبوعة

٥ – قائمة المراجع

– المراجع العربية والمعربة

- المراجع باللغة الأجنبية
- المراجع الإنكليزية .
- المراجع الفرنسية .
- قائمة المواقع الالكترونية

رسالة تهديد من لويس التاسع إلى الصالح نجم الدين أيوب :

" أما بعد : فإنه لم يخف عنك أي أمين الأمة العيسوية كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية , وأنك غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا , ونحن نسوقهم سوق البقر , ونقتل منهم الرجال , ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار , وقد أبديت لك ما فيه الكفاية , وبذلت لك النصح إلى النهاية , فلو حلفت لي بكل الإيمان , ودخلت على القسس والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك , فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي , وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ , فيدك العليا ممتدة إليّ , وقد عرفتكم وحذرتكم من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل , وعددهم كعدد الحصى , وهم مرسلون إليك بأسيايف القضا " .

رد الصالح نجم الدين أيوب على رسالة لويس التاسع :

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه وسلم أجمعين أما بعد : فإنه قد وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف , وما قتل منا قرن إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه , فلو رأيت عيناك - أيها المغرور ! - حد السيوف وعظم حروبنا , وفتحنا منكم الحصون والسواحل وأخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم , ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك , فهنالك تسيء بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون , فإذا قرأت كتابي هذا , فكن فيه على أول سورة النحل : أتى أمر الله فلا تستعجلوه , وكن على آخر سورة (ص) : ولتعلمن نبأه بعد حين , ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو

أصدق القائلين : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين , وإلى قول الحكماء : إن الباغي له مصرع , وبغيك يصرك وإلى البلاء يقلبك والسلام " (١) .

(١) المقرئ : السلوك , ج ١ , ص ٣٣٤ - ٣٣٥

إثر هزيمة لويس التاسع في مصر قال القاضي جمال الدين بن مطروح مفتخراً بذلك النصر :

قل للفرنسيس إذا جئتُه

مقال صدقٍ عن قؤولٍ صحيح

آجرك الله على ما جرى

من قتل عباد يسوع المسيح

أتيت مصرًا تبتغي مُلكها

تحسب أن الزمر ياطبل ريح

فساقت الحين إلى أدهم

ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم

بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفاً لا يرى منهم

إلا قتيلاً أو أسيراً جريح

وفقك الله لأمثالها

لعل عيسى منكم يستريح

وقل لهم إن أضمروا عودةً

لأخذ ثأرٍ أو لقصدٍ صحيح

دارُ ابن لقمان على حالها

والقيدُ باقي والطواشي صبيح(١)

(١) ابن واصل : ج٦, ص١٢٥-١٢٦؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧, ص٣٤٣.

أنشد أحدمالك الصالح نجم الدين أيوب على ذمة الراوي العماد ابن درباس يرثي توران شاه بقوله:

قتلوه شر قتله

صار للعالم مثله

لم يراعوا فيه إلا

ولا من كان قبله

ستراهم عن قريب

لأقل الناس أكلة(١)

(١) العيني : الموسوعة , ج ٦٠ , ص ٦٩٩ .

خرائط عددها ١٠

صور ۸

قائمة المصادر الخطية

- ١- الفيومي , عبد البر : نثر الجمان , رقم المخطوط ٦١٩ , مكتبة الأسد , دمشق .
- ٢- السكتواري , علي دده : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر , رقم المخطوط ١٤٥٣٨ , مكتبة الأسد , دمشق .
- ٣- مجهول : منظومة نونية في شرح علم الفروسية , رقم المخطوط ٣٤٦٥٩ , مكتبة الأسد , دمشق .

قائمة المصادر المطبوعة

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- ابن الأثير ,علي : الكامل في التاريخ , تح : عمر تدمري , دار الكتاب العربي , ط ١ , بيروت , ١٤١٧هـ/١٩٩٧م , ج ١٠ .
- ٣- الأرمي , سمباط : التاريخ المعزو لسمباط الأرمي , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دمشق , ١٤١٩هـ/١٩٩٩م , ج ٣٥ .
- ٤- ابن أرنبغا الزردكاش : الأنيق في المناجيق , تح : إحسان هندي , منشورات جامعة حلب , ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- ٥- ابن إياس , محمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور , تح: محمد زيادة , الهيئة المصرية للكتاب, القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م , ق ١ ج ١ .
- ٦- باريس , متى : التاريخ الكبير , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دار الفكر , دمشق , ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م , ج ٤٦ , ج ٤٧ , ج ٤٨ , ج ٤٩ , ج ٥٠ .
- ٧- البشاري : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم , دار إحياء التراث , بيروت , ١٤٠٨ هـ /١٩٨٧م .
- ٨- ابن بطوطة , محمد : رحلة ابن بطوطة , دار الرسالة , ط ١ , دمشق , ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .
- ٩- البغدادى , كمال الدين : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع , تح: علي

البجاوي, دار المعرفة , ط ١ , بيروت , ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م,

ج ١ , ج ٣ .

١٠- تشارتر , فولتشراف : تاريخ الحملة إلى القدس , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل

زكار , دار الفكر , دمشق , ١٤١٣هـ/١٩٩٣م, ج ٦ .

١١- ابن تغري بردي, يوسف : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي , تح : أحمد نجاتي ,

دار الكتب المصرية , القاهرة , ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م , ج ١ .

١٢- _____ الدليل الشافي والمنهل الصافي , تح : فهد شلتون , مكتبة

الخانجي , القاهرة , ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م .

١٣- _____ مورد اللطافة فيمن ولي السلطة والخلافة , د.م , د.ت .

١٤- _____ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , تح : محمد شمس

الدين , دار الكتب العلمية , ط ١ , بيروت ,

١٤١٣هـ/١٩٩٢م , ج ٦ - ج ٧ .

١٥- ابن جبير , محمد : رحلة ابن جبير , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دمشق ,

١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج ١٤ .

١٦- ابن الجزري , محمد : المختار من تاريخ ابن الجزري , تح : خضير المنشداوي , دار الكتاب

العربي , ط ١ , بيروت , ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

١٧- جوانفيل , جين : حياة لويس , الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية , تح وتر:

سهيل زكار , دار الفكر , دمشق , ١٤٢٩هـ/١٩٩٩م , ج ٣٥ .

١٨- سبط ابن الجوزي , يوسف : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان , دائرة المعارف العثمانية ,

ط ١ , حيدر أباد الدكن - الهند , ١٣٧١هـ/١٩٥٢م , ق ٢ ج ٨ .

١٩- أبو شامة , عبد الرحمن : الذيل على الروضتين , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل

زكار , دار الفكر , دمشق , ج ٢٠ .

٢٠- جوش , نصر : مناقب المولى سنان راشد الدين شيخ الجبل الثالث , تح : مصطفى غالب ,

دار اليقظة , بيروت , د.ت .

٢١- الجويني , عطا ملك : تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي) , تر : محمد التونجي , ط ١ , دار

الملاح , ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م , مج ١ - مج ٢ .

- ٢٢- حاجي خليفة , مصطفى : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون , الدار الفيصلية , مكة المكرمة , د.ت , ج ١ .
- ٢٣- الحريزي , أحمد : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين عن ديار المسلمين , تح : سهيل زكار , دار الملاح , دمشق , ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .
- ٢٤- _____ منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان , تح : عبده خليفه , دار عشتار , ط ١, د.م , د.ت .
- ٢٥- الحموي , ياقوت: المشترك وضعاً والمفترق صقلاً , دار عالم الكتب , ط ١, بيروت , ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ٢٦- _____ معجم البلدان تح : فريد الجندي , دار الكتب العلمية , بيروت, د.ت, ج ١ , ج ٤ .
- ٢٧- الحميري , محمد : الروض المعطار في خبر الأقطار , تح : إحسان عباس , دار السراج , ط ١, بيروت, ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٢٨- الحنبلي , أحمد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب , منشورات مكتبة القدسي , القاهرة, ١٣٥١هـ / ١٩٢٣م , ج ٥ , ج ٧ .
- ٢٩- _____ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب , تح : ناظم رشيد , دار الحرية بغداد , ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م .
- ٣٠- الحنبلي , مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل , دار الجليل , بيروت , ١٣٩٧هـ / ١٩٧٣م , ج ٢ .
- ٣١- ابن حوقل : صورة الأرض , دار الحياة , بيروت , ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م .
- ٣٢- ابن خلدون , عبد الرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر , مراجعة : سهيل زكار, ضبط الحواشي: خليل شحادة , دار الفكر , ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م , ج ٥ - ج ٦ .
- ٣٣- الخياط , علم الدين سنجر : المختصر الكامل في التاريخ وتكملته , تح : عمر تدمري , المكتبة العصرية , صيدا وبيروت, ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- ٣٤- الدبس , يوسف : تاريخ سورية الديني والدنيوي , تح: مارون رعد , دار نظير عبود , د.م,

د.ت ، ج ٦ .

٣٥- ابن دقماق ، إبراهيم : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، تح : سمير طيارة ، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا وبيروت ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ م .

٣٦- _____ النفحة المسكية في الدولة التركية ، تح : عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا وبيروت ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ م .

٣٧- _____ الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تح : سعيد عاشور ، دار اقرأ ، السعودية ، د.ت .

٣٨- ابن أبي الدم ، إبراهيم : التاريخ المظفري ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج ٢١ .

٣٩- الدواداري ، عبد الله : كنز الدرر و جامع الغرر(الدر المطلوب في أخبار بني أيوب) ، تح: سعيد عاشور، القاهرة ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م ، ج ٧ .

٤٠- دوبا ، بيير : استرداد الأرض المقدسة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ج ٣٦ .

٤١- دي نوفارا ، فيليب: حروب فردريك الثاني ضد الإيلينيين في سورية وقبرص ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار، دمشق ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج ٣٤ .

٤٢- دي كانسي ، جوزيف وابن هنري الثالث آنجو ، ادوار : رسائل صليبية من الأرض المقدسة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ج ٣٥ .

٤٣- الدياربكري ، حسين : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، دار شعبان ، بيروت ، د.ت ، ج ٢ .

٤٤- الدويهي ، اسطفانوس : تاريخ الأزمنة ١٠٩٥-١٦٩٩م، تح: فردينان اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٣٧١هـ/١٩٥١م ، ج ٢ .

٤٥- _____ تاريخ الطائفة المارونية ، تح : رشيد الشرتوني ، المطبعة الكاثوليكية، ١٢٦١هـ/١٨٩٠م .

٤٦- ابن أبي دينار ، محمد : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس ، الدار التونسية ، ط١ ، ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، ص ١٢٨ .

- ٤٧- الذهبي , محمد : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام , تح : عمر تدمري , دار الكتاب العربي , ط ١ , بيروت , ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م , مج ٢٠ .
- ٤٨- _____ العبر في خبر من غير , تح : محمد السعيد زغلول , دار الكتب العلمية , بيروت , ج ٣ , د.ت .
- ٤٩- _____ الأمصار ذوات الآثار , تح : قاسم سعد , دار البشائر الإسلامية , بيروت , ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ٥٠- الرشيدى , محمد : تفريج الكروب في تدبير الحروب , تح : عارف عبد الغني , دار كنان , دمشق , ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .
- ٥١- الزبيدي , مرتضى : ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب , تح : صلاح الدين المنجد , دمشق , ١٣١٩هـ / ١٩٧١م .
- ٥٢- ابن أبي الزرع , علي : الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس , د.م , د.ت .
- ٥٣- الزركشي , محمد : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية , الدار التونسية , ط ١ , ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م .
- ٥٤- سانوتو , مارينو : كتاب الأسرار , الموسوعة الشامية , تح وتر : سهيل زكار , دمشق , ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م , ج ٣٦ .
- ٥٥- ابن سباط , حمزة : صدق الأخبار , تح : عمر تدمري , ط ١ , دار جروس , بروس , طرابلس , ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م , ج ١ .
- ٥٦- السخاوي , محمد : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع , دار الحياة , بيروت , د.ت , ج ١٠ .
- ٥٧- السراج , محمد : الحلل السندسية في الأخبار التونسية , تح : محمد الهيلة , الدار التونسية , ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م , مج ١ - مج ٢ .
- ٥٨- سرهنك , إسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار , المطبعة الأميرية , ط ١ , بولاق , ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م , ج ١ - ج ٢ .
- ٥٩- السوري , ميخائيل : روايات ميخائيل السوري الكبير , الموسوعة الشامية , تح وتر : - ٣٢٠ -

- سهيل زكار , دار الفكر , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج ٥ .
- ٦٠- السيوطي , جلال الدين : تاريخ الخلفاء , دار ابن حزم , بيروت ,
١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- ٦١- _____ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة , دار إحياء الكتب العربية ,
ط ١ , د.م , ١٣٧٨هـ/١٩٦٨م , ج ٢ .
- ٦٢- _____ بغية الوعاة : تح : علي عمر , دار الخانجي , ط ١ , القاهرة ,
١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م , ج ١ .
- ٦٣- ابن شاکر , محمد : فوات الوفيات , تح : إحسان عباس , دار صادر , بيروت , د.ت , ج ٢ .
- ٦٤- أبو شامة , عبد الرحمن : الذيل على الروضتين , الموسوعة الشامية , تح وتر : سهيل زكار ,
دار الفكر , دمشق , ج ٢٠ .
- ٦٥- ابن الشحنة , محمد : الدر المنتخب في مملكة حلب , دار عالم التراث , دمشق , ١٤٠٤هـ
/١٩٨٤م .
- ٦٦- ابن شداد , عز الدين محمد : تاريخ الملك الظاهر , دار فرانز شتاينر , فيسبادن ,
١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- ٦٧- _____ الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة , تح : سامي الدهان ,
المطبعة الكاثوليكية , بيروت , ١٣٨١هـ/١٩٦٣م .
- ٦٨- الشدياق , طنوس : أخبار الأعيان في جبل لبنان , تح : مارون رعد , دار نظير عبود ,
لبنان , ١٤١٥هـ/١٩٩٥م , ج ١ - ج ٢ .
- ٦٩- ابن الشماع , محمد : الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية , تح : الظاهر
المعموري , الدار العربية للكتاب , طرابلس الغرب , ١٤٠٥هـ
/١٩٨٤م .
- ٧٠- الصديقي , رزق الله : تاريخ دول الإسلام , الدار العالمية , مصر , ١٣٢هـ/١٩٠٧م , ج ٢ .
- ٧١- الصفدي , خليل : تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب , تح :
إحسان خلوصي وزهير حميدان , دار البشائر , ط ١ , دمشق ,
١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

- ٧٢- الوافي بالوفيات ، تح : محمد محمود وإبراهيم سليمان ، دار فرانز شتاينر ، ط ٢ ، فيسبادن ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ج ٥ ، ج ٩ ، ج ١٧ ، ج ١٨ .
- ٧٣- نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك ، تح : عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، صيدا وبيروت ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- ٧٤- أعيان العصر و أعوان النصر ، تح : عدد من المؤرخين ، دار الفكر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، ج ١ - ج ٢ .
- ٧٥- ابن أبي الضياف ، أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تح : وزارة الشؤون الثقافية بتونس ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .
- ٧٦- الطرسوسي ، مرضي: موسوعة الأسلحة ، دار صادر ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .
- ٧٧- ابن طولون ، محمد : إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تح : عبد العظيم خطاب ، مطبعة عين شمس ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .
- ٧٨- العاملي ، زينب : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، المطبعة الأميرية ، ط ١ ، بولاق ، ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م .
- ٧٩- ابن العبري ، غريغوروس : تاريخ مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م .
- ٨٠- تاريخ الزمان ، تر : إسحق أرملة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .
- ٨١- ابن عبد الظاهر ، محيي الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تح : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٦م .
- ٨٢- العسقلاني ، أحمد : إنباء الغمر بأنباء العمر ، دار الكتب ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ج ٨ .
- ٨٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تح : محمد جاد الحق ، ط ٢ ، دار الكتب ، عابدين ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م ، ج ٢ .

- ٨٤- _____ ذيل الدرر الكامنة ، تح : عدنان درويش ، القاهرة ،
١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- ٨٥- ابن العميد ، جرجس : ، دار الثقافة الدينية ، بور سعيد ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .
- ٨٦- العيني ، بدر الدين : الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ،
١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج ٦٠ .
- ٨٧- الغزي ، كامل : نهر الذهب في تاريخ حلب ، تح: شوقي شعث و محمود فاخوري ، دار
القلم ، حلب ، ١٤١٣/١٩٩٣م ، ج ٣ .
- ٨٨- فابري ، فيلكس : جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته ، الموسوعة
الشامية، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ،
١٤٢٠هـ/٢٠٠٣م ، ج ٣٨ .
- ٨٩- أبو الفداء ، إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، تح: محمود ديوب ، دار الكتب العلمية ،
ط١، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ٢ .
- ٩٠- _____ تقويم البلدان ، تصحيح : رينود وماك ديسلان ، دار الطباعة
السلطانية ، باريس ، ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م .
- ٩١- ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، تح: قسطنطين زريق ، منشورات الجامعة الأمريكية ،
بيروت ، ١٣٦٢هـ/١٩٤٢م ، ج ٧ .
- ٩٢- ابن فضل الله العمري ، أحمد : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : أحمد الشاذلي ،
دار المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج ٣ ، ج ٤ ، ج ٢٧ .
- ٩٣- ابن الفوطي ، عبد الرزاق : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، دار الفكر،
بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- ٩٤- فيلهاردين ، جوفري : الاستيلاء على القسطنطينية ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل
زكار ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج ١٠ .
- ٩٥- القدسي، محمد الدين : دول الإسلام الشريفة البهية ، تح: صبحي ليب وأولريش هارمان ،
دار الريحاني ، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
- ٩٦- القرماني ، أحمد : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، تح : أحمد حطييط وفهمي سعيد ،

- دار عالم الكتب ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، مج ٢ .
- ٩٧- القزويني ، زكريا : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٩٨- القلقشندي ، أحمد : صبح الأعشى ، تح : محمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ج ٤ ، ٥ .
- ٩٩- _____ مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، تح : عبد الستار فراج ، الكويت ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ج ٢ .
- ١٠٠- القيسراني ، إبراهيم : النور اللائح والدر الصادح ، تح : عمر تدمري ، دار الإرشاد ، ط ١ ، طرابلس ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ١٠١- ابن كثير ، إسماعيل : البداية والنهاية ، تح : عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ، ط ٢ ، الرياض ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، ج ١٧ .
- ١٠٢- كومنين ، آنا كومينا : الالكسياد ، الموسوعة الشامية ، تح وتر : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٦ .
- ١٠٣- ماب ، وولتر : ما جاء عند وولتر ماب عن الحروب الصليبية ، الموسوعة الشامية ، تح وتر : سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، ج ٣٥ .
- ١٠٤- مقديش ، محمود : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تح : علي زواوي ومحمود محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، مج ١ .
- ١٠٥- المقرئ ، أحمد : السلوك ، تح : محمد زيادة ، طباعة لجنة التأليف والنشر القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، ج ١ .
- ١٠٦- _____ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م ، ج ١ .
- ١٠٧- _____ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أحمد سيد ، دار الفرقان ، لندن ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م ، مج ١ ، مج ٣ ، مج ٤ .
- ١٠٨- _____ النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود ، تح : محمد بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، ط ٥ ، النجف ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ م .

- ١٠٩- _____ درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة , تح: عدنان درويش و محمد المصري , دمشق , ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م , ج ٢ .
- ١١٠- **المكي , عبد الملك :** سمط النجوم العوالي , المكتبة السلفية , القاهرة , د.ت .
- ١١١- **الملطي , عبد الباسط :** نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين , تح : محمد كمال الدين علي , دار الثقافة الدينية , ط ١ , القاهرة , ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- ١١٢- **المنصوري , بيبس :** زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة , تح : دونالد ريتشاردز , بيروت , ط ١ , دار الشركة المتحدة , ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- ١١٣- _____ **مختار الأخبار المعروف بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ , تح : عبد الحميد حميدان , الدار المصرية اللبنانية , القاهرة , ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .**
- ١١٤- _____ **التحفة المملوكية في الدولة التركية , تح : عبد الحميد حميدان , الدار المصرية اللبنانية , ط ١ , القاهرة , ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .**
- ١١٥- **مجهول :** يوميات صاحب أعمال الفرنجة , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دار الفكر , دمشق , ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م , ج ٦ .
- ١١٦- **مجهول :** مجموع هافنيسيس : الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دمشق , ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م , ج ١٠ .
- ١١٧- **مجهول :** ذيل روثلين , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دمشق , ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م , ج ٥٨ .
- ١١٨- **مجهول :** تاريخ هرقل , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دمشق , ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م , ج ٥٨ .
- ١١٩- **مجهول :** ذيل تاريخ وليم الصوري , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , دار الفكر , دمشق , ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م , ج ٨ .
- ١٢٠- **مونرود , مكسيموس:** الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب (تاريخ الحروب الصليبية), تح: مكسيموس مظلوم , طباعة دير الرهبان الفرنسييكان , أورشليم , ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م .

- ١٢١- الناصري , أحمد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى , تح : جعفر الناصري
ومحمد الناصري , الدار البيضاء , ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م .
- ١٢٢- النسوي , محمد : سيرة جلال الدين منكبرتي , تح: حافظ حمدي, دار الفكر, مصر ,
١٣٧٣هـ/١٩٥٣م .
- ١٢٣- النويري , أحمد : نهاية الأرب في فنون الأدب ,تح:محمد الرئيس ,دار الهيئة المصرية
للكتاب , ١٤١٢هـ/١٩٩٢م, ج٢٩, ج٣٠.
- ١٢٤- الهمذاني , رشيد الدين : جامع التواريخ , تر : محمد نشأت ومحمد هندراوي وفؤاد
الصياد , دار إحياء الكتب العربية , مصر , د.ت , مج ٢ ج ١ .
- ١٢٥- ابن واصل , محمد: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب , المكتبة العصرية , بيروت ,
د.ت , ج ٦.
- ١٢٦- ابن الوردي , عمر) : تنمة المختصر (تاريخ ابن الوردي) , تح: أحمد البدرائي, دار
المعرفة الجامعية, ط ١ , بيروت, ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م , ج ٢ .
- ١٢٧- اليافعي , عبدالله :مرآة الجنان وعبرة اليقظان ,تح:خليل المنصور , دار الكتب العلمية,
ط ١ , بيروت , ١٤١٧هـ/١٩٩٧م, ج ٤ .
- ١٢٨- اليماني , يحيى : غربال الزمان في وفيات الأعيان , تح : محمد العمر , دار الخير ,
دمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- ١٢٩- اليونيني , موسى : ذيل مرآة الزمان , دار الكتاب الإسلامي , ط ٢ , القاهرة ,
١٤١٣هـ/١٩٩٢م , مج ١ .

قائمة المراجع العربية والمعرّبة

- ١ - أبو بكر , نضال : أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية وعلاقتها مع الصليبيين , رسالة ماجستير غير منشورة , دمشق , ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
- ٢ - أبو دياك , صالح : النظام المالي عند الحفصيين , مجلة دراسات تاريخية , العددان ٢١-٢٢ , دمشق , ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م , ص ٩٧-١٠٠ .
- ٣ - إديوري , بيترو: قبرص والحروب الصليبية , دار الملتقى , ليماسول , ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
- ٤ - الافرنسي , لومند : تاريخ الكنيسة , تر : يوسف البستاني , مطبعة أبناء اليسوعيين , بيروت ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م .
- ٥ - اميليانيدس , أشيل : تاريخ قبرص , تر : يعقوب الطليحي ويني كيس , مطبعة التجارة , الإسكندرية , ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .
- ٦ - باركر ,ارنست :الحروب الصليبية , تر : السيد الباز العريني ,دار النهضة العربية , ط ٢ , بيروت , د.د .
- ٧ - بدور , كمال : مملكة حلب الأيوبية ٥٨٩-٦٥٨هـ / ١١٩٣-١٢٦٠م , رسالة ماجستير غير منشورة , جامعة دمشق , ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

- ٨ - براور , يوشع : الاستيطان الصليبي في فلسطين , تر : عبد الحافظ البنا , دار عين , ط ١ , مصر , ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
- ٩ - _____ عالم الصليبيين , تر : قاسم قاسم ومحمد حسن , دار عين , ط ١ , مصر , ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- ١٠ - بردج , انتوني : تاريخ الحروب الصليبية , تر : أحمد سبانو ونبيل الجيرودي , دار قتيبة , دمشق , ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .
- ١١ - برنشفيك , روبر : تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي , تر : جمادي الساحلي , دار الغرب الإسلامي , بيروت , ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م , ج ١ .
- ١٢ - البستاني , بطرس : دائرة المعارف , دار المعرفة , بيروت د.م , د . ت , مج ١ .
- ١٣ - بيشوب , موريس : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى , تر : علي علي , طباعة المجلس الأعلى للثقافة , ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- ١٤ - توفيق , عمر : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين , دار شباب الجامعة , الإسكندرية , ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- ١٥ - جوني , وفاء : دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين , أطروحة دكتوراه , جامعة دمشق , ١٤١٢هـ / ١٩٩٠م .
- ١٦ - حاطوم , نور الدين : تاريخ العصر الوسيط في أوربة , دار الفكر , دمشق , ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م , ج ٢ , ص ٧٨-٨٠ ؛
- ١٧ - حبشي , حسن : الشرق العربي بين شقي رحي , دار الفكر , د.م , د.ت .
- ١٨ - حتي , فيليب : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين , تر : كمال اليازجي , دار الثقافة , بيروت , ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م , ج ٢ .
- ١٩ - حسين عبد الوهاب , حسن : خلاصة تاريخ تونس , الدار التونسية , ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- ٢٠ - _____ تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي , دار المعرفة الجامعية ,

الإسكندرية ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

٢١ - تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ، دار المعرفة

الجامعية ، الأزارطة ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م .

٢٢ - حسين ، ممدوح : الحروب الصليبية في شمال أفريقيا ٦٦٨-٧٩٢هـ/ ١٢٧٠-١٢٩٠م ، دار

عمار ، ط١ ، عمان ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ، (كتاب إلكتروني) .

٢٣ - الحايك ، منذر : العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية ، دار الأوائل ، ط١ ،

دمشق ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م ، ج١ .

٢٤ - حلاق ، حسان: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الدار الجامعية ،

١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٢٥ - حومد ، أسعد : تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م ، ج٢ .

٢٦ - الخوري ، سليم : تاريخ فرنسا ، مطبعة العرفان، صيدا ، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م .

٢٧ - داوود، مها : دور قبرص في أحداث الحروب الصليبية من أواخر القرن ٦هـ/ ١٢م حتى أواخر

القرن ٨هـ/ ١٤م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق ،

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م .

٢٨ - ديورانت ، ول : قصة الحضارة ، تر: محمد بدران ، بيروت وتونس ، ج١٥ .

٢٩ - سميل ، ر . سي: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ، تر: محمد الجلاد، دار طلاس،

دمشق ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٣٠ - رستم ، أسد : الروم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف ، ط١ ، بيروت، ١٣٧٦/ ١٩٥٦م ،

ج٢ .

٣١ - رفعت ، محمد وحسونة ، محمد : معالم تاريخ العصور الوسطى ، مطبعة المساهمة المصرية ،

١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م .

٣٢ - رنسيما ، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية ، تر : السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، ط٢ ،

بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م ، ج٣ .

٣٣ - ريلي سميث، جونathan: الاستتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠-١٣١٠م،

تر : صبحي الجابي ، دار طلاس ، ط١ ، دمشق ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م .

٣٤ - زابوروف, ميخائيل : الصليبيون في الشرق , تر : إلياس شاهين , دار التقدم , موسكو , ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

٣٥ - زكار , سهيل : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية , الموسوعة الشامية , دار الفكر , دمشق , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج ٣ .

٣٦ - _____ تاريخ المورة , الموسوعة الشامية , دمشق , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م , ج ١٠ .

٣٧ - _____ المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف , دار الكتاب العربي , ط ١ , دمشق , ١٤١٨هـ/١٩٩٧م , ج ١ .

٣٨ - زكار , سهيل وجوني , وفاء , وإسماعيل , اكتمال , : حروب الفرنجة (الصليبية) , منشورات جامعة دمشق , ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

٣٩ - زيادة , محمد : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمة المنصورة , مطبوعات المجلس الأعلى للرعاية والآداب , القاهرة , ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

٤٠ - زيتون , عادل : أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقيّة , مجلة دراسات تاريخية , العدد ٢ , ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م , ص ١٣٥-١٤٥ .

٤١ - _____ تاريخ العصور الوسطى الأوربية , مطبعة الروضة , دمشق , ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٤٢ - الزين , سميح : تاريخ طرابلس , ط ١ , دار الأندلس , ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

٤٣ - سالم , عبد العزيز : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي , دار المعارف , مصر , ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

٤٤ - سبيريداكيس , د : موجز تاريخ قبرص , دار انترسبيس , قبرص , د.ت .

٤٥ - سوريال عطية , عزيز : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب , تر : فيليب سيف , دار الثقافة , ط ٢ , القاهرة , د.ت .

٤٦ - الصغير , أجفان : القلاع في فترة الحروب الصليبية , رسالة ماجستير غير منشورة , جامعة دمشق , ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

٤٧ - طقوش , محمد سهيل : تاريخ الأيوبيين , دار النفائس , ط ١ , بيروت , ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٤٨ - _____ تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام , دار النفائس , ط ١ , بيروت ,

١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص ٣٩ .

٤٩ - طلاس , مصطفى والجلاد , محمد : قلعة الحصن , دار طلاس , ط ١ , دمشق ,

١٤١١هـ/١٩٩٠م , ج ١ .

٥٠ - عاشور , سعيد : الحركة الصليبية , مكتبة الأنجلو المصرية , ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م , ج ٢ .

٥١ - _____ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك , دار النهضة , بيروت ,

١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

٥٢ - _____ قبرص والحروب الصليبية , دار الهيئة المصرية للكتاب , ط ٢ ,

١٤٢٣هـ/٢٠٠١م ,

٥٣ - عامر , سامية : الصليبيون في شمال أفريقيا (حملة لويس التاسع على تونس) دار عين ,

مصر , ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

٥٤ - العبادي , أحمد : قيام دولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام , دار النهضة العربية , بيروت ,

١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

٥٥ - عدد من المؤلفين : الموسوعة العربية العالمية , تر : عشرات المختصين , مؤسسة أعمال

المؤسسة , الرياض , ١٤١٦هـ/١٩٩٦م , ج ٢٣ .

٥٦ - العربي , السيد الباز : المغول , دار النهضة العربية , بيروت , ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

٥٧ - عطية , حسين : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون , ٥٦٧-٦٦٦هـ/١١٧١-١٢٦٨م , دار

المعرفة الجامعية , ط ١ , الأزارطة , ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

٥٨ - الغامدي , عبد العزيز : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين , دار إقرأ , مكة المكرمة ,

د.ت .

٥٩ - غروسية , رينه : الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب , تر : أحمد إيش , دار قتيبة ,

ط ١ , دمشق وبيروت , ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

٦٠ - غنيم , اسمت : الحملة الصليبية الرابعة , دار المجمع العلمي , جدة , ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٦١ - الفاسي , الحسن : وصف أفريقيا , ترجمه عن الفرنسية , محمد حجي ومحمد الأخضر , دار

الغرب الإسلامي , ط ٢ , بيروت , ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

٦٢ - فشر , هـ . أ . ل : تاريخ أوروبا العصور الوسطى , تر : السيد الباز العربي ومحمد زيادة

وإبراهيم العدوي , دار المعارف , ط ٣ , مصر , ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

- ٦٣ - فينر, فولفغانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية , تر : محمد الجلاّد , دار الفكر , ط ٢ , دمشق , ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- ٦٤ - قاسم , قاسم : ماهية الحروب الصليبية , مجلة عالم المعرفة , العدد ١٤٩ , مطابع الصفاه , الكويت , ١٤١٠هـ/١٩٩٠م , ١٥٨ .
- ٦٥ - كاهن , كلود : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية , تر : أحمد الشيخ , دار سينا , ط ١ , القاهرة , ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .
- ٦٦ - قجة , محمد : معركة المنصورة , دار الحوار , اللاذقية , ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .
- ٦٧ - كحالة , عمر : معجم المؤلفين , دار الترقّي , دمشق , ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م , ج ٧ .
- ٦٨ - كريستوفر, مارشال : فن الحرب في الشرق اللاتيني , الموسوعة الشامية , تح وتر: سهيل زكار , ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م , ج ٨٣ .
- ٦٩ - الكناني , مصطفى : حملة لويس التاسع الصليبية على تونس , دار المعارف , الإسكندرية , د.ت .
- ٧٠ - كوكتون , ج : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة , تر : جوزيف يوسف , دار المعارف , ط ١ , الإسكندرية , ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ,
- ٧١ - لويس , برنارد : الحشاشون , تعريب : محمد موسى , مكتبة مدبولي , ط ٢ , القاهرة , ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م .
- ٧٢ - مؤنس , حسين : تاريخ المغرب (دول المرابطين والموحدين والحفصيين) دار العصر الحديث , بيروت , ١٤١٢هـ/١٩٩٢م , ج ٢ .
- ٧٣ - المدور , مروان : الأرمن عبر التاريخ , منشورات مكتبة الحياة , ط ١ , بيروت , ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م .
- ٧٤ - مصلح , حفظ الله : العلاقات بين المغول والصليبيين وأثرها على الأمة العربية الإسلامية , رسالة ماجستير غير منشورة , جامعة دمشق , ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .
- ٧٥ - المطوي , محمد : السلطنة الحفصية , دار الغرب الإسلامي , بيروت , ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- ٧٦ - _____ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب , دار الغرب الإسلامي , بيروت , ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م .

- ٧٧- المهندس ,محمود : البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، المطبعة الأميرية ، ط١ , بولاق ، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م ، ج ٣ - ج ٤ .
- ٧٨ - نجم , زين الدين : معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية, ط١, د.م , ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .
- ٧٩ - النقاش ,زكي : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية , دار الكتاب اللبناني , ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .
- ٨٠ - هلال ,عادل : العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي , دار عين , ط١ , مصر , ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- ٨١ - هندي , إحسان : الحياة العسكرية عند العرب , مطبعة الجمهورية , دمشق , د.ت .
- ٨٢- _____ الأسلحة وآلات القتال عند العرب المسلمين في القرون الوسطى , مركز الدراسات العسكرية , دمشق , ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .
- ٨٣- اليوسف , عبد القادر : علاقات بين الشرق والغرب , المكتبة العصرية , بيروت وصيدا , ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
- ٨٤ - يوسف ,جوزيف : لويس التاسع في الشرق الأوسط , دار المطبوعات الحديثة , ط٢, د.م , ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .
- ٨٥ - _____ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى , دار شباب الجامعة , الإسكندرية , ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- ٨٦ - _____ العدوان الصليبي على بلاد الشام , دار النهضة العربية , بيروت , ١٤٢١هـ/١٩٨١م .
- ٨٧ - _____ تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها , مؤسسة شباب الجامعة , الإسكندرية , ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .
- ٨٨- _____ العدوان الصليبي على مصر, دار النهضة , بيروت , ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

قائمة المراجع الإنكليزية

- 1 - **Archibald , Lewis**: nomands and crusaders , Indiana ,
Bloomington , 1991.
- 2 – **Davies , Norman** : Euroup a history , new york , 1977.
- 3 - **Encyclopaedic history of wourld civilization** : New delhi ,
1992 , volume16 .
- 4 – **Fedden , Robin**: crusaders castles , London , 1955.
- 5 – **Gabrieli , Francesco** : Arab historians of the crusades ,
London , 1969 .
- 6 - **Holt , P.M** : the age of the crusade , London ,1986 .
- 7 – **Irwin , Robert** : the middle east in the middle ages (the early
momluk sultanate 1250-1382) ,London ,
1986 .
- 8- **Kedar, Benjamin**: the franc in the levant 11-14 centuries ,
Britain , 1993 .
- 9 - _____ crusade and mission , united states of
america , new jersey , 1984 .
- 10 - **Lawrence , T . E** : crusader castles , London , 1992 .
- 11- **Maier, Christoph**: preaching the crusades , cambridg , press.
- 12- **Mayer, Hanas**: the crusades ,new York , 1988 .
- 13 - **Mont , John** : feudal monarchy in Jerusalem , Amrica ,

1932 .

- 14- **Murray , Alan** : Jerusalem from Clermont to the crusades ,
Brepols , 1998 .
- 15 – **Nicolle, David** : arms and armour of the crusading , New
yourk , 1988 .
- 16 - **Setton , Kenth** : a history of croisades , London , volume2 .
- 17– **Stevenson , W . B** : the crusaders in the east , Beirut , 1958 .
- 18 - **S mil , R. C**: the crusaders , new yourk , 1972 .
- 19 - **The Cambridge history of islam** : New yourk and
London , 1970 , volume 1 .
- 20 - **The encyclopaedia of islam** : London, 1997 , volume 9 .
- 21 - **The new encyclopedia Britannic**: Paris and London and
Tokyo, volume 29 .
- 22 – **Tibble , Steven** : kingdom of Jerusalem , oxford , 1989 .
- 23 - **Thorau , Peter** : the lion of Egypt sultan baybars,Londn and
New york ,1978.
- 24 – **Wrong , George** : Britain history , London .

قائمة المراجع الفرنسية

- 1 – **Aziz , Philippe** : histoire de la franc , Paris , 1981, volume 3 .
- 2 - **Brellier , Louis** : L, eglise et L orient au moyen age(les croisade),paris,1921 .
- 3 - **Brentano , Funck**: les croisades , france , 1934 .
- 4 - _____ le moyen age la croisade d , Egypt , Paris .
- 5 - **Collier encyclopedia** : new York , 1985 , volume 10 .
- 6 - **Dagen , Nadeije** : les grandes batailles , Paris , 1997 .
- 7 - **Delort , Robert** : les croisades , seuil , 1988 .
- 8 – **Didier , Jean**: les homes et leur histoire , larousse ,volume 5.
- 9 – **Edde , Anne** : la principaute ayyoubide d,alep , Paris , 1955 .
- 10 - **Encyclopedia alphabetque** : Italie,volume15.
- 11 - **furon , Raymond**: la perse , Paris , p1938 .
- 12- **Gabrieli , Francesco** : chroniques du craisades , Paris , 1977.
- 13 - **Grousset , Rene** : histoire des croisades et du royaume franc du Jerusalem , Paris , 1936 , volume 3 .
- 14 – **Hakky, Ihsan**: L,enseignement sous les Ayyubides et les premiers Mamluk en Syrie et Egypt , these de doctorat , volume3.
- 15 - **Iorga , Nicolas** : France de chypre ,Paris ,1931 .
- 16 – **khader , Bichara** : l,Europe la Palestine des croisades ,

- 17 - **Labrune , Gerard et Toutain , Philippe** : L,histoire de France , Nathan , 1986 .
- 18 - **Lamy , Etenne** : france du levant ,Paris , 1900 .
Genneve ,2004 .
- 19 – **Maurice , Chehab** : Tyr des croisades , Paris , 1979.
- 20 - **Michaud , M** :biblioteque des croisades , Paris ,
1829 ,volume4 .
- 21 –**Michelet , J** : l, histoire de france , paris , 1988.
- 22 – **Miquel , Pierre** : l , histoire de France , Geneve , 1995.

- 23 - **Pernoud , Regine** : la femme au temps des croisades , Paris ,
1990 .
- 24 – **Rice , D.S** : le baptistere de sant Louise ,Parise,1951.
- 25 – **Sarkis , Hassan** : L,histoire de Tripoli de sa saregion des
croisades , Paris , 1980 .
- 26 - **Smith , Jonathan**: les croisades , paris , 1990 .
- 27 – **Stambouli , Raymond** : les clefs de jeresalem (deux
croisades des francaises en Egypt) , Paris
, 1991 .
- 28 - **Tate , Jeorges** : L ,orient des croisades ,1991 .
- 29 – **Villeneuve , M** : sant Louis en orient , Paris , 1909 .

قائمة المواقع الالكترونية (إنترنت)

- 1 - <http://www.nndb.com/peopel/231/00009292> .
- 2 - [http : // www . newadvent . org / cathem /. 9368a . htm](http://www.newadvent.org/cathem/.9368a.htm) .

